جنة الرضا

في التسليم لما قدر الله وقضى

تأليف

أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي

المتوفى سنة ٨٥٧هـ

تحقيق

الدكتور صلاح جرار

المجلد الأول

دعم من الجامعة الأردنية

دار البشير

للنشر والتوزيع

جنة الرضا

في التسليم لما قدر الله وقضى

٢١٤ر٢٥١

غرن الغرناطي، ابو يحيى بن عاصم . . . - ٨٥٧هـ.

جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى/ابو يحيى

محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق صلاح جرار. - عمان :

دار البشير، ١٩٨٩.

جـ ١ (٣٢٤) ص

ر.أ. ١٢٨/٢/١٩٨٩

١ - الاسلام - القضاء والقدر. ٢ - غرناطة -

تاريخ - القرن السادس عشر. أ - صلاح جرار، مترجم. ب - العنوان.

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

مركز جوهرة القدس التجاري
العبدلي
عمان - الأردن

دار البشير للنشر والتوزيع

هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨)
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

Jerusalem Jewel center
AL-Abdali
Amman - Jordan

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708)
P.O.Box. (182077) / (183982)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب: جنّة الرضا في التسليم لِما قدّر الله وقضى، من تأليف أبي يحيى محمّـد بن عاصم الغرناطي، أثرٌ عِلميٌّ أندلسيٌّ نفيس، ترجع أهمّيتُه إلى العوامل التالية:

١ ـ افتقارِ المكتبةِ الأندلسيّة إلى مصادر أدبية وتاريخية تغطّي الفترةَ الزمنيةَ التي يتصدّى لها هذا الكتاب، وهي الفترة الممتدَّةُ من أوائل القرنِ التاسعِ الهجريّ حتى منتصفِ العِقْدِ السادس منه.

٢ ـ أنّ هذا الكتاب يقدِّمُ معلوماتٍ تاريخيةً نادرة عن مملكةِ غرناطة النصريّة في الحقبةِ الزمنيّة المشارِ إليها، وهي معلوماتٌ تفصيليةٌ لا نَقَعُ عليها في أيّ مصدرٍ تاريخيّ عربي آخر. ومما يزيد من قيمة هذه المعلومات أن ابنَ عاصم ـ مؤلف الكتاب ـ كان شاهد عيانٍ للأحداثِ التي تصفها هذه المعلومات، وكانت له مشاركةٌ فاعلةٌ في تلك الأحداث بسبب مكانتِه السياسية المرموقة.

٣ ـ يحتـوي الكتـابُ معلومـاتٍ نادرةً عن أعلام تلك الفترة التاريخية من السلاطين والوزراء والقادة والأدباء، مما لا نقع عليه في أيّ مصدر عربي آخر.

٤ ـ يشتمِلُ الكتابُ على جوانبَ كثيرة من سيرةِ المؤلّف نفسه، ويتحوّل في كثيرٍ من صفحاتِه إلى ما يشبه السيرةَ الذاتية.

٥ ـ يعطي الكتابُ صورةً واضحةً عن أدب ابن عاصم، وذلك لاشتماله على رسائلَ وأشعارٍ للمؤلف.

٦ ـ يحتوي الكتاب نقولاً واقتباساتٍ من كتبٍ ورسائلَ داخلةٍ في عداد الأعمال التراثيّة الضائعة.

٧ ـ وللكتابِ قيمةٌ إنسانيّةٌ سامية، لأنّ مؤلفه رمى إلى مساعدةِ مَنْ داهمهم الزمانُ بصروفه ومصائبه، فقدّم لهم النصائح، وأرشدهم إلى السُّبُلِ التي تخفّف من وطء المِحَن التي تحيقُ بهم، وعزّاهم بما أصاب سابقيهم ومعاصريهم من تلك المحن والابتلاءات.

وتَجْدُرُ الإشارةُ إلى أن المعلوماتِ التاريخيّةَ والأدبية وغيرها مما نقع عليه في هذا الكتاب ليست مقصودةً لذاتها، وإنما أوْرَدَها المؤلِّفُ في سياق معالجته لموضوعٍ فريدٍ ـ أيضاً ـ هو موضوعُ المِحَنِ والابتلاءات التي يتعرض لها الأفراد والدول، وبيان سُبُلِ مواجهتها وضرورة أخذِ العبرة منها، ولذلك نراه يحشِدُ رواياتٍ وأقوالاً وأخباراً تاريخية مشرقية وأندلسية، يحلّلها ويعقِّبُ عليها ويجعلُها في خدمة آرائه. لكنّه يعامل الأخباو الأندلسية ـ التي عاينها ـ معاملةً خاصة، فيفرد لها، بعد الحديث عن كلّ صورةٍ من صُوَرِ الابتلاءات، ما جرى على تسميته بـ «خاتمة الصورة»، وفي تلك الخواتيم يستطرِدُ المؤلِفُ ويتوغّل إلى تفصيلات دقيقة عن الحوادثِ التاريخيّة حتى يكاد يخرج عن موضوعه. وفي هذه الخواتيم تتجلّى القيمةُ التاريخيةُ لهذا الكتاب.

وعلى ذلك، فكتابُ جنّةِ الرضا، كتابٌ في الأدبِ والتاريخِ والأخلاقِ والسياسةِ والعقيدة، وهو كتابٌ فريدٌ في بابه.

ويسرّني، وأنا أقدّم هذا الكتاب، أن أتوجه بأوفر الشكر إلى الجامعة الأردنية التي قدّمت لي الدعم اللازم لإنجاز هذا البحث.

ويسعدني أن أنوّهَ بالمساعدة التي قدّمها لي الأستاذ محمد العربي الخطابي، محافظُ الخزانةِ الحسنيةِ في الرباط، فقد زوّدني بنسخةٍ مصوّرةٍ عن مخطوط «جنة الرضا» وقَدَّمَ لي معلوماتٍ عن حالةِ ذلك المخطوط.

أما أخي وصديقي الدكتور محمد أبو الأجفان القيرواني، الأستاذُ بالكليةِ الزيتونيةِ للشريعةِ وأصولِ الدّين في الجامعةِ التونسية، فلستُ أراني قادراً على تأديتِه حقّه من الشكرِ والامتنان والوفاء، فقد كان، حفظه الله، أشدَّ حِرْصاً منّي

على تحقيق هذا الكتاب ونشره، وطالما حثّني على متابعة العمل وإنجازه، وقد كان لتشجيعه أكبرُ الأثرِ في ظهور هذا الكتاب، وكان يزوّدني بكتبه ومؤلّفاته وما يقع عليه من أخبارٍ وإشاراتٍ عن كتاب «جنة الرضا». وتجدرُ الإشارة إلى أن معظمَ مؤلفات صديقِنا الدكتور محمد أبو الأجفان يختصُّ بالتراث الأندلسي في القرن التاسع الهجريّ، مثل رحلة القلصادي (ت ٨٩١ هـ)، وبرنامج المُجاري (ت ٨٦٢ هـ)، وغير ذلك من الدراساتِ والكتبِ المحقّقة والمصنّفة.

ولا يفوتني أن أُسجّلَ الشكرَ الجزيل للصديق الدكتور جاسر أبو صفية، الذي فتح لي بابَ مكتبته الخاصّة على مصراعيه فأفدتُ كثيراً من نفائِسِها، وخصوصاً في تخريج الأحاديثِ النبويّةِ الشريفة.

وإلى كل من أعـانني في إخراج هذا الكتاب، بنصحٍ أو إرشاد أو تشجيع، أقدّمُ خالصَ الشكرِ والتقدير، وأسألُ الله أن ينفعَنا بهذا العمل، ويُلْهِمنا التوفيقَ والسدادَ.

المحقق

الأوضاعُ السِّياسيَة في عَصْر المؤلف

الأوضاع السياسية في عصر المؤلف

وِلد مؤلفُ «جنة الرضا» في حوالي نهاية القرنِ الثامنِ الهجريّ وبداية القـرنِ التاسع، وصادفت ولادته انتهاء عهدِ الاستقرار السياسي في مملكة غرناطة، ودخولَ ذلك البلد في سلسلة من الفتن المتصلة والمتلاحقة لم تنتهِ إلا بسقوطها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م في أيدي الإسبان. وكان قَدَرُ ابن عاصم أن يشهد كثيراً من أحداث تلك الفتن، ويبذلَ جهوداً عظيمة في جمعِ الكلمةِ وتأليفِ القلوب، ورصّ الصفوف في مواجهة الإسبان الذين كانوا ينتظرون الفرصةَ المناسبة للإجهاز على غرناطة واحتلالها.

وقد دخلت مملكة غرناطة عهدَ الانحلال السياسي بعد وفاة الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م، إذ خلفه على عرش غرناطة ابنُه يوسف الثاني[1]. إلا أن هذا الأخير لم يعش طويلاً فتوفي في السنة التالية ٧٩٤ هـ / ١٣٩٢م. وولي العرشَ بعده ابنُه محمد السابع الذي كان أكثرُ اعتماده في تسيير زمام الأمور في مملكة غرناطة على قائده محمد الخصاصيّ[2].

وفي عهد محمد السابع سنة ٧٩٩ هـ وقعت معركةٌ قبالة جبل طارق بين

---

(١) ـ نفح الطيب ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩، درّة الحجال ٢ / ٢٧٧، العبر لابن خلدون ٤ / ٣٨٤، صبح الأعشى ٥ / ٢٦٣، الاستقصاء ٤ / ٨١.

Dominion of the Arabs in Spain Vol. III, P. 294

(٢) ـ نفح الطيب ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩، العبر لابن خلدون ٤ / ٣٨٤، الاستقصاء ٤ / ٨٢، صبح الأعشى ٥ / ٢٦٣، ويورد ابن اياس في بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٤٧٠) أن يوسف بن الأحمر توفي سنة ٧٩٦ هـ.

السفن القشتالية من جهة وسفن المسلمين (الأندلسيين والتونسيين والتلمسانيين) انتهت بهزيمة المسلمين وتدمير سفنهم[1].

ومن أجل الأخذ بالثأر أغار محمد السابع على مدينة جيّان وغيرها، واستمر الطرفان يُغيرُ كلٌّ منهما على أراضي الآخر، إلى أن توصلا إلى توقيع معاهدة صلح[2]. وفي سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٨م غزا محمد السابع مدينة بيّاسة Baesa [3]، وبعد ذلك بقليل توفي السلطان المذكور وخلفه أخوه يوسف بن يوسف ويُعْرفُ بيوسف الثالث[4].

وفي عهد يوسف الثالث وقعت على أهل غرناطة هزيمةٌ كبيرة في أنتقيرة Antequera سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م وقد سقط في هذه المعركة أبو يحيى بن عاصم المعروف بالشهيد وهو عم مؤلّف جنّة الرضا[5].

وفي سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م توفي يوسف الثالث وخلفه على العرش ابنه محمد الذي عرف بمحمد الثامن[6]. وتختلف المصادر التاريخية فيما إذا كان محمد هذا هو الذي لقّب بالأيسر أم غيره. أما كوندي Condé في كتابه:

---

(١) - Dominion of the Arabs in Spain Vol. III, P. 300, the

درّة الحجال ٣ / ١٢٦ ,Reconquest of Spain P 168

History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 496.

(٢) .. Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 300 - 301, History of the Moorish Empire of Europe,

Vol. III, PP. 497 - 498.

ويذكر ابن اياس في بدائع الزهور (ج١ ق٢ ص ٤٧٦) أن هذه الحوادث وقعت سنة ٧٩٨ هـ.

(٣) - لقط الفرائد لابن القاضي ٢٣٦.

(٤) - لقط الفرائد ٢٣٦، درّة الحجال ٢ / ٢٨٣،

Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP 302 - 303.

(٥) - نيل الابتهاج ٢٨٥، درّة الحجال ٣ / ٣٤٣، وانظر المخمسة التي نظمها يوسف الثالث بهذه المناسبة (ديوان يوسف الثالث ص ٧٠ - ٧٢). وانظر أيضاً بدائع الزهور ج١ ق٢ ص ٨١٠.

(٦) - Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 307 - 309.

«Dominion of the Arabs in Spain» فإنّه يسميه محمد بن نصر بن يوسف ويلقبه بالأيسر El - Hayzari ويقول بأنه سُمي كذلك لأنه كان يستخدم يده اليسرى، ويشير أيضاً إلى أنهم ربّما سمّوه بالأيسر لسوء حظّه في الملك(١).

ويذهب ليفي بروفنسال Levi Provençal في الموسوعة الإسلامية إلى أن محمد الثامن هذا هو الملقب بالأيسر(٢). وتذهب راشيل آرييه R. Arie إلى الرأي ذاته في متن كتابها(٣): «L Espagne musulmane au temps de Nasrides» لكنها في القائمة الملحقة بكتابها لملوك بني نصر تورد بأن الذي عُرِف بالأيسر هو محمد التاسع(٤).

وقد حَكَمَ محمد بن يوسف المذكور مملكة غرناطة من سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م إلى أن تمّ خلعُه سنة ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م من قبل محمد بن نصر(٥).

ويؤكد لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena في كتابه «Muhammad Ix Sultan de Granada» أن محمد بن نصر المذكور هو محمد التاسع وأنه هو الذي حمل لقب الأيسر (El Zurdo) (٦). وقد نصّ السخاوي أيضاً في كتاب «الضوء اللامع» على أنّ محمد بن نصر هو الذي لُقِّب بالأيسر(٧). ومما يؤكد ذلك أيضاً ما ورد في عهد الولاء الذي بعث به يوسف بن المول النصري لخوان الثاني ملك قشتالة، عندما ثار سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م على محمد الأيسر، فقد نصّ يوسف المذكور على أن محمد الأيسر قد كان ثار على أبي عبد الله محمد

---

(١) ـ المصدر السابق ٣ / ٣٠٩

(٢) ـ Levi Provençal, EI, III, 878 art. «Nasrids»

(٣) ـ الصفحتان ١٣١، ٤٥٠ من كتاب آرييه.

(٤) ـ الملحق رقم «١» من كتاب آرييه.

(٥) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 19 - 23

(٦) ـ المصدر السابق ص ٢٧.

(٧) ـ الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.

ابن يوسف بن نصر (محمد الثامن) واستولى على ملكه(١). وإلى هذا تذهب معظم الدراسات الحديثة، فتدعو الغالب بالله أبا عبد الله محمد بن نصر بن محمد بن يوسف، الأيسر وتسميه محمد التاسع(٢).

ومع أن أبا يحيى بنَ عاصم الغرناطي قد أرّخ في كتابه «جنّة الرضا» لعصر سلطانه الأيسر إلا أنّه لم يذكر لنا نسبه كاملاً وإنما اقتصر على تسميته «السلطان الغالب بالله أبو عبد الله بن نصر» وقد ذكر ذلك في مواضع كثيرة، ولعله لم يفصل في نسبه خشية أن يُظَنَّ أنه يُلْحِقُه بالمغمورين. وكذلك فإن ابن عاصم لم يذكر لقب سلطانه «الأيسر»، ولعله تحاشى ذلك ترفّعاً عن ذلك وإجلالاً للسلطان، ولولا أن ابن عاصم أغرق في إفاضة الألقاب السلطانية التمجيدية على سلطانه وآباء سلطانه، ولولا أنه كان يكتفي بالإشارة إلى كُنى هؤلاء الآباء(٣) ـ وهي كنى متشابهة لا تكاد تخرج عن أبي عبد الله وأبي الحجاج ـ لما أعيانا التعرف على اسم السلطان الغالب بالله ونسبه.

وقد حكم الغالب بالله محمد بن نصر الأيسر غرناطة خمس مرات، وفي كل مرّة كانت تقوم عليه ثورة يُخلع على إثرها ثم يعود إلى عرشه(٤). وعلى

(١) ـ وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري، نشرها محمد عبد الله عنان في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد / مجلد ٢ / ١٩٥٤م / ص ٣٨ ـ ٤٥.

(٢) ـ انظر أيضاً: البسطي آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بن شريفة ص ٤٧.

(٣) ـ انظر أمثلة على ذلك في الصفحتين ١١٢، ٣٢٥ من صفحات الأصل المخطوط لجنة الرضا.

(٤) ـ تورد بعض المصادر والدراسات التاريخية أن محمد الأيسر قد ولي عرش غرناطة ثلاث مرات فقط (انظر: الضوء اللامع ١٠ / ٦٨، إنباء الغمر ٣ / ٥١١، Inscripciones arabes de Granada, Emilio Lafuente, PP. 80 - 81 (Madrid, 1859), Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 323, History of the Moorish Empire of Europe Vol III, P. 504.)

ويورد لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena في كتابه عن محمد التاسع أخبار فترات أربع فقط من حكم محمد الأيسر (التاسع). ولكن المعلومات التي يوردها ابن عاصم في كتاب جنة الرضا تؤكد أن محمد الأيسر قد حكم مرة خامسة.

ذلك فإن عهد محمد الأيسر تواصلت فيه الفتن والاضطرابات السياسية، وظلت هذه الفتن متصلة حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م.

وكان سلطان قشتالة خوان الثاني Juan II يعمل على تأجيج هذه الفتن، ويزيد في اضطرامها بمختلف الأساليب، وذلك كي يتسنى له بسط سيطرته على مملكة غرناطة، وقد بسط أبو يحيى بن عاصم، مؤلف جنّة الرضا، ذلك في رسالته التي خاطب بها أهل غرناطة على إثر انتهاء فتنة أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر ابن أخت الأيسر سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٨م(١). وهذه الرسالةُ ذاتُ قيمـة فائقـة لأنها تصوّر حالَ غرناطة وطبيعةَ الصراع بين أهلها وبين القشتاليين خيرَ تصوير.

وقد ولي محمد الأيسر عرش غرناطة أول مرة عام ٨٢٢ هـ / ١٤١٩م واستمر في الحكم إلى أن خلعه محمد الثامن (محمد بن يوسف بن يوسف) المعروف بالصغير (El - Pequeno) سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٧م واعتلى محمد الصغير عرش غرناطة للمرة الثانية، بمساعدةٍ من عائلة الثغري (al - Zegri) (٢) وهرب محمـد الأيسـر إلى تونس وأقـام في كنف السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي، واستطاع، بمساعدة ملك تونس، وملك قشتالة خوان الثاني، وعائلة بني السرّاج أن يستردَّ عرشَه وذلك بعد سنتين من خَلْعِه عنه(٣).

ولما تربّع محمد الأيسر على العرش للمرّة الثانية جاءه خوان الثاني ملك

---

(١) ـ انظر نص هذه الرسالة في الصفحات من ٢٧٦ ـ ٢٨٧ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 27 - 38, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 310 - 311, History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 503.

وانظر: بدائع الزهور ٢ / ١١٢.

(٣) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 41 - 51, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 313 - 315, History of the Moorish Empire of Europe, Vol. III, P. 504. «Ibn Al - Sarradj» by J. D. Latham, in EI, III, 930.

وانظر: الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.

قشتالة يطالبه بإعلان ولائه لقشتالة لقاء المساعدة التي قدّمها له لاسترداد عرشه، ولكن محمد الأيسر رفض هذا المطلب فقام خوان الثاني بمهاجمة مملكة غرناطة، وتمكن بعد معركة عنيفة من الاستيلاء على حصن أوريوله Higueruela وذلك في سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م(١).

ومن الحوادث التي وقعت في عهده أيضاً ثورة يوسف المدجَّن، وهو رجلٌ من المتصوفة كان له أتباع كثيرون، صنعوا سفناً وآلاتٍ حربية وهاجموا بعض أرباض غرناطة في حدود سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م ودعوا إلى مبايعة يوسف المدجّن، ولما تصدّى له جيش السلطان هرب ليلاً فتبعه بعض الفرسان وقتلوه، واستمرَّ أتباعه يقولون برجعته بعد موته، وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما مُلِئَتْ جوراً(٢).

وفي هذه الأثناء كان البلاط القشتالي يقوم بإعداد ثورة على محمد الأيسر يقودها يوسف بن محمد بن المول. وقد تمكن يوسف بن المول من خلع محمد الأيسر سنة ٨٣٥ هـ / ٣١ كانون أول / ١٤٣١م، وفر هذا الأخيرُ إلى مالقة(٣). وما أن نجح يوسف بن المول في خلع السلطان السابق حتى كَتَبَ عهداً إلى الملك القشتالي خوان الثاني الذي كان يحاصر بجيشه مدينة غرناطة، يُعْلِنُ فيه ولاءه للملك القشتالي، ويتعهد بتحرير الأسرى النصارى في غرناطة، وبدفع جزيةٍ سنوية لملك قشتالة مقدارُها عشرون ألف دينار ذهباً، وبتقديم ألف فارس وخمسمائة فارس غرناطي لملك قشتالة لمحاربة مَنْ نازَعَهُ من

(١) ـ إنباء الغمر ٣ / ٤٥٨، وانظر: بدائع الزهور ٢ / ١٣٨ ـ ١٣٩،
Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 316 - 317, Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 93 - 118.

(٢) ـ جنة الرضا ص ٥٥ ـ ٥٦ من الأصل المخطوط، وقد ورد هذا الخبر مختصراً في بدائع السلك لابن الأزرق الغرناطي ١ / ١٣٩.

(٣) ـ جنة الرضا ص ٤٥ ـ ٤٦، ص ١٠٤ ـ ١٠٦، من الأصل المخطوط، Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 118 - 123. Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 320 - 321.

النصارى أو المسلمين. . . إلى غير ذلك من التعهدات[1].

أما محمد الأيسر فقد أخذ يعمل من مدينة مالقة لاسترداد عرشه، مستمداً العون من أبي فارس ملك تونس ومن أهل مالقة ومن الفونسو الخامس Alfonso V ملك أراغون الذي كان على عداءٍ مع قشتالة[2]. وقام يوسف بنُ المول بتوجيه حملة إلى مالقة إلا أن الفونسو الخامس ملك أراغون قام بمساعدة محمد الأيسر[3]. وعلى إثر ذلك تقدمت قواتُ محمد الأيسر من مالقة وبلّش نحو العاصمة فتصدّى لهم جيشٌ كبيرٌ من القشتاليين عند جبال إلبيرة Elvira فوقعت الهزيمةُ على القشتاليين[4]. وبينما يذهب كوندي Conde في كتابه[5]: «Dominion of the Arabs in Spain» إلى أن يوسف بن المول قد توفي بعد ستة أشهر من اعتلائه العرش، نجد ابنَ عاصم مؤلفَ جنّة الرضا والذي كان كاتباً للسر في مملكة غرناطة[6] يفصّل لنا الطريقة التي تم بها قتل يوسف بن المول بعد دخول الأيسر إلى قصر الحمراء فيقول واصفاً اختفاءه ثم العثورَ عليه[7]:

«ونَقَّبَ عنه في الأماكنِ المُغْفَلة، وَعَزَمَ على استقراء منازلِ الحمراء بالكَبْسِ والتفتيش مكاناً مكاناً. . . . إلى أن جدّوا في التنقير عنه، وَوَقَفَتْ بهم

(١) ـ انظر نص هذ العهد في: وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري نشرها محمد عبد الله عنان / صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد / مجلد ٢ / ١٩٥٤م / ص ٣٨ ـ ٤٥.

(٢) ـ جنة الرضا ١٠٤ ـ ١٠٦ من الأصل المخطوط، الضوء اللامع ١٠ / ٦٨.

Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 124 - 125,

(٣) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP 126 - 127

(٤) ـ جنة الرضا ١٠٤ ـ ١٠٦ من الأصل المخطوط، Muhammad IX Sultan de Granada, P. 130

(٥) ـ ٣ / ٣٢٣.

(٦) ـ جنة الرضا ص ٤٥ ـ ٤٦ من الأصل المخطوط.

(٧) ـ جنة الرضا ١٠٦ من الأصل المخطوط.

الإشارةُ من كثيرٍ ممّن اقتفْوا أثرَه في حالِ الحادثة، ظانّاً أنّه ممن سَلَكَ في تلك الدارِ مِنْ نِسْوةٍ متلفّعاتٍ بمروطهن آتياتٍ إليها في تلك الحال، فصدق ظنُّه، وأُلفِيَ في مخدعٍ صغير، أو خِزانةٍ مُتَّخَذَةٍ في عرضِ الحائط، مُسْبَلٍ عليها حصيرُ الحائط المعدِّ له بما يُوهِمُ أنْ ليس هناك شيء إلا لمن يعرفُه سابقاً، فَقَضَى الله نَحْبَه، وفرّج الأزمةَ، وتَدارَكَ الأمَّةَ وشفى من الغمّة».

ويشير ابن عاصم أيضاً إلى أن عودة محمد الأيسر إلى الحمراء وتغلّبَهُ على يوسف بن المول قد تمت بمساعدة حافِده (ابن أخته) أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر[1].

وتسنَّمَ محمدُ الأيسر العرشَ للمرة الثالثة في سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م. وواصل تصدِّيَهُ للثورات والمكائد والمؤامرات التي كان يحيكها ملكُ قشتالة ضد غرناطة، وفي الوقت ذاته استمرّ محمد الأيسر في التصدّي لهجمات القشتاليين التي يقومون بشنها بين الحين والآخر على غرناطة وأراضيها بهدف بسط سيطرتهم عليها: وقد استطاع القائدان أبو اسحق ابراهيم بنُ عبد البَرّ وأبو القاسم محمد بن السَرَّاج إلحاقَ عدةِ هزائمَ بالإسبان في مدينة أرشذونة Archidona ووادي آش Guadix ومرج غرناطة La Vega de Granada واشكر Huescar وغيرها[2].

إلا أن هذه الانتصارات لم تستطع أن تمنع سقوطَ عددٍ من الحصون والمواقع الإسلامية المهمة في أيدي القشتاليين؛ فسقط جبلُ طارق سنة

---

(١) ـ نفسه ١٠٦. يقول لويس سيكو دي لوثينا إن محمد الأعرج El - cojo هو الذي مكّن للأيسر من الأمر وهو الذي أعدم ابن المول.

Muhammad IX, P. 131 - 132.

(٢) ـ انظر تفصيلات هذه الحوادث في:

Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 135 - 179, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 324 - 330.

٨٣٦ هـ / ١٤٣٣م لكنّ المسلمين تمكنــوا من استــرداده ثانية(١). كمـا استــولـى الإســبـان على حصن اللّقـون Alicun القــريب من وادي آش في الـسـنـــة ذاتـهـــا(٢)، كمـــا استـــولـــوا على حصـــون أخـــرى كثيرة وذلـــك في إطـار الحملة الـرئيسية التي شنّـهـا القـائـدُ القشتـاليّ جومث دي ريبيرا Gomez de Ribera ضد مملكة غرناطة(٣).

وقد أفاد القشتاليون في شنّ هذه الحملات والغارات المتواصلة ضد مملكـة غرناطة من أمرين: **أوّلهما** المعاهدة التي عُقِدَت بين قشتالة ونافار وأراغـون؛ فقد أوقفت هذه المعاهدةُ النزاعات بين هذه الولايات الإسبانية الثلاث - ولو مؤقتاً(٤). **وثانيهما**: استمرار النزاعات الداخلية في مملكة غرناطة بسبب أطماعِ الأمراء النصريين من أبناء الأسرة المالكة في عرش المملكة(٥).

وقـــد كانت المعـــارك في بادىء الأمـــر سجـــالاً بين المسلمين والقشتـــاليين، لكنّهـــا تحـوّلت بين سنتي ٨٣٩ هـ - ٨٤١ هـ (١٤٣٦ - ١٤٣٨م) لصـالـح الـقـشـتـــالـيين الـــذين تمـكـنـــوا من الاسـتيلاء على حصـــون بلّش Velez وغـــليرة Galera وقـــسـطيلية Castileja وجـــبـــل طارق Gibraltar وبـــنـــي موريل Benamourel وأولـــبـــة Huelma وبـــشـــيش Bexix وغـــيرهـــا، كمـــا أعـــلـنـــت مدينـــة بسـطة Baza ومدينة وادي آش Guadix ولاءهما للبلاط القشتالي(٦). وعلى أثر ذلك وقّعَ

---

(١) - البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٧٠،

Dominion of the Arabs in Spain. Vol. III, P. 326.

(٢) - البسطي آخر شعراء الأندلس ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 145 - 157.

(٤) - المرجع السابق ص ١٣٧.

(٥) - جنة الرضا ١٠٦ - ١١٤ من الأصل المخطوط.

(٦) - انظر تفاصيل الاستيلاء على هذه المدن في:

Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 171 - 179.

محمد الأيسر معاهدةً مع قشتالة تبدأ مُدَّتُها في ١٥ إبريل ١٤٣٩م وتنتهي في ١٦ إبـريل ١٤٤٢م.(٨٤٢ - ٨٤٥ هـ)[١] وفي هذه الأثناء اجتاح غرناطةَ وباءُ الـطاعـون وأتى على كثير من أهلها من العلماء وغيرهم، وذلك سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠ - ١٤٤١م)، وخـرج كثير من النـاس إلى مدينـة مالقـة هرباً من هذا الوباء[٢]. وأمام هذه الأوضاع المتردّية في غرناطة أرسل محمد الأيسر بسفرائه إلى سلطان المماليك جقمق بأكثر من رسالة، يوضح فيها تكالب الإسبان على غرنـاطـة ويطالب سلطان المـماليك بتقـديم مساعدات عسكرية لغرناطة ولم تتمخض هذه السفارات إلا عن بعض المساعدات المحدودة في العُدّة والأموال[٣].

وفي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م انقضت مدةُ معاهدة الصلح التي عقدت بين غرنـاطة وقشتالة سنة (٨٤٢ هـ / ١٤٣٩م)، وأرسل محمد الأيسر سفيره ابراهيم بن سعيد الأمين للتفاوض من أجل تجديد المعاهدة، إلا أن هذا السفير تأخرت عودتُه أكثر من سنة كاملة فتشوشت النفوسُ عليه، ووقعت شكاياتٌ من

(١) - المرجع السابق ١٩٠.

(٢) - رحلة القلصادي ٨٤، ٨٧، ٩٠، نيل الابتهاج ٢٠٧، وقد ألف عمر الزجال المالقي الذي شهد وقوع الوباء مقامة في أمر الوباء يدعو فيها السلطان محمد الأيسر إلى التوجه إلى مالقة هرباً من الوباء. والمقامة مؤرخة في ربيع الآخر ٨٤٤ هـ (أزهار الرياض١ / ١٢٥ - ١٣٢).

(٣) - انظر قصة إحدى هذه السفارات في: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤)، للدكتور عبد العزيز الأهواني. نشرها في مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة / المجلد ١٦ / ١٩٥٤م ص ٩٥ - ١٢١، وأعاد الدكتور محمد رضوان الداية نشرها في كتاب: آخر أيام غرناطة ص ١٤٥، وانظر نص إحدى الرسائل التي وجهها محمد الأيسر إلى السلطان جقمق في كتاب: المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الدكتور أحمد درّاج / ص ١٧٨ - ١٨٠. أما الأخبار عن هذه السفارات والمراسلات فانظر السلوك للمقريزي (أحداث سنتي ٨٤٣، ٨٤٤)، الضوء اللامع ٥ / ٦٧.

الطرفين على الطرف الآخر[1]، وبعد مراسلات بين السلطان القشتالي والسلطان الغرناطي تم الاتفاق على تجديد المعاهدة لمدة سنة أُخرى تنتهي في ١٥ / إبـريل / ١٤٤٣م[2]. وبناءً على طلب السلطانِ الغرناطيّ محمد الأيسر وافق خوان الثـاني على تمـديد فترة المعاهدة حتى ١٥ / إبريل / ١٤٤٦م (٨٤٩ هـ)[3]. ويبدو أن السلطان القشتالي قد وافق على تجديد مدة المعاهدة بسبب تجدُّدِ الصراعات الداخلية في قشتالة[4].

ويشير ابنُ عاصم في «جنة الرضا»[5]، إلى هذا السلم بقوله: «فمن ذلك أنَّ مسالمةَ هؤلاء النصارى المجاورين كانت قد انعقدت على إتاوةٍ اقتضاها أزْمُ ذلك الزمان وشدةٌ لاحقةُ النِفاق، وقد كان الخروجُ عنها بعيدَ التصوّر، صعبَ المُتنَـاول، غيرَ مُـمْكِن الحصـول، لاغتباطِ الخاصّةِ بما كان قد تهيّأ لها من السِّلْمِ وعدم ثقتها بما لحق الطاغيةَ من الوهن، واستمرارِه على التمويه بالقوّة على الحرب، فلولا أن حالتَه انجَلَتْ بالفتنة على أنْ لا طَمَعَ له بما شغله الله به منها في الدفاعِ عن حَوْزته، ولا الكفاح عن ملّته لوَقَفَ النَظَرُ بالخاصّ والعام على إيثارِ سِلْمه».

وفي سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٥م ثار ابن أخ للسلطان الأيسر واسمه محمد ابن عثمان الأحنف أو الأعرج (El Cojo) وكان والياً لمدينة المريّة، وسار بجيش من المريّة واحتلّ غرناطة ودخل الحمراء، ونصَّبَ نفسه سلطاناً على غرناطة. وخلع محمد الأيسر للمرة الثالثة[6].

---

(١) ـ انظر رسالة محمد الأيسر سنة ٨٤٦ هـ إلى خوان الثاني في موضوع الشكايات وموضوع تأخر السفير الغرناطي (آخر أيام غرناطة ١٧٢ ـ ١٧٤).

(٢) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, P. 199.

(٣) ـ نفسه ص ٢٠٠

(٤) ـ نفسه ص ٢٠٠ Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 327.

(٥) ـ ص ٢٧١ من الأصل المخطوط.

(٦) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 200 - 201, Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 327 - 328.

وتختلف الروايات فيمن ثار على محمد الأحنف El Cojo بعد ذلك؛ فبينما يذهب كونـدي Conde إلى أن الأميرَ أبـا الـوليد اسمـاعيل بن الأحمر ابنَ عمّ الأحنف جاء من قشتالة بدعوة من القائد أبي اسحق ابراهيم بن عبد البَرّ وخلع الأحنف[1]، يذهب لويس سيكو دي لوثينا Luis Seco de Lucena إلى أن الذي ثار على محمـد الأحنف سنة ١٤٤٥ م هو يوسف بن أحمد بن نصر وأن محمد الأحنف قد استردَّ عرشَه منه سنة ١٤٤٦م[2]. ولكن المعلومات التي يقدّمها ابنُ عاصم في «جنّة الرضا» تبين أن محمد الأيسر كان ملكاً على غرناطة عندما قام ابن أخته يوسف .بن أحمد بن نصر بالثورة عليه سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م[3]. وأن ثورة أبي الوليد اسماعيل قد وقعت بعد ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م[4]، وهذا يعني أن محمد الأيسر ربما كان قد استرد عرشه للمرة الرابعة من محمد الأحنف. أما تسلسلُ الحوادث التاريخية بعد استرداد الأيسر عرش غرناطة للمرة الرابعة فقد جاءت مفصَّلَةً في كتاب «جنّة الرضا».

فقد وقع نفور بين السلطان محمد الأيسر وابن أخته أبي الحجاج يوسف ابن أحمد بن نصر، وكان بينهما قبل ذلك من المودّة أعظم ما يكون بين خالٍ وحافده، فانتبذ يوسف بالسكنى في قرية خارج غرناطة وعلى بعد فرسخين منها تدعى قرية واد. وعند ذلك أخذ المفسدون يسعون بين يوسف وبين خاله محمد الأيسر بالنمائم، وكان من بين هؤلاء المفسدين الوزير عليّ بن علّاق. ولما رأت الحرّة فاطمة، أخت محمد الأيسر ووالدة يوسف، أن الأمور قد تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه فقد نصحت ولدها أن يقبل بالسكن في مدينة المرية على أن يكون قائداً لقصبتها. وقد نجحت في ذلك. واستمر ولدها قائداً لقصبة المرية عدة سنين، لكن السعايات استمرت بين محمد الأيسر وابن أخته إلى أن استحكمت

(١) - Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, PP. 328 - 336.

(٢) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 205 - 210.

(٣) - جنة الرضا ص ١٠٦، ٢٧٠ من الأصل المخطوط.

(٤) - جنة الرضا ص ٥٧ - ٥٩ من الأصل المخطوط.

أسباب الوحشة بينهما، وأعلن يوسفُ الثورةَ، ووقعت مواجهاتٌ عسكرية بين الطرفين وسار محمد الأيسر بجيشه إلى مدينة المريّة وحاصرها أكثر من شهر إلى أن ضعف أصحاب السلطان محمد الأيسر وانقسموا على أنفسهم واختلفت آراؤهم، فاضطر محمد الأيسر إلى فك الحصار والعودة إلى غرناطة، وفي أثناء العودة تلقى أخبارَ قيامِ أهلِ غرناطة عليه مؤيدين ليوسف بن أحمد بن نصر، وكذلك قيام أهل وادي آش، فواصل سيره بالجيش نحو غرناطة وتمكن من الوصول إليها «في أخبار - يصفها ابن عاصم - يطول شرحُها ويُملُّ استقصاؤها». ويظهر أن السلطان محمد الأيسر لم يتمكن من دخول العاصمة فتوجه إلى مالقة وأقام فيها يترقب الفرج(١).

ومن مقرّه الجديد في مالقة يأخذ السلطان محمد الأيسر بإرسال الحملات العسكرية إلى غرناطة، وقد تمكن جيشُه من هزيمة جيش يوسف المستولي على غرناطة في موقعة بلغش خارج غرناطة(٢)، لكن محمد الأيسر لم يكد يفرحُ بهذا النصر حتى ورد نبأٌ بثورة أهل بلّش وذكوان ورُنْدة ثم ثار أهلُ مالقة عليه، فهرب من مالقة إلى اليرة وبنيرة فآواه أهلهما، ثم قرّر محمد الأيسر الاعتزالَ وخَلْعَ نفسِه حتى لا تستمرّ الفتنة(٣). واشترط أن يُسْمَحَ له بالإقامة في الدار الكبيرة بالحمراء، فوافق السلطان يوسف على ذلك وأسكنه في الحمراء وأقطعه «مشرط شلوبانية ومترايل لقبا شمسياً وفائدة قيادية، وربما مُسْتَخْلِصاً بجرْيِ نفعِها الزرعيّ مَنْ اعْتَلَقَ بحُرْمَتِه من مولىً وحاشيةٍ وصنيعة»(٤)، ويسمي ابن عاصم هذا الحادث «اعتقالاً» ويقول عنه بأنه «كان اعتقالاً مرهوبَ العاقبة محذورَ الغائلة مسلوكاً به في الظاهرِ مَسْلَكَ المبرّة، مظنوناً به في الباطنِ يُخْشى المضرة،

(١) - جنة الرضا ص ١٠٦ - ١٠٨ من الأصل المخطوط.

(٢) - جنة الرضا ص ١٠٨ من الأصل المخطوط.

(٣) - نفسه ص ١٠٩ من الأصل المخطوط.

(٤) - نفسه ص ١٠٩.

للاستظهار عليه بالعيون المترقّبة والحَرَسَةِ المتنطّسة، وقبولِ السعايات المرخوفة وتجوّز الممالأة المزوّرة»(١).

وقد انتهت حوادثُ هذه الفتنة باعتلاء السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر عرش غرناطة سنة ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م(٢)، وتلقب بالمؤيّد بالله لقباً سلطانياً(٣).

وبعـد أن تولى هذا السلطان عرشَ غرنـاطـة بدأ يشنُّ الغـاراتِ على القشتـاليين، وتمكَّنَ من استرجـاع عددٍ من الحصـون التي استـولى عليهـا القشتاليون بعد ثورة ابن المول سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م. ومن هذه الحصون التي فتحها المسلمون حصن النَّجَش، استخلصه القائد العباس بن علي بن حميد بعد أن مات عليه أخوه عيسى، ووادي المنصورية (المنصورة) وحصن البريج من أسفل الوادي المذكور ومدينة بطللس بلّس فتحها أحمد بن الوزير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البر فنهض إليه من وادي آش، والقائد أبو الحجاج يوسف بن فرج بن كماشة نهض إليها من بسطة، والأحْسَنُ الشريف(٤). ثم لما عَزَلَ السلطانُ أبو الحجاج يوسف بن أحمد وزيرَه عليَّ بن علّاق فتح المسلمون حصن بني سلمة وكُرْتُش وغليرة وقسطلة وأُشْكَر وحصنَ السكة، واشترك في فتح هذه الحصون أبو اسحق ابراهيم بن عبدالبرّ وأبو القاسم بن السراج وأبو السرور مفـرج بن فَتّـوح، وكـانت بعض هذه الحصـون تابعـة لبعض أمـراء الإسبان المعاهدين للسلطان أبي الحجاج فتحها ابراهيم بن عبد البر مُراغَمَةً للسلطان يوسف(٥). ثم فتح حصن قوج وحصن الطورون وغار أبي زيد وحصن ابرونه(٦).

---

(١) ـ نفسه ص ٢٧٠.

(٢) ـ نفسه ص ١٠٩ وانظر أيضاً. Muhammad IX Sultan de Granada, P. 207.

(٣) ـ المرجع السابق ص ٢٠٧.

(٤) ـ جنة الرضا ص ٢٧١.

(٥) ـ نفسه ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٦) ـ نفسه ٢٧٣.

«فرجع الله هذه الحصون كلها، على هذه الحالة من الفرقة ومُراغَمَةِ الجهة المستخلصة للأخرى»[1].

وبعد أربعة أشهر من اعتلاء السلطان يوسف عرش غرناطة جاء الرئيس أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر الذي كان مقيماً في قشتالة يريد الثورة على أبي الحجاج، فوصل إلى حصن قَنْبيل Cambil إلى الشمال من غرناطة «فنجم الخلاف وتواترت إلى جهته الشرّاد وكثر بالحضرة الإرجاف»، فأسند السلطان يوسف أمر الوزارة إلى أبي القاسم محمد بن يوسف بن السرّاج عوضاً من عليّ ابن علاّق، فسدّ ابن السرّاج الثغور «وبثّ العطاء في الجند وأجمل مواعد الناس، وتوقفت تلك الحال، ونَزَعَ عن الفتنة الكثيرُ ممن اشرأبَّ إليها، وعاد الرئيسُ إلى أعماق قشتالة آيساً مما كان قد أشرف عليه من نُجْحِ القصد»[2].

وبعد ذلك جرى اعتقال أبي القاسم بن السرّاج ويوسف بن فرج بن كماشة[3]. وقام جيش السلطان يوسف بالهجوم على وادي آش للقبض على ابراهيم بن عبد البر لكن الدفاع الذي أظهره هذا القائد وأهل وادي آش حال دون اعتقاله.

وبعد حين أرسل القائدُ ابن عبد البَرّ في طلب الرئيس اسماعيل من قشتالة وجاء الرئيس اسماعيل إلى وادي آش[4]، وعندما سمع السلطانُ يوسف بذلك فرَّ من الحمراء باتجاه المريّة مستصْحِباً لابني عميّه والقائدين المعتقلين أبي القاسم بن السرّاج وابن كُماشة ومعه أهلهُ وذووه وأصحابهُ واستقرّ بالمريّة. أما محمد الأيسر الذي كان يقيم في الحمراء فقد انحاز إلى بلدة شلوبانية مع أهله وخاصته واستقر بها[5]. وكادت أن تقع فتنةٌ عظيمة لولا موتُ السلطان يوسف سنة

(١) - نفسه ٢٧٣

(٢) - جنة الرضا ١٠٩، ١١٠.

(٣) - جنة الرضا ص ١١٠، ٢٧٠

(٤) - جنة الرضا ص ١١١، Dominion of the Arabs in Spain, Vol. III, P. 328.

(٥) - جنة الرضا ص ١١١.

٨٥١ هـ[١]. وبعد ذلك عاد السلطان الغالب بالله محمد الأيسر إلى عرش غرناطة للمرة الخامسة «والأُلْفَةُ قد حصلت والفُرْقةُ قد ارتفعت والدولةُ الغالبية قد تجدّدت، واستقر منها كلُّ ذي ولاية في محلّ ولايته»[٢].

ولما انتهت الفتنة وعاد محمد الأيسر إلى عرشه بادر بتوجيه الغزو إلى أراضي القشتاليين بقيادة صهره محمد ابن ابن عمه، «فأبعد الغارة إلى مَوْسَطَةِ بلادِ الحرب ووالى إقامةَ الليالي . . . تِباعاً في نِكاية أحزاب الكفر، وقاد السَّبْيَ الذي بَعُدَ العهدُ بمثله وتطاولت الأزمنة السالفة دونَ المشاهدةِ لبعضِه فكيفَ بكُلّه!»[٣]. فهاجم جيّان وساق منها غنائم كثيرةً، ثم غزا بيَّانة، ثم هاجم حصنَ أنتقيرة فأُشْكَر في الأرض المعروفة بالمرقجادة وهي من أراضي القوند اشطبل Condestable فزاد سبيُها على الألف، ثم هاجم مدينة ابن السليم Benzalema وقاد منها سبياً كثيراً وغنائم وافرة. وكان ذلك كلُّه في سنة ٨٥١ هـ / ١٤٤٧م[٤].

وفي سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م اعترض صاحبُ انتقيرة بموافقةِ سلطانه خوان الثاني ثلاثين من التجار المسلمين الذين يتّجرون مع دار الحرب وقَبَضَ عليهم ثم شنّ غارة على أحواز مدينة تاجرة، وأسر من وجد في طريقه من الرعاة والصيادين والفلاحين واكتسح ماشيتهم، فـ[ـنـ]ـدب أبو القاسم بنُ السرّاج وأبو السرور مفرّجُ بن فَتُّوح لمهاجمة اليسانة وأقلار واحتجاز رهائن من هاتين البلدتين تكفي لتحرير الأسرى المسلمين، ثم هاجم هذان القائدان مدينة انتقيرة فقتلا وأسرا وغنما كثيراً، وكمن المسلمون للجيش القشتالي عند موضع يقال له حجر العشّاق، فقتلوا وأسروا زهاء ستمائة منهم[٥].

وبعد ذلك بقليل أغار أهل انتقيرة من الإسبان على مدينة مالقة فتصدى

---

(١) ـ نفسه ص ١١٢.

(٢) ـ نفسه ص ١١٢.

(٣) ـ نفسه ١١٣.

(٤) ـ نفسه ١١٤ ـ ١١٥.

(٥) ـ نفسه ٢٧٤.

لهم القائد أبو اسحق ابراهيم بن عبد البر فأوقع منهم مائة وستين فارساً بين قتيل وأسير(١).

ثم نهض القـائد Juan Saavedra قائد قسطيلية إلى مدينة مربلّة، فأخفق سعيُه ووقع في الأسر واستولى المسلمون يومذاك على مدينة شِرّيش Jerez وذلك يوم الخميس الثـامن لشهر الله المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة(٢). وكانت هذه المدينة قد سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٣٤ هـ / ١٤٣١م(٣).

وبعد ذلك واصل القائدان أبو اسحق ابراهيم بنُ عبد البَرّ وأبو القاسم بن السرّاج شنَّ الغارات على أرضِ الحرب والتقيا مع القشتاليين في معركة عند موضع يقال له الخزائن في ظاهر مدينة مربلّة، وأسفرت المعركة عن قتل وأسر ستمائة فارس من الإسبان(٤).

وعلى إثْر هذه الانتصارات كتب ابنُ عاصم رسالته المشهورة «في قصد التنبيه على هذه اللطائف والإيقاظ لأرباب الدولة من الغفلة»(٥). وفي سنة ٨٥٢ هـ أيضاً انتشر الجرادُ في شرقيّ مملكة غرناطة، بصورة تعجز القدرةُ البشريّةُ عن مقـاومته، وكان انتشاره في وادي آش وبسطة وبيرة ووادي المنصورة وأُشْكَر، وأخـذ يتنـاسل ويتكاثر ويهدّد بانتشار المجاعة، فأخذ أهل أُشْكَر وبسطة في مقـاومته، فحفروا له أخاديد، وفتحوا عليه السواقي وداسوه بالأرجل، وبلغ ما داسوه في بسطة وحدها أربعة آلاف حِمْل، استخدموه بعد ذلك سماداً للأرض وكانوا يتغالون في أثمانه(٦).

---

(١) ـ نفسه ٢٧٥ .

(٢) ـ نفسه ١٥٢، ٢٧٥، Muhammad IX Sultan de Granada, P 215.

(٣) ـ Muhammad IX, P. 217.

(٤) ـ جنة الرضا ١٥٢، ٢٧٥ ـ ٢٧٦، Muhammad IX P. 215 - 216.

(٥) ـ نفسه ٢٧٦ ـ ٢٨٧ .

(٦) ـ نفسه ٧٢ ـ ٧٣ .

وفي هذه الأثنـاء تجدَّدَ النزاعُ بين نبلاء قشتالة فانتهز أهلُ غرناطة هذه الفـرصـة ودفعـوا بجيشهم إلى داخـل الأراضي القشتالية بحجة مساعدة أحد الطرفين ضد الطرف الآخر وذلك في أواخر سنة ١٤٤٨م، وأوائل سنة ١٤٤٩م[١].

وفي منتصف عام ١٤٤٩م / ٨٥٣ هـ أرسل محمد الأيسر إلى الملك خوان ملك نافار Navarra يقترح عليه إقامةَ حِلْفٍ بين أراغون ونافار وغرناطة من أجـلِ غزو أراضي قشتالة[٢]. وعلى إثر ذلك شنَّ أكثر من عشرة آلاف جنديّ غرنـاطي هجوماً على حصن مُنْتِيل Montiel وأخذوا على عاتقهم مساعدة الثوار القشتـاليين ضد قشتـالـة[٣]. وفي صدر سنـة ٨٥٤ هـ / أواخر سنة ١٤٤٩م اشتعلت في غرناطة فتنةٌ جديدة هي ثورة الرئيس اسماعيل[٤]، وقد اضطر محمد الأيسر بسبب هذه الثورة كما يبدو أن يوقف غاراته على أراضي قشتالة وأن يوقّع معـاهـدة صلح مدتهـا عامان مع القشتاليين سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م[٥]. أما الرئيس اسماعيل الذي ثار سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٤٩م فكان قد استقر في قشتالة منذ زمن طويل، وفي سنة ٨٥١ هـ فوّت على المسلمين فرصةً للنصر عندما ثار بوادي آش[٦]. ثم انتزى بحصن قمارش غربيّ غرناطة، وخاف الناسُ فتنته، وفي سنة ٨٥٤ هـ احتل مالقة، فاستنكر الناسُ كلُّهم هذه الثورة، لأنها كانت بتشجيعٍ من سلطان قشتالة الذي كان يعمل على تشتيت كلمة الغرناطيين، وقد هبّ العلماءُ والفقهاءُ يبيّنون للناس مخاطر هذه الثورة فانصرف الناس عنه، وقام

(١) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 217 - 218

(٢) ـ نفسه ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) ـ نفسه ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ويجعل كوندي هذه الأحداث في عهد محمد الأحنف.
(Dominion 3:330 - 331)

(٤) ـ جنة الرضا ٥٧، وفي كتاب لويس سيكو دي لوثينا عن محمد التاسع أن الثورة التي قامت في هذا التاريخ هي ثورة الأمير سعد ص ٢٢٠.

(٥) ـ Muhammad IX, P. 221.

(٦) ـ انظر جنة الرضا ص ١١١، Dominion of the Arabs, 3:328,

السلطان محمد الأيسر بتوجيه جيشه إليه، ففتح بلّش واستنزل من كان فيها من أصحاب الرئيس اسماعيل، ثم احتلّ جنة ابن سالم، ونزل شرقيَّ رابطة السُّعَداء، ثم فتح مالقة بعد أن كانت قشتالة قد استعدّت لنقض معاهدة الصلح بحجة مساعدة الرئيس اسماعيل، إلاّ أنّ استمرار النزاعات داخل قشتالة ومبادرة محمد الأيسر إلى التصدّي للرئيس اسماعيل فوّت على قشتالة فرصةً لغزو مملكة غرناطة. وبعد أن احتلّ محمد الأيسر قصبة مالقة وجبل فار Gibralfaro قَتَلَ اسماعيل وانتهت الثورة(1).

وبعد ذلك تتواصلُ الثورات ضدَّ محمد الأيسر بتشجيع من سلطان قشتالة، إلاّ أنّ أخبارَ هذه الثورات ونهايةَ السلطان محمد الأيسر لا تتوافر في المصادر العربية، وتختلف رواياتُها في المصادر الإسبانية. ولئن كانت هنالك بعضُ الإشارات إلى تولّي محمد الأحنف العرشَ مرة ثانية خلال هذه الثورات(2)؛ إلا أنه من الصعب الجزمُ بذلك. وسواء نجح محمد الأحنف في الاستيلاء على عرش غرناطة مرة ثانيةً أم لم ينجح، فإن هناك دلائلَ قويةً على أن محمداً الأيسر كان متربّعاً على عرش غرناطة إلى ما بعد ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م(3). لكنَّ هذا السلطان قضى السنواتِ الأخيرةَ من حكمه في صراع مرير

(1) ـ جنة الرضا ٥٧ ـ ٥٩.

(2) ـ عندما يتحدث كوندي في كتابه . . . Dominion of the Arabs عن حوادث هذه الفترة يقول إنها وقعت في عهد محمد الأحنف (٣ / ٣٣٠ وما بعدها).

ويورد الدكتور أحمد درّاج في كتابه «المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري» ص١٨١ نص رسالة مؤرخة في ١٣ / جمادى الأولى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١م) أرسلها محمد بن الأحنف سلطان غرناطة إلى أبي سعيد جقمق سلطان مصر.

وبما أن اسم المرسل غير مذكور في هذه الرسالة فلا نستطيع أن نجزم بصحة اجتهاد الدكتور أحمد دراج.

(3) ـ من هذه الدلائل أن اسم السلطان الأيسر قد ورد في نص الظهير الذي قدم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ (نفح الطيب ٦ / ١٥٧ أزهار الرياض ١ / ١٧٣).
وعندما يترجم عبد الباسط بن خليل في كتابه «الروض الباسم» للسلطان سعد بن الأحمر الذي =

ضد سعد بن الأحمر الذي ثار عليه ، وقدمت قشتالة مساعدتها ودعمها للأمير سعد رداً على تحالفِ محمد الأيسر مع أراغون ونافار ضد قشتالة ، وبدأ سعد الثورةَ في مالقة وأرجذو[2] Archidona[1]. واضطر محمد الأيسر إلى إرسال سفرائه إلى البلاطِ القشتاليّ لعقد اتفاقية سلام ، وفي شهر آذار من سنة ١٤٥٠م (أواخر ٨٥٤ هـ) وُقِّعَت الاتفاقية[2]. ولكنّ هذه المعاهدة أتاحت لملك قشتالة دَعْمَ ثورة سعد ، مما حدا بمحمد الأيسر بعد مرور سنتين على هذه المعاهدة أن يقوم بغزو انتقيرة وإسْطَبة Estepa وأُشُونة Osuna[3].

وفي ١٧ آذار / ١٤٥٢م (٢٥ صفر ٨٥٦ هـ) قاد الوزير أبو اسحق ابراهيم ابنُ عبد البر جيشاً قوامُه ١٦٠٠ فارس وستمائة من المشاة وغيرهم من المتطوعين ، ودخل بهم إلى أرض قشتالة من ناحية مرسية ووصلوا إلى مدينة لورقة Lorca ، والتقى الجيشُ الغرناطي مع القشتاليّين في موضع يقال له Alporchones يبعد ثمانية كيلو مترات عن لورقة ، وحدثت معركةٌ ضارية اضطرت ابن عبد البرّ إلى إصدار الأوامر لجيشه بالانسحاب ، ولكنه كان انسحاباً رهيباً لأن الجيش الغرناطي فَقَدَ مُعْظَمَ من كان فيه ، وعاد ابنُ عبد البَرّ إلى غرناطة بعدد قليل جداً ممن تبقّى معه ، ولم يحتمِلْ محمّد الأيسر وَقْعَ ذلك الخَبَر فأصدر أمره بقتلِ القائدِ ابراهيم بن عبد البَرّ[4].

وبعد هذه الهزيمة التي لحقت بالمسلمين ، وهذه القسوة التي مارسها محمد الأيسر نحو القائد الغرناطيّ ، شاع التذمُّرُ بين أهل غرناطة وخصوصاً بين

= ولي سنة ٨٥٨ هـ / ١٤٥٣ م يقول إنه «ملك بعد عمه أو قريبه الغالب بالله ابن الأحمر» (الروض الباسم ص ٣٢٧).

(١) - Muhammad IX Sultan de Granada, P. 220.

(٢) - نفسه ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) - نفسه ٢٢١.

(٤) - Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 222 - 224,

Dominion of the Arabs in Spain, III, PP 331 - 332.

أنصارِ الأيسر من بني السَرّاج، وزاد ـ بسبب ذلك ـ التأييدُ للأمير سعد الثائر في مالقة. وتزامن ذلك كلُّه مع المصالحةِ التي تمَّتْ بين قشتالة من جهة وأراغون ونافار من جهة ثانية. وأرسل سلطان قشتالة بجيشه لمناصرة الأمير سعد، ووقعت مجابهة بين جيش الأيسر من جهة والجيش القشتالي والثوار من جهة ثانية، أُجْبَرَتْ محمداً الأيسر ـ مع عَدَدٍ من أنصاره وفرسانه ـ على الهرب إلى جبل البشارات Alpujarras وأعلن سعد نَفْسَه ملكاً على غرناطة في أواخر سنة ١٤٥٣م(١).

ويقوم محمد الأيسر بعدّة محاولات لاسترداد عرشه في غرناطة عن طريق إرسال فرسانه وأتباعه لمهاجمة الحمراء، ولكنَّ محاولاتِه هذه كلّها انتهت بالفشل، وذلك في النصف الأول من سنة ١٤٥٤م / أواخر ٨٥٨ هـ، ورداً على ذلك أرسل السلطان سعد ابنه علياً بجيش صغير لمهاجمة محمد الأيسر، وبعد مواجهة قصيرة وَقَعَ محمّد الأيسر أسيراً وحُمِلَ إلى قصر الحمراء، وأمر السلطانُ سعد بتنفيذ حكم الموت فيه، وذلك في إحدى قاعات قصر الحمراء إلى يمين ساحة الأسود(٢).

ويتزامن موتُ محمّد الأيسر ـ على هذه الصورة ـ مع قتل أبي يحيى بن عاصم مؤلّف «جنّة الرضا»، مما يوحي أن هناك رابطةً بين قتل ابنِ عاصم وقَتْلِ سلطانه، كما سنبيّنه في الفصل المخصّص لسيرة ابن عاصم ـ إن شاء الله.

ويأتي ـ كذلك ـ موتُ محمّد الأيسر، وانتقال المُلْك إلى سعد، متزامناً مع موت ملك قشتالة خوان الثاني وتنصيبِ هنري الرابع ملكاً على قشتالة(٣).

---

(١) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP. 225 - 226.

Dominion of the Arabs in Spain, III, PP. 332 - 334.

ويذكر كوندي أن هذه الأحداث وقعت في سنة ٨٥٩ هـ (٣ / ٣٣٤).

(٢) ـ Muhammad IX Sultan de Granada, PP 226 - 227.

(٣) ـ Spain, Watts H. E. ,P. 258, Ed. London, 1893.

وهـذه الحوادث كلها تتزامن مع تصالح الولايات الإسبانية المختلفة، وسقوطِ القسطنطينية في أيدي العثمانيين، واستمرارِ التنازع على عرش غرناطة بين أفراد الأسرة المالكة، فيثور على سعد ابنُه عليّ ويثور على عليّ ابنه أبو عبد الله الصغير الذي تسقط غرناطة على عهده سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م. وعندما يتحدَّثُ عبدُ الباسط بن شاهين عن العائلة المالكة في غرناطة وثورات أفرادها بعضِهم على بعضٍ من أجـل عرش المملكة يقول «وهو غالبُ عادتِهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد والأحفاد»[١].

وعنـدمـا يتحدَّثُ صاحبُ «نفح الطيب» عن أسباب سقوط ذلك القطر «غرناطة» يقول «وكلُّ ذلك من اختلاف رؤسائه وكُبَرائه، ومُقدَّميه وقُضاته وأُمرائه ووزرائـه، فكلٌّ يروم الرياسة لنفسه، ويجرّ نارَها لقُرْصه، والنصارى يُضَرِّبون بينهم بالخداع والمكر والكيد ويَضْرِبون عمْراً منهم بزيد، حتى تمكّنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطارِفِ والتِلاد»[٢].

(١) ـ الروض الباسم ٣٢٧.

(٢) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧.

سيرة المؤلف

سيرة المؤلف

أ ـ اسمه وألقابه:

هو: أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي الأندلسي المالكي(1)، كان يعرف بـ «قاضي الجماعة»(2) وهو أشهر ألقابه، إلا أن ألقاباً كثيرة أُخرى وردت في المصادر المختلفة، فمن ذلك ما أورده صاحب نيل الابتهاج: «. . . . أبو يحيى العلّامة الحافظ النظار الوزير الجليل الرئيس المعظّم الكاتب الخطيب البليغ الشاعر الفصيح الجامع الكامل»(3).

ومن ذلك أيضاً ما أضفاه أبو العباس المقّري الذي يقول فيه «هو الإمام العلّامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ومالك خدم البراعة بالاسترقاق»(4).

ويقـول فيه أيضاً «الرائس القاضي العلّامة الكاتب الوزير»(5). ويسميه أيضاً «الوزير الرئيس الكاتب»(6). ويسميه «الشيخ الإمام العلّامة الفقيه الوزير

---

(1) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، طبقات المالكية / مجهول ص ٤٣٨، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨. وفي ايضاح المكنون ١ / ٣٦٩ يضيف المؤلف عبارة «القرشيّ» إلى اسم ابن عاصم.

(2) ـ المصادر السابقة.

(3) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(4) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(5) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧.

(6) ـ نفسه ٦ / ١٤٦.

الكـاتب»[1]. ويسميه في مكـان آخـر: «السيد الأستـاذ العلم الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب»[2].

ومن الألقـاب التي أضفـاهـا عليه مؤلف «شجـرة النور الزكية» قوله فيه «قـاضي الجمـاعـة الأستـاذ المحقّق العالم الحافظ النظّار المتحلي بالجلال والوقار، نخبة الأعيان، فريد العصر والأوان فصيح القلم واللسان، المتفنن، العمدة، الشهير، الوزير الخطير»[3].

ويلاحظ في هذه الألقاب أن معظمها مستمد من الوظائف التي تولاها ابن عاصم كالقضاء والوزارة والخطابة والكتابة والإفتاء والتدريس والإمامة وغيرها.

ب ـ مولده:

لم ينصّ أيُّ مصدرٍ من المصادر التي تحدَّثَتْ عن ابن عاصم على تاريخ ولادته. ولكنْ بالاستفادةِ من بعض المعطيات التاريخية التي أوردها ابن عاصم في كتابه «جنّة الرضا» يمكننا تحديد زمن تقريبي لتاريخ ولادته.

ومن هذه المعطيات قوله في «جنّة الرضا» في أثناء حديثه عن سجن والده أبي بكر بن عاصم سنة ٨١٤ هـ ما يلي:

«وكنتُ إذْ ذاكَ في زمنِ الحَداثة وعَدَمِ استحكام العقل»[4]، ولكنه في حديثه عن هربه واختفائه من أرباب الأمر[5]، أثناء سجن والده في السنّ المذكور يولّد لدى الباحث انطباعاً بأنه لم يكن حَدَثاً بالمعنى الدقيق، فهربُه واختفاؤه من السلطان يدلُّ على أنه كان في سنّ يجعل السلطان يحسب له حساباً، كما أن مبالغته في التخفّي وحرصَه على عدم افتضاح أمره يدلاّن على أنه كان بالغاً وأهلاً

---

(١) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠.

(٢) ـ نفسه ١ / ١٤٦.

(٣) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٤) ـ جنة الرضا، ص ٢٢٦ من الأصل المخطوط.

(٥) ـ نفسه ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

لتحمُّل المسؤولية، كما أن وصفه لصاحبه الذي آواه يدلُّ على أن ذلك الصاحب كان شاباً ناضجاً ولا يمكن أن يكون بين ابن عاصم وبين هذا الصاحب كبيرُ فرق في السن. ولعل وصفَ ابن عاصم نفسَه بحداثة السن وعدم استحكام العقل هو من قبيل التواضع ـ على عادته فيما يصف به نفسه ـ.

ومن هذه المعطيات يمكن تقدير سنّ ابن عاصم عندما جرى سجن والده بين الخامسة عشرة والعشرين.

وفي مكان آخر من كتابه «جنّه الرضا» يقولُ ابنُ عاصم: «ولقد رأيتُ في عالَمِ النوم الشيخَ أبا اسحق الشاطبيّ ـ رحمه الله ـ ولم أُدْرِكْهُ بسنّي»[1].

ونفهم من هذا القول أن ابن عاصم أضاف عبارة «ولم أدركه بسنّي» لكي ينفي ما قد يتوهمه المرء ـ من معاصريه أو غير معاصريه ـ من أن ابن عاصم قد أدرك الشيخَ الشاطبي، وهذا يدلُّ على أن ابن عاصم كان في سنٍّ تجعل الوَهْمَ بأنه أدرك في حياته أبا اسحق الشاطبي ممكن الوقوع، ولذلك فإنّ ولادته لو تقدمت قليلاً لأدرك الشاطبيَّ. ومعنى ذلك ـ وهذا ما يوحي به نصُّ ابنِ عاصم ـ أن المؤلف كاد أن يُدْرِكَ الشاطبي، وأنه على ذلك وُلِدَ بعد وفاة الشاطبيّ بقليل. والمعروف أن الشاطبي توفي سنة ٧٩٠ هـ[2] وعلى ذلك فإن ولادة ابن عاصم كانت بعد ٧٩٠ هـ. وإذا كانت سنه عند سجن والده سنة ٨١٤هـ تتراوح بين ١٥ ـ ٢٠ سنة، فإنه بذلك يترجَّحُ أن ولادته كانت بين ٧٩٤ هـ ـ ٧٩٩ هـ.

---

(١) ـ جنة الرضا ص ٣١ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ الشاطبي هو أبو اسحق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي كان يلقب بناصر السنة، وكان أصولياً مفسراً فقيهاً لغوياً، على قدم راسخ من الورع، وكان حريصاً على السنّة، أخذ عن الفخار الإلبيري وأبي القاسم السبتي وأبي القاسم بن لب. له مؤلفات شهيرة منها: الموافقات، الافادات والإنشادات، الاعتصام. أخذ عنه أئمة كثيرون. وتوفي سنة ٧٩٠ هـ (انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٤٦ ـ ٥٠، برنامج المُجاري ١١٦ ـ ١٢٢، درّة الحجال ١ / ١٨٢).

جـ - بنو عاصم :

ينتمي أبو يحيى بن عاصم إلى أسرةٍ مرموقةٍ في غرناطة كان لها دور بارز في النشاطات العلمية والأدبيةِ والسياسيةِ في عصر بني الأحمر، وقد أورد لنا أبو العباس المقّري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض نَصَّ ظهيرٍ سلطاني أُصدِر لأبي يحيى بن عاصم بتقديمه للنظر في أمور الفقهاء والقضاة سنة ٨٥٧ هـ. وقد جاء في بعض فُصولِ هذا الظهير إشارةٌ إلى الدور الثقافي الذي اضطلع به بنو عاصم في غرناطة، حيث نقرأ ما يلي: «ألا وإنّ بيتَه هو البيتُ الذي طَلَعَ في أُفقِه كلُّ كوكبٍ وقّاد ممن رَسَخَ به للعلوم اتّقاء واتّقاد، وترامى به للمداركِ ذكاءٌ وانتقاد، فأعظِمْ بهم أعلاماً وصُدوراً، وأهلّةً وبُدورا، خَلَّدَتْ ذكرَهُم الدواوينُ المسطرة، وَسَرَتْ في محامدِهم الأنفاسُ المعطّرة.. إلخ»[1].

وفي أبيات قصيدة أبي عبد الله محمد بن علي بن الأزرق المتوفى ٨٩٥ هـ في مدح أبي يحيى بن عاصم - صاحب جنّة الرضا - إشارةٌ إلى بيت بني عاصم حيث يقول[2]:

بيتٌ على عَمَـدِ الـفخـارِ مُطَنَّبُ   مَجْـدٌ على مَتْنِ السِمـاك مُؤسَّسُ

وقد كتب لويس سيكو دي لوثينا بارديس مقالة بعنوان: [3]

Luis Seco de Lucena Paredes

«Los Banu Asim intelectuales Y

Politicos Granadinos Del Siglo XV».

«بنـو عاصم العلمـاء والسياسيون الغرناطيون في القرن الخامس عشر» تحدث فيها عن أعلام هذه العائلة مشيراً إلى نشاطاتهم العلمية والسياسية.

ومن أعلام هذه الأسرة، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عاصم بن محمد ابن أبي عاصم القيسي، وهو خالُ الشاعر الغرناطي الشهير ابراهيم بن عبد الله

(١) - نفح الطيب ٦ / ١٥٨، أزهار الرياض ١ / ١٧٥.

(٢) - أزهار الرياض ٣ / ٣٢١.

(٣) - نشرت في مجلة Miscelanea de estudios arabes Y hebraices, Vol. 2, 1953, PP. 5 - 14.

ابن الحاج النميري الذي كان حيّاً سنة ٧٦٨ هـ[١]، وقد رثاه ابن أخته ابنُ الحاجّ النميري في قصيدة طويلة تدلُّ على أن ابن عاصم هذا كان فارساً وعالماً[٢]. ونفهم مما جاء في كتاب نيل الابتهاج[٣] أن خالد بن عيسى البلوي (ت. قبل ٧٨٠ هـ) صاحب الرحلة[٤]، أخذ العلم في غرناطة عن ابن عاصم هذا.

ومن أعلام هذه الأسرة أيضاً القائدُ العالِمُ أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم المعروف بالشهيد، لأنه استشهد في انتقيرة سنة ٨١٣ هـ أثناء قيادته لجيش المسلمين فيها. وأبو يحيى هذا هو عمُّ مؤلف «جنّة الرضا» وأحد شيوخه. وكان أبو يحيى هذا فقيهاً وخطيباً وكاتباً وصاحباً للأحكام في غرناطة، أخذ العلمَ عن أبي اسحق الشاطبي (ت. ٧٩٠ هـ) وعن شيخ الشيوخ أبي سعيد فرج بن قاسم بن لُبّ (٧٠١ - ٧٨٢ هـ) وغيرهما، وله تأليف كبير في الانتصار لشيخه أبي اسحق الشاطبي والردّ على شيخه أبي سعيد بن لُبّ في مسألة الدعاء بعد الصلاة. أخذ عنه عدد من علماء غرناطة، منهم أبو عبد الله المُجاري المتوفّى سنة ٨٦٣ هـ[٥].

---

(١) - نثير فرائد الجمان ٣١٣ - ٣١٨.

(٢) - انظر هذه القصيدة في نثير فرائد الجمان ص ٣١٤ - ٣١٨.

(٣) - نيل الابتهاج ص ١١٥.

(٤) - حققها وقدم لها: العلامه الحسن السائح، وطبعت في جزئين بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

(٥) - انظر ترجمة أبي يحيى بن عاصم الشهيد في برنامج المُجاري ص ١٢٦، ولقط الفرائد ٢٣٧، وفيات الونشريسي ١٣٧، درّة الحجال ٣ / ٣٤٣، نيل الابتهاج ٤٩، ٢٢٠، ٢٦٦، ٢٨٥ المعيار المعرب ٣ / ٢٤٣، ٤ / ٢٠٦، نفح الطيب ٥ / ٥١٣ - ٥١٤، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧. وله ترجمة في مخطوطة «مظهر النور الباصر» في الخزانة العامة بالرباط. رقم ٢٣ / ٢ وانظرْ ما كتبه عنه لويس سيكودي لوثينا باريدس في مقالته عن بني عاصم، وله أيضاً مقالة يعرف فيها بابن عاصم الشهيد تحت عنوان: «Una hazana de Ibn Asim identificada» في مجلة الأندلس Al - Andalus مجلد ١٨ / ١٩٥٣م ص ٢٠٩ - ٢١٠. وذكره أيضاً ابن إياس في بدائع الزهور وسماه عالم الأندلس (بدائع الزهور ج١ ق ٢ ص ٨١٢).

ومع أن بعض المصادر تذكر أن أبا يحيى بن عاصم الشهيد هو عمّ مؤلف «جنّة الرضا»(١) إلا أن صاحب «جنة الرضا» ينصُّ في هذا الكتاب نصّاً صريحاً على أن أبا يحيى بن عاصم الشهيد هو ابن عم والده(٢). ولئن كان صاحبُ نيل الابتهاج في ترجمته لأبي يحيى بن عاصم، ينقل من تقييدٍ لمؤلف جنّة الرضا، حيث يقول صاحب التقييد «وكان عمي أبو يحيى . . . »(٣) فإنني لا أستبعد أن يكون وصفه بأنه عمه لأنه في مكانة عمه من حيث السن والقرابة، فابن عمّ الأب يُخاطَبُ في أغلب الأحيان على أنّه عم. كما أنني أستبعد أن يكون اسم الأب: محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم وأن يكون اسم العم (أخي الأب) محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم، وأن يكون الاختلاف بينهما في الكنية فقط.

أما والد أبي يحيى بن عاصم ـ مؤلّف جنّة الرضا ـ فهو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الغرناطي، قاضي الجماعة في غرناطة، ولد عام ٧٦٠ هـ وتوفي عام ٨٢٩ هـ. عُيِّن سنة ٧٩٤ هـ كاتباً في الديوان مدة عام واحد(٤)، ثم رجع إليه مرة اخرى وبرّز في ذلك، وقد نبّه إلى ذلك الظهيرُ السلطانيُّ الذي قُدِّم بموجبه ابنه أبو يحيى بن عاصم للنظر في شؤون الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ حيث نصّ على ما يلي: «إذْ كان والدُه المقدَّسُ ـ نعّم الله ثراه ومنحه السعادةَ في أُخراه ـ مُشَرِّفَ ذلك الديوانِ ومُعْلِيَ ذلك الإيوان، يحبِّرُ رِقاعَ المُلْكِ فتروق، وتلوح كالشمسِ عند الشروق»(٥).

ويحدِثُنا أبو يحيى بنُ عاصم ـ في كتابه جنّة الرضا ـ أن والده قد تعرّض

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٤٩، ٢٨٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.
(٢) ـ جنة الرضا ص ٢٢٧ من الأصل المخطوط.
(٣) ـ نيل الابتهاج ص ٢٨٥.
(٤) ـ نفح الطيب، ٧ / ١٦٩، أزهار الرياض ٢ / ١٩.
(٥) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٩، أزهار الرياض ١ / ١٧٦.

للاعتقال الطويل الأمد، سنة ٨١٤ هـ[١]، ولكنه لم يبيّن لنا سبب ذلك السجن.
ويصف أبو بكر بن عاصم اعتقاله هذا قائلاً: [٢]

أَوْدَعــوني تَحْتَ الثَّـرى ونَسُـوني ... فمُــقــامــي فيه مُقــامٌ طويلُ
أنــا حيٌّ وحــالــتــي حالُ مَيْتٍ ... ليتَ شِعْـري هلْ للخـروجِ سَبيلُ
راحــةُ الــنــفسِ زَوْرَةٌ من خَليلٍ ... أو كتــابٌ وأينَ أينَ الــخــليلُ؟!
إنْ أرَتْــنــي الأيامُ غيرَ جمــيلٍ ... وأحــالَــتْ حالي فَصَبْــرٌ جمــيلُ
أو دَهَـتْني الخــطوبُ فالله حَسْبي ... مِنْ جميعِ الــوَرى ونِعْمَ الــوكيلُ

وكان عالماً في الفقه والأحكام واللغة والبلاغة والنحـو والمنطق والعرُوض والقـراءات والحســاب والفـرائض، وكـان ناثـراً ونـاظماً ويتقن تجليدَ الكُتب وتـذهيبَهـا[٣]، وقد أخذ العِلْمَ عن شيخ الشيوخ أبي سعيد فرج بن لُبّ مفتي غرنـاطـة[٤]، وأبي عبـد الله القيجـاطي الملقب بإمام الأدباء[٥]، وأبي اسحق الشاطبي المعروف بناصر السنة[٦]، وقاضي الجماعة أبي عبد الله بن علّاق[٧]

(١) ـ جنة الرضا ص ٢٢٦ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ نفسه، ٢٢٦.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٢٨٩.

(٤) ـ هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن محمد بن لُبّ، الفقيه الغرناطي المشهور، كان يلقب بشيخ الشيوخ، قل من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته. ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفي سنة ٧٨٢ هـ. (نيل الابتهاج ٢١٩، الديباج المذهب ٢٢٠؛ برنامج المُجاري ١٢٦، فهرس المنتوري ١١٢، درّة الحجال ٣ / ٢٥٦ ـ ٢٦٨، نفح الطيب ٥ / ٥١٣، الكتيبة الكامنة ٦٧، الاحاطة ٤ / ٢٥٣).

(٥) ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم الكناني القيجاطي، ولد سنة ٧٣٠ هـ وتوفي سنة ٨١١ هـ (نيل الابتهـاج ٢٨٢، درّة الحجال ٢ / ٢٨٤، فهرس المنتوري ١١٣، وفيات الونشريسي ١٣٧).

(٦) ـ سلفت الترجمة به.

(٧) ـ أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم بن علي بن علّاق الأمي الأندلسي الغرناطي حافظها ومفتيها وخطيبها وقاضي الجماعة بها، أخذ عن جماعة كالمنتوري والقاضي ابن سراج وأبي بكر=

وعن خاليه أبي بكر أحمد بن أبي القاسم بن جُزَيّ[1]، وأبي محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جُزيّ[2]. كما أخذ الشيخ أبو بكر بن عاصم والدُ المؤلّف عن الشريف أبي محمد عبد الله بن الشريف أبي عبد الله محمد التلمساني[3]، وأبي اسحق ابراهيم بن الحاج النميري[4]، وأبي الحسن علي بن محمد بن منصور الأشهب[5]، وأبي عبد الله محمد بن علي البلنسي[6]، ومحمد بن علي بن

= ابن عاصم، توفي سنة ٨٠٦ هـ (نيل الابتهاج ٢٨٢، لقط الفرائد ٢٣٣؛ درة الحجال ٢ / ٢٨٣، الضوء اللامع ٨ / ١٩٦؛ وفيات الونشريسي ١٣٥).

(١) ـ هو أحمد بن أبي القاسم محمد بن جزي الغرناطي، ولد سنة ٧١٥ هـ عمل قاضياً بغرناطة وخطيباً لمسجد السلطان وله شعر، وتوفي سنة ٧٨٥ هـ (الكتيبة الكامنة ١٣٨، الإحاطة ١ / ١٥٧).

(٢) ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي من أهل غرناطة، شاعر وعالم باللغة ولي القضاء ببعض جهات غرناطة، (الإحاطة ٣ / ٣٩٢ ـ ٣٩٩، نيل الابتهاج ١٥٤، نفح الطيب ٥ / ٥٤٠، الكتيبة الكامنة ٩٦).

(٣) ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الحسني (٧٤٨ ـ ٧٩٢ هـ) كان من أكابر علماء تلمسان، وكان مقرباً من السلاطين ومحبوباً من طلبته، وكان عالماً بالفتاوى واللغة والشعر، رحل إلى الأندلس ودخل غرناطة وأقرأ هناك، وتوفي أثناء انصرافه من مالقة إلى تلمسان غريقاً في البحر، وأثناء إقامته بالأندلس أخذ عنه عدد من علمائها منهم أبو بكر ابن عاصم (ترجمته في نيل الابتهاج ١٥٠ ـ ١٥٤؛ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ١١٧ ـ ١٢٠).

(٤) ـ أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن محمد النميري يعرف بابن الحاج، شاعر غرناطي مشهور ولد بغرناطة سنة ٧١٣ هـ، تولى كتابة الإنشاء في غرناطة سنة ٧٣٤ هـ، وله عدد من المؤلفات، منها رحلته الموسومة بفيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب. وقع سنة ٧٦٨ هـ أسيراً أثناء توجهه إلى تلمسان بالبحر. (الإحاطة ١ / ٣٤٢ ـ ٣٦٣؛ نيل الابتهاج ٤٤؛ نفح الطيب ٧ / ١٠٩؛ نثير فرائد الجمان ٣١٣، الكتيبة الكامنة ٢٦٠).

(٥) ـ توفي بفاس وكان أرسل إليها من تلمسان عام ٧٩١ هـ، وممن أخذ عنه بالأندلس أبو بكر بن عاصم وأبو جعفر البقني وغيرهما (نيل الابتهاج ص ٢٠٥، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٦) ـ نيل الابتهاج ٢٩٠.

الحفار الغرناطي[1] وغيرهم.

ولأبي بكر بن عاصم عدد من المؤلفات في موضوعات شتى، ومن هذه المؤلفـات أرجوزة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام[2]، وأرجوزة مَهْيَع الوصول في علم الأصول «أصول الفقه»، ومرتقى الأصول في الوصول، ورجز نَيْل المنى في اختصار الموافقات، وقصيدة ايضاح المعاني في قراءة الداني، (أو إيضـاح المعـاني في القراءات الثماني) وقصيدة الأمل المرقوب في قراءة يعقوب، وقصيدة كنز المُفَاوِضْ في علم الفرائض، وقصيدة إيضاح الغوامض في علم الفرائض، وأرجوزة الموجز في النحو (حاذى بها رجز ابن مالك) وكتاب حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة المضحكة والحكم والأمثال والحكايات والنوادر[3]. وكان أبو بكر هذا واحداً من شيوخِ أبي يحيى ـ صاحب جنّة الرضا[4].

أما عن أولاد أبي يحيى بن عاصم ـ مؤلّف جنّة الرضا ـ فلسنا نعرف عن أسمائهم أو عددهم شيئاً، وكلُّ ما نعلمه أنّه كانت له زوجة وأطفال صغار خلّفهم في غرناطة عندما هرب إلى مدينة مالقة سنة ٨٤٩هـ على إثر قيام إحدى الثورات في غرناطة، حيث يقول: «ولكنني لم أرَ موقفاً أشجى لوعةً ولا أعظم لي على من خلّفتُ روعةً مَن موقفي بطرف الفحص الأفْيَح المسمّى بالكنب جاغر ملتفتاً خلفي ومودّعاً مع أصاغر الذرية قلبي. . .»[5].

(١) ـ توفي عام ٨١١ هـ (ترجمته في نيل الابتهاج ٢٨٢).

(٢) ـ لها طبعات كثيرة عربية وأوروبية.

(٣) ـ طبع بفاس طبعة حجرية. وقد أنهى الدكتور عفيف عبد الرحمن تحقيقه وهو قيد النشر.

(٤) ـ ترجمة أبي بكر بن عاصم في: نيل الابتهاج ٢٨٩ ـ ٢٩٠، توشيح الديباج ١٢٦ ـ ١٢٧ (تحت اسم عمر بن عاصم)، درّة الحجال ٣ / ٨٩ (تحت اسم: عبد الرحمن بن عوف بن عاصم)، ١ / ٢١٩ (حيث يذكر أن وفاته سنة ٨١٩ هـ)، لقط الفرائد ٢٤٣. (يسميه: أبو بكر عبد الرحمن بن عوف بن عاصم)؛ كشف الظنون ١ / ٣٥٦، هدية العارفين ٢ / ١٨٥، نفح الطيب ٥ / ١٩ ـ ٢٢؛ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.

(٥) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦ من الأصل المخطوط.

ولأبي يحيى بن عاصم تقييدٌ عرّف فيه بأهـل بيته نَقَل منه صاحبُ نيل الابتهاج، ولو وصل إلينا هذا الكتاب لقدّم لنا بغض ما نجهله عن بيت بني عاصم[1].

د ـ شيوخه:

أما شيوخ أبي يحيى بن عاصم فكثيرون؛ وقد ذكرت المصادرُ جماعةً منهم هم: أبو الحسن بن سمعة وأبو القاسم بن سرّاج وأبو عبد الله المنتوري وأبـو عبد الله البيّاني، والشريف أبو جعفر بن أبي القاسم السبتي[2]، أما ابن سمعـة فهو أبو الحسن علي بن محمد بن سمعة الأندلسي الغرناطي العلاّمةُ المحقِّقُ الإمـامُ الفقيه النحـوي، أخذ عنه أبو يحيى بن عاصم ونقل عنه في مواضع من شرحه لمنظومة والده في الأحكام، ومن الذين أخذوا عنه أيضاً أبو عبد الله الراعي، الذي نقل عنه قوله: (شيئان لا يصِحّان: توبةُ الزمخشريّ من الاعتزال وإسلامُ ابراهيم بن سهل الإسرائيلي)، وذُكِرَ عنه أيضاً أنه كان لا ينطق بكلامٍ فيه فُحْش وأنه متى وجده في شعر بدّله[3].

أما ابنُ سرّاج فهو قاضي الجماعة بغرناطة أبو القاسم محمد بن يوسف ابن سرّاج الأندلسي الغرناطي، كان بارعاً في علوم كثيرة وأخذ عن شيخ الشيوخ ابنِ لُبّ وعن الأستاذ الحفّار والقاضي ابن علّاق، له فتاوى كثيرة توجد جملة وافـرة منهـا في المعيار المعـرب للونشـريسي، رحـل إلى تلمسـان ثم رجـع للأندلس، وأخذ عنه جماعةٌ من الأئمة الكبار منهم أبو يحيى بن عاصم وأبو عبد الله السـرقسـطي وابـراهيم بن فَتُّـوح والعـلاّمـة الـراعي وأبو عمرو بن منظور

---

(١) ـ انظر نيل الابتهاج ص ٢٨٥، ٢٨٩.

(٢) ـ ذكرت هذه الأسماء مجتمعة في نيل الابتهاج ٣١٣؛ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥؛ طبقات المالكية لمجهول ص ٤٣٨، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٣) ـ انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٢٠٧، نفح الطيب ٣ / ٥٢٤، وقد يرد اسمه بالتاء المفتوحة (ابن سمعت).

والمـوّاق[1]. ووقعت بينـه وبين عليّ بن موسى بن عبد الله اللخميّ البسطيّ القـربـاقي نزاعـاتٌ في مسـائلَ منها مسألةُ جوامعِ الأندلس المستقبِلة لجهه الجنوب[2]. وقد تعرّض ابنُ سرّاج للعزْل عن قضاء الجماعة أيام ثورة يوسف بن المول سنة ٨٣٥ هـ، ثم أُعِيدَ إليها[3]، وبعد قيام ثورة أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر سنة ٨٤٩ هـ تعرض أبو القاسم للاعتقال والسجن[4].

ويورد ابنُ عاصم في كتـابه «جنّة الرضا» أكثر من مرة قيام أبي القاسم المذكور بقيادة جيش غرناطة وتحقيق الانتصارات على القشتاليين[5]، واختلف في تاريخ وفاته، ففي الضوء اللامع للسخاوي أنّه توفّي سنة ٨٤٢ هـ[6]، وفي لقط الفرائد لابن القاضي أن وفاته كانت سنة ٨٤٧ هـ[7]، وفي مصادر اخرى أنه توفي سنة ٨٤٨ هـ[8]، بينما نلاحظ فيُ تواريخ الحملات العسكرية التي قادها أبو القاسم بن سرّاج ضد قشتالة أنّ بعضها قد وقع بين سنتي ٨٤٩ هـ و ٨٥٢ هـ[9].

وأما المنتوري فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن علي بن عبد الملك القيسي المنتوري إمام الإقراء المتوفّى سنة ٨٣٤ هـ. أخذ عن أبي عبد الله القيجاطي وأبي سعيد بن لُبّ وغيرهما. وأخذ عنه أبو يحيى بنُ عاصم ونقل

---

(١) ـ انظر نيل الابتهاج ٣٠٨، ثبت البلوي ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠. (تحت اسم: محمد بن محمد بن سراج)، توشيح الديباج ٢٦٨.

(٢) ـ نيل الابتهاج ٢٠٧.

(٣) ـ جنة الرضا ٤٥ ـ ٤٦

(٤) ـ نفسه ص ١١٠ ـ ١١١، ص ٢٧٠.

(٥) ـ جنة الرضا ١٥٢، ٢٧٤.

(٦) ـ الضوء اللامع ٧ / ٢٤٨ (تحت اسم محمد بن سراج بن محمد بن سراج أبو القاسم بن سراج عالم الأندلس).

(٧) ـ لقط الفرائد ٢٥١.

(٨) ـ نيل الابتهاج ٣٠٨، وفيات الونشريسي ١٤٣، درّة الحجال ٣ / ٢٨٢.

(٩) ـ جنة الرضا ١١٠ ـ ١١١، ١٥٢، ٢٧٠، ٢٧٤.

عنه في مواضع من شرح التحفة[1]، وله فهرسة كبرى[2].

وأما البيّانيّ فهو أبو عبد الله محمد بن محمد المتوفّى سنة ٨٧٦ هـ تلميذُ الإمـام أبي اسحق الشـاطبي، كان عالمـاً بالفقه والعربية والتفسير والقراءات والطبّ والرياضيات، ولي قضاءَ مدينةِ بَسْطة على كُرْه منه، وقام بأعباء الخَطابةِ والإمامة والإقراء والتدريس، أخذ عنه الوزير أبو يحيى بنُ عاصم ونقل عنه في شرح التُّحفة. وممن أخذ عنه أيضاً الشيخ أبو الحسن عليُّ بن محمد القَلَصادِيّ المتوفّى سنة ٨٩١ هـ بِبَسْطة[3].

وأما أبو جعفر التلمسانيّ الشريف فهو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن أبي القـاسم محمّـد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الشريف الحسنيّ السبتيّ ثم الغرناطي، أخذ عنه أبو يحيى بن عاصم ونقل عنه في مؤلفاته حيث يقول: «حَكَى لي شيخُنا القاضي أبو العباس الحسني»[4]، و «حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني[5]»، وأشار إليه ابن عاصم في «جنّة الرضا» وقال عنه «شيخنا القاضي أحمد بن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية أبي القاسم الحسني[6]. ولم أقف على تاريخ وفاته»[7].

ومن شيوخ أبي يحيى بنِ عاصم أيضاً أبو عبد الله محمد بن محمد بن

---

(١) - انظر ترجمته في نيل الابتهاج ٢٩١، توشيح الديباج ٢٠٧، درّة الحجال ٢ / ٢٨٧، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٧.

(٢) - ذكرت في درّة الحجال ٢ / ٢٨٧. وتوجد منها نسخة مخطوطة في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 1578

(٣) - نيل الابتهاج ٣٠٨، رحلة القلصادي ٨٥، الضوء اللامع ٦ / ١٤، البسطي آخر شعراء الأندلس ص ٢٢ - ٢٥ (ترجمة له معتمدة على ديوان عبد الكريم القيسي).

(٤) - نفح الطيب ٦ / ٢٧.

(٥) - نفح الطيب ٦ / ١٤٧.

(٦) - جنة الرضا ص ٤٦ - ٤٧ من الأصل المخطوط.

(٧) - ترجم له في نيل الابتهاج ص ٧٦ وذكره ابن خلدون في التعريف ص ٨٤.

علي بن عبد الواحد المُجاري المتوفّى سنة ٨٦٢ هـ، عالِمٌ في التجويد والقراءات ورحّالةٌ غرناطي[١] وله برنامج يَذْكُرُ فيه شيوخَه[٢]، وقد ذكره ابن عاصم في «جنّة الرضا» وسماه «الشيخ الأستاذ»[٣].

ومن شيوخ ابن عاصم أيضاً محمَّدُ بنُ عليّ بن عبد الملك الإلبيري الغرناطي شُهِر بابن مليح، قاضي غرناطة، نَقَلَ عنه ابنُ عاصم في شرحه على تحفة الحكام. وتوفي بعد سنة ٨٣٢ هـ[٤].

هـ ـ معاصروه وأقرانه:

تَذْكُرُ المصادرُ أسماءَ عددٍ من علماء غرناطة الذين عاصرهم ابنُ عاصم وكان على صِلةٍ بهم، ولعلَّ أشهرَ هؤلاء العلماء أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن محمد بن فَتُّوح العقيليّ المتوفى سنة ٨٦٧ هـ. كان عالماً أصولياً منطقياً إماماً خطيباً مفتياً ومدرساً في المدرسة النصريّة في غرناطة[٥]. ترجم له ابن عاصم في كتاب «الروض الأريض» وقال[٦]: «وكان صاحبنا أبو اسحق عالماً متفنناً محققاً نظاراً، وأستاذاً فوائدُ تدريسه لُجَيْنٌ ونضار، كلا بل جواهرُ ويواقيتُ ومناسك»... الخ.

(١) ـ ذكره البلوي في ثبته ص ١٦٤، ١٨٣، ١٩٠، ١٩٩، وصفحات أخرى. وترجم له السخاوي في الضوء اللامع ٤ / ١٨ وانظر في برنامج المُجاري، مقدمة المحقق ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) ـ حققه محمد أبو الأجفان / دار الغرب الإسلامي / بيروت / ١٩٨٢م.

(٣) ـ جنّة الرضا ص ٣٢.

(٤) ـ نيل الابتهاج ص ٢٩١.

(٥) ـ انظر ترجمته في: نيل الابتهاج ٥٣ ـ ٥٤، رحلة القلصادي ١٦٦، ثبت البلوي ١٨٨، ١٩٠، توشيح الديباج ٤٩، الضوء اللامع ١ / ٣٠، ١٥٧، نفح الطيب ٢ / ٧٠٠، أزهار الرياض ١ / ١٧١، شجرة النور الزكية ١ / ٢٦٠، درّة الحجال ١ / ١٩٦.

(٦) ـ أزهار الرياض ١ / ١٧١.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الغرناطي (٧٨٤ ـ ٨٦٥ هـ) من كبار المفتين في غرناطة، وكانت بينه وبين أبي يحيى بن عاصم مراجَعات ومنازَعات في مسائلَ فقهية مع التزام كلٍّ منهما حُسْنَ الأدب مع صاحبه شأن سادات العلماء[١]. وهنالك عدد من العلماء الذين شاركوا ابن عاصم في الأخذ عن شيوخه، ومن هؤلاء العلماء عليُّ بن أحمد بن داود البلوي (المتوفّى بعد ٨٦٦ هـ)[٢] وابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد البدوي[٣]، وعلي بن محمد القَلَصادي (توفي ٨٩١ هـ)[٤] وأبو عبد الله محمد ابن محمد بن محمد بن اسماعيل الراعي النحوي (توفي ٨٥٣ هـ)[٥]، والشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البسطي[٦] وغيرهم.

و ـ تلاميذه:

لم تذكر لنا المصادرُ إلّا عدداً قليلاً من أسماء تلاميذ أبي يحيى بن عاصم؛ ومن أشهر هؤلاء التلاميذ أبو عبد الله محمد بن علّي بن محمد بن الأزرق الغرناطيّ الأصل المالكي الأصبحي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ، لازم ابراهيمَ بن أحمد بن فتوح مفتي غرناطة في النحو والفقه والمنطق، وحضر مجالسَ أبي عبد الله محمد بن محمد السرقسطي في الفقه وغيره. كما أخذ عن قاضي الجماعة أبي يحيى بن عاصم وجالسه كثيراً وانتفع به. ووليَ قضاء غربيّ مالقة في أيام سعد بن علي بن يوسف بن نصر، ثم قضاءَ مالقةَ نفسِها، ثم قضاءَ

(١) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٥، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩، وانظر ترجمته في رحلة القلصادي ١٦٤، نيل الابتهاج ٣١٤ ـ ٣١٥، نفح الطيب ٢ / ٦٩٩، شجرة النور ١ / ٢٦٠.

(٢) ـ توشيح الديباج ١٣٠.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٥٣.

(٤) ـ نيل الابتهاج ٢١٠؛ الضوء اللامع ٥ / ٣٣٠، شجرة النور ١ / ٢٦١.

(٥) ـ وفيات الونشريسي ١٤٤؛ نيل الابتهاج ٣١٠؛ نفح الطيب ٢ / ٦٩٤، ٦٩٧، درة الحجال ٢ / ٢٩٠.

(٦) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٦.

الجماعة بغرناطة، سَفَر لأبي عبد الله الصغير عند ملوك المغرب عندما استولى الإسبانُ على غرناطة، وقد ارتحل إلى تلمسان بعد سقوط غرناطة ثم إلى المشرق[١]. وله قصيدة طويلة في مدح شيخه أبي يحيى بن عاصم[٢].

ومن تلاميذ أبي يحيى بن عاصم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد السلمي الجَعْدالة المتوفّى سنة ٨٩٧ هـ[٣]. ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم يوسف العبدري الشهيرُ بالموّاق المتوفى سنة ٨٩٧ هـ[٤] وأبو عبد الله محمد بنُ الحدّاد الوادي آشي نزيل تلمسان[٥].

ز ـ مناصبه:

ذَكَرَ صاحبُ نيلِ الابتهاج أن ابنَ عاصم قد وَلِيَ اثنتي عشرةَ خُطّة في وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابةِ والخَطابةِ والإمامة وغيرها مع إمامته وتقدمه في العلوم والفنون وتضلُّعه بالحفظ والتحقيق[٦]. ويُفْهَمَ من الألقاب التي أضْفيَتْ على اسمه أنه كان كاتباً ورئيساً للكتاب وخطيباً ووزيراً وشاعراً وناثراً وإماماً ومفتياً وقاضياً للجماعة وعالماً وفقيهاً[٧]. وتذكر المصادر أيضاً أنه كان من أكابر فقهاء غرناطة وعلمائها الجلّة ورؤسائها[٨].

(١) ـ الضوء اللامع ٩ / ٢٠ ـ ٢١، وانظر ترجمته أيضاً في توشيح الديباج ٢١٦؛ أزهار الرياض ٣ / ٣١٧ ـ ٣١٩؛ نفح الطيب ٢ / ٦٩٩.

(٢) ـ انظر هذه القصيدة في أزهار الرياض ٣ / ٣١٩.

(٣) ـ له ترجمة مفصلة في ثبت البلوي ١٩٦ ـ ٢٠٦. ويذكر البلوي في صفحة ٢٠٠ أنّ من شيوخ الجعدالة الإمام السني الشهيد أبو يحيى بن عاصم. وإنني أستبعد أن يكون المقصود هو ابن عاصم المتوفى سنة ٨١٣ نظراً لبعد العهد.

(٤) ـ درّة الحجال ٢ / ١٤١؛ الضوء اللامع ١٠ / ٩٨؛ شجرة النور الزكية ١ / ٢٦٢.

(٥) ـ نفح الطيب، ٧ / ١٠٣؛ أزهار الرياض ٣ / ٣١٧.

(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٧) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٨) ـ نيل الابتهاج ٣١٣؛ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

ويظهر أن ابنَ عاصم تولّى الكتابةَ الديوانيةَ السلطانيةَ بعد وفاةِ والده سنة ٨٢٩ إذ نجده في سنة ٨٢٩ يكتب حُجَّة وقفية كتاب الإحاطة على المدرسة اليوسفية بغرناطة ويذكر فيها أنه كُلِّفَ ذلك مِنْ قِبَلِ السُّلطان الغالبِ بالله أبي عبد الله محمد بن نصر[١].

وعندما وقعت ثورةُ يوسف بن المول سنة ٨٣٥ هـ كان ابن عاصم كاتباً للسرّ ويُفْهَمُ ذلك من الحكاية التي يُورِدُها في «جنّة الرضا». وفحوى هذه الحكاية أنه عندما نجحت تلك الثورة جرت مؤامرةٌ لعزلِ أبي القاسم بن سرّاج عن قضاء الجماعة والاستعاضةِ منه بالفقيه أبي جعفر العربيّ. وعندما علم ابن سرّاج بهذه المؤامرة طلب الاجتماع بابن عاصم في المسجد الأعظم من الحمراء عند صلاة الظهر، على حَذَر، فظنّ ابنُ عاصم أن أستاذه ابن سرّاج يريد أن يسأله عن ظَهِيرِ تكليف أبي جعفر العربيّ فكتب إليه ابنُ عاصم معتذراً:

فَدَيْتُكَ لا تَسْأَلْ عن السرِّ كاتِباً ... فَتَلقاهُ في حالٍ من الرُّشْدِ عاطِلِ
وتَضْطرُّهُ إمّا لِحالةِ خائنٍ ... أمانَتَهُ أو حائِضٍ في الأباطِلِ
فلا فَرْقَ عِنْدي بَيْنَ قاضٍ وكاتبٍ ... وَشَى ذا بحقٍّ أو قضى ذا بباطِلِ[٢]

وفي سنة ٨٣٨ هـ يتولى ابنُ عاصم قضاء الجماعة في غرناطة[٣]. وجاء في كتاب طبقات المالكية أنه ولي قضاء الجماعة في حداثة سنه[٤]. ويظهر أن ابن عاصم قد أحسن السيرة في أثناء تولّيه هذا المنصب، فقد جاء في الظهير الذي قَدَّمَ ابنَ عاصم للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ ما يشير إلى حسن

(١) ـ نفح الطيب ٧ / ١٠٤، أزهار الرياض ١ / ٥٨. (وانظر أيضاً عن ذلك نص ظهير تقديم ابن عاصم سنة ٨٥٧ هـ للنظر في أمور الفقهاء في أزهار الرياض ١ / ١٧٦، نفح الطيب ٦ / ١٥٩ حيث يفهم منه أن ابن عاصم تولى الكتابة بعد والده).

(٢) ـ جنة الرضا ٤٥ ـ ٤٦، نفح الطيب ٦ / ١٥٠، أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٣) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥ (ورد فيه خطأ أنه تولى القضاء سنة ٨٨٨ هـ)، طبقات المالكية لمجهول ٤٣٨.

(٤) ـ طبقات المالكية ٤٣٨.

سيرتـه في قضـاء الجماعة، إذ جاء: «إلى أنْ أحلّهُ قضاء الجماعة ذروةَ أفْقِهِ الأصْعَد، وبوّأه عزيزَ ذلك المقعد، فشرّف الخُطَّةَ وأخَذَ على الأيدي المُشْتَطّة، لا يُراقِبُ إلّا ربّه، ولا يُضْمِر إلّا العَدْلَ وحُبَّه، والمجلسُ السلطانيُّ ـ أسماه الله تعـالى ـ يختصُّـهُ بنفْسـه، ويفرغ عليه من حُلَلِ الاصطفاء ولُبْسِه، ويستمطِرُ فوائدَه، ويُجَرِّبُ بأنظارِه حقوقَ المُلْكِ وعوائدَه، فكان بينَ يديْهِ حَكَماً مُقْسِطاً، إلى أنْ خصّه بالكتابةِ المولوية . . .»[1].

ولهذا السبب أصدر سلطانُه محمد الأيسر في سنة ٨٥٧ هـ ظهيراً قدّم فيه ابنَ عاصم للنظرِ في أمورِ الفقهاء[2]، ويحدّد هذا الظهيرُ صلاحياتِ ابنِ عاصم على النحو التالي: «وخصّهُ فيه بالنظَرِ المُطْلَقِ الشروط، الملازمِ للتفويضِ ملازمةَ الشرْطِ للمشروط، المستكْمِلِ الفروعِ والأصول، المستوفي الأجناسِ والفُصول، في الأمورِ التي تختصُّ بأعلامِ القُضَاةِ الأكابر، وكتّابِ القضاة ذوي الأقلامِ والمَحابر، وشيوخِ العِلْمِ وخُطَباء المنابر، وسائرِ أربابِ الأقلامِ القاطِنِ منهم والعابرِ، بالحضرةِ العليّة، وجميعِ البلادِ النصريّة ـ تولّى الله جميعَ ذلك بمعهودِ سِتْرِه، وَوَصَلَ لديْهِ ما تعوَّدَ من شَفْعِ اللطف ووِتْره ـ يحوطُ مراتِبَهم التي قُطِفَتْ من روضاتِها ثمراتُ الحُكْمِ وجُنِيَتْ، ويراعي أمورَهم التي أقيمَتْ على العوائِدِ وبُنِيَت، وحُقوقهم التي حُفِظَتْ لهم في المجالِسِ السُّلطانيّة ورُعِيَت، ويحلّ كلَّ واحدٍ منهم في منزلتِه التي تَليق، ومَرْتَبَتِه التي هو بها خَليق، على ما يقتضي ما يُعْلَمُ من أدَواتِهِم، ويُخْبَرُ من تَبايُنِ ذواتِهِم، ويرشّح كلَّ واحدٍ إلى ما استحقّه، ويؤتي كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه . . .»[3].

وقـد مكنت هذه المناصبُ ابنَ عاصم من احتلال مكانة مرموقة ومنزلة رفيعـة عند ملوك بني الأحمر وعند أهلِ مملكة غرناطة، فقد جاء في الظهير

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٩، أزهار الرياض ١ / ١٧٦.

(٢) ـ انظر نص هذا الظهير في نفح الطيب ٦ / ١٥٥ ـ ١٦٢، أزهار الرياض ١ / ١٧٢ ـ ١٧٩.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٦٠ ـ ١٦١، أزهار الرياض ١ / ١٧٨.

المذكور آنفاً أن ابن عاصم قُدِّمَ للنظرِ في أمور الفقهاء «لما له في دارِ المُلْكِ من الخصوصيّة العُظمى، والمكانة التي تسوّغ النُعْمى، والرُّتَبِ التي تسمو العيونُ إلى مرتقاها، وتستقبِلُها النفوسُ بالتعظيم وتتلقاها، حيث سِرُّ المُلْكِ مكتوم، وقرطاسُه مختوم، وأمره محتوم...»[1]. وعندما أورد المقّري نص الظهير المذكور بتمامه قال «وإنما كتبتُه برمّته لِتَعْلَمَ به مِصْداقَ ما قدّمناهُ من تَمَكُّنِ ابنِ عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء»[2]. وقد أدى ابنُ عاصم بسبب هذه الخصوصيّة دوراً مُهِمّاً في الحياة السياسية في غرناطة، ولذلك يقول تلميذُه أبو عبد الله محمد بن الحدّاد الوادي آشي، متحدّثاً عن ابن عاصم: «على أنّ الدولةَ النصريّة في زمانه وَهَتْ منها المباني ومع ذلك فكان ـ رحمه الله ـ يجبُرُ صَدْعَ الواقع، ثم اتسع بعدَهُ الخَرْقُ على الراقع»[3].

ويظهرُ من الرسالة الطويلة التي وجّهها ابنُ عاصم إلى الجمهور الغرناطي في عقب انتصارات سنة ٨٥٢ هـ على الإسبان[4]، أنّ ابن عاصم قد أخذ على عاتقه دعوةَ المسلمين إلى الاتّحاد ونَبْذِ الفُرقةِ والتناحُر وطرحِ دعواتِ الصُلح الماكرة التي كان ينادي بها الإسبان. ولذلك يقول في التصدير لها إنّه كتبها «في قصد التنبيه على هذه اللطائف (الانتصارات) والإيقاظ لأربابِ الدولة من الغفلة»[5].

وكان ابنُ عاصم، بسبب ذلك، مُمَدَّحاً من الشعراء، ومن أبلغ ما قيل فيه

---

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٧، أزهار الرياض ١ / ١٧٤.

(٢) ـ أزهار الرياض ١ / ١٧٩.

(٣) ـ أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢.

(٤) ـ انظر نص هذه الرسالة في «جنة الرضا» ص ٢٧٦ ـ ٢٨٧ من الأصل المخطوط. ووردت أجزاء منها في نفح الطيب ٤ / ٥٠٨ ـ ٥٠٩، وأزهار الرياض ١ / ٥٠ ـ ٥٣، ١ / ١٥٨ ـ ١٧٠.

(٥) ـ جنة الرضا ٢٧٦ من الأصل المخطوط.

قصيدةٌ مدحه بها تلميذه أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق مطلعُها[١]:

خَضَعَتْ لمعْـطَفِه الغصونُ الميّسُ ... ورنـا فَهَـامَ بمـقـلتيه النـرجِسُ

يقول في بعض أبياتها مشيراً إلى الدور السياسي الذي أدّاه ابنُ عاصم عن طريق الكتابة:

حامى فلم نَرْتَــعْ لخـطبٍ يعتـري ... ووفـى فلم نَحْفَــلْ بدهــر يَنْحسُ
لم نَدْرِ قبــلَ يراعِــه وبَـنـانِـه ... أنَّ الــذوابــلَ بالغمــائم تُـحْبَسُ
هنّ الــيَراعُ بهــا يؤمَّــن خائـفٌ ... ويُحــاطُ مذعــورٌ ويَغْـنـى مُفْـلِسُ
مهمـا انبَرتْ فهي السهامُ يُرى لها ... وَقْــعُ لأغــراضِ البيانِ مُقَـرْطِسُ
تَشفي بمــأمله التشكّي المعتـري ... تُحيِي بمــأمنــه الحِمـام المؤيِسُ
فَتَقُصُّ حين تُشَـقُّ منـهــا ألْسُنٌ ... وتَــســيرُ حين تُقَطُّ منـهــا أروُسُ

. . . . الخ

ومن الذين مدحوه أيضاً الشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البَسْطي الذي عاش في أواخر القرن التاسع الهجري[٢]، إذْ مَدَحَ ابنَ عاصم في قصيدة مطلعُها[٣]:

أنتَ الــدواءُ إذا ما أعْضَـلَ الـداءُ ... ورامَ هَضْــمِــيَ حُسّــادٌ وأعْــداءُ

ففي هذه القصيدة يستعـدي الشـاعرُ البسطيّ صاحِبَنا ابنَ عاصم على أعدائِه، ويمدحُه بقوله[٤]:

فبالرئيس أبي يحيى بن عاصمَ لي ... على جمــيعِــهِـمُ نَصْـرٌ وإعــداءُ

---

(١) ـ انظر نص هذه القصيدة في أزهار الرياض ٣ / ٣٢٠ ـ ٣٢٢.

(٢) ـ انظر الدراسة التي قام بها الدكتور محمد بن شريفة للشاعر المذكور بعنوان البسطي آخر شعراء الأندلس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

(٣) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس، ص ٥٧، (نقلاً عن ديوان الشاعر المخطوط ص ٦٢ ـ ٦٣).

(٤) ـ نفسه، ٥٧ ـ ٥٨.

هو المؤمَّلُ بَعْدَ الله ينصُرُني | لو كان من نَحْوِه بالنَصْرِ إهداءُ
له بما نالني أصبحتُ مشتكياً | وإنْ عَدَتْ عنه للمظلومِ بَيْداءُ
عساهُ يأخُذُ حقّي منهُمُ عجِلاً | فلم يَزَلْ منه لي بالفَضْلِ إسداءُ

ح ـ المؤلّف والتقلّبات السياسيّة:

كان ابنُ عاصم من خاصّة السلطان الغرناطي الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن نصر الأيسر، وقد تعرّض هذا السلطانُ إلى الخلع أربع مرات أو أكثر، وفي كلّ مرة يُخْلَعُ بها هذا السلطان كان الخطرُ يحيق بخاصته ووزرائه ومنهم ابنُ عاصم. ولذلك قضى ابن عاصم حياتَه في خوفٍ وقلق، ولحقَتْه مِحَنٌ وابتلاءات أشار إلى كثير منها في كتاب «جنّة الرضا». ومن هذه المحن ما أصابه وهو حَدَثٌ عندما سُجِنَ والدُه سنة ٨١٤ هـ في عهد السلطان يوسف بن يوسف ابن محمد بن نصر المعروف بيوسف الثالث. وقد اضطر ابن عاصم أثناء سجن والده أن يستخفيَ عند أحدِ أصحابه مدة سبعةِ أشهر[١]. وقد أشار ابنُ عاصم إلى هذه الحادثة في أكثرَ من موضع من كتابه «جنّة الرضا»[٢]، وملخّص هذه الحادثة أنّه عندما سُجِنَ والدُ المؤلف أخذ ابنُ عاصم يسعى إلى اطلاق سراح والده وأشار عليه الناس بمقترحاتٍ كثيرة، فذهب يستشير والدَهُ فيها فأجابه بالرفض، وطلب منه ألا يلتَفِتَ لشيء منها[٣]. وأدْرَكَ أبا يحيى بنَ عاصم خوفٌ شديد اضطره إلى الاختفاءِ في المواضع المغفلة والأماكن غير المطروقة، ثم نزل في دارِ أحَدِ أصحابه ـ على خوف وحذر شديدين ـ وكان صاحبُه ذاك يقوم على خدمته وإعداد الطعام وغيره له، ويصِفُ ابنُ عاصم لنا بعضَ ما وقع له أثناء نزوله في تلك الدار فيقول: «فسكنْتُ فيها لإغفالها، يتردَّدُ إليّ فيها بقُوتي وبماءٍ لوضوئي، إلى أن وَرَدَ عليه بعضُ العلماء ممّن كان يتبرّك به، وكان هو يُنْزِلُهُ مَنزلةَ مشيخته، وكنت أنا أيضاً أثِقُ به، وهو من شيوخي، فاتّفق، وأبي، رأيُه أنْ يَنْزِلَ

(١) ـ جنة الرضا، ص ٣١٥ من الأصل المخطوط.
(٢) ـ جنة الرضا، ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ٢٥٨، ٣١٥.
(٣) ـ نفسه ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

بالمِصريّة معي، وأنا على حال استخفاء معه، فاتّفق لبعضِ الناس أنْ أضاف ذلـك الشيخَ بطعامٍ أتاه به إلى حيث كان نزولُه من هذه المصريّة، وكنتُ أنا وصاحبي والشيخُ نحذر جميعاً من اطّلاعه عليّ هنالك لما يُتَوَقَّعُ من تساهُلِ النـاسِ في مثل هذا السرّ فتلحقُنا الإذايةُ باستهتاره. وكان فيها صورةُ مَخْدَع صغير له غلق وما يُفْعَلُ به، فاستخفَيْتُ هنالك، وأُذِنَ للرجل الآتي بالضيافة في الدخول بها، فدخل وأقبلوا على الأكل منها، وأنا في ذلك الموضع لم يَشْعُرْ بي، وفي أثناء إقامتي هنالك كنتُ أنسخ بعضَ كتب العلمِ، واعتراني شَرَقٌ كبير سدّ مجرى التنفّس مني، فشاهدتُ الموتَ عِياناً، ولم أستجزْ فضيحةَ صاحبي فيما كان لا يُرِيدُ أن يُطْلِعَ ذلك الإنسانَ عليه، فعزمتُ على إيثارِ الموت دون أن يُسْمَعَ لي حسّ من سُعالٍ ولا غيره، وفي هذه اللحظة خَطَرَ على قلبي قولُه تعالى ﴿أمَّنْ يُجِيبُ المضطَّرَ إذا دعاه﴾ فضرعتُ في قلبي إلى الله تعالى داعياً، إذْ لم أكن أستطيع الكلام، فما هو إلّا أن توجّهْتُ إليه بالدعاء في تلك الحال، وإذا بتلك الغُصَّة قد ذَهَبَتْ... الخ»(١).

وفي سنة ٨٣٥ هـ حدثت ثورةُ يوسف بن المول في غرناطة وخُلِعَ السلطانُ محمد الأيسر، وأخذ أصحاب هذا السلطان يترقبون ما قد يلحق بهم، وأخذ السلطان الجديد يدبّر صَرْفَ أبي القاسم بن سرّاج عن قضاء الجماعة بغرناطة، وعندما توجه ابن سرّاج إلى ابن عاصم ـ الذي كان كاتباً للسر آنذاك ـ خشي ابنُ عاصم أن يشاهدهما أحد، فطلب من شيخه ابن سراج أن لا يسأله عن شيء له صلة بمـوضوع صرفه عن قضاء الجماعة، ولكن ابن سرّاج أقبل على ابن عاصم راغباً أن يحتال له في صَرْفِ معرة ذلك العزل، ويقول ابنُ عاصم عن شيخه ابن سرّاج «وكأنّه كان على عِلْمٍ منه لِمَا عَلِمَ من ماتَّةٍ بيني وبين بعض أولئك المتصرّفين لذلك الثائر»(٢)، ثم يقول: «إلى أن قضى الله من الحوادث المـانعـة لهم عن القصْـدِ المـذكـور ما أوجَبَ استمرارَ ولايته بعودةِ السلطانِ

(١) ـ جنة الرضا ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) ـ جنة الرضا ٤٦.

الغالب ـ أيده الله ـ إلى مُلكِه، وتعجيلِ ما انحتم لذلك الثائر من هُلْكِه»(١).

وعندما وقعت ثورةُ أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر حافد السلطان الأيسر سنة ٨٤٩ هـ هرب ابنُ عاصم مع سلطانه إلى مدينة مالَقَة خوفاً على حياته من أتباع الثائر الجديد، وخلّف وراءه أبناءه وذرّيته، ويصفُ ابنُ عاصم هذا الرحيلَ قائلاً: «وقد اسْتَقْبَلْنا مالَقَة في تلك الوجهة التي قضى الله فيها بالتمحيص المتضمِّن للخروج عن الوطن والفراق للأهل والولد، المتعيِّن به فراغُ الكفّ من المال وخلوّ المنزلة من الجاه، المظنون به الجلاء حتماً والابتلاء حقاً، وعزم على فرض السلامة على الاغتراب الأبعد، وانقسم القلب بين الخَطْبَيْنِ الواقع والمتوقَّع، والكَرْبَيْن باعتبار النفس واعتبار من يعزُّ عليها من الذريّة. وكان من قَدَرِ الله تخَلُّف الأهل والولد اضطرارا لا اختياراً لطيّ ذلك عني وكتمه مني من أرباب الدولة لاعتقادهم أنّي من خاصّة السلطان الذين لا يغيب عنهم ما انطووا عليه من استصحاب أهلهم وولدهم، واعتقاد خاصة السلطان أني من أرباب الدولة الذين لا يغيب عنهم ما انطوى عليه من مثل ذلك(٢). فخار الله لي في بقائي أمة وحدي فيما بعد ذلك. ولكني لم أر موقفاً أشجى لوعةً ولا أعظم لي على من خلّفت روعةً، من موقفي بطرف الفحص الأفْيَحِ المسمّى بالكنب جاغر ملتفتاً خلفي، ومودّعاً مع أصاغر الذريّة قلبي، وقد استصحب غيري أهلَه وولَدَه، وإنْ كان قد فارَقَ ماله وبَلَدَه، إلاّ من كان مثلي فإنّه ذهب طائشاً لبّه منتزعاً من بين جنبيه قلبُه...»(٣).

وامتدت إقامةُ ابن عاصم في مالقة مدة شهر واحد، كانت تأتيه في أثنائها أخبارٌ عما لحق أهلَه وممتلكاته من الضرر والإيذاء، فيقول: «فلا تسألْ كم من

(١) ـ نفسه ٤٦.

(٢) ـ لعله يقصد أن تركه لأهله في غرناطة يوهم السلطان الجديد أنه لم يهرب منه بدليل عدم اصطحاب عائلته معه، كما أنه بذلك يطمئن السلطان المخلوع إلى أنه سيعود قريباً إلى عرشه، فلا داعي لاستصحاب أهله معه إلى المنفى.

(٣) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦.

أراجيفَ نُقِلَتْ في التنقير عن قطع القلوبِ ومكنوناتِ الخُدور. . ومن أقاويلَ اخْتُلِقَتْ في استطالة الغوغاء على الديار المعلومة والحاشية المعروفة والذخيرة الموروثة، وقد كانت أيديهم عاثَتْ في الجِنانِ المغروسة والكروم المعروشة، بما كان يصدّق ذلك الإرجاف، ويجعل في حيّز القبول تلك الأقاويل. . . . إلى أنْ طالت الإقامة زهاءَ شهر بمالقة، وترادفَتْ تلك النوائبُ الطارقة، والحوادثُ الكـارثـة، وتكـرّر المسموعُ بسلامةِ من تخلّفَ من أهل وولد، من مَعَرّة تلك الأراجيف الكاذبة، فظهر لي أن الخَيْرَ والخِيرةَ فيما قضى الله من تَرْكِ الأهلِ والولَد. . . »(١).

ويظهر أنَّ السلطانَ الأيسرَ الذي كان مخلوعاً إلى مالقة قد استخدم ابنَ عاصم في السِفـارة إلى أبي الحجـاج الثائر في غرناطة في قصد الصلح بين السلطانين، فتوجه ابن عاصم إلى غرناطة لتأدية الرسالة، ولما قدِم غرناطة لحقه خوفٌ شديد يفسّره ابن عاصم قائلاً إنّ أربابَ دولة أبي الحجاج «كان من رأيهم الأنكد إغراءُ العامة بي وتسليطُ الرِّعاعِ على جهتي، فوقع من توعُّدِهِمْ بهدمِ الدور وخرابِ الأملاك ما كان مقتضى الحالِ شاهداً بوقوعه ودليلاً على حصوله لما سبق من أولئك الغوغاء في الأملاك المُوالية لهم لي ولغيري، فقد كانوا عاثوا في إفسادِها وابتدروا إلى انتسافِها»(٢).

ولكنَّ الله صرف عنه ذلك البلاء المتوقع وقام ابنُ عاصم بتأدية رسالتِه من غير هوادةٍ ولا مُصَانَعة(٣).

ولكنّ الأمْـرَ تمّ للسلطان الجـديد أبي الحجاج، فاستدعى ابنَ عاصم واستعمله للسِفارة عنه إلى المغرب(٤). ولما سأله عن عدم مصانعته له عندما سَفَر للسلطان الأيسـر من مالقـة، أجابه ابن عاصم: «لو ناصحْتُكَ وتركت النُّصحَ

(١) ـ جنة الرضا ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) ـ نفسه ٥٠ ـ ٥١.

(٣) ـ نفسه ١٤٥.

(٤) ـ نفسه ١٤٥.

لمرسلي، **هل كنتَ تثق بي فيما استدعيتنى إليه من السِفارة للمغرب؟** «فأجابه: لا. **فقال ابن عاصم: «وهل كنت تثق بي للحضور في مجالس شوراك؟** فقال: لا. **فقال ابنُ عاصم: فكيف تطلبني أن أفعلَ ما يكون مُوجباً صحيحاً لعتبي، وسقوطِ منـزلتي عند من أرسلني**، وعند من أُرْسِلْتُ إليه، ويلومني كل واحد منهما، وكلاهما في لومتي بحق؟!»[1]

ويصبح ابن عاصم ـ كما يبدو ـ مقرّباً من السلطان الجديد، ويمدحه في قصيدة طويلة أفرغ جهده في شحنِها بالمحسّنات البديعيّة والصناعة اللفظية والشكلية، وجعلِ كلماتِها بالألوان بحيث تُشَكِّلُ الكلماتُ ذاتُ اللونِ الواحد قصيدةً أو موشّحةً جديدة[2].

غير أن هذا الوضع لم ينزع المخاوفَ من قلب ابن عاصم، ذلك لأن أصحابَ السلطانِ أبي الحجّاج ووزراءه كانوا من خصوم ابن عاصم، وكان يخاف دسائسهم ومكائدهم، لا سيّما بعد أن تم اعتقالُ شيخه أبي القاسم محمد بن يوسف بن سرّاج والقائد ابن كُماشة[3]. ويصفُ ابن عاصم المخاوفَ التي كان يعيشُها قائلاً: «كنتُ في تلك الأيام على ما لا يخفى من حالِ مَنْ طَرَقَهُ الابتلاء من خواصّ دولة قد انتسخت بدولةٍ اخرى مضادّةٍ لها وَضْعاً وطبعاً، فلم تكن النفسُ تسكنُ إلى أمان تامّ، ولا تخلو عن خوف مستجِدّ، وكنت متى استُدْعِيتُ للحضور في مَشاهد تلك الدولة ومَحافل شوراها ومجالسِ مفاوضَتِها ألجأ إلى ما اعتمده أهلُ كتب الصحيحِ من التعوّذات الواردةِ في ذلك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأضرع إلى الله في استكفاء شرّ كل ذي شرّ. ولم يكن إيجاسُ النفس للخِيفة من قِبَلِ ذلك السلطان، فقد كنتُ أراه مائلاً للخَيْر بطبعه مباعِداً للشرّ بقوله وفعله، وإنما كنت أستثقِلُ بعضَ أرباب دولته ممّن أتوسم فيه

---

(١) ـ نفسه ١٤٥.

(٢) ـ انظر هذه القصيدة في: أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٧.

(٣) ـ جنة الرضا ١٣٩.

غلاًّ أو استشعِرُ منه حَسَداً، وخصوصاً ذلك الموسوم بوزارته، فقد كانت عندي مداراتُه صعبةً ومصانعتُه عسيرة»(١).

ويسوق لنا ابنُ عاصم قصة طويلة عن حادثةٍ وقعت له وأَدْخَلَت الخوفَ الشديد إلى قلبه ثم صرف الله بلاءها عنه، يستشهد بها على مخاوفه التي حلّت به في هذه المرحلة أثناء تولي أبي الحجاج العرشَ(٢).

وقد كانت هذه الحوادث التي لحقت ابن عاصم سبباً في انقلاب كثير من أصدقائه عليه، وقد شكا من ذلك في قوله: «ولقد وقفتُ من ذلك بالتجربةِ على ما لو صرَّحْتُ بأعيانِ الوقائع وسمَّيْتُ من بَلَوْتُ منه الخيانةَ من الأقارب، وأشرت لمن علمت منه عَدَمَ الوفاء من جنس الصديق المُلاطِف، لقضى منه العجبَ سامعُه، وشاهدَ منه الغريبَ قارئُه، حتى لا يَسْتَبْعِدَ قولَ من قال: «إنَّ الصديقَ الموثوقَ بمودّته قد قلّ حتى صار اسماً لغيرِ موجود ولفظاً لمعنىً مفقود» فهو كما قال الشاعر:

وقالوا هَلْ وَجَدْتَ صديقَ صِدْقٍ ... مُعِيناً في الزَّمانِ على الزَّمانِ
فقلتُ نَعَمْ إذا نِلْتُ الثُّريّا ... وصافَحَني هناكَ الفَرْقَدانِ
متى أبصَرْتُمُ شيْئاً مُحالاً ... يَعُودُ على الحقيقةِ كالعِيانِ؟!

وعلى ما بلوتُه من ذلك بالاختبار التامّ والتجربة الكاملة يصدُقُ قولُ الشاعر ويصِحُّ عندي:

أَنِسْتُ بوحْدتي حتى لو انّي ... دعاني الأُنسُ لاستوحَشْتُ مِنْهُ
ولم تَدَعِ التجاربُ لي صديقاً ... أميلُ إليهِ إلاّ مِلْتُ عَنْهُ(٣)

---

(١) - نفسه ١٣٩.

(٢) - انظر تفاصيل هذه الحادثة في جنة الرضا ص ١٣٩ - ١٤٢ من الأصل المخطوط.

(٣) - جنة الرضا ٣١٨ - ٣١٩.

ط ـ وفاته :

استطاع ابن عاصم نتيجةَ خِبْراته بالتقلّبات السياسية في غرناطة وما ينتجُ عنها من تهديد لحياةِ خواصّ السلطان المعزول، أن يتنبّأ بالطريقة التي سوف يموت بها، لذلك لم تُفارِقْه المخاوفُ وهواجسُ الرعب من الانقلابات، وقد قضى الله عليه بما كان يخشاه دائماً، فجاء في نيل الابتهاج أن ابنَ عاصم «توفي على ما قيل ذبيحاً من جهة السلطان ولم أقِفْ على تاريخ وفاته»[1].

ولكنَّ المصادر لم تبيّن السببَ الذي من أجله ذُبح ولا سنة ذبحه. ولكنْ يُرَجَّحُ أنّه ذُبح مع السلطان محمد الأيسر وخواصّه على يد السلطان سعد بن الأحمر في أواخر سنة ٨٥٧ هـ أو أوائل سنة ٨٥٨ هـ[2]، ويذكر صاحب هدية العارفين أن ابن عاصم توفي في حدود سنة ٨٥٧ هـ[3].

وهكذا فإنّ خدمات ابن عاصم لمملكة غرناطة أكثرَ من ثلاثين سنة ومساعيه للحفاظ على تلك البقعة الإسلامية، لم يُغْنِ عنه شيئاً أمام همجيّة السياسة في تلك الأزمنة، مثلما لم تُغْنِ تلك الخدماتُ شيئاً أمام إعدام القائدِ الغرناطي الشهير أبي اسحق ابراهيم بن عبد البَرّ.

ي ـ ابن عاصم في نظر العلماء والمؤرخين :

حقّق ابنُ عاصم في مجالات العلْم والأدب والسياسة شهرةً بالغة مردُّها إلى تفوّقه في تلك المجالات وإلى اعتلائه عدداً كبيراً من المناصب الإدارية التي برّز فيها، ولذلك أكثر معاصروه من الأدباء والعلماء والمؤرخين من مدحه والإطراء عليه، وكذلك فعل مؤلّفو المصادر التي عرضت لسيرته.

فقد وصفه ابن فرج السبتي بأنه «العَلَمُ الصَّدْر. . . معدنُ السماحةِ ومنبعُ

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩.

(٢) ـ انظر: Los Banu Asim Intelectuales Y Politicos Granadinos del Siglo XV, P. 10.

(٣) ـ هدية العارفين ٢ / ٢٠٠، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٩.

الآداب»[1] كما وصفه تلميذه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادي آشي نزيلُ تلمسان بأنه «قاضي الجماعة ومنفّذُ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيدُ الكبراء، وأصيلُ الحسباء..»[2] ومما وُصف به ابنُ عاصم في الظهير الذي قدّمه للنظر في أمور الفقهاء سنة ٨٥٧ هـ ما يلي: «إمام الأئمة، وعَلَمُ الأعلام وعمادُ ذوي العقول والأحلام، وبركةُ حَمَلةِ السيوفِ والأقلام، وقدوةُ رجالِ الدين وعلماء الإسلام...»[3].

ومما وُصف به أيضاً في هذا الظهير: «فهو شهيرٌ لم يزل في الشهرة سابقاً، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً، بليغٌ لم يزل بالبلاغة دريّاً، عظيم لم يزل في النفوس معظماً، عَلَمٌ لم يزل في الأعلام مقدَّماً، كريمٌ لم يزل في الكرام سنِيّاً، اشتملت منه محافلُ المُلْك على العقد الثمين، وحلّت به المشورة في الكنف المحوط والحَرَمِ الأمين، فكان في مشكاة الأمور هادياً، وفي ميدان المراشد جريّاً، فإلى مقاماته تبلغ مقاماتُ الإخلاص، وإلى مرتبته ننتهي مراتب الاختصاص...»[4].

والجدير بالذكر أنَّ أكثر فصول هذا الظهير المذكور هي في الإشادة بابن عاصم وبيان علمه وفضله[5].

وعندما تحدث صاحبُ نَيْل الابتهاج عن مناصب ابن عاصم أضاف قائلاً: «مع إمامته وتقدمه في العلوم والفنون وتضلّعه بالحفظ والتحقيق، من أكابر علمائها وفقهائها الجلة»[6] يعني غرناطة.

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨.
(٢) ـ نفح الطيب ٧ / ١٠٢، أزهار الرياض ١ / ٥٥.
(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٧، أزهار الرياض ١ / ١٧٣.
(٤) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٦، أزهار الرياض ١ / ١٧٢.
(٥) ـ انظر نص الظهير في: نفح الطيب ٦ / ١٥٥ ـ ١٦٢، أزهار الرياض ١ / ١٧٢ ـ ١٧٩.
(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

أما أبو العباس المقّري فقد أشاد به كثيراً كلما ذكره، ولذلك سمّاه «خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق، ومالك خَدَم البراعة بالاسترقاق»(١)، ووصفه أيضا بأنه «معدن السماحة ومنبع الآداب»(٢) وأنه «فارس حلبة البلاغة» الذي «حَلِيَتْ بعلومه اللبات والمعاصم»(٣) واستشهد به على فضل أهل غرناطة في العلم والأدب(٤).

وبعد أن أورد المقّري قصيدة ابن الأزرق في مدح أستاذه ابن عاصم عقّب قائلاً على الصفات التي أضفاها ابنُ الأزرق على أستاذه:

«ولقد صَدَقَ ـ رحمه الله ـ في كل ما وصف به قلم الرئيس أبي يحيى بن عاصم الذي تحلّت بجواهره لدولة بني نصر نحورٌ ومعاصم، فإنّه كان آية الله في النظم والنثر، وقد تقدّم في هذا الموضوع بعضُ كلامه، وهو قُلٌّ من كُثْر، ولولا أني أطلت النُّجْعَةَ في هذا الباب لأتيتُ بما حصل عندي من كلامه الذي يسحر الألباب، وقد أخذ من الفقه ومعرفة الأحكام بحظّ بذّ فيه نظراءه، وانفرد في عصره بطريق الأدب، فكان كلُّ أنداده لايدركه بل يسير وراءه...»(٥).

وكان ابن عاصم ممدَّحاً من أدباء عصره سواء أكانوا من أقرانه أم من تلاميذه، وقد تحدّث أصحاب هذه المدائح عن فضائل وصفات كثيرة لابن عاصم. ومن أشهر هذه القصائد المدحية قصيدة ابن الأزرق التي مطلعُها(٦):

خَضَعَتْ لمعطفِهِ الغُصونُ المُيَّسُ ورنا فَهَامَ بمقلتَيْهِ النَّرْجِسُ

---

(١) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٢) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٦.

(٣) ـ نفسه ١ / ١١٦.

(٤) ـ نفسه ١ / ١١٦.

(٥) ـ نفسه ٣ / ٣٢٢.

(٦) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥١، أزهار الرياض ٣ / ٣٢٠.

وقصيدة محمد بن عبد الكريم القيسي التي مطلعها[1]:

ما كنت أحسَبُ أنَّ الحُسْنَ يَلْعَبُ بي
حتى انْجلى كَتْبُكُم للعَيْنِ من كَثَبِ

وقصيدته التي مطلعها[2]:

أنتَ الدواءُ إذا ما أعْضَلَ الداءُ ... ورام هَضْمِيَ حُسَّادٌ وأعْداءُ

س ـ شعره:

أوردت المصادر التي ترجمت لابن عاصم أنه كان شاعراً فصيحاً مُفْلِقاً[3]، وتدلّ القصائد القليلة من شعره التي استطعنا الحصولَ عليها، أنه كان مقتدراً على نظم الشعر والموشحات على النمط الشائع في عصره ووفق مقتضيات الذوق الأدبي العام في ذلك العصر وفي البلد الذي كان يقيم فيه. ومن هذه القصائد قصيدتُه التي نظم بها الأفكار الرئيسية لمقدمة كتابه «جنّة الرضا» وتقع هذه القصيدة في مائة وعشرين بيتاً[4]. وهي في مبناها ومعناها وطولها لا تختلف عن المنظومات العلمية التي تفتقر إلى معظم عناصر الشعر ومقوّماته. ولعل الهدف مما ذهب إليه ابنُ عاصم، بعد أن قدّم لكتاب جنّة الرضا بمقدمة على قدر كبير من الأهمية، من نظم هذه المقدمة شعراً أن يسهّل على طلبة العلم الذين يدرسون كتابه، حفظ الأفكار الرئيسية في تلك المقدمة. ولكنه أخطأ بذلك مرتين: الأولى أنه كرّر ما في المقدمة وجاء به على صورتين: شعرية ونثرية، والثانية: ذلك النظم العلمي نفسه لما فيه من التكلّف والصنعة.

ويتجلّى التكلّفُ في شعر ابن عاصم أكثر ما يتجلّى في قصيدته التي مطلعها[5]:

---

(١) ـ البسطي احر شعراء الأندلس ١٠٠ (نقلاً عن ديوان القيسي ص ٢٢).

(٢) ـ نفسه ص ٥٧ (نقلاً عن ديوان القيسي ص ٦٢).

(٣) ـ نيل الابتهاج ٣١٣، نفح الطيب ٦ / ١٤٨، أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٤) ـ انظر هذَه القصيدة في جنة الرضا ٣٢ ـ ٣٧.

(٥) ـ انظر هذه القصيدة في أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٣.

أمـا والهوى ما كنتُ مُذْ بانَ عَهْدُه أهــيمُ بلُقــيا مَنْ تَنــاثَــرَ وُدُّهُ

وتقع الأخرى كسابقتها في مائة وعشرين بيتاً، وهي في مدح السلطان أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر. أما التكلّف والصنعة في هذه القصيدة فيتمثلان في أن ابن عاصم جعل كلمات هذه القصيدة بألوان مختلفة، بحيث ينفك عن القصيدة قصيدتان أخريان إحداهما مكتوبة باللون الأحمر والثانية باللون الأخضر، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة(١).

ويعلّق المقّري على هذه القصيدة مشيراً إلى ما فيها من تكلّف فيقول(٢): «وعلى كلّ حال فقد أبدع هذا الرئيسُ في هذه القصيدة، وإنْ كان فيها بعضُ تكلُّف». وقد اضطر ابنُ عاصم من أجل أن يحقّق هدفه من الصنعة أن يتجاوز بعض القواعد النحوية في مثل قوله:

أفي العـدلِ أنْ (يُـحْكَمْ) بتَحْـريم رِيقِهِ
لأنَّ (كــان للشــهــدِ) الــمــعــلّلِ وِرْدُه

فسكّن (يُـحْكَمْ) وحقّها النصب.

ولابن عاصم تخميسٌ طويل يقع في ثمانية وثلاثين دوراً، وهو في تسبيح الله تعالى وتمجيده. ومطلعه(٣):

سبحانَ من أظْهَرَ الأنوارَ واحْتَجَبَا وكــلُّ حَمْــدٍ وتَـمْجيدٍ له وَجَبَـا
إذا ابْتَغَى العَقْـلُ في إدْراكِهِ سَبَبَا جاء الحِجَابُ فألقى دونَه الحُجُبا
حتى إذا ما تَلَاشى عندَهُ ظَهَرا

وفي هذا التخميس أيضاً من التلاعب اللفظيّ والركض خَلْفَ المحسّنات البديعية الشيءُ الكثير.

---

(١) ـ بيّن المقّري في كتابه أزهار الرياض القصيدة الأم والبنتين والموشحتين (أزهار الرياض ١ / ١٤٦ ـ ١٥٧).

(٢) ـ نفسه ١ / ١٥٨.

(٣) ـ انظر هذا التخميس في أزهار الرياض ١ / ١٧٩ ـ ١٨٥.

ومن قصائد ابن عاصم أيضاً قصيدة يردُّ فيها على الزمخشريّ في بيتيه اللذين يعرِّضُ فيهما بأهلِ السنة وينصُرُ مذهبَ الاعتزال وهما:

لجماعة سمّوا هواهُم سُنّةً وجماعة حُمُرٌ لعمري مُوكفة

قد شبّهوه بخَلْقِه وتخوّفوا شُنَع الوَرى فتستّروا بالبَلْكَفة

وقد ردّ على الزمخشريّ عددٌ كبيرٌ من علماء السنّة، من بينهم ابنُ عاصم بقصيدته التي مطلعها[1]:

قل للذي سَمَّى الهُدَاةَ أولي النُّهى حُمُراً لإنْ سُلِب الهُدى والمَعْرِفَه

وواضحٌ أنّ ابنَ عاصم ـ مثل غيره من الذين ردّوا على الزمخشريّ ـ قد اتّبع أسلوبَ المعارضة؛ فنظم ردَّه على الوزنِ والقافيةِ ذاتهما اللذين جاء عليهما بيتا الزمخشريّ.

وعلى العموم فإن شعر ابن عاصم يتّصف بالإطالة والإطناب والتحويم حول الفكرة الواحدة، مع الاتكاء كثيراً على الصنعة اللفظية وتصيّدِ المُحَسّنات البديعيّة، ولذلك ظهر التكلُّف فيه واضحاً.

ع ـ نثره الفنّي:

وأما نثرُ أبي يحيى بنِ عاصم فهو أعلى درجةً وأرقى منزلةً من شعره، وذلك بسبب الوظائف الكتابية التي شغلها ابن عاصم. وذكر صاحبُ نَفْح الطيب أنّ إنشاء ابن عاصم كان «في الذروة العليا»[2]. وقد وصلنا من هذا الإنشاء والنثر الفني ما يصلح للتعرّف على خصائص الأسلوب الإنشائي عند ابن عاصم، مع أنّه لم يصلنا من هذا الإنشاء إلّا القدْرُ القليل مقارنةً برسائله الكثيرة التي صدرت عنه بحُكْمِ ترؤسه لديوان الإنشاء، ونتيجة لإشغاله وظائفَ كتابية كما سبق أن أشرنا في الحديث عن مناصبه. ومن النصوص الإنشائية التي

---

(١) ـ انظر قصيدة ابن عاصم في أزهار الرياض ٣ / ٣٢٣، وانظر بيتي الزمخشري والردود عليهما في أزهار الرياض أيضاً ٣ / ٢٩٨ وما بعدها.

(٢) ـ نفح الطيب ٥ / ٢٢.

وصلتنا من إنشاء ابن عاصم: رسالة طويلةٌ في جنة الرضا[١]. ورسالته إلى أبي القاسم ابن طَرْكاط ينصحه بالعدل في القضاء وهي مؤرخة أوائل ذي الحجة سنة ٨٤٥ هـ[٢]. ونصُّ حُجّة الوقفية لكتاب الإحاطة على المدرسة اليوسفية مؤرخ سنة ٨٢٩ هـ[٣] وغير ذلك.

ويمتاز إنشاء ابن عاصم بالإطالة المفرطة، والإسهاب في المقدّمات والتحميدات والتصلية والدعاء، كما يتّسم أيضاً بالتزام السجع بمختلف أنواعه وخصوصاً السجع المركّب، والإغراق في المحسّنات البديعية ومختلفِ صُوَرِ التلاعب اللفظي. وهي سمة بارزة في أدب ابن عاصم شعره ونثره.

ف ـ ابن الخطيب الثاني:

إن المتأمّل لأسلوب ابن عاصم في النثر الفنّي يلاحظ أنه لا يكاد يختلف عن أسلوب سابقه لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦هـ). ولعلّ هذا التشابه راجعٌ إلى جملة من الأسباب منها:

١ ـ إعجاب ابن عاصم بلسان الدين بن الخطيب، ويظهر هذا الإعجاب بصورة جلية في نصّ حجة الوقفية لكتاب «الإحاطة» على المدرسة اليوسفية، وهذا النصُّ من تحرير ابن عاصم[٤]، فقد أشاد ابنُ عاصم بلسان الدين بن الخطيب كثيراً وأورد كثيراً من مآثره وحسناته في فنون الكتابة.

ويتّضح هذا الإعجابُ أيضاً من خلال الحديث الذي ساقه ابنُ عاصم في كتابه «الروض الأريض» عن الغنيّ بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب[٥].

---

(١) ـ جنة الرضا ٢٧٦ ـ ٢٨٧، ومنها اقتباسات في أزهار الرياض ١ / ٥٠ ـ ٥٥ ـ ١٥٨ ـ ١٧١، نفح الطيب ٦ / ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) ـ نفح الطيب ٦ / ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٣) ـ نفح الطيب ٧ / ١٠٣ ـ ١٠٥، أزهار الرياض ١ / ٥٦ ـ ٥٨.

(٤) ـ انظر هذا النص في: نفح الطيب ٧ / ١٠٣ ـ ١٠٥: أزهار الرياض ١ / ٥٦ ـ ٥٨.

(٥) ـ انظر فقراً من هذه الترجمة في: نفح الطيب ٦ / ٢٧ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧.

٢ ـ أن شيوخ ابن عاصم هم تلاميذ ابن الخطيب.

٣ ـ أن ابن الخطيب وابن عاصم كليهما قد شغلا وظائف متشابهة في مملكة غرناطة وقد حقّق كلٌّ منهما منزلةً رفيعة عند سلطانه[١]، ولذلك اتفقت موضوعات الكتابة عند كليهما اتفاقاً واضحاً.

٤ ـ أن ابنَ عاصم قد سلك في بعض رسائله نَهْجَ ابن الخطيب وهذا ما يذكره أبو العباس المقّري في تقديمه لإحدى هذه الرسائل، إذ يقول: «ومن بديع نثره الذي يسلك به نَهْجَ ابنِ الخطيب رحمه الله قوله...»[٢].

٥ ـ ويرى المقّري أيضاً أن ابن عاصم في تأليفه كتابَ «الروض الأريض» كأنه ذيّل به كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب[٣].

وقد عُرِفَ ابنُ عاصم ـ لهذه الأسباب ـ بابن الخطيب الثاني. فمما ذكره المقّري في أزهار الرياض قوله: «وبالجملة فابن عاصم أبو يحيى كان يسمّيه أهلُ زمانِه ابنَ الخطيب الثاني حسبما قاله الوادي آشي وغيرُه»[٤]. كما ذكر المقّري في مواضع كثيرة من كتابيه أزهار الرياض ونفح الطيب[٥]. أن أهل الأندلس كانوا يَعْرِفونه بهذه التسمية.

وينصُّ المقّري على أنَّ ابنَ عاصم كان يُعْرَفُ بابن الخطيب الثاني من جهة «البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة»[٦].

---

(١) ـ لمعرفة على المناصب التي شغلها لسان الدين بن الخطيب والمنزلة التي بلغها عند سلطانه انظر: الإحاطة ٤ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

(٢) ـ انظر هذا التقديم ونص الرسالة في: نفح الطيب ٦ / ١٤٨ ـ ١٤٩، أزهار الرياض ١ / ١٦٠، وهو جزء من الرسالة الواردة في جنة الرضا ص ٢٧٦ ـ ٢٨٧ من الأصل المخطوط.

(٣)ـ نفح الطيب ١ / ١٤٥، ٦ / ١٤٨.

(٤) ـ أزهار الرياض ١ / ١٨٦.

(٥)ـ أزهار الرياض ٣ / ٣٢٢، نفح الطيب ٥ / ٢٢، ٦ / ١٤٨، ١٦٢.

(٦)ـ نفح الطيب ٦ / ١٦٢.

ويتضح من تفسير المقّري لهذه التسمية أن ابن عاصم ولسان الدين بن الخطيب كانا يشتركان في أساليب الكتابة مثلما اشتركا في سيرة الحياة.

والمتابع لسيرة هاتين الشخصيتين يتبدّى له أيضاً أن كليهما قد عانى من مِحَنٍ تكاد تكون واحدة مثل التعرّض للحسد من الخصوم، والتشرُّد عن الوطن في أيام الفتن، وكذلك النهاية المفجعة لكلّ واحدٍ منهما، فمثلما قُتِلَ لسانُ الدين بأمر من سلطانه الذي خدمه لسانُ الدين نحو عقدين من الزمن(١)، كذلك توفي ابن عاصم، الذي خدم سلاطين غرناطة زمناً طويلاً، ذبيحاً من جهة السلطان.

ويبدو أن اقتران اسم ابنِ الخطيب باسم ابنِ عاصم كان أمراً شائعاً، إذ نجد الشاعر محمد بن عبد الكريم القيسي البسطي يمدح أبا عمرو بنَ منظور المتوفّى سنة ٨٨٨ هـ ويصف بلاغته فيقول(٢):

فمن ابنُ عاصم أو من ابنُ خطيبِها؟!
ومن الرئيسُ فتى بني الجيّاب؟!

ص ـ آثار ابن عاصم:

كان أبو يحيى بن عاصم صاحبَ ثقافةٍ متنوّعة تجمع بين الفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك من علوم عصره، وعلى الرغم من انشغاله بالوظائف السياسية والإدارية الكثيرة، إلاّ أنه لم ينقطع أيضاً عن الكتابة والتأليف والمشاركة في الحياة العلمية في مملكة غرناطة. وقد وضع عدداً من المؤلفات في موضوعات شتّى. وقُدّر لبعض هذه المؤلفات أن تصل إلينا بينما ضاع بعضُها الآخر.

وفيما يلي أسماء المؤلفات حسبما ورد ذكرها في المصادر المختلفة:

---

(١) ـ عن نهاية لسان الدين بن الخطيب انظر: نفح الطيب ٥ / ١٠٤ ـ ١١٢، أزهار الرياض ١ / ٢٢٤ ـ ٢٣١.

(٢) ـ البسطي آخر شعراء الأندلس ص ١٣٦ (نقلاً عن ص ٨٤ من ديوان البسطي المخطوط).

١ ـ جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى.
٢ ـ الروضُ الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض[١].
ذيّل به إحاطةَ ابن الخطيب[٢].

وفي هذا الكتاب فصل بعنوان «شموسُ العَصْر في ملوكِ بني نصر»[٣] يظهر أن فيه تراجم لملوك بني نصر ملوك غرناطة حتى عصر المؤلف، ولو وَصَلَنا هذا الكتابُ لكان ذا فائدة جليلة لأنّه يغطي فترةً غامضةً من تاريخ مملكة غرناطة (أعني النصف الأول من القرن التاسع الهجري بما في ذلك عصر المؤلف).

وقد وَقَعَتْ من كتاب «الروض الأريض» نُتَفٌ في كتاب نفح الطيب وأزهار الرياض للمقّري[٤].

كما عثر على ورقة واحدة من هذا الكتاب في مكتبة الاسكوريال تحمل عنوان: «قطعة من كتاب الروض الأريض فيمن لقيتُه من أهل القريض»، وهي ضمن المجموعة رقم ١٨٧٩ / ٥، ورقم هذه الورقة ٢١ / ٥، وقد كُتِبَتْ في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين[٥].

٣ ـ شرحُه على تُحْفَةِ أبيه، وهو شَرْحٌ على أرجوزة «تُـحْفَة الحُكّام» لوالده

---

(١) ـ ذكرها المقّري في نفح الطيب ٦ / ١٤٦، ١٤٨، وفي أزهار الرياض ١ / ٥٨ ـ ٥٩، ١٤٥، ١٧١. كما ورد ذكره في إيضاح المكنون ١ / ٥٨٧، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٢) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، هدية العارفين ٢ / ١٩٩، نيل الابتهاج ٣١٣، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٦، أزهار الرياض ١ / ٥٨.

(٤) ـ انظر ترجمة ابن فتّوح نقلاً عن «الروض الأريض» في أزهار الرياض ١ / ١٧١، وترجمة الغنّي بالله ت ٧٩٣ عن «الروض الأريض» في نفح الطيب ٦ / ١٤٦، وأزهار الرياض ١ / ٥٨ ـ ٦٠.

(٥) ـ انظر مجلة القنطرة Alcantara العدد الثاني ص ٤٢ (مدريد ١٩٨١).

القاضي أبي بكر محمد بن عاصم، في الأحكام. ويصفه التُنْبُكْتي في «نيل الابتهاج» بأنه «شرحٌ حسن وفيه فقه متين وتصرف عجيب ونقل صحيح»[1]. كذلك يصفه أبو العباس المقّري بالشرح العجيب ويقول: «وهو كتاب نافع فيه فقه متين ونقل صحيح»[2].

وورد ذكر هذا الشرح في غير ما مصدر[3].

وتوجد منه نسخ مخطوطة في المكتبة الوطنية في تونس وخزائن أخرى متفرّقة. أما أرجوزة والده التي شرحها ابنه أبو يحيى فتسمّى: «أرجوزة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام» وهي مطبوعة طبعات كثيرة عربية وأجنبية.

٤ ـ ولأبي يحيى بن عاصم «تقييدٌ عرّف فيه أهلَ بيته»[4].

٥ ـ وله تآليف وتعاليق في مسائل (فقهية)[5].

٦ ـ ووقع بينه وبين عصريّه الإمام المفتي الصالح أبي عبد الله السرقسطي نزاع في مسائل ومراجعات مع التزام كل منهما حسن الأدب مع صاحبه شأن سادات العلماء[6].

٧ ـ وله فتاوى مختلفة وقع بعضُها في كتاب «المعيار المعرب» للونشريسي[7].

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٢) ـ أزهار الرياض ١ / ١٤٥.

(٣) ـ نفح الطيب ٦ / ١٤٨، المعيار المعرب ٣ / ٢٨ (ويسميه شرح رجز الحكام) ٣ / ٢٥، توشيح الديباج ١٢٦، طبقات المالكية ٤٣٨، نيل الابتهاج ٣٤٢، شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨.

(٤) ـ ذكره التنبكتي في نيل الابتهاج ص ٢٨٥، ٢٨٩ ونقل منه.

(٥) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٦) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٧) ـ انظر مثلاً: المعيار المعرب ٣ / ٢٥، ٢٨، ٥ / ٢٠٠.

جنة الرضا

في التسليم لما قدّر الله وقضى

أ ـ المصادر التي ذكرته:

كتابُ «جنّة الرضا» من المصنفات الغريبة في موضوعها وطريقة تأليفها، ولذلك نال هذا الكتابُ اهتماماً كبيراً منذ تأليفه، وقد ورد ذِكْرُه في عددٍ من المصادر الأدبية وكتب التراجم، نذكرها فيما يلي:

١ ـ نيل الابتهاج للتنبكتي، ذكره ضمن مؤلّفات ابن عاصم[١].

٢ ـ هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي، وسمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله تعالى وقضى»[٢].

٣ ـ إيضاح المكنون لاسماعيل باشا البغدادي، وورد اسمه فيه «جنة الرضا في التسليم لما قدّر الله تعالى وقضى»[٣].

٤ ـ أزهار الرياض لأبي العباس المقّري، وقد مدح المؤلّف كتابَ «جنة الرضا» وقال فيه: «وهو كتابٌ عجيبٌ جدّاً غريب، رأيتُ بَعْضَهُ بتِلِمسْان»[٤]. كما أنه اقتبس منه عدة اقتباسات بيّناها في حواشي النصّ المحقّق.

٥ ـ نفحُ الطيب لأبي العباس المقّري، وقد ذكر المقّري كتاب «جنّة الرضا»[٥]. واقتبس منه عدة اقتباسات بيّناها في حواشي النصّ المحقّق.

٦ ـ شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة لمحمد بن محمد بن مخلوف وقد سمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر وقضى» وقال عنه: «كتابٌ عجيبٌ

---

(١) ـ نيل الابتهاج ٣١٣.

(٢) ـ هدية العارفين ٢ / ٢٠٠.

(٣) ـ إيضاح المكنون ١ / ٣٦٩ ووردت الإشارة إليه أيضاً في الجزء الأول ص ٥٧٨.

(٤) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠، وورد ذكره أيضاً في مواضع أخرى من أزهار الرياض (انظر: ١ / ١٤٥).

(٥) ـ نفح الطيب ٤ / ٥٠٧ ـ ٥٠٨، ٦ / ١٤٨.

جدّاً غريب ألّفه ينذُبُ بلادَ الأندلس ويحرّكُ عزائِمَ الإسلام لنُصْرةِ الدين لمّا استولى العدوُّ على غالبِ تلك البلاد. »[1].

ب ـ ظروف التأليف وأسبابه:

ورد في أزهار الرياض للمقّري أن ابنَ عاصم «عندما رأى اختلالَ أمر الجزيرة وأخْذَ النصارى لمعظمها، ولم يبقَ إذ ذاك بيد المسلمين إلاّ غرناطةُ وما يقربُ منها، مع وقوع فِتَنٍ بين ملوك بني نصر حينئذ، ثم أفضى المُلْكُ إلى بَعْضِهم بعد تمحيصٍ وأمور يطولُ بيانُها، ألّفَ كتاباً سمّاه «جنّة الرضا في التسليم لما قدَّر الله وقضى» وهو كتابٌ عجيبٌ جدّاً غريب، رأيتُ بَعْضَه بتلمسان، ونقلْتُ منه ما نصّه. . . »[2].

ويقولُ محمد بن محمد بن مخلوف في «شجرة النور الزكية» إنّ ابنَ عاصم ألّفَ هذا الكتاب «ينذُبُ بلادَ الأندلس ويحرّكُ عزائِمَ الإسلامِ لنصرة الدين لمّا استولى العدوُّ على غالبِ تلك البلاد»[3].

والمطالعُ لكتابِ «جنّة الرضا» لابن عاصم لا يجد فيه ما ينصُّ نصّاً مباشراً على هذه الدوافعِ التي ذكرها المقّري وابن مخلوف. ولكنّه ربما استنتج أن أجواء الفتن التي كانت تسود مملكة غرناطة في أيامه لم تَغِبْ عنه أثناء تأليف هذا الكتاب؛ ولعلّ تلك الأجواء كانت من بين الحوافز التي حفزته إلى تأليف هذا الكتاب في موضوع «المحنة والابتلاء» وهو ما كانت تمرّ فيه الأندلس. ولعلّ استكثارَ المؤلّف من الاستناد إلى أحداثٍ تاريخية كانت غرناطةُ مسرحاً لها في عصره، يدلُّ على أنّه ربّما كانت هنالك علاقةٌ بين تأليف «جنّة الرضا» وبين تلك الأحداث التاريخية. وهنالك إشاراتٌ وردت في مقدمة هذا الكتاب تدلُّ على تلك العلاقة، فمن ذلك قوله: «ثم إذا نَظَرْنا جاري عادة الله

---

(1) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(2) ـ أزهار الرياض ١ / ٥٠.

(3) ـ شجرة النور الزكية ١ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

في خلقه فالزمانُ في إدبار والخيرُ في انتقاص والشرُّ في ازدياد والصلاحُ في اضمحـلال، حسبما وعد بذلك الصادقُ المصدوق، فما الذي يُطلَبُ وقد انتصف القرنُ التاسع، وتباعَدَ بنا عن مظانّ رحمةِ الله الوطنُ الشاسِع؟! . . »[1].

ويهدِفُ ابنُ عاصم من كتابه هذا إلى تقديم العظة والعبرة والتنبيه من الغفلة لأهل عصره، فيقولُ في مقدّمته: «أما بعد، فإن في حوادثِ الأيّام لأولي الأفهام اعتباراً، وفي طوارق الليالي، لأرباب الهمم العوالي، اختباراً، وفي مجاري الأقدار للذواتِ الشريفةِ الأقدار استبصاراً. . . »[2].

ولعل المقصودين بهذا الاعتبار من حوادث الأزمان هم أهل غرناطة وملوكها.

ويربط ابنُ عاصم بين الحوادث التاريخية الماضية والحوادثِ التي وقعت في غرناطة في أيامه، وكأنه أراد أن يستخلِصَ العِبَرَ مِنْ الحوادث الماضية لوضع تلك العبر في خدمة الحوادث التي عايشها وشاهدها في غرناطة، إذْ نراه يقول في مقدّمة كتابه:

«وإني وقفت بالحِنْكَةِ والتجربة من استحالة أحوالِ الدنيا، وسُـرْعةِ تقلّبها إلى الغاية القصيا، مما كان لي مَدْرَكاً علمياً، وحاصلاً حصولاً حِكْميّاً، على عجائبَ حتى ليس فيها عجائب، وغرائبَ تُستحلى بها أسمارٌ وتُحْدى نجائب، شاهدتُ فيها أنواعاً من العِبَر وعايَنْتُ بها أشباهاً من الآياتِ الكُبَر، ووقفت منها على أنموذجٍ من قيام الساعة، واعتبرتُ منها بمختلف من عاقبةِ المعصية والطاعة. . . » إلى أن يقول: «فقد كان في أحوال الوقتِ الراهنة عَجَبٌ عجاب وبرهانٌ لا يَكْتُمُ نُورَهُ حِجاب، وقياسٌ اكتنف مقدماتِهِ الكليّةَ سلبٌ وإيجاب، بينما الوجودُ مستقرّ، وسير فلكه مستمِرّ، ومعالمه في سُكون ودَعة، ومواسِمُهُ في نمو وسَعة، وأهلهُ في غفلة لاهون، وأربابُه في غمرة ساهون، والأعمال

---

(1) ـ جنة الرضا ص ٧ ـ ٨ من الأصل المخطوط.

(2) ـ نفسه ص ٣.

مختلفة بين معصية وطاعة، وجدٍّ وإضاعة، وصحيحٍ وفاسد، ونافقٍ وكاسد، وحقٍّ وباطل، وحالٍ وعاطل، وصحيح ومعتلّ، وقويم ومختلّ، وكلٍّ ذلك قد اشتمل عليه الكتاب، واستُقْبِلَ به الحساب، وإذا بالآياتِ ظاهرةُ الآيات، والحوادثُ الكُبَرُ آتيةٌ بالعبر. . .»(1).

ولعل هذا الهدف، هو الذي جعل ابن عاصم يضع لكلّ صورةٍ من صُوَرِ الابتلاء خاتمة أطلق عليها اسم «خاتمة الصورة» وضمنها الحوادثَ التاريخية التي وقعت في غرناطة في عصره مما يناسب تلك الصورة.

ويُفْهَمُ من مقدمة المؤلف أنه كان في ضيق ومعاناة دَفَعَتْهُ إلى تأليف كتابه ليكون الكتابُ مرشداً له ولمن هو في مثل حاله للصبر على مضض الحوادث؛ ولذلك يقول في وصف الكتاب:

«أرودُ منه أنا ومن يكون في مثل حالي الوقتيّة روضاً يجتني منه ثمراً، ويقتطِفُ منه زهراً، ويُسَرِّحُ منه ناظِرَهُ في حدائق ذات بهجة، ويثني منه على حسن طويّة وصدق لهجة، يرشده للصبر على مضض الحوادث، والرضا بما يأتي به القضاء من الخطوب والكوارث، والتفويض لله في مواقع أقداره، والتسليم له في إيراد كلّ أمرٍ وإصداره»(2).

أما سببُ تسمية الكتاب بـ «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى» فهو ما يذهب إليه المؤلف من ضرورة تفويض الأمور لما يقدّره الله ويقضيه، وينصّ المؤلف في مقدمة كتابه على هذه التسمية فيقول «وسميته بجنّة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى»(3).

وإلى جانب دعوته لتفويض الأمور إلى الله تعالى، فإنّ المؤلفَ يرشدنا إلى وسائل مواجهة كلّ صورة من صور المحن والابتلاء التي تواجه الإنسان

(1)- نفسه ٣ - ٤.
(2) - نفسه ص ١٢.
(3) - نفسه ص ١٢.

أفراداً وجماعات في الأموال والممتلكات والنفوس. وعلى ذلك فإن ابن عاصم يقيم كتابه على مبدأ العمل والتوكّل وليس على أساس التواكل.

جـ ـ زمن التأليف:

ذكر المؤلِّفُ في أكثر من موضع في هذا الكتاب زمن تأليفه له، وذلك على النحو التالي:

١ ـ ورد في مقدمة الكتاب النصّ التالي: «فما الذي يُطْلب وقد انتصف القرن التاسع...»[١].

ويفهم من هذا القول أن المؤلف كان يضع كتابه بعد عام ٨٥٠ هـ.

٢ ـ وعندما يتحدّث عن الجرادِ الذي انتشر في غرناطة يقول:

«... لهذا الجراد المنتشر اللاحقة غائلتُه شرقيَّ هذا الوطن في هذا العام الذي هو عام اثنين وخمسين وثمانمائة»[٢].

٣ ـ ويتحدث عن هجومٍ للنصارى على ظاهر مربلّة فيقول:

«وأنا أقول إن هذا اللطفَ الواقع اليومَ في هلاكِ هؤلاء النصارى بظاهر مربلة...... في يوم الخميس الثامن لشهر الله المحرم فاتح عام اثنين وخمسين وثمانمائة»[٣].

ويفهم من هذين النصين أن ابن عاصم كان يعمل في تأليف كتابه عام ٨٥٢ هـ.

٤ ـ ويقول في موضع آخر:

«وفي صفر من صدر سنتنا هذه التي هي عام أربعة وخمسين وثمانمائة اشتعلت به في الوطن نارُ الفتنة»[٤].

---

(١) ـ نفسه ص ٨.

(٢) ـ نفسه ص ٧٢.

(٣) ـ نفسه ١٥٢.

(٤) ـ نفسه ص ٥٧.

وواضحٌ من هذا النصّ أن المؤلّف كان يقوم على تأليف كتابه سنة ٨٥٤ هـ. والمتابع لهذه الإشارات يلاحظ أن المؤلف قد أورد تاريخين مختلفين لزمن تأليف كتابه، ولكنهما تاريخان متقاربان. ولست أرى في ذلك خلافاً وإنما يمكن تفسيرُ ذلك بواحدٍ من الاحتمالين التاليين:

الأول: أن يكون ابنُ عاصم قد شرع في تأليف كتابه بعد عام ٨٥٠ هـ وانتهى من تأليفه وتصحيحه ومراجعته والإضافة إليه سنة ٨٥٤ هـ.

الثاني: أن يكون المؤلّف قد نقل من مذكّرات أو حوليّات مكتوبة في سنوات مختلفة.

د ـ منهج المؤلف:

بدأ ابنُ عاصم كتابَه بمقدّمة طويلة استغرقت سبعاً وثلاثين صفحة من أصل صفحات المخطوطة البالغة ثلاثمائة ونيفاً وعشرين صفحة. وجعلها في قسمين: الأول مقدمة للكتاب تحدّث فيها ابن عاصم عن دواعي التأليف ومنهجه فيه وأقسام الكتاب. والثاني مقدمة لموضوع المحن التي تصيب بني البشر؛ وقد أفاض المؤلّف في هذه المقدّمة ببيان رأيه في المِحَنِ التي تلحق بني البشر والوسائل الشرعية لمواجهتها والتغلّب عليها ومنافع الاعتبار بها. ويستطرد من ذلك للحديث عن موضوعات كثيرة مثل السياسة والحكم والعلاقات البشرية والآثام والتوبة والصبر والشكر والثواب والعقاب وغير ذلك. ثم نظم المؤلف أفكاره التي أوردها في مقدّمته في أرجوزةٍ طويلة من مائة وعشرين بيتاً.

كما تحدّث المؤلفُ في هذه المقدمة عن سبب تسميته لكتابه، باسم «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى»[1]، وذكر الصور الستّ للابتلاء وهي التي استند إليها في تقسيم كتابه وهذه الصور هي:

---

(١) ـ انظر جنة الرضا ص ١٢ من الأصل المخطوط.

الصورة الأولى: أن يكون الابتلاءُ في المقتنياتِ العزيزةِ على النفوس كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك متوقَّعاً في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورة الثانية: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال وهو مأمولُ الجَبْرِ ومَرْجوُّ الزوال.

الصورة الثالثة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحالِ إلّا أنّه غيرُ مأمولِ الجَبْرِ ولامرجوُّ الزَّوالِ.

الصورة الرابعة: أن يكونَ في النفوسِ أو ما لحق بها من أعضاءٍ وقُوى متوقَّعاً، في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورة الخامسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها في الحال وهو مع ذلك مرجوُّ الزوال.

الصورة السادسة: أن يكون الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلّا أنّه غيرُ مرجوِّ الارتفاعِ والزوال[١].

كما أشار المؤلف في هذه المقدمة إلى جوانب من منهجه في تأليف كتابه[٢].

وقد عرض ابن عاصم مقدّمة كتابه بأسلوب يعتمد على الدقة في اختيار الألفاظ الدالّة على ما يذهب إليه، ويقوم [٦]إلى الإطناب والتبسّط في استخدامه وسائل الإقناع، كما يتّسم هذا الأسلوب بالتفنن في استخدام أنواع التلاعب اللفظي من سجع وجناس وطباق وتساوي الجمل. أما منهج المؤلّف في معالجة كلّ صورة من صور الابتلاء الست التي أوردها في كتابه، فإنّه يقوم على ذِكْرِ الصورةِ الرئيسية وبيان ما قد يندرج تحتها من أنواع الابتلاءات والمِحَن، ويتحدّثُ عن مصدر هذا الابتلاء وطُرُقِ مواجهته، مستشهداً على ذلك بآياتٍ من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة وأقوالٍ للسلف الصالح وغيرهم وإيراد

---

(١) ـ انظر جنة الرضا ص ١٣ من الأصل المخطوط.

(٢) ـ نفسه ص ١١ ـ ١٢.

للأشعار والقصص والحكايات التي تَقَعُ للناس في القديم والحديث. وقد بيّن ابنُ عاصم هذا النهج في مقدّمة كتابه إذ نراه يقول:

«. . . ووقف الاختيارُ مما صَحَّ نقلاً واعتماداً عليه، والتوشيحُ لذلك كلّه بأبيات شعرية وفصولٍ نثرية حسنةِ الموقع فيما يُتَخَيَّرُ لها من الموضع، والاستظهار على ذلك بالحكايات ممن وقع له من الناس قديماً أو حادثاً مثل ذلك الابتلاء، وما لله تعالى في جَبْرِ أحوالهم وتبليغ آمالهم من المواهب والآلاء، والاستطراد إلى ما يتعلّق بذلك كله من وفاء صديق عدّ وفاؤه من أتم الألطاف الخفية، . . . والإلمام بما ورد من الوصايا بعدم مطاوعة مقتضى الأحزان، والإشارة إلى ما يُلْتَمَسُ من ذلك من نصوص السنة والقرآن، حتى يكونَ بحول الله ـ كتاباً مُـمْتِعاً وتأليفاً مُقْنِعاً، أرود منه أنا ومن يكون في مثل حالي الوقتيّة روضاً يجتني منه ثمراً، ويقتطِف منه زهراً. . . »(١)

وقد جعل المؤلف لكلّ صورة من الصور الستّ خاتمة سمّاها «خاتمة الصورة» قصرها على سوْق حوادث من عصره في غرناطة مما يلائم تلك الصورة، وكأنه قصد من هذا الترتيب أن يضع خلاصَة ما يصلُ إليه من عَرْضِ كلّ صورة في خدمة خاتمة الصورة.

ويذكر لنا المؤلف سبب إيرادِه للحكايات المختلفة في كتابه فيقول: «وإنما القصد بذلك عدم الإملال وأن يكون الناظر في الكتاب ينتقل من حال إلى حال»(٢).

وقد يجد الباحث في هذا الكتاب بعضَ أوجه الشبه بينه وبين كتاب «الفَرَج بعد الشِدّة» للتنوخيّ لأنّ كثيراً من الحكايات التي يوردها ابنُ عاصم في جنّة الرضا يمثل الفرج الذي يتبع الشدائد، كما أن ابن عاصم أكثر من النقل عن كتاب «الفرج بعد الشدة».

---

(١) ـ نفسه ص ١١ ـ ١٢.

(٢) ـ نفسه ص ٧٧.

وقد ألّف في موضوع المحن قبل ابنِ عاصم عددٌ من المؤلفين منهم أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة **٣٣٣** هـ في كتابه الموسوم بالمحن (وهو منشور)، وقد كانت تلك المؤلّفات تقوم على الترجمة للأشخاص أو إيراد الروايات فقط وأنّ أحداً من مؤلّفيها لم يسبق ابنَ عاصم إلى طريقته هذه في التأليف الذي يعتمد تصنيف المِحَنِ إلى صور وأنواع مع تحليلٍ للحكايات والقصص التي تندرج تحت كل صورة واستخراج العبر والدروس منها، ووضع قواعد وحدود لها.

والمتأمّل لمنهج ابن عاصم في «جنّة الرضا» يلاحظ تشابهاً من جهة اخرى مع رسالة طوْق الحمامة في الأُلفة والأُلاّف لابن حزم، ليس في موضوعها بل في منهجها وذلك من جهة تمثيل ابن عاصم بحوادث مما وقع له وحوادث تاريخية في الأندلس شاهدها وشارك فيها، كما فعل سابقه ابن حزم في موضوع «العشق».

ويسجّل لابن عاصم في هذا الكتاب دقّة النقل، وردّ الحكايات والروايات والأقوال إلى مصادرها وقائليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومما يُسَجَّلُ له أيضاً حرصُه على تقديم الأدلّة المقنعة لآرائه المختلفة، ولم يكتف بإيراد الأدلّة النقلية من نصوص القرآن والسنّة وغيرهما بل أضاف إلى ذلك أدلّةً عقلية وعمليّة، جعلته قادراً على النفاذ إلى عقول قرّائه ووجداناتهم.

وقد ساعده على ذلك خبراتُه الطويلة وثقافته الواسعة. ونجد المؤلف يتعامل مع الروايات والحكايات المختلفة بروحٍ علمية دقيقة إذ يَعْمَلُ على تحليلِ الحكايات والأخبار تحليلاً يستخلص منها عصاراتٍ مفيدةً يقدّمها للناس المبتلين بحوادث الزمن، وهو بذلك أشبه بالطبيب النفساني الذي يعرفُ ما في بواطنِ مرضاه وما يمكن أن يبعثَهُ في تلك النفوس من الأمل والراحة والطمأنينة. وعلى الرغم من إيراد المؤلف لتفصيلاتٍ تاريخية عن أحداث عصره إلا أنّه

يفهم من بعض الإشارات أنه عمد إلى الاختصار[1].

هـ ـ وصف المخطوطة:

اعتمدتُ في تحقيق كتاب «جنّة الرضا» على نسخةٍ فريدة مخطوطة موجودة في الخزانة الملكيّة الحسنية في الرباط وتحمل الرقم ٢٦٤٨.

والمخطوطة في سفر ضخم يقع في ١٦٨ ورقة بخط مغربي جميل متأنق فيه بعض الشكل، وبأول هذا السفر زخرفة ذهبية كتب فيها اسم المؤلف. وفي كل صفحة من صفحات المخطوط ستة وعشرون سطراً، متوسط ما في السطر الواحد أربع عشرة كلمة في ثلثها الأوّل والأخير وخمس عشرة كلمة في ثلثها الأوسط. وقد كُتِبَ في صدر صفحة الغلاف ما نصّه:

«الحمد لله نُقِلَتْ من خطّ أمير المسلمين أبي الربيع مولانا سليمان[2] قدّس الله ثراه يوم عاشوراء... مما عمروها، قال بعض الأنبياء: يا رب إنّك تمدّ لملوك الفرس في المدّة مع كفرهم. قال تعالى: «إنهم عمروا بلادي... عبادي». والعمارة مع عدم الظلم مأمورٌ بها. والظالمون أعدّ لهم ناراً وأحاط بهم سرادقها. سليمان لطف الله به».

ويوجد في صفحة الغلاف بعد ذلك اسم المخطوط ومؤلّفه على النحو التالي: «جنّة الرضا في التسليم لما قدّر الله وقضى لولد الإمام ابن عاصم ناظم التحفة في الأدب». وفي مكان النقط كلمات تعذرت قراءتها بسبب خروم في النسخة.

وقد جرى الناسخ على كتابة أبواب الكتاب وأوائل الفقرات والحكايات

---

(١) ـ نفسه ص ٢٦٩.

(٢) ـ السلطان المشار إليه هو أبو الربيع سليمان بن محمد الحسني من ملوك الدولة العلوية الحاكمة الآن في المغرب. تولى الملك عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢م وتوفي عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م (انظر سيرته في: الاستقصاء للناصري / القسم الثالث من الجزء التاسع في الصفحات ٣ ـ ٩٧).

بخطّ عريض بالمـداد الأحمـر وخصوصاً الكلمات الافتتاحية مثل: وقال، ويحكى، وفي مثل هذا المعنى، وعن بعضهم. . . الخ، لكنه ترك بعض هذه العبارات أو الكلمات الافتتاحية في بعض الأحيان دون كتابة ليملأها فيما بعد بالمداد الأحمر، فلم يعُدْ إليها وظلّت بياضاً، وخصوصاً عندما شارف على الصفحات الأخيرة من النسخة (ص ٣١٥ وما بعدها). وقد اجتهدتُ في تقدير مواضع البياض اعتماداً على ما جرى عليه الناسخُ في مثل أحوالها السابقة لها.

وفي مواضع قليلة جدّاً كنّا نرى الناسخ يستدرك على نقصٍ أو خطأ فيجعل الصوابَ أو الاستدراكَ على هامش النسخة.

وعلى الرغم من قيام التحقيق على نسخة واحدة، إلّا أنّ هناك بعضَ الأسباب التي قلّلت من ضرورة وجود نسخة أخرى للمقابلة وهذه الأسباب تتمثل في:

١ ـ حُسْنِ خطّ الناسخ ووضوحه.
٢ ـ وُجودِ قَدْرٍ من الاقتباسات من كتاب «جنّة الرضا» في كتابَيْ أزهار الرياض ونفح الطيب لأبي العبّاس المقّري.
٣ ـ توافرِ عَدَدٍ غيرِ قليل من المصادر التي اعتمد عليها ابن عاصم في تأليفه، وخصوصاً المصادر التي اعتمد عليها في إيراد الحكاياتِ والأمثال والأشعارِ والنصوصِ التراثيّة المختلفة.
٤ ـ إلفة المحقق بلغةِ المؤلّف التي استخدمها في هذا السفر الكبير، إذ ساعدت هذه الإلفة ـ بعد قراءة المخطوطة كاملة ـ على التغلّب على صعوبة تبيّن الكلمات غير الواضحة النسخ.

و ـ منهج التحقيق:

راعيتُ في تحقيقِ هذه المخطوطةِ ما يلي:

١ ـ إذا وقع خطأٌ نحويٌّ أو إملائيّ ناجمٌ عن سَهْوٍ أو تقديمٍ لكلمةٍ أو

تأخيرٍ لها في المَتْن أثبتُّ الصوابَ في موضعه من المتن ثم ذكرتُ الأصلَ في الحاشية.

٢ ـ إذا سقطَتْ من المتن لفظةٌ أو عبارة أو سطرٌ أو أكثر، وعثرتُ على ما سَقَطَ من النصّ في مصدرٍ آخر، أثبتّ النقْصَ في موضعه من المَتْن وجعلْتُهُ بين قَوْسَيْن، وذكرتُ مصدر استدراكهِ في الحاشية.

٣ ـ في حال امّحاءِ كلمةٍ أو أكثر أو سقوطها سهواً، واستطعتُ تقديرَها، أثبتُّ ذلك في المتن وجعلتُه بين معقوفتين، وأشرتُ في الحاشية إلى أنّ الكلمةَ التي بين المعقوفتين «بياض» في الأصل وأنَّ ما أثبتُّه هو من تقدير المحقّق لها.

٤ ـ حَرَصتُ على إيراد ترجمات مختصرة مشفوعة بالمصادر للمغمور من الأشخاص والأماكن الجغرافية، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولم أترجم للأعلام أو الأماكن الجغرافية التي قَدَّرْتُ أنّها معروفةٌ للباحثِ العاديّ.

٥ ـ أوضحتُ معانيَ بعض المفردات التي تساعد معرفتُها على استجلاء أبعاد النصّ.

٦ ـ عملتُ على توثيقِ الآيات القرآنية والأحاديثِ النبوية الشريفة والأمثالِ والأشعارِ والحكاياتِ والوصايا من مصادرِها الأصليّة، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وما لم أجد له مصدراً فقد تركته وشأنه.

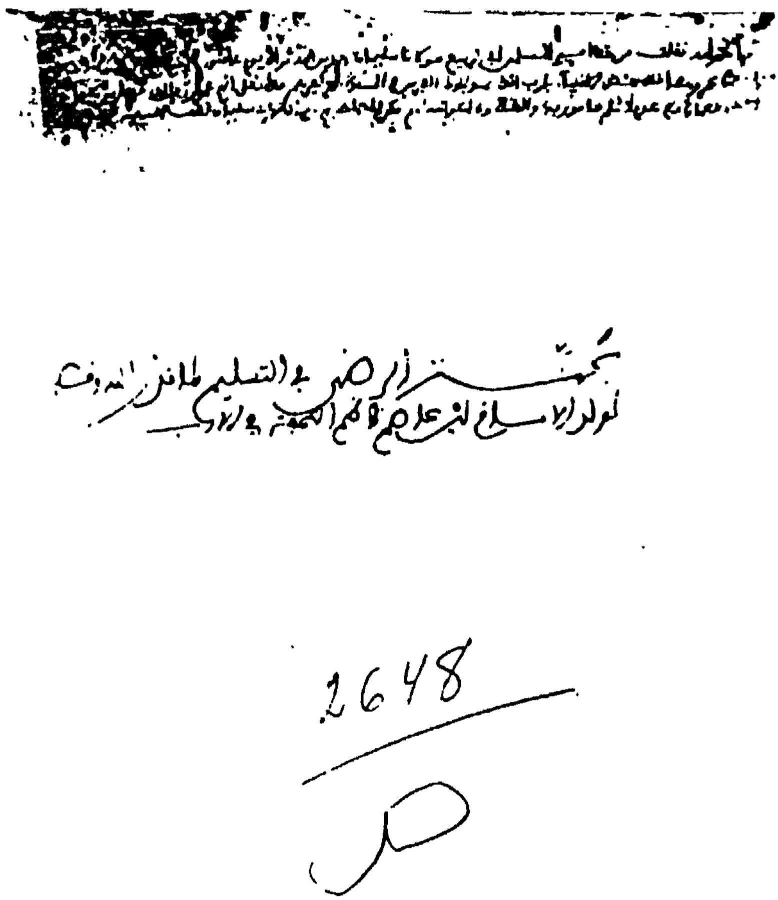
٧ ـ ذكرتُ أرقامَ الصفحات للأصل المخطوط، وجعلتُ رقم كل صفحة في بدايتها وعبّرتُ عن كل صفحة بحرف (ص) عليه رقم تلك الصفحة، وجعلتُ ذلك بين قوسين، وذلك لأنني أحَلْتُ الباحثَ في مقدّمة هذا التحقيق إلى صفحاتٍ من الأصل المخطوط.

٨ ـ حوّلتُ رَسْمَ الكلمات كما هو واردٌ في المخطوط إلى رسم حديث، فعدّلتُ ما ورد في المخطوطِ من تسهيلٍ للهمز والخلط في كتابة الألف الممدودة والألف المقصورة وغير ذلك. واستثنيت من هذه القاعدة الحالات التي يستدعي السجعُ الإبقاء على رسمها الواردِ في المخطوطة.

٩ ـ اجتهدتُ في معرفةِ قائلي الأبيات الشعرية غير المنسوبة إلى قائل، وما أعياني الوقوفُ على قائله تركته دون نسبة.

١٠ ـ أثبتُّ في الحاشية بعضَ الاختلافات الواقعة بين الروايات والأقوال والأشعار كما وردت في متن المخطوطة وما وردت عليه في المصادر الأخرى، وركّزتُ على الاختلافات التي تؤثر في معنى الرواية ومسارها.

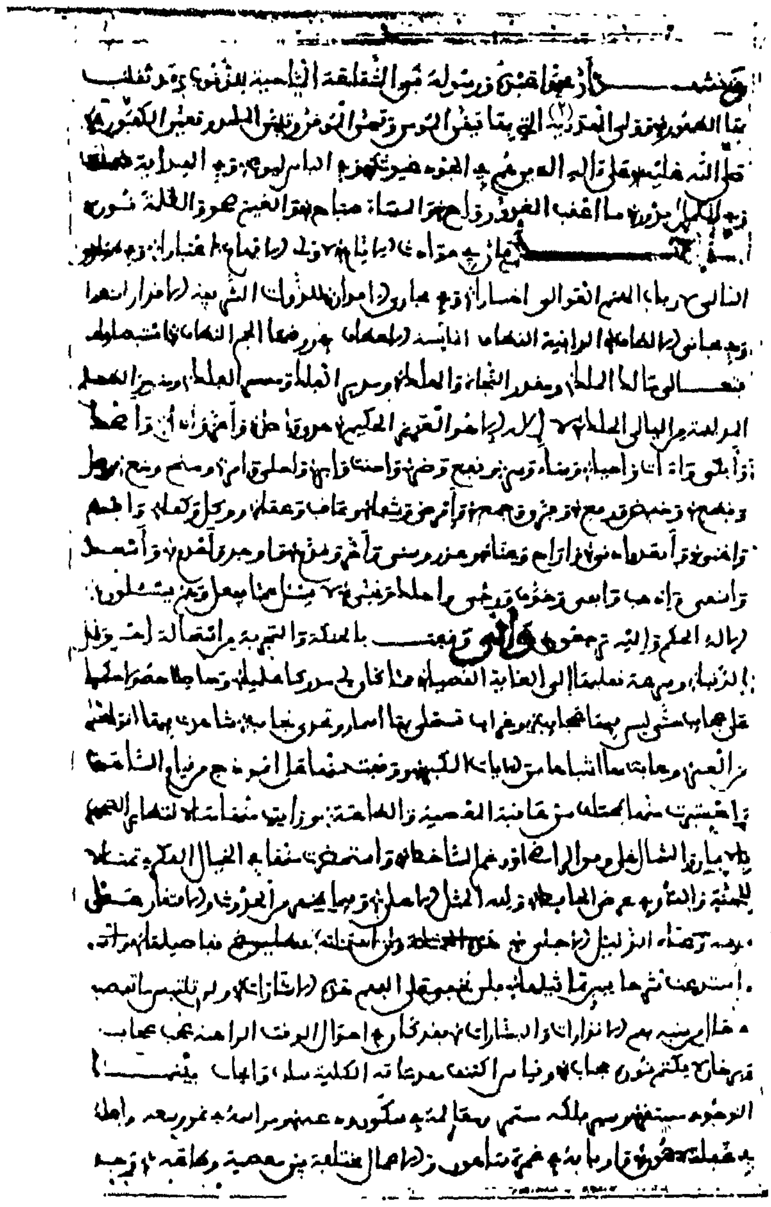
١١ ـ متى وقع في المتن اسمُ كتابٍ أو رسالةٍ لم تصلنا اجتهدتُ في ذكر أسماءِ المصادر الأخرى التي ورد فيها ذكرُ ذلك الكتاب أو الرسالة.



صفحة الغلاف



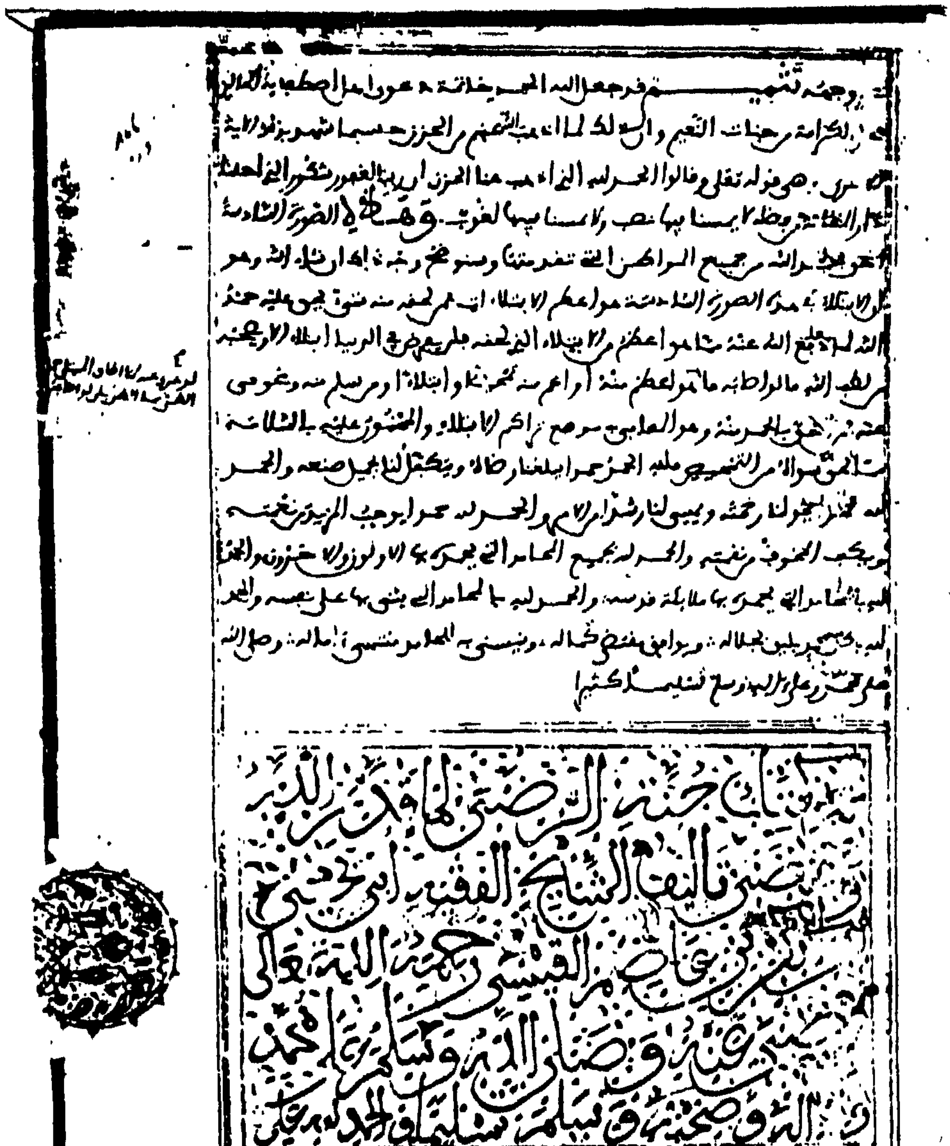
الصفحة الثانية



الصفحة الثالثة

ملقيها في الخطأ والشك ولم تنفسح الشقة لا سيما إن كانت الرواية التي أرت على ساق [illegible]
مختلفة الرواية جمة والأزلة الثبتة علاوة على تحرير العصر واستيفاء [illegible]
فتعين ذلك كله من حمل الشيخ وكرم النادي ما كان سببا في نفاسة العرض [illegible]
الكامل والفهم من سني المقاصد منتهى الرشد جعله الله من الشاكرين لنعمه [illegible]
عليه وأدامه منعما إليهم يختم به صدر الصدرة من شطور العالم [illegible]
الجناب العلي بسابقه حرمة. إذا عدة ذمة، من أعجب العجائب وأبدع الغرائب
من كان له من حالة صدر أو نجم ملك الأولى لأزمة الى الصيد والطبعين من
ضبه على العكس كما ارتسم ازدحام بالطبع وبرز في سبل العبارة فاحتد الأمر
الى أن بذل الجد في الخدمة وأعمل النية في الكلاء، ولم يحصر كنه من يرجع في [illegible]
إليه وأمره أعاره ثم رفعته القدرة بما صعاب بينه ولولا ما صبنا الى رغبته هذه [illegible]
الصغير لاستوينا أهل الأرض جميعا من إلى نعمة وفيما يلي زيارته وأعمال النعمة
ووجوه البلاد ورياض الناس وأصناف الرعايا وعوام الشرفة فله في إعمالها يكتب
به وبوجه الوجوه نحوه وميلان النفوس إليه، وانعطاف القلوب عليه إذ إعجاب
شخص عن العيان أو عرض له حادث من الزمان حادثة عجيبة، ومن يعرفه
ما يكون أن ننتشر إلا الى صنع المهمو وما بيدنا ثم لا استرام ما سبح ذلك من تسهيل
أمور صعبة وتيسير أسباب عسيرة سواء أكان القرار أو القضاء النضار وطوى بساط
ذلك لا بساط، وحل أزمات ذلك لا اغتباط، وثبات في صدور كثير من العادة وزيادة
غوائل وسوكرت كوابر واعترضت علينا أشياء لو صورت من سبعة من النك [illegible]
على أن نفوسها لا لسنة، ولست السينة الحسنة، وذلك لم يكن البينة إذ [illegible]
وسقوطها الآن واستحكام الرعية في ذلك الوقت وارتفاعه عنا اليوم بل [illegible]
البيرة من بنا لا سياجات بطون محزومة وحسب منه مرموقة معارضات [illegible]
لزمنه وكثر العبرانة وحلم أكثر الصرامة وثار غلب سمات العزم واستهبال الى [illegible]
مجرى الهدم من الهزم واستنشق البعاث واستأنس الإنسان وكان العزال [illegible]
أحد من البيتين، وإقامة الحكم السياسي في كل حين الدهر إلا حي الى النفس ونصيحة [illegible]
الصنع الرباني صفات النعم ومطايا تنفع العقول المصيبة ولا ممالح النافذة وإذا [illegible]
التامة حسنة ما دون الاستيلاء على ما تحتمه من الحكم البالغة البالغة ونعمة القدرة

الصفحة قبل الأخيرة



تم كتاب جنة الرضى لما قدر الله

تأليف الشيخ الفقيه أبي يحيى

بكر بن عاصم القيسي رحمه الله تعالى

عنه وصلى الله وسلم على محمد

وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله على

الصفحة الأخيرة

جنة الرضا

في التسليم لما قدر الله وقضى

تأليف

أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي

(ص ٢) بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّد وآلهِ وصحبِه وسلّم تسليما.

[مقدّمة المؤلّف](*)

قال الشيخ الفقيه العالم قاضي الجماعة أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم رحمه الله تعالى: الحمدُ لله الذي بقَدَرِهِ الحزَنُ والفرح، والمساءة والسُّرور، وبيده البسْطُ والقَبْض، والرَّفْعُ والخَفْض، والغنى والفقر، والخَلْق والأمر، وإليه ترجع الأمور، وبقضائه المعافاة والابتلاء، والتنبيه والإملاء، والسرّاء والضرّاء، والسُّقْمُ والإبراء، والعجز والكيْس، والخفاء والظهور، وبمشيئته الشقاءُ والسعادةُ، والبدءُ والإعادة، والعزة والذلّة، والكثرة والقلّة، والحسنات والسيئات، والآثام والأجور، وعن علمه الإيمانُ والكفر، والعُرْفُ والنُّكْر، والإقبال والإعراض، والتسليم والاعتراض، والإشفاق والعجب، والخشية والغرور، ومن موعوده النعيم والجحيم، والسلسبيل والحميم، والرَّوْح والسَّموم، والطَّلح والزقّوم، والأساور والأغلال، والأرائك والأنكال(1)، والفوز والخسار، والحبور والثبور، الذي حكم بأنَّ أجر الصبر موفى بغير حساب، ولن يستوجب ذلك إلّا الصَّبور، واعلم أنّ المتبوئين لمثوى كرامته، والحالّين بدار مقامته، يقولون ﴿**الحمدُ لله الذي أذهبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغفورٌ شَكورٌ**﴾(2). نَحْمَدُهُ سبحانه، وبحمده تتم الطَّلَبات، ولمجده ترفع الرغبات، وبفضله تُسْتَجْلَبُ الخيرات، وبعونه تُسْتَدْفَعُ الشُّرور، ونشكره جلّ وعلا، وشكره عملٌ لا يضيع

---

* ـ العنوان الذي بين المعقوفتين من إضافة المحقّق.

(1) ـ الأنكال: جمع نِكْل، وهو القيد الشديد، أو قيد من نار.

(2) ـ آية ٣٤ من سورة فاطر.

وأملٌ لا يخيب، وذخيرة لا تبيد، وتجارة لا تبور. ونستغيث به في كلّ كربٍ ألمّ، وفي كلّ خطبٍ أهمّ، فمنه الإعانة وبه الاستغاثة، وإليه النُّشور.

ونستوهب النجاةَ من مُوجب خطابه بقوله: ﴿ولكنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُم وارْتَبْتُم وغَرّتكُمُ الأمانيُّ حتى جاءَ أمرُ الله وغرَّكُم بالله الغَرور﴾(١).

(ص٣) ونشهد أنّ محمداً عبده ورسولُه نبيّ الشفاعة الماحية للذنوب، وقد ثقُلت بها الظُّهور، ووليّ الهداية التي بها تيقُّنُ المؤمن وتيمّن المُوقِن وتبيُّـن الملحد وتعيُّـن الكفور. صلّى الله عليه وعلى آله الذين هم في الجود غُيوث، وفي البأس ليوث، وفي الهداية شهبٌ، وفي الكمال بدور، ما أعقب الغدوُّ رَواح، والمساءَ صباح، والغيمَ صحوٌ والظلمةَ نُور.

أما بعد، فإنّ في حوادث الأيّام، لأولي الأفهام، اعتباراً، وفي طوارق الليالي، لأرباب الهمم العوالي، اختبارا، وفي مجاري الأقدار، للذوات الشريفة الأقدار استظهاراً، وفي مجاني الألطاف الدانية القطاف، المائسة الأعطاف، في روضها الجمّ النطاف، استبصاراً، فتعالى مالكُ الملك، ومقدِّرُ النجاة والهلْك، ومدبّرُ الفَلَكِ ومُسخّرُ الفُلْك، ومنوِّرُ الظُّلَم المدلهمّة من الليالي الحُلْك، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، هَدى وأضلّ، وأعزّ وأذلّ، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وساء وسرّ، ونفع وضرّ، وأحنث وأبرّ، وأحلى وأمرّ، ومنح ومنع، ووصل وقطع، وخفض ورفع، وفرّق وجمع، وأمرض وشفى، وعاقب وعفا، ووكل وكفَى، وأفقر وأغنى، وأبعد وأدنى، وأراح وعنّى، وعذر وسنّى، وأخّر وقدّم وأوجد وأعْدَم، وأسعد وأشْقى، وأذهب وأبقى، وخوّف ورجّى، وأهلك ونجّى ﴿لا يُسْئَلُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْئَلون﴾(٢) ألا ﴿له الحُكْمُ وإليه تُرْجَعون﴾(٣).

---

(١) - آية ١٤ من سورة الحديد.

(٢) - آية ٢٣ من سورة الأنبياء.

(٣) - من الآية ٨٨ من سورة القصص.

وإني وقفْتُ بالحِنكةِ والتجرِبةِ من استحالة أحوال الدنيا، وسرعة تقلُّبها إلى الغاية القصيا، مما كان لي مَدْرَكاً علميّاً، وحاصلاً حصولاً حِكْمياً، على عجائب حتى ليس فيها عجائب، وغرائب تُسْتَحْلى بها أسمارٌ وتُحدى نجائب، شاهدتُ فيها أنواعاً من العبر وعاينت بها أشباهاً من الآيات الكُبَر، ووقفتُ منها على أنموذج من قيام الساعة، واعتبرت منها بمختلِفٍ من عاقبة المعصية والطاعة، ورأيت منها مثالاً لتطاير الصُحُفِ بالأيْمان[1] والشِمال[2] على وفق الراضي أو رغم الساخط. واستحضرت منها في الخيال الفكريّ تمثالاً للجنة والنار في عرض الحائط، ولله المثل الأعلى، وفيما ظهر من الحدوث والافتقار على قِدمه وغناه الدليل الأجلى، هذه الجملة وإن احتملت بسطاً يوضّح تفاصيلها، واستدعت شرحاً يبيّن تماثيلها، فلن تخفى على الفهم هذه الإشارات، ولن تلتبس ما تقتضيه في حال من شبه بهم الإنذارات والبشارات، فقد كان في أحوال الوقت الراهنة عجبٌ عجاب، وبرهانٌ لا يكتم نوره حجاب، وقياس اكتنف مقدماتِه الكليّة سَلْبٌ وإيجاب، بينما الوجود مستقر، وسير فَلكِه مستمرّ، ومعالمه في سكون ودَعة، ومواسمه في نمو وسَعة، وأهله في غفلة لاهُون، وأربابُه في غمرة ساهون، والأعمالُ مختلفةٌ بين معصية وطاعة وجدٍّ (ص٤) وإضاعة، وصحيحٍ وفاسد، ونافقٍ وكاسِد، وحقٍّ وباطل، وحالٍ وعاطل، وصحيحٍ ومعتلّ، وقويمٍ ومختلّ، وكلُّ ذلك قد اشتمل عليه الكتاب، واستُقْبِل به الحساب، وإذا بالآيات ظاهرةُ الآيات، والحوادثُ الكُبَر آتيةٌ بالعِبر، مِنْ سدٍّ صار دكّاً، ونبأ عظيم صَحّ وكان شكّاً، وصوتٍ لا يُسْمَعُ إلاّ همسُه، وغدٍ قصُر عن حادثه أمسُه، ويوم طَلَعَتْ من المغرب شمسُه، إلى أن قامت القيامة، ووقعت الحسرةُ والندامة، وفرَّ المرءُ عمّن فرّ[3]، وقال الإنسانُ يومئذٍ أين المفرّ، وراعَ موقفُ السؤالِ والعَرْض، وعظُمَ مقامُ المجازاة على هذا

(١) - جمع يمين ضد اليسار.

(٢) - مما تُجمع عليه «الشِمال» بقاؤها بلفظ الواحد.

(٣) - يشير إلى الآيات الكريمة: ﴿يَوْمَ يفِرّ المَرْءِ من أخيه، وأُمِّهِ وأبيه، وصاحِبَتِه وبنيه، لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغْنيه﴾. (الآيات ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس).

الفَرْض، وحضر المطيعُ والعاصي، وحُشِرَ الداني والقاصي، وأهمت كلَّ واحد منهم نفسُه، واختلف على حسب سابقته حدسُه، فمن سابقٍ قصدُه قد نجح، ووزنه بسواه قد رجح، فهو من تقريبه قد انتهى إلى سِدْرة المنتهى، ومن ذاهب من أهل الدثور بالدرجات العُلى، فاز بخير الآخرة والأولى، فما على سبقِه غِشا، وذلك فضلُ الله يوتيه من يشا، ومن مرضيٍّ عنه قيل له اعمل ما شئت فمسموحٌ لك ما فيه قَصَّرْت، ومقبولٌ منك ما به جئت، ومن ناجٍ ولا عمل له إلّا الشهادة، وقد استوجب بها الحسنى والزيادة، ومن مطيعٍ قد ظهرت عليه آثارُ طاعته فأوتي كتابهُ بيمينه لتعيين طاعته، ومن مستظْهِرٍ بالطاعة وقد نَقَصَتْهُ شروطُها، وأَعْوَزَهُ مشروطُها، فنال دون ما أمّله، وقيل لا أَمٌّ له، ومن عاصٍ قد غُفِرت ذنوبه، وظهرت لعين الرضا عيوبه، ومن مُخَلّطٍ[1] ركَنَ إلى مقبول التوبة، وفاز من قصده بمحمود الأوبة، ومن موبق استنقذته الشفاعة من زلله، وأبرأته العناية اللاحقة من علله، ومِنْ أَخْسَرَ في عمله، أهوجَ في أمله، قد ضلّ سعيُه وهو يحسب أنه يُحْسِن صنعاً، وفال رأيُه وهو يظنّ أنه يجلب نفعاً، فَشَقِيَ مع الأشقين، وأشبه بشرر شرّه وخبيث رائحته الغِين[2]. ومن منافق قد خانه رياؤه، وفُقِد بالغشّ حياؤه، فطاح بالفضيحة عمله، وأخفق في سِجِّين[3] أملُهُ. ومن مترف كبا لفيِّه بمعاصيه، وأنزله الذنب بدرك الذلّ من فنن العزّ وصياصيه[4]، ومن مُجْرمٍ لم يقبل منه يومئذٍ فداء ولو كان ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه. ومن واقفٍ بين الخوف والرجاء، منتظرٍ لما يجري به فصلُ القضاء، قد تساوت حسناته وسيئاته، وَوَقَتْهُ قرباته وأحاطتْ به خطيئاتُه، فهو كأهلِ الأعرافْ لهم في دخول الجنّة طَمَع، وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلقاء أصحاب النار فلهم من جَعْلِهم مع الظالمين جَزَع. ولو تتبعنا التمثيلَ لطال، وسَئِمَ مُنتظِرُ

---

(١) - المخلِّط: من يخالط الأمور.

(٢) - الغِين بكسر الغين موضعُ كثير الحمّى.

(٣) - سِجّين وادٌ في جهنم.

(٤) - مفردها صِيصة وهو الحصن وكل ما آمتُنِعَ به.

(ص ٥) وعدِنا المِطال، وحسبُك ما أوردنا من نبذة كافية، وآية للمستبصرين هادية، ولله قول أبي العتاهية[1]:

ما اخْتَلَفَ الليلُ والنَّهارُ ولا دارتْ نجومُ السَّماءِ في الفَلَكِ
إلاّ لِنَقْلِ السُّلطانِ عن مَلِكٍ قد انقضى مُلْكُهُ إلى مَلِكِ

إنما قرّرتُ من هذا التمثيلِ ما قرّرت، وحرّرتُ فيه من العبارة ما حرّرت، ليكونَ لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري، ووثِقَ بما حققتُ له من اختياري تذكرة، ومن غفلةِ هذه النفوس الأمّارة بالسوء تَبْصِرة، وَلأُدْرِكَ علّتي في أخذ هذا التمثيل مأخذَ العِبرة والعِظة، والتنبيهِ به للقلوب المستيقِنة والنفوسِ المستيقِظة، فقد نُقِلَ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «نِعْمَ البيتُ الحمّام يذكِّرُ جهنّم وينقّي الدَّرَن»[2]. وقد نُقِلَ عن الربيع بن خُثَيْم[3] أنه مرّ بأتون حدّاد فغشيْ عليه، فلما أفاق سُئل عن ذلك فذكر أنه تذكّر بذلك الأتّون نارَ جهنّم أو كما حُكِيَ عنه[4]، وقال الحكيمُ ابنُ نوح[5] لبعض إخوانه: اتكأ مالكُ بنُ دينار[6] ليلةً من أوّلِ الليل إلى آخره لم يسجد فيها سَجْدة ولم يركَعْ فيها ركعة ونحن معه في البحر، فلما أصبحنا قلت له: يا مالِك لقد طالت ليلتُك لا مصليّاً

---

(١) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٣١٦.

(٢) ـ بهجة المجالس ٢ / ٩٥ (منسوباً إلى أبي الدرداء).

(٣) ـ أبو يزيد الربيع بن خُثَيْم من أعلام الزهاد والمتصوّفة، كوفي، من سادة التابعين توفي في حدود ٧٠ هـ، وقيل في حدود التسعين، وروى أحاديثه البخاري ومسلم. (حلية الأولياء ٢ / ١٠٥، الوافي بالوفيات ١٤ / ٨٠، تقريب التهذيب ترجمة رقم ١١٨٨).

(٤) ـ حلية الأولياء ٢ / ١١٠.

(٥) ـ لم أجد له ترجمة.

(٦) ـ أبو يحيى مالك بن دينار البصري، كان عالماً زاهداً وكان يكتب المصاحف بالأجرة وله كرامات، توفي بالبصرة سنة ١٣١ هـ. (انظر ترجمته في: حلية الأولياء ٢ / ٣٥٧، صفة الصفوة ٣ / ١٩٧، تهذيب التهذيب ١٠ / ١٤، وفيات الأعيان ٤ / ١٣٩).

ولا داعياً، قال: فبكى ثم قال: «لو يَعْلَمُ الخلائقُ ماذا يستقبلون غداً ما لذّوا بعيشٍ أبداً، إني والله لما رأيتُ الليلَ وهوله وشدةَ سوادِه ذكرتُ به الموقفَ وشدةَ الأمر هنالك، وكلُّ امرىء يومئذٍ تهمُّهُ نفسُهُ لا يُغْني والدٌ عن ولد ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً». ثم شَهِقَ شَهْقة فلم يزل يضطربُ ما شاء الله ثم هدأ، فحمل عليَّ أصحابُنا في المركَب وقالوا: أنت تَعلمُ أنه لا يحمل الذكر فلمَ تَهيجُهُ؟ قال: فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكُرُ له شيئاً.

وبعد الفراغِ من هٰذا المثال الذي اتضحتْ به منافعُ الاعتبار، وإتباعه بهذه الحكايات التي سُقْتُها عنه في مساقِ الاعتذار، وقفتُ للإمام أبي حامد الغزاليّ رحمه الله في بيان كيفيةِ توزّعِ الدَرَجاتِ والدَرَكاتِ في الآخرة على الحَسَنات والسَيّئات في الدنيا من كتاب التوبة من الإحياء[1] على مثال أثّر لي أُنْساً، وأذْهَبَ عني في هذا المعنى وَحْشَةً، فمن أراده فليقِفْ عليه هنالك.

ومثل هذه الحكايات عن أهل الاعتبار من المتصوّفة أولياءِ المراقبة وغيرهم كثير، والمثالُ لا يقوى قوةَ ما مُثّل به، ولا يفي بمَقْصَد البيان الواضح ومَطْلَبه، لأن القياسَ في هذا (ص ٦) المعنى لا يصحّ والحقيقة لا تُدْرَك، وإن أفرطَ في الإلحاح على إدراكها المُلحُّ، ولكنَّ المَثَلَ قد يُؤخذُ مأخذَ التقريب للفهم، أو التنبيهِ من الوقوف على شبه الوهم، وإلا فما نسبةُ الخوف والرجاء من الكبير المتعالي، وإماطة مسبّبات هذين المقامين بذلك الجناب العالي، من الخوف والرجاء من مخلوقٍ لا يملك لنفسه، فضلاً عن غيره، ضرّاً، ولا نَفْعاً، ولا يستطيع لمسرّتها ولا لمضرّتها جَلْباً ولا دفعاً، ولا يدّعي في أرزاقها وآجالها بحسب إبطائها وإعجالها وَضْعاً ولا رَفْعاً، إنما هو ربٌّ مربوب، وطالِبٌ مطلوب، وَحَكَمٌ محكومٌ عليه، وملِكٌ مملوكٌ لما لديه، استخلفه الله على خلقه، وقسم على يديه ما سنّى من رزقه، وأمره أن يقوم فيما أُسْنَد إليه من الأمور بحقّه، وجعله ظِلّاً يأوي إليه كلُّ مظلوم، وقِسْطاساً يقع به العدل بين كل خصيم ومخصوم، وقضى بأنّ الخَلْق مفتقرون إليه، وهو مفتقرٌ إليهم،

(١) - إحياء علوم الدين / أبو حامد الغزالي ٤ / ٢٣ - ٣٢.

وملتمسون ما لديه، وهو ملتمسٌ ما لديهم، ولهم النظر في شؤونهم عليه وله النصيحة عليهم.

شَهِدَ ذلك كلُّه بأن لا غِنى للناس عنه ولا غنى له عنهم، وأن لا بدّ لهم منه ولا بدّ له منهم، حتى يتبيّنَ أنّ الخلقَ كلَّهم من مَلِكٍ وسُوقةٍ، وراعٍ ورعية، فقراءُ على الإطلاق، ومُمْلِقون إلى الله كلُّ نَفَسٍ نَفْسٍ بأتمّ وجوه الإملاق، وأنَّ الغنى الذي لا يَنْفَد على الإنفاق، ولا يخشى قاصدُ بابه من الإخفاق، إنما هو غنى الواحد الخلّاق، الوهاب الرزاق، وبذلك يظهرُ معنى قوله: ﴿**يا أيُّها الناسُ أنتمُ الفقراءُ إلى الله والله هو الغَنيُّ الحميد**﴾(١).

وإذا كان ذلك كذلك فإنّما السلطان مُظْهِرٌ لحكم الله في الوجود، وسببٌ يُناطُ به ما قَدَّرَ الله من رزق أو مَنَح من جود، إلى سوى هذا من أحكام، دائرةٍ بين نقضٍ وإبرام، هو فيها بحسب إرادة الله مصرَّف، والملائم والمنافر بحسب تلك الإرادة السابقة منه متعرَّف، فإذا أعطى الله على يديْه، أو سوَّغ الفَضْلَ ممّا لديه، أو دَفعَ محذوراً بجهاده، أو نَفَعَ مظلوماً باجتهاده، فلله الحمدُ واصباً، ومنه المنّة دائباً، والدعاءُ لخليفته حقّ، والثناءُ عليه مُسْتَحَقّ، وإذا ابْتَلَى الله عبده برزق مقدور عليه، أو ضُرٍّ على يديْ من شاء من خلقه باكتساب يديْه، فلا يؤمِّل في توسعةِ رزقِه إلّا رحماه، ولا يسْألُ في صرف ما آذاه من خلقه إلّا (ص ٧) إيّاه، وليتذكر قوله تعالى: ﴿**وإنْ يَمْسَسْكَ الله بضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلّا هو**﴾(٢) وقوله صلى الله عليه وسلّم: «**ولو أنَّ الخَلْقَ اجتمعوا على أنْ يضرّوكَ بشيءٍ لمْ يقضِهِ الله لك لم يَقْدِروا عليْه**»(٣).

وكيف تُناط مسبّباتُ مقاميْ الخوف والرجاء ممّن حالته هذه الحالة، وقد عجِزَ الإنسانُ وعجِزَت المحالة، وتبيّنت من غير ما دليل في نسبة الفعل لغيرِ

---

(١) - اية ١٥ من سورة فاطر.

(٢) - آية ١٧ من سورة الأنعام، وآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٣) - مسند ابن حنبل ١ / ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

الله الاستحالة، ولكن الاعتبار بعالَم الشهادة في عالمَ الغيْب حاصل، والنظر بأن لا قياسَ بأحدهما على الآخر واصِل، والاستدلال بما ورد من الاعتبار عمّن يعتمد عن الاعتراض فاصل، فكَمْ من ناظرٍ لا يتجاوز ما دنا منه من الأسباب، ولا يسْلُكُ من مناهج الاعتبار ما يسلكه أولو الألباب، ولا يترقّى به الفكر إلى أن لا فِعْلَ إلّا لربّ الأرباب، فَيَخبط عَشْواءَ في ليلٍ بهيم، ويسْلُكُ جهلاً على غير نهجٍ قويم، ويطلبُ بالكفالة غيرَ زعيم، ويقتضي دَيْناً من غير غريم، وينسب له المطلَ فيما لم يجب عليه قضاؤه، وقد ساء بعدم الإجمال في الطلب اقتضاؤه، ويروم عمرانَ ذمة المَلِكِ بحقه والأصلُ براءة الذمم من الحقوق، ويَسْأَلُ منه الميرةَ بجانبه ذاهلاً عمّا أضاع من الواجب وارتكب من العقوق. والشاهد لهذه الجملة ما رواه عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**سيليكُمْ أمراء يُفْسدون، وما يُصْلح الله بهم أكثر، فمن عَمِلَ منهم بطاعةِ الله فلهُ الأجْرُ وعليكم الشُّكْر، ومن عمل منهم بمعصيةِ الله فعليْهِ الوِزْر وعليكُمْ الصَّبْر**»(١).

فعلى الموفَّقِ امتثالُ هذا الأمر النبويّ، وعدمُ العدولِ عن منهجه السويّ، وإذا رُوجع الإنصاف، وتُؤُمِّلَتْ بعينِ البصيرةِ الأوصاف، فإنّ الفضلَ على أمرائنا أغلب، وهم ـ ولله المنّةُ ـ إلى الخير أقرب.

ولو أنْصِفْنا من نُفوسِنا، وقايسنا بين رتبةِ رئيسِنا ومرؤوسِنا، واعتمدنا الأمرَ الواردَ في عَيْن القضية، الشاهدَ له برهان الوجودِ بأنّه من الأمور المَقْضِيّة، وهو: كما تكونون يولّى عليكم(٢). وعلمنا أنّ السيرةَ التي نحمدها منهم فإنما هي من فضلِ الله علينا، وأنّ الشيمةَ التي نذمّها منهم فإنما هي ما اجترحْنا من الآثام وجَنَيْنا، فالحقُّ فيها أن نستغفرَ اللهَ ونتوبَ إليه فيصلح لنا سيرتَهم، ونسترشد الله لبصائرنا وسيرشد الله بصيرتَهم.

---

(١) ـ مسند ابن حنبل ١ / ٤٢٤، كنز العمال ٦ / ٥٠ (حديث رقم ١٤٨٠٢).

(٢) ـ كنز العمال ٦ / ٨٩ (حديث رقم ١٤٩٧٢). وفيه: كما تكونوا.

ثم إذا نظرنا جاريَ عادةِ الله في خلقه، فالزمانُ في إدبار، والخيرُ في انتقاص، والشرُّ (ص ٨) في ازدياد، والصلاح في اضمحلال، حسبما وعد بذلك الصادقُ المصدوق، فما الذي يُطْلَبُ وقد انْتَصَفَ القرنُ التاسع، وتباعد بنا عن مظانّ رحمةِ الله الوطنُ الشاسع. ومن طالع سِيَرَ الملوك وتأمّل سالفَ التواريخ (فنادرٌ)[1] من الاتفاق، أو مفقودٌ على الإطلاق، وهو كونُ المسيرةِ ممن سلف جاريةً على مقتضى الكمال المفروض في الذهن أو ما يَقْرُبُ منه، ومن ذا الذي يُعْطى الكمالَ فيكمل.

ويشهدُ لاستبعاد وقوعِ ذلك ما حُكِيَ عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري لما بويع ابنُ المعتز قيل لأبي جعفر: قد بويع عبدُ الله بن المعتزّ وترشّح محمدُ بن داود بن الجراح للوزارة، وذكر للقضاءِ أبو الحسن بنُ المدينيّ. فأطرق قليلاً ثم قال: هذا أمرٌ لا يتمّ ولا ينتظِم. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: «كلُّ واحدٍ من هؤلاء الذين ذكروا متقدِّمٌ في معناه على الرتبة في أبناء جنسه، والزمان مُدْبرٌ والدنيا مُوَلّية، وما أرى هذا إلاّ إلى اضمحلال وانتقاص ولا يكونُ لمدّته طُول». فكان الأمر كما قال ولم يلبث عبدُ الله بعد أن بُويع غيرَ يومٍ واحد حتى تفرّق الناسُ عنه، وانتُهبَتْ دارُ العباس بنِ الحسن ودارُ محمد بن داود وظهر مصداقُ فراسةِ الطبري[2].

وعليّ ما للمحبّ من أحسن الاعتقاد، والبراءة من الانتقاد، فلن أبرىء نفسي من المذامّ، ولم أحفل بمدح المادح ولا بذمّ الذامّ، وإني لأعلم من شَغَفِ بالي والفكرة فيما رُزِئْتُ من مالي، وأعتقِدُ ممّن حالُه مثلُ حالي، وآمالُهُ في المالِ والبنين مثلُ آمالي، ما إن ذَهَلَ عن معاناته[3]، وغَفَل في مداواته،

(١) ـ الكلمة غير واضحة ولعلها كما أثبتنا.

(٢) ـ سوف يأتي تفصيل هذا الخبر مع الترجمة للأعلام الواردة فيه في صفحات لاحقة.

(٣) ـ في الأصل: معاته.

ذهب بصاحبه الفِكْرُ مذَاهبَ غير مَرْضِيّة، واستجرّه إلى نظر غير المتثبّت في أمورٍ مقضيّة، وحمله على استدامة الأسف في كل قضيّة قضيّة، وأنساه أن حُكْمَ الله ماض، وأن المؤمن بما حكم به مولاه راض، وأنّ جميعَ ما في هذه الدار فإنما هي جواهرُ وأعراض، وهي لأَسْهُمِ الفَناءِ على الآناء أغراض، فزوالُها وشيك، وعقلُ مقتنيها ركيك، والتماسُها يتشظّى وينشعِبُ، وحقيقتُها التي أَخْبَرَ عنها الكتابُ العزيزُ لهوٌ ولعِب.

فلو اتّصَفَ حاكُم العَقْلِ بوصف الحكم الجَزْل، وأخذ في الأمر بالجدّ وبرىء من الهَزْل، وقبل شاهدَ العلم وهو العدلُ الرضا، واستقلّ عنده رسم التفويض لما قدّر الله وقضى، لسجّل بأنّ ما أصابنا من مصيبةٍ فبما كسبت أيدينا، والحكم بأنّ استكثارنا من هذا العَرَض الأدنى هو الذي يضرُّنا ويُرْدينا، وأن استمساكَنا بالتسليم، لحكم العزيز (ص ٩)الحكيم، هو الذي يُرْشِدُنا إلى الصواب ويهدينا، وأنّ رضانا بما جرت به أقدارُه هو الذي يمكّن لنا السعادة المأمولةَ دنيا ودينا.

ثم وقفنا من سَعةِ رحمة مولانا فيما أولانا من أنه يعفو عن كثير، ومفهومُه أنّ المؤاخذةَ إنْ وَقَعَتْ فباليسير، على ما لا يُستطاع لشكره وفاء، وليس لنعمته خفاء، ويتحقّق به أنّ حقوقَ العقوبة الواجبة علينا لم يقع لها استيفاء، كما أنّ الرحمةَ الواسعةَ قد حصل منها لقصدِ الرجاء إيفاء.

اللهم كما صرفْتَ عنّا العقوبةَ التي كنّا لها مستحِقّين وفي دعوى البراءة منها غيرَ محقّين، فالْطُفْ بنا في مجاري أقدارِك واجعلنا ممن وفَّقْتَهُ إلى الهداية بأنوارِك، وارزُقْنا التفويضَ لما قدّرتَ وقضيت، والتسليمَ فيما حكمتَ وأمضيتَ، بحولك وكرمك.

وإنّ ممّا يأتي به الليلُ والنهار من رفعةٍ وضَعةٍ وضيقةٍ وسَعة لآياتٍ بيّنات، وفروضاً من الاعتبار على الفِكر متعيّنات، وبراهينَ لا يستطيع أن يجحدها

الجاحد، وفي كل شيء له آيةٌ تدلّ على أنّه واحد. * فسبحان الذي جعل من الأيام بين الأنام دولاً و ﴿**خَلَقَ الموْتَ والحياةَ ليبْلُوكم أيُّكمُ أحسَنُ عَمَلاً**﴾[1] وقدَّرَ مقاسِمَ الأرزاقِ والآجال، وَبايَنَ بين تصاريفِ الأقوالِ والأفعال، وقضى بانتقالِ هذه الدارِ من حالٍ إلى حال، باختلافِ تَضادّاتِها من حَلٍّ وتَرْحال، وجائزٍ ومحال، وحركةٍ وسكون، ونفورٍ وركون، وحزن وفرح، وسرور وتَرَح، ورخاءٍ وأزْل، وولايةٍ وعزْل، وصحة وسَقَم، ونِعَمٍ ونِقَم، وإدراك وفَوْت، وحياة ومَوْت.

والدليل على اطِّراد هذا القياس قوله تعالى ﴿**وتلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بينَ النّاس**﴾[2]. رحم الله الخضِرَ بنَ أبي العافية[3] حيث يقول من مقطوعةٍ له[4]:

إنْ أراكَ الـزمـانُ وجهاً عَبـوُسـا ... سوفَ تلقـاهُ بعـدَ ذلـك[5] طَلْقـا
لايَهُـمَّـنْـكَ حالـهُ إنَّ في طر ... فة عينٍ يرتـاحُ فيه ويَشْـقـى[6]
أيَّ عِزٍّ رَأيتَ أو أيَّ ذلٍّ ... بذوي[7] الحـالتين في الدهرِ يَبْقى

---

* ـ اقتباس من شعر لأبي العتاهية (انظر ديوانه ص ١٢٢).

(١) ـ من الآية ٢ من سورة الملك.

(٢) ـ الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

(٣) ـ هو الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية، يكنى أبا القاسم، شاعر مكثر وعالم بالشروط والأحكام، تولى القضاء وبعض الأعمال الكتابية في غرناطة في عهد بني الأحمر وتوفي قاضياً في مدينة برجة عام ٧٤٥ هـ (انظر ترجمته في الإحاطة ١ / ٤٩٤ ـ ٥٠٠ والمرقبة العليا للنباهي ١٤٩ ـ ١٥٢، والكتيبة الكامنة ص ١٧٧ ـ ١٨٢، ونيل الابتهاج ص ١١٠، والديباج المذهب ص ١١٥).

(٤) ـ انظر الأبيات في الإحاطة ١ / ٤٩٨.

(٥) ـ في الإحاطة: فستلقاه من بعد ذاك.

(٦) ـ في الإحاطة: ترتاح فيه وتشقى.

(٧) ـ في الإحاطة: لذوي.

سَلْ نجومَ السَّما إذا ما استنارَتْ ما الذي أوْسَطَ[1] الظهيرةِ تَلْقى
وتفكّرْ وقُلْ بغَيْرِ ارتياب كلُّ شيء يفنى وربُّك يَبْقى

وللنفوس التي تقيم الشُّبَهَ مقامَ الأدلّة، وتعتبر بالخيالاتِ المُضْمَحِلّة راحةٌ بمثل قول شمس المعالي[2]:

قُلْ للذي بصروفِ الدهرِ عيَّرنا
هل عَانَدَ الدهْرَ إلاّ منْ لهُ خَطَرُ
أمَا تَرى البَحْرَ تطفو فوقَه جِيَفٌ
وتستقِرُّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرَرُ

(ص ١٠)
وفي السماءِ نجومٌ ما لها عَدَدٌ[3]
وليسَ يكْسَفُ إلاّ الشَمسُ والقَمَرُ[4]

لما كانت هذه الدار، ولا تفارقها الأكدار، ممتزجةَ الأضداد هذا الامتزاج، ومزدوجة النقائص على حسب ما قُرِّرَ من الازدواج، فالغَيْثُ لا يخلو من العَيْث، والعجلة متعقَّبة بالريث[5]، والخيرُ ملزومٌ للعكس، والسَّعْدُ ممنوٌّ بالنحس، وكانت الحنيفيَّةُ السَّمْحةُ قد حدّت لكل مقامٍ من هذه المقامات، على اختلافها وتباعد ما بين أطرافها، ضروباً من التعبّدات تليقُ بكلّ مكلّفٍ

---

(١) ـ في الأصل: ما الذي في وسط، وفي الإحاطة: ما الذي في وقت.

(٢) ـ هو شمس المعالي قابوس بن وشمكير الديلمي، كان صاحب جرجان وطبرستان، وكان أديباً مترسلاً، توفي سنة ٤٠٣ هـ (انظر معجم الأدباء ١٦ / ٢١٩ ـ ٢٣٤، يتيمة الدهر ٤ / ٦٧) وانظر هذه الأبيات في المرقصات والمطربات لابن سعيد ص ٦٠، ويتيمة الدهر ٤ / ٦٩، ومعجم الأدباء ١٦ / ٢٢٤.

(٣) ـ في المرقصات والمطربات: لاعداد لها، وفي معجم الأدباء: غير ذي عدد.

(٤) ـ في يتيمة الدهر بيت آخر بين البيتين الثاني والثالث وهو:

فإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا ونالنا من تمادي بؤسه الضررُ
ففي السماء نجومٌ . . . الخ

(٥) ـ الرَيْث: الإبطاء.

حلّ في مقامٍ منها وتُناسِبُه، وتنمو بحسب امتثالها من سعادةِ الداريْن مكاسِبُه، وأرشدتْ في استدامة ما لاءم منها النفوس وغمر الرَّبْعَ المأنوس إلى أعمال هي سِلكٌ لفرائدها وصُوان لفوائدها، وقيدٌ لشواردها، وعلاوة على حفظ وصف الصفاء لمواردها، كما أشارت أيضاً في استدفاع ما أشْعَرَ منها البُوس، وجلا الوجْهَ العبوس، إلى تراكيب أدويةٍ مضمونةِ الأشفية تُسْتَقْبَلُ بها أمراضُها، وتُصْلَحُ بها أعراضُها، وتُخَفَّفُ بها آلامُها، وتَتلقَّى بِجُنَّتها الواقيةِ سهامُها. وهذا القسم الأول من هذين القسمين يشبه من الصناعة الطبيّة القسمَ الأولَ المسمّى بحفظِ الصحة، والقسمُ الثاني منها يُشْبِهُ القسمَ الثاني من تلك الصناعة المسمّى ببُرْءِ المرض، شَبَهاً صحيحَ الاطّراد، وافياً من تقريبه في التمثيل المُراد.

وكان هذا القسم الثاني في الصناعة المذكورة هو المطروقُ لمؤلفيها، والمنطوقُ فيه بحسب كلّ علّةٍ علّة ما يتمّم مقاصد مداويها ويستوفيها. (٥)ن هذا القسمُ المشبّهُ به ـ من الأحوالِ الواردةِ على الناسِ من مواردِ الأقدار على غير إرادتهم. وبحسب الإخراجِ لهم عن مألوفِ أحوالهم ومُعْتادِ عادتهم أهمُّ ما دَعَتْ الضرورةُ إلى النظر في علاجه، والإرشادِ إلى ما يصلحه، بمقتضى طبع الوقت ومزاجه.

وكان هذا القسمُ من الابتلاء الواقعِ في هذه الدار والتمحيصِ الوارد في ضمن الأقدار، لا يعدو أحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون وارداً على الإنسانِ في نفسِه من أَلَمٍ ألمّ، أو نَكَدٍ أهمّ، أو فَقْدِ سَمْعٍ أو بَصَر، أو نَقْصِ قُوّةٍ من قُوى البشر، أو على ما يحلُّ محلَّ نفسه من أبناء جنسه، كفقْدِ حبيب إليه، أو سَكَنٍ عزيزٍ عليه، أو حميمٍ أثيرٍ لديه، وعلى الجملة فنقصٌ في أصلٍ أو ولدٍ أو مكينٍ مِنْ خَلَد.

الوجه الثاني: أن يكون وارداً على الإنسانِ خارجاً عنه فيما يكونُ له أو منه، كتعذُّر رِزْق أو تَخَلُّفِ قَصْد أو سَلْب (ص ١١) نعمة، أو نَقْصِ حُرْمة، أو جائحةٍ اجتاحَتْ له مالاً، أو نكبةٍ سَلَبَتْ جاهاً وغيّرت حالاً.

ولا يخفى ما يحق في كل قسم من الجزئيات التي لا تُعَدّ، ولا يكاد يَحْصُرُها الحدّ. وفيما وقع موقعَ التمثيل ما يغني عن التفصيل، لأولي التحصيل.

وكلا القسمين موجبٌ حزناً وأسفاً، ومقتضٍ وجْداً وتَلَفاً، ومُسْتَدْعٍ ـ إن لم يَتَلافَ البَرُّ الرحيمُ ـ فَقْداً أو تَلَفاً، ومَظِنةٌ لأن يُحْسِنَ الله منها عِوَضاً وخَلَفاً. وشرطُ ذلك أن يتأدّبَ بآداب الشريعة، ويَسْتَدْفعَ الاسترسالَ مع مقتضى الطبع البشريّ سَدّاً للذريعة، ويَتَحَيَّلَ في صَرْفِ الأسَفِ والحزن عن القلب وإن استدعاهما داعي الجبلّة(١) وداعي الطبيعة. فما تركت السَّمْحةُ، على شارِعِها الصلاةُ والسلام، خيراً عاجلاً ولا آجلاً إلّا وقد أوْضَحَتْ السبيلَ إلى اجتلابه، ولا أبقت شراً عارضاً للمكلّف في دينه أو دنياه إلّا وقد أرشدَتْ بأتم الإرشادِ إلى اجتنابه، حكمةٌ من الله بالغة، ونعمةٌ على عباده سابغة، تَقِفُ العقولُ وإنْ رَجَحَتْ، والألبابُ وإن بَهَرَتْ مداركُها النافذةُ وَوَضَحَتْ، حَسِيرةً دون مداها، وضالّة إنْ لم يستنر بنورها المُشْرِقِ وهداها. فلو اجتهد المجتهدون، وشمّر عن ساعِدِ جِدّه المجدّون، وقد أطلقوا من ألْسِنَة بيانِهم عقالاً، وأحرزوا من البلاغة مَقاماً سامياً ومَقالاً، لَمَا بلغوا من حَمْدِ الله على هذه النعمة الكُبرى والموهبة العُظْمى مَبْلَغاً يغني، ولوقفوا موقِفَ العجز عن الدرجة التي تطمح إليها بغيةُ المتمنّي، فلله الحمدُ دائباً على عصمتنا بحكمة تكليفنا عن مهاوي الهوى، وله الحمد دائماً على استمساكنا نيّةً وعملاً بعروتها الوُثْقى، فإنما الأعمالُ بالنيّات «وإنما لامرىء ما نوى»(٢).

وإني اسْتَخْرتُ الله تعالى في الكلام على ذلك القسم الذي سَبَقَ في التمثيلِ أنه شبيهٌ ببُرْءِ المرض، وتلخيص ذلك القصدِ المهمّ الآن لديّ من هذا الغرض والإبانة عمّا يتعلّق بذلك كلّه من الزهد والتوكّل، والقناعة والتجمُّل،

---

(١) ـ في الأصل «الحبله» ولعل المثبت هو الصواب لتوافق كلمة «الجبلة» مع كلمة الطبيعة في الجملة التالية لها.

(٢) ـ صحيح البخاري ١ / ١٩ ـ ٢٠، مسند ابن حنبل ١ / ٢٥، ٤٣.

والصبر والتحمّل، والاعتماد على الله في طلب الرزقِ مع الإجمال فيه، والتزامِ الأدب في ارتكاب السبب، على الوجه الذي يستكمل منه القصد ويستوفيه، والإلمام بالدعواتِ المنزلةِ من تلك الأعراض، منزلةَ الأدويةِ من الأمراض، حسبما سَبَقَتْ في صدرِ هذا المجموع الإشارةُ إليه، ووقف الاختبارُ مما صحّ نقلاً واعتماداً عليه، والتوشيح لذلك كلّه بأبياتٍ شعرية وفصولٍ نثرية حسنةِ الموقع فيما يُتَخيَّر لها من الموضع، والاستظهار على ذلك (ص ١٢) بالحكايات ممن وقع له من الناس قديماً أو حادثاً مثلُ ذلك الابتلاء، وما لله تعالى في جبر أحوالهم وتبليغ آمالهم من المواهب والآلاء، والاستطراد إلى ما يتعلّق بذلك كلّه من وفاء صديقٍ عُدّ وفاؤه من أتمّ الألطاف الخفية، ومِنْ أدلّ الدليل على شَرَفِ الأنفُس الوفية، أو ظهور خلاف ذلك من ثانٍ منح الله التجربة علاوة على تحقيق ما أكنّ، وإبداء ما أضمر وأجنّ، والإلمام بما ورد من الوصايا بعدم مُطاوعةِ مقتضى الأحزان، والإشارة إلى ما يُلْتَمَسُ من ذلك من نُصوصِ السُنَّةِ والقرآن، حتى يكون بحول الله ـ كتاباً ممتعاً، وتأليفاً مقنعاً، أرودُ منه أنا ومَنْ يكون في مثل حالي الوقتيّة رَوْضاً يَجْتني منه ثمراً، ويَقْتَطِفُ منه زهراً، ويسرح منه ناظره في حدائق ذات بهجةٍ، ويثنى منه على حسن طويّة وصِدْقِ لهجة، يُرْشِدُه للصبر على مَضَضِ الحوادث، والرضا بما يأتي به القضاء من الخطوب الكوارث، والتفويض لله في مواقع أقداره، والتسليم له في إيرادِ كلّ أمرٍ وإصدارِه.

وسمّيته بـ «جنّة الرضا، في التسليمِ لما قدَّر الله وقضى».

ومن الله أسألُ أنْ يَجعَلَ فيه السعْيَ خالصاً لوجهه الكريم، مزلفاً لديه في جنّاتِ النعيم.

وهو وإن جمعتُه بالقصْدِ الأوّل على أن يكون لي من الغَفْلَةِ عن الآداب الشرعية مانعاً، ومن الاسترسالِ في ميْدان الأسى والأسَفِ وازعاً، فإني بالقصدِ الثاني أرجو أن ينفعني الله بدعوةٍ صالحةٍ من واقفٍ عليه يكون بيني وبينه قدرٌ مشترك، ويكونُ بين صبره وحوادث الأيام والليالي مُعْتَرَك، فيلفي فيه الجُنَّة

محكمةَ السرد، وافية من الوقايةِ بالقصد، ويجد الأدوية لألمه مضمونةَ الشِفا، مشهورةَ الأعيان عن الخفا. فلا يبخلْ عليّ بما استهديتُه من صالح دعائه بنيّةٍ صادقة من إهدائه، جَعَلَنا الله من الراضين بقضائه، المحافظين من التفويضِ والتسليمِ على قصد إرضائه.

وصلّى الله على محمد خاتم أنبيائه، وعلى آل محمد وأصحابه وأوليائه وأحبّائه، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يوم لقائه.

ولعلّ بعضَ مَنْ يقف على هذه الجملة، ويطالع ما بهذه الخُطْبة، يستقْصِرُ ما يأتي به المُعاصر، ويرى أنّ وَصْفَ التقدُّم للأفضلية حاصر، وأنّ الجديدَ ما كان ليسَ بأهلٍ للاقتناء، ولا المُعاني له بمحلّ للثناء، فقد أحسنَ ابنُ شَرَف[1] الجوابَ عن ذلك بقوله:[2]

قُلْ لمنْ لا يَرى المُعاصِرَ شيئاً ... ويَرى للأوائِلِ التَّقْديما
إنَّ ذاكَ القَديمَ كان جديداً ... وسَيَغْدو هذا الجديدُ قديما

وهذا أوانُ البداية، ولله الرغبةُ في التوفيق والهداية.

إنّ هذه الابتلاءات (ص ١٣) المعهودةَ في هذه الدار لا يخلو أن تكونَ متوقّعةً في الاستقبال أو واقعةً في الحال، وأياً ما كانت فلا يخلو أن تكونَ في المُقْتَنَياتِ العزيزةِ على النفوس، كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك، أو في النفوسِ

---

(١) ـ هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي، كاتب وشاعر، ولد بالقيروان ورحل إلى الأندلس، وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٠ هـ، وقد كان صديقاً لابن رشيق. ألف أبو عبد الله بن شرف عدداً من الرسائل والكتب منها: أبكار الأفكار، لمح الملح، أعلام الكلام، ومجموعة من المقامات، ومجموعة من الحكم والأمثال (انظر ترجمته في: الذخيرة ق٤ م١ ص ١٦٩، الخريدة ٢ / ١١٠، معجم الأدباء ١٩ / ٣٧، المطرب ٦٦، فوات الوفيات ٣ / ٣٥٩، الوافي بالوفيات ٣ / ٩٧، الصلة ٢ / ٦٠٤، أخبار وتراجم أندلسية ص ٣٥)

(٢) ـ ورد البيتان في أعلام الكلام لابن شرف نفسه ص ٢٨.

وما لحِقَ بها من أعضاءٍ وقُوى كما أشار إلى ذلك زيادةُ بنُ زياد[1] في قوله: [2]

هل الـدهْـرُ والأيّامُ إلّا كمـا ترَى رزيّةُ مالٍ أو فِراقُ حَبـيبِ

ثم لا يخلو الواقعُ من ذلك في الأموالِ وما شابهها أو في النفوسِ وما شاكلها أن يكونَ مأمولَ الجَبْر مَرْجُوَّ الارتفاع أو غير مأمولِ الجَبْر ولامرجوّ الارتفاع، فهذه ستُّ صُوَر:

الصورة الأولى: أن يكونَ الابتلاءُ في المُقْتَنياتِ العزيزة على النفوسِ كالمالِ والجاهِ وما أشبه ذلك مُتوقّعاً في الاستقبال وليس بواقعٍ في الحال.

الصورةُ الثانية: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحالِ وهو مأمولُ الجَبْر ومرجوُّ الزَّوال.

الصورةُ الثالثة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلّا أنّه غيرُ مأمولِ الجَبْر ولامرجوّ الزوال.

الصورةُ الرابعة: أن يكونَ الابتلاءُ في النفوسِ أو ما لحق بها من أعضاءٍ وقُوى مُتَوَقَّعاً في الاستقبال وليسَ بواقعٍ في الحال.

الصورةُ الخامسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها[3]في الحال وهو مع ذلك مرجوُّ الزوال.

الصورةُ السادسة: أن يكونَ الابتلاءُ فيها واقعاً في الحال إلّا أنّه غيرُ مرجوِّ الارتفاع والزوال.

---

(١) ـ لعله زيادة بن زيد العذري الذي أورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء بعض أخباره (الشعر والشعراء ٤٣٤ ـ ٤٣٨ ضمن ترجمة هدبة بن خشرم العذري).

(٢) ـ ورد هذا البيت في كتاب الأمثال والحكم للرازي ص ٤٥ منسوباً إلى زياد بن زيد أو أيمن بن خريم، وورد في التمثيل والمحاضرة ص ٦٦ ونهاية الأرب للنويري ٣ / ٧٣ والحماسة البصرية ٢ / ٤١١ مسوباً إلى زياد بن زيد، وأورده الإبشيهي في المستطرف منسوباً إلى أبي الأسود كما ورد في ديوان الإمام علي بن أبي طالب ص ٢٩.

(٣) ـ ربما أغفل الناسخ كلمة «واقعاً» بين كلمتي «فيها» و «في».

تحت هذه الصُّوَرِ من الابتلاءات والتمحيصات والاختبارات جزئياتٌ متعدِّدةٌ ينشأُ عنها من الحُزْن والأسفِ والوَجْد والتَعَب والكرب والقلق والهمّ والنكد وغيرِ ذلك من التأثُّرات النفسانية ما يُذْهِلُ العقلَ ويَشْغَلُ الفكرَ ويعمرُ القلبَ ويُتْعِبُ النفسَ ويضيقُ الصدرَ ويُذْهِبُ النومَ ويطردُ الأنسَ، ويتفاوت أثره بحسب مؤثِّره في اللين والشدّة والثقلِ والخفةِ، والكثرةِ والقلّة، وبحسب المُلاقي له والواردِ عليه، وقوّةِ الجأْشِ وضعفه، ومضاءِ العزيمة ووهنها، استشعاراً للصبر وعدمه واستحضار الأوامر الشرعية في مثل حالته والغيبة عنها والاعتبار[١] بقول القائل[٢]:

عجباً للزّمانِ في حالتَيْهِ ... ولأمرٍ دُفِعْتُ مِنْهُ إلَيْهِ
رُبَّ يَوْمٍ بكَيْتُ فيه فلمّا ... صِرْتُ في غيرِه بكَيْتُ عليْهِ

لاستحالة الأحوال، وتعاقب مُبْتَغى الأهواء ومُتَّقى الأهوال، فالزمانُ بذلك (ص ١٤) عُرِف، وبهذا المعنى وُصِف، والله في قوله أصدق، والقلبُ بوعده أوثق ﴿فإنّ مع العُسْرِ يُسْراً إنّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً﴾[٣]. وقد صدق محمَّد بنُ عبد الملك في قوله:[٤]

---

(١) ـ في الأصل: ولا اعتبار.

(٢) ـ ورد البيت الثاني في التمثيل والمحاضرة ص ١٠٦ منسوباً لابن بسام، وجاء البيتان منسوبين للإمام علي في ديوانه ص ٢١١.

(٣) ـ الآيتان ٥، ٦ من سورة الشرح.

(٤) ـ البيتان لأبي جعفر محمد بن عبد الملك بن الزيات ت ٢٣٣ هـ وزير المعتصم. (انظر البيتين في ديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص ٦٦ نشر وتقديم الدكتور جميل سعيد ـ القاهرة ـ ١٩٤٩م).

وانظرهما أيضاً في: وفيات الأعيان ٥ / ١٠٠، والوافي بالوفيات ٢ / ٣٣ وقد كتب بهما ابن الزيات إلى الخليفة المتوكل عندما حكم عليه المتوكل أن يزج في التنور لكن المتوكل لم يقرأ البيتين إلا في اليوم التالي، فلما قرأهما أمر بإخراجه، فجاؤوا إليه فوجدوه ميتاً، وذلك سنة ٢٣٣ هـ (انظر المصدرين السابقين).

هي السَّبيلُ فمِنْ قَوْمٍ إلى قَوْمِ كأنّهـا ما تُريكَ العَيْنُ في النَّـوْمِ
لا تَجْـزَعَـنَّ رُوَيْداً إنّـهـا دُوَلٌ دُنْيا تَنَـقَّـلُ مِنْ قَوْمٍ إلـى قَوْمِ

[مقدمة الموضوع](*)

ولنقدّمْ هنا مقدمةً لائقةً بالموضع في غرض التداوي جملياً كالشأن في مغاني عِلْمِ الطبّ.

إذا نظرَ في المرض وهو لم يتعَيَّنْ بعد أو تعيَّنَ وأرادَ أن يَسْتَعْمِلَ له دواءً خاصاً به، فإنّه يَلْزَمُ العليلَ قبل ذلك صورةٌ من الاحتماء يُسمّيها مقدّمة، فنقول: إنّ هذه النِعم المبثوثَة في هذه الدار من صحةِ الجسم، ورخاءِ العيش، وصلاحِ الحال، وحفظِ المال، وهناءِ الوقْت، وسعادةِ الجدّ، واستقامةِ الجاه، واستمرارِ الولاية، واستدامةِ العناية، وتأتّي الأرَب، وتسنّي الآمال، واستدرارِ الرزق، واجتماعِ الشمل، والسلامةِ من الآفات، والحفظِ من الابتلاءات، لها من حيثُ الاستجلابُ والاستدامةُ، والاستكثارُ والاستزادةُ، أسبابٌ حافِظةٌ مثل الشكر لقوله تعالى: ﴿لئِنْ شَكَرْتُم لأزيدَنّكم﴾[1]. وقال تاجُ الدين[2] في حِكَمِهِ (من لم يشكر النِعم فقد تعرّض لزوالها، ومَنْ شَكَرها فقد قيّدها بعقالها)[3]. وما أطبع الصابي[4] في قوله: «موقعُ الشكر من النِعَم موقع القِرى من الضيف إن

* ـ العنوان بين المعقوفتين من إضافة المحقّق.

(١) ـ من الآية ٧ من سورة ابراهيم.

(٢) ـ هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن رشيد الدين أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله الاسكندري، من مشاهير رجالِ التصوف، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وله عدد من المؤلفات منها: التنوير في إسقاط التدبير، لطائف المنن، الحكم، مفتاح الفلاح وغيرها (انظر الوافي بالوفيات ٨ / ٥٧، الدرر الكامنة ١ / ٢٧٣).

(٣) ـ حكم ابن عطاء الله / شرح العارف بالله الشيخ أحمد زروق / تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف. مكتبة النجاح / طرابلس ليبيا ص ١٤٥.

(٤) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن هارون الصابىء الحراني، كاتب وشاعر ذو شهرة فائقة، تقلد الوزارة وديوان الرسائل لعدد من الخلفاء العباسيين في بغداد، توفي سنة ٣٨٤ هـ ببغداد. (انظر: يتيمة الدهر ٢ / ٢٨٧، وفيات الأعيان ١ / ٥٢، معجم الأدباء ٢ / ٢٠).

وجده لم يدِمْ وإن فقده لم يُقِم»(1)، والميكالي(2) في قوله: «النِعْمةُ عروسٌ مهرُها الشكر، وثوبٌ صِوانه النَشْر»(3). ولاستغراقِ الزمانِ في معنى شُكْرِ الله قال الشاعر(4):

إذا كانَ شُكْري نِعْمةَ الله نعمةً ... من الله في أمثالِها وَجَبَ الشُكْرُ
فكيفَ بلوغُ الشكرِ إلاّ بفضْلِهِ ... وإن طالتْ الأيّامُ واتّصلَ العُمْرُ

وصوابٌ ما قال الشاعر، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول ﴿**وإنْ تَعُدّوا نِعْمةَ الله لا تُحْصُوها**﴾(5). فإذا كانت نعمةُ الله إنْ عُدَّت لا تُحْصى فَشُكْرُه الذي إن فرض أنه يكافئها إنما يكون شكراً لا يُحصى إذا عدّ وكلّ شكرٍ نجتهدُ نحن فيه فإنما هو شكرٌ معدود يُحْصى، فكيف يقابلِ ما لا يُحصى بما يُعَدُّ ويُحصى! ولولا أنّ الله تعالى ذكر في كتابه العزيز من أُثبت له وَصْفُ الشَّكور فضلاً منه ونعمة كقوله في نوح عليه السلام ﴿**إنّه كانَ عَبْداً شَكُورا**﴾(6) وقوله ﴿**وقليلٌ من عِبادِيَ الشَكُور**﴾(7) لكان لمدّعي عجز الإنسان عن القيام بشكر الله مقالٌ ومقامُ النبي صلى الله عليه وسلّم في قوله «**أفلا أكونُ عبداً شكورا**»(8) حين قام حتى تورَّمَتْ قدماه بما منحه الله تعالى من خصائص غيره من الأنبياء. (ص 15) يشهد

(1) ـ وردت في زهر الآداب للحصري 2 / 389 غير منسوبة.

(2) ـ هو الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي ت 436 هـ وقد أشاد به الثعالبي في اليتيمة كثيراً وأورد له كثيراً من غرر أقواله (اليتيمة 4 / 407)، وله أبيات كثيرة متفرقة في زهر الآداب للحصري.

(3) ـ انظر زهر الآداب للحصري 2 / 547.

(4) ـ البيتان المشاعر محمود الوراق انظرهما في كتاب فضيلة الشكر ص 47، كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص 40 ـ 41، وللبيتين تكملة في كتاب الشكر.

(5) ـ الآية 34 من سورة ابراهيم والآية 18 من سورة النحل.

(6) ـ اية 3 من سورة الإسراء.

(7) ـ آية 13 من سورة سبأ.

(8) ـ كتاب فضيلة الشكر ص 49.

لوجود ذلك في أفراد من الأمّة ما حُكِيَ عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي[1] ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ وأنا في مغارةٍ في سياحتي: إلهي متى أكونُ لك عبداً شكوراً؟! فإذا النِداء عليّ يُقال لي: إذا لم ترَ في الوجودِ مُنْعَماً عليه غيرَك فأنتَ إذاً شكور. فقلت: سيدي كيف لا أرى مُنْعَماً عليه غيري وقد أنعمتَ على الأنبياء وقد أنْعَمْتَ على العلماء وقد أنعمتَ على الملوك؟! فإذا النداء عليّ يُقال لي: لولا الأنبياءُ لما اهتديتَ، ولولا العلماء لما اقتديتَ، ولولا الملوكُ ما أمِنْتَ فكلُّ نعمةُ منّي[2] عليك»[3].

كذلك ما أشبه الشكر من الأوامر التي هي خاصّةٌ بالقِسْم الأوّل الذي مُثِّل بحفظِ الصحة من صناعة الطب كالإيمان والتقوى. قَال الله تعالى: ﴿**ولو أنَّ أهلَ القُرى آمَنوا واتَّقَوْا لفَتَحْنا عليهم بركاتٍ من السَّماءِ والأرْض**﴾[4] وقال الله تعالى: ﴿**ولو أنَّ أهْلَ الكتابِ آمنوا واتَّقَوْا لكفَّرْنا عنهُم سَيِّئاتِهم ولأدْخَلْناهم جنّاتِ النعيم ولو أنّهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم مِنْ ربِّهِمْ لأكلوا من فَوْقِهم ومِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ**﴾[5]. وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان لأهل القُرى ولأهل الكتاب أنّه إن حصل منهم الإيمانُ والتقوى فإنه يفتح عليهم البركات من السماء والأرض، وإنه إن حصلت منهم إقامةُ التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم فإن الله يسوّغ لهم الأكلَ مِنْ فوقهم ومن تحت أرجلهم. وهذا عبارةٌ عن تهيئةِ الرزق بلا كُلْفَة. وهذا نصُّ القرآن فنحنُ في هذا المعنى مثلُهم.

---

(١) ـ هو شيخ الصوفية تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار. . . . بن الحسن ابن علي بن أبي طالب المعروف بالشاذلي، نسبة إلى شاذلة في تونس. توفي بأرض الحجاز سنة ٦٥٦ هـ (انظر: كتاب الوفيات لابن قنفد ص ٣٢٣، لطائف المنن ص ١٣٥).

(٢) ـ بياض في الأصل مقدار بقية كلمة، وتكملته من لطائف المنن لابن عطاء الله.

(٣) ـ انظر هذه الحكاية في لطائف المنن لابن عطاء الله ص ١٥٨.

(٤) ـ آية ٩٦ من سورة الأعراف.

(٥) ـ الآيتان ٦٥ ـ ٦٦ من سورة المائدة.

وكالتوكل على الله حقَّ التوكل فإنّ الله يسنّي الرزقَ بلا كلفة حسبما اقتضاه قوله صلى الله عليه وسلّم: «لوْ توكَّلْتُم على الله حَقَّ توكّله لرُزِقْتُمْ كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»[1].

وكالصلاةِ الكفيلةِ بسَعةِ الرزق في نظر كثيرٍ من العلماء، وقد يُتَلَمَّح ذلك من قوله تعالى: ﴿وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاة واصْطَبِرْ عليها لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبةُ للتَّقْوى﴾[2]. والعاقبةُ أيضاً من ثمراتِ التقوى بنصّ هذه الآية الكريمة. وقد لا تخلو الأعمالُ الصالحةُ من ثمراتٍ عاجلةٍ في الدنيا لاينبغي الالتفاتُ إليها مع الآجلة المؤمّلة الفائدة في الآخرة، وهي في نظر أرباب المراقبة مما لا يُلْتَفَتُ إليها كالعاجلة، ولذلك يُشِيرُ قولُ من قال: (ما عبْدتُكَ خوفاً من نارِك ولاطمعاً في جنّتك) وقد تقرر أنه ليس لنا بمقام.

وإلى ما سَبَقَ من حصولِ الفوائدِ عن الأعمال الصالحة مع دَفْعِ المكروه وجَلْبِ المحبوب يشيرُ قولُ الشيخِ أبي مَدْيَن[3] ـ رضي الله عنه: (الحقّ مُطَّلع على الضمائرِ والسرائر فأيّما قلب رآه مؤْثراً له كفاه طوارقَ المحن ومُضلّاتِ (ص ١٦) الفتن)[4] انتهى، فقد جعل إيثارَ الله تعالى موجباً لدفع هذين المخوفين.

وكـالأذكـارِ المخصوصة باستثمار فوائد مخصوصة كما في سُنَنِ ابن السنّي[5]: (أنه جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء[6] ـ رضي الله عنه ـ فقال له: يا أبا

(١) ـ انظر: مسند ابن حنبل ١ / ٣٠، ٥٢.

(٢) ـ الآية ١٣٢ من سورة طه.

(٣) ـ هو الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي، أصله من إشبيلية، لقّبه ابن قنفد بشيخ المشايخ وأفرد له كتاباً سماه أنس الفقير وعز الحقير، وتوفي في تلمسان سنة ٥٩٤ هـ (انظر أنس الفقير، وفيات ابن قنفد ٢٩٧).

(٤) ـ أنس الفقير ص ١٨.

(٥) ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق السني الحافظ الدينوري، مولى جعفر بن أبي طالب، له عدد من المؤلفات، توفي سنة ٣٦٤ هـ (الوافي بالوفيات ٧ / ٣٦٢).

(٦) ـ هو الصحابي عويمر بن مالك بن بلحارث بن الخزرج، كان قبل إسلامه تاجراً وعرف =

الدرداء إنّه قد احْتَرَقَ بيتُك. فقال: ما احْتَرَقَ ولم يكُنْ الله ليفعلَ ذلك بكلماتٍ سمِعْتُهن من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ قالهنَّ أوَّلَ نهارِه لم تُصِبْه مصيبةٌ حتى يُمْسي، ومن قالهنّ آخِرَ نهارِه لم تُصِبْهُ مصيبةٌ حتى يُصْبِح: «**اللهُمَّ أنتَ ربّي لاإلهَ إلاّ أنْتَ عليكَ توكلتُ وأنتَ ربُّ العرشِ العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكُنْ، لا حَوْلَ ولاقوةَ إلاّ بالله العليّ العظيم، أعلمُ أنَّ الله على كل شيءٍ قدير، وأن الله قَد أحاطَ بكلّ شيءٍ علماً، اللهمَّ إني أعوذُ بك من شرِّ نفْسي، ومن شرِّ كُلِّ دابّةٍ أنت آخِذٌ بناصيتِها، إنّ ربي على صراطٍ مُسْتقيم**» فنهضوا معه إلى داره وقد احترق ما حولها ولم يُصْبِها شيء)[1].

ونوعٌ منه ما رُوِيَ أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ الله ماذا لقيتُ من عَقْرَبٍ لدغتني البارحة! فقال: «**أما إنك لو قُلْتَ حينَ أمسيْتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّاتِ من شرِّ ما خَلَق لم تَضُرَّك**»[2].

وهذه القضيةُ وإنْ كان قد وَقَعَ الابتلاءُ بالرجل فإنّ قول النبي صلى الله عليه وسلم أما إنك لو قلت كذا لم يضرّك ـ مماثلٌ لما سبق عن أبي الدرداء حيث وثِقَ بما علمه النبي صلى الله عليه وسلّم في حفظ بيته من الحريق.

وأوضحُ مِنْ ذلك في هذا القصد مِنَ استدفاع البلاء ما في[3] كتابِ ابنِ السنّي عن أَنَس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «**ما أَنْعَمَ الله عَزَّ وجَلَّ على عبدٍ نعمةً في أهْلٍ ومالٍ وَوَلَدٍ فقال ما شاء الله لا قُوَّةَ إلاّ بالله فَيَرى فيها آفةً دُونَ المَوْت**»[4]. وفي سُنَن أبي داود[5] والترمذي[6]

=بنسكه، ومات بالشام سنة ٣٢ هـ (المعارف لابن قتيبه ٢٦٨، الإصابة ٥ / ١٤٧).

(١) ـ انظر هذا الحديث في: عمل اليوم والليله لابن السني ص ٢٠ ـ ٢١. وانظر حكاية أبي الدرداء في إحياء علوم الدين ١ / ٣١٥، المخلاة ١٧٤.

(٢) ـ انظر صحيح مسلم ٨ / ٧٦ (المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت).

(٣) ـ هكذا في الأصل وربما أغفل الناسخ كلمة «جاء» بين «ما» و «في».

(٤) ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ص ١٠٩.

(٥) ـ سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣.

(٦) ـ سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣، سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٧٣ (حديث رقم ٣٨٦٩)، مسند=

عن عثمان بن عفّان ـ رضي اللهِ عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم: «**ما مِن عَبْدٍ يقولُ في صباحِ كلِّ يومٍ ومساءَ كلِّ ليلة باسمِ الله الذي لا يضُرُّ مع اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهو السميعُ العليم ثلاث مرات لم يَضُرَّهُ شيء**». قال الترمذي[1]: هذا حديث حسن صحيح. هذا لفظ الترمذي. وفي رواية أبي داود[2] «**لم يُصِبْه فجأةً بلاء**» وفي سنن أبي داود[3] أيضاً عن بعضِ بناتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ورضـــي عنهـــنّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعَلِّمُها فيقول: «**قولي حين تُصْبحينَ سبحانَ الله وبحمْده، لا قُوَّةَ إلاّ بالله، ما شاءَ الله كان، وما لمْ يشأْ لم يكُنْ، أعْلَمُ أنَّ الله على كُلِّ شَيْء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيءٍ عِلْماً، من قالهنّ حين يُصبح حُفِظ حتى يُمْسي ومن قالهنّ (ص١٧) حين يُمْسي حُفِظَ حتى يُصْبح**».

وكالتوسعةِ في عاشوراء الكفيلة بتوسعةِ السنة المُقبلة، وكالصدقةِ التي تدفع مِيتَةَ السوء، وكصِلَةِ الرحم الموعودِ بها من الإنماء في العمر ما اختُلِفَ في مَحْمَلِهِ، وهذا إن تعرّضنا لطرف منه فبالعرض.

وهذه القُرَبُ والأذكارُ الوارد فيها من الشرع استنتاجُ مصالحَ دينية أو دنيوية أو مجموعها هي مشروطة بإقامتها على الوجه الذي أمر به النبيُّ صلى الله عليه وسلّم، وفهمه عنه العلماء من الإخلاص في العمل، والصِدْقِ في التوجّه إلى سائر ما يختصّ بكل حقيقة حقيقة من تلك العبادات، إمّا مع اطّراح القصد إلى تحصيل ما وعد به من تلك الفائدة المستثمرة من ذلك العمل دينية كانت أو دنيوية، وهذا هو أعلى المقامات التي ترتضيها أولياءُ الله من أهل التصوّف وأرباب المراقبة؛ وإمّا مع القصد التبعيّ إلى ما مَنحَ الله من نِعَمِهِ التي لا تُحصى بالعدّ من أخرويّة كالجنة وغيرها أو دنيوية كالمزيد ونحوه، وهذا هو

= ابن حنبل ١ / ٦٢، ٦٦، ٧٢، كنز العمال ٢ / ١٣٩ (حديث رقم ٣٤٩٧).

(١) ـ ورد تعليق الترمذي على الحديث في رياض الصالحين ص ٤٠٤.

(٢) ـ سنن أبي داود ٤ / ٣٢٣.

(٣) ـ نفسه ٤ / ٣١٩.

اللائق بحالنا والمناسب لمقامنا، ولا يغفل القائم بذلك عن شروطه من الإخلاص وغيره لئلا يكون ممّن يعبدُ الله على حَرْف كالذي سمع أنّ من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت الحكمةُ من قلبه على لسانه فأخلص بزعمه تلك المدة رجاءَ أن تظهر الحكمةُ كما وعد فلم تظهر، فاستراب من ذلك، وسأل عنه فأجاب المسؤول بأنّه إنّما أخلصَ للحكمة لا لله. أو كما قال، وإنّما نقلتها بالمعنى.

[و][1] لتعذُّرِ النعم وزوالها وتنكّر أحوالها، أسبابٌ ماحقة من الذنوب تشبه الأمراض الداخلة على الأجسام الصحيحة، بها يوحَشُ آنِسُها ويُعْصَى طالعها[2] ويشرَّد مُنْقادُها، وعلى الجملة فتتغير حالها الأكثرية. ويشهد لهذه الدعوى على الإجمال أيضاً قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مغيّراً نِعْمةً أنْعَمَها على قَوْمٍ حتّى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهِم**﴾[3]. فقد شهدت لنا هاتان الآيتان الكريمتان[4] بمعنى واحدٍ وهو أن التغييرَ الواردَ من الله على قوم لا يكون إلّا جزاءً وفاقا لتغييرهم ما بأنفُسهم. وقوله تعالى: ﴿**وما أصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فبما كَسَبَتْ أيْديكم ويَعْفُو عَنْ كَثِير**﴾[5] وقوله صلى الله عليه وسلّم: «**إنّه لنْ ينزلَ بلَاءٌ من السَّماء إلّا بذَنْب ولن يُكْشَفَ إلّا بتوبة**»[6]. فقد شهدت أيضاً هذه الآية الكريمة والحديثُ النبويّ بمعنى واحد، وهو أن إصابة العبد بما أُصيبَ من مصيبة وبلاء فإنّما ذلك بما كسبت الأيدي وهي الذنوب، وأفادت الآية الكريمة بأنّ العفو واقعٌ عن كثير، والعقوبة بالمصيبة إن كانت غيرَ واردة عن وِزان ما كَسَبَتْ الأيدي (ص ١٨) وإنما هي عن ذنب دون ذنب، فـ ﴿**لو يُؤاخِذُ**

---

(١) - الواو زيادة من المحقق اقتضاها السياق.

(٢) - هكذا في الأصل ولعل المراد طائعها.

(٣) - الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(٤) - لعله يقصد الآية السابقة للتعليق والآية التالية له.

(٥) - الآية ٣٠ من سورة الشورى.

(٦) - لم أجد هذا الحديث فيما بين يدي من مصادر الحديث النبوي الشريف.

الله الناسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دابَّة﴾[1] ولو يؤاخذهم الله بظلمهم ﴿لَعَجَّلَ لهمُ العذابَ بَلْ لهم مَوْعِدٌ لَنْ يجِدوا مِنْ دُونِه مَوْئِلاً﴾[2]. كما أرشد الحديثُ الكريمُ إلى أن البلاء الذي أزف بسبب الذنب لن يُكْشَفَ إلاّ بتوبة. ولو تتبعنا هذه الآيات المتضمنة لهذا المعنى لطال بنا الكلام؛ فالآياتُ في هذا الغرض كثيرةٌ، والأحاديث كذلك.

تمهيدُ هذه القاعدة إنّما هو على ما أجرى الله من سُنّته التي لن تجد لها تبديلا في عموم الخلق؛ فلا يعترض عليها بما ورد في ابتلاء الأمْثَلِ بالأَمْثَل، لأنّ أهلَ الدين قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم، حسبما تشهدُ لذلك آياتٌ كثيرة وأحاديثُ جمّة. وربّما يسلم كثير من ذلك القليل من الابتلاء. وسيأتي لهذا بسطٌ في الاعتِذار يستوفي الكلامَ هنالك إن شاء الله.

وما أقومَ النظرَ في بابِ استدامةِ النِعَم وفي باب استِدْفاع النِقَم برؤية كون ذلك كلّه من الله. قال بعض المحقّقين: «من كان نظرهُ في وقتِ النِعْمةِ إلى المُنْعِمِ لا إلى النعمـة كان نظرُهُ في وقتِ البـلاءِ إلى المبتلي لا إلى البلاء»[3] وحينئذٍ يكون غريقاً في كلّ الأوقاتِ في معرفةِ الحقّ سبحانَه، وكلُّ من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادة، أما من كان نظرهُ في وقتِ النِعْمةِ إلى النعمةِ لا إلى المنعِم كان نظرهُ في وقت البلاءِ إلى البلاء لا إلى المُبْتَلي، وكان غريقاً في كلّ الأوقاتِ في الاشتغالِ بغير الله، فكان أبداً في الشقاوة، لأنه في وقْتِ وجدانِ النِعَم يكون خائفاً من زوالِها، فكان في العذاب، وفي وقت فواتِ النعمةِ كان مُبْتَلىً بالخوفِ والنكال، في محض السلاسل والأغلال. ولهذا التحقيقِ قال لأمّة موسى عليه السلام: ﴿اذكروا نِعْمَتي﴾[4]

---

(١) ـ من الآية ٤٥ من سورة فاطر.

(٢) ـ من الآية ٥٨ من سورة الكهف.

(٣) ـ ورد في إحياء علوم الدين (٤ / ٨٣) أنّ الشبلي كان يقول: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة».

(٤) ـ من الآيات ٤٠، ٤٧، ١٢٢ من سورة البقرة.

وقال لأمةِ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿اذكُروني أذْكُرْكُمْ﴾[1]». انتهى ما قال.

وربما يَشْعُرُ بسببِ الإصابةِ بالبلوى قولَه تعالى: ﴿وإذا أنْعَمْنَا على الإنْسانِ أعْرَضَ ونأى بجانِبِه وإذا مَسَّهُ الشَرُّ فذو دُعاءٍ عَريض﴾[2] فإنّ إعراضَ الإنسانِ ونأيَه بجانبه إذا أنْعَمَ عليْهِ مولاهُ بتجدّد مِنَحِه التي هو منها يتقلّب آناءَ الليل والنهار في أنواعٍ لا يُحْصيها وأعدادٍ لا يَحْصُرُها، فمقابلتُها بالإعراض والنأي بالجانب عبارةٌ عن النَقْصِ في الشُكْر، وعلامةٌ على شُموخ الأنْف بالكِبْر، وتعامٍ عن رؤيةِ النعمة من قِبَل المُنْعِم بها، وذلك ضربٌ من الكفر، ولذلك عقب الكلام بأنه إذا مسّه الشرّ الذي هو منبّه له من غفلتِه، وموقِظٌ له من رَقْدَتِه، فإنه إذ ذاك ذو دعاء عريض، وجَناحٌ (ص ١٩) لفقد نعمة مولاه مَهيض. وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الإنْسانَ الضرُّ دعانا لِجَنْبِه أوْ قاعِداً أو قائماً فلمّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كذلِكَ زُيِّنَ للمُسْرِفين ما كانوا يَعْملون﴾[3].

وقد تقدّم في الآياتِ السابقة ما يُمَهّد أن الإصابة بالمصائب إنّما هي بما كسبت الأيدي، وأن التغيير للنعمة إنما هو بتغيير ما بالأنْفُس، فإذا مسَّ الإنسانَ الضُرُّ فإنما هو بالسبب المذكور في الآيات السابقة، ثم إذا دعا لِجَنْبِهِ ـ وهو أعظمُ حالةً تكون به من السقم ـ أو قاعداً، وهي الحالة التي تليها، أو قائماً ـ وهي أخفُّ الحالات التي يكون عليها ـ فإنّ الله تعالى يَكْشِفُ ما به من الضُرّ، فلمّا كشفه عنه نَسِيَ حالته، وعاود بطالته، وراجَعَ ضلالته، ومرّ كأنْ لم يَدْعُ الله إلى ضُرٍّ مَسَّه، ورأى من هذه الآية الكريمة ما يقعُ من الإنسانِ بعد التخويف الذي ربّما يزيدُ مَنْ لم يَتَّعِظْ من المُسْرفين الذين زُيِّنَ لهم ما كانوا يعملون طغياناً كبيراً.

(١) ـ من الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) ـ الآية ٥١ من سورة فصلت.

(٣) ـ آية ١٢ من سورة يونس.

وكذلك قوله: ﴿ولئِنْ أذَقْنا الإِنْسانَ منّا رَحْمةً ثُمّ نزَعْناها مِنْهُ إنَّهُ لَيؤُوسٌ كَفُور * ولئِن أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيقُولَنَّ ذَهَبَ السّيِّئاتُ عنّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُور * إلّا الّذينَ صَبَروا وعَمِلوا الصّالِحاتِ أولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ كَبير﴾[1] فإنَّ نَزْعَ الرحمةِ بَعْدَ إذاقتِها لا يكون إلّا بذنبٍ كما سبق، ثم زادها باليأس والكفران خلّتان ذميمتان ينبغي اجتنابهُما وملاحظَتُهما، فلن يخلو مبتلىً بشيء من هذه التمحيصات منهما أو من أحدهما إلّا من حفِظَهُ الله ووقاه، ثم إذا أذاقه نَعْماءَ بعد ضرّاء مسّتْهُ ظهر منه من الفَرَحِ والافتخار ما يدّعي به ذهابَ السيئات عنه، متعامياً في ذلك عن عِزّة المُنْعِمِ أولاً بها، ورحمةِ المتفضّل ثانياً بإذهابها، ثم استثنى الله تعالى منهم الذين امتثلوا أوامرَه من الصبرِ وعملِ الصالحات، وأخبر بما لهم من المغفِرَةِ والأجرِ الكبير.

وكذلك قولُه تعالى: ﴿وإنّا إذا أَذَقْنا الإِنْسَانَ مِنّا رَحْمةً فَرِحَ بها وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بما قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ فإنَّ الإِنْسانَ كَفُور﴾[2] فَفَرَحُ الإنسانِ بما يُذيقه الله من رحمته كالفرح الذي أثبت الله له إذا أذاقه نعماءَ بعد ضرّاء مسّتْهُ مع قوله ذهب السيئاتُ عني، وإصابة السيئاتِ بما قدّمت الأيدي حسبما تقدّم في غيرها من الآيات، فإن الإنسانَ كفور، هذا هو دأبه الواقع منه، وسيرتُه المعهودةُ عنه، كما تقدّم في الآية الكريمة. وإذا أذاقه الله رحمةً ثم نزعها منه فالمعنى في هاتين الآيتين واحد وفي تلك زيادةُ الأمن، ولاحَوْلَ ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم. ولله درُّ القائل[3]:

(ص ٢٠)

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُميتُ القُلوبَ ... وَيُورِثُكَ الذُّلَّ إدْمانُها
وتَرْكُ الذُّنُوبِ حياةُ القُلوبِ ... وخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيانُها

أمّا على التفصيل فقد بَيَّنَ الشارعُ صلواتُ الله عليه ابتلاءاتٍ مخصوصةً

(١) ـ الايات ٩ ـ ١٢ من سورة هود.

(٢) ـ الآية ٤٨ من سورة الشورى.

(٣) ـ البداية والنهاية ١٠ / ١٤٤ (وورد فيه أن ابراهيم بن أدهم كان يتمثل هذين البيتين).

تُوجبها ذنوبٌ مخصوصة، كقوله صلى الله عليه وسلّم: «ما نَقَصَ قومٌ المِكْيالَ والميـزان إلّا ابتُلوُا بالسنين»(١) وقوله: «ما خَتَرَ قومٌ العهدَ إلّا سلّط عليهم العدوّ»(٢) وقوله: «ما غلّ قومٌ قطّ إلّا قذف في قلوبهم الرُّعْب»(٣) وقوله: «ما فشا الزنا في قوم إلّا سلّط عليهم الموتان»(٤) وقال صلى الله عليه وسلّم: «اليمين الفاجرة تَذَرُ الديارَ بلاقع»(٥). وأبلغ من ذلك كلّه ما رواه غيرُ واحد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا عَمِلَتْ أمّتي بستَّ عشرةَ خصلةً حلّ بها البلاء» قيل: يا رسول الله وما هي؟ قال: إذا كان المغنمُ دولاً، والأمانةُ مغنما، والزكاةُ مغرماً، وأطاع الرجلُ زوجته، وعَقَّ أُمَّه، وبَرَّ صديقَه، وجفا أباه، وارتفعت الأصواتُ في المساجِدِ، وكان زعيمُ القوم أرذَلَهم، وأكرم الرجل مخافة شرّه، وشُرِبَتْ الخمُور، ولُبِسَ الحرير، واتخذ القيان والمعازِف، ولَعَن آخـرُ هذه الأمـةِ أولَّها، فليرتقبوا عند ذلك ثلاثاً: ريح حمراء، وخسف، ومسخ»(٦). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما مِنْ قومٍ يكون بين ظهرانيهم من يعمل بالمعاصي همْ أعزّ منه فلم يغيروا إلّا أصابهم الله بعقاب»(٧) وما أشبه هذا المعنى مما وقعت فيه العقوبةُ جزاءً وِفاقا، ولهذا يشير قول الحسن: «مـا أنْكَرْتُم مِنْ زمانِكم فبسوءِ أعمالكم»(٨). وهذا المعنى جاء عن بعض

---

(١) - الموطأ ٣٠٦، سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٣٣ (حديث رقم ٤٠١٩) ومجمع الزوائد ٣ / ٣١٧ وفي سنن ابن ماجة: إلا أُخِذوا بالسنين.

(٢) - في موطأ مالك ص ٢٩٨: ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو.

(٣) - الموطأ ٣٠٥.

(٤) - الموطأ ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٥) - كنز العمال ١٦ / ٦٩٧ (حديث رقم ٤٦٣٨٨).

(٦) - سنن الترمذي ٩ / ٥٨ (وفيه: إذا عملت أمتي بخمس عشرة خصلة).

(٧) - سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٩ (حديث رقم ٤٠٠٩) مع بعض اختلاف، مسند ابن حنبل ٤ / ٣٦٣ (مع بعض اختلاف)، سنن أبي داود ٤ / ١٢٢ - ١٢٣، صحيح ابن حبّان ١ / ٤٥٨ (مع بعض اختلاف)، كنز العمال ٣ / ٧٠ (حديث رقم ٥٥٣٥).

(٨) - ورد هذا القول في عين الأدب والسياسة ص ٢٨ منسوباً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

الصوفية: (إني لأعرِفُ ما ذنبي في خُلُقِ دابتي). وفي نحو هذا المعنى قال الشاعر:(١)

إذا كُنْتَ في نِعْمَةٍ فارْعَها   فإنّ المعاصي تُزيلُ النِعَمْ

وقال ابنُ شرف(٢) في رسالته المسماة بسرّ البرّ(٣): (واعلم أنّ البَغْيَ أعْجَلُ الذنوب عقوبةً في الدنيا والباغي مصروع). وفي المثل: (البَغْيُ والغَدْرُ والحَسَدُ أثافيُّ الفجور). واستقصاء ذلك يخرج عن الغرض ولكنّ المعنى ثابت موجودٌ. إلاّ أنّه يعرض به إشكالٌ مع قوله صلى الله وعليه وسلم في صفة المؤمن وإصابة النوائب له «**إنّه كخامة الزرع تفيئُها الريح مرّةً هنا ومرة هنا**»(٤) وفي صفةِ الكافر إنّه «**كالأرزّة حتى يكونَ انجعافها مرّة**»(٥). ومثل الحديث الآخر بابتلاء الأمثل بالأمثل وفيه أنّ «**أشدّ الناس بلاءً الأنبياء**»(٦). إلى ما لا يحصى كثرة من هذا المعنى.

ولا شك أن كثيراً من هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض مع ما سبق مُحْتَمِلٌ للتأويل، ولا سيّما ما كان في حقِّ الكفار، فقد سَمّى الله بالحسنى ما ينالُنا مِنْ قِبَلِهِ أو منهم، كما سمّى بالعذاب ما ينالُهم من عنده أو بأيدينا، وما

(١) ـ ديوان الإمام علي ص ١٧٥، عين الأدب والسياسة ٥٧، ٢٣٦.

(٢) ـ هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف، أصله من القيروان وجاء أبوه أبو عبد الله الشاعر المعروف من القيروان إلى الأندلس، وعاش أبو الفضل في المرية وتوفي سنة ٥٣٤ هـ وله مؤلفات في الأدب والأمثال وغيرها (انظر ترجمته في: الذخيرة ق ٣ م ٢ ص ٨٦٧، المغرب ٢ / ٢٣٠، الخريدة ٢ / ٢٣، القلائد ص ٢٩٠ والوافي بالوفيات ١١ / ١٤٩).

(٣) ـ ورد ذكر هذه الرسالة في قلائد العقيان ص ٢٩٠، والخريدة ٢ / ٢٥.

(٤) ـ صحيح البخاري ٨ / ١٩٠ ـ ١٩١، مسند ابن حنبل ٢ / ٤٥٤، ٥٢٢، وفي صحيح مسلم ٨ / ١٣٦ «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها لايفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة».

(٥) ـ انظر الحاشية السابقة.

(٦) صحيح البخاري ٧ / ٣.

يبقى بعد ذلك مما ظاهرُه التعارض (ص ٢١) فإنه يندرجُ في القلب أن ما أصاب الأنبياء ومن لحق بهم فإنه لإعظامِ أُجورهم وإعلاءِ منازلهم، لذلك لا يكون في الغالِب إلاّ على ما أجرى الله من عادتِه في خلقه متمحّضاً لما[1] تُسْتَجْزَلُ به المثوبة غير ملموح فيه ما يستبشع منه العقوبة، كما أنّ ما يصيبُ من ذلك الخطّائين فإنه في الأغلب من حاله يستشعر منه الأخذ ويفهم من عمومه المجازاة، ويتوقع من عدم الإنالة فيه النّكال، ولن يتبيَّـنَ ذلك بأقربَ من المثال، وليسَ في الأمثلة أبعدُ من كَوْن الموتِ عُقوبةً في حقّ واحدٍ ومَثُوبَةً في حقٍّ آخَرَ، وإنّما بعّدنا ذلك لعمومه وكونِ المؤمن يلاقي منه مِثْلَ الكافر أو أشدّ، ولكنّه لا يتساوى ميتةُ نبيٍّ ـ ولو بالمناشر من حيث كونُه مظلوماً في نفسه وداعياً إلى ربّه ـ بميتةِ فرعونَ مسخوطاً عليه مغرقاً هو وقومه[2]، وما قرب وصفه من إحدى الميتتين فلاحِق بها.

ولا شك أن الموتَ ليس بِمُرَتَّبٍ على الذنوب وإنما يمكن أن تترتَّب عليها صفتُه، فإن كان مرشح الجبين وعلامات السعادة فهي الميتة التي تشعر من الله بالروح والريحان والنعيم والرضوان، وما لم تَتَبَيَّن صفته فهي التي أجرى الله بها سنته في خلقه وقال في شمولها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ﴾[3] وإن كان على الصفة المكروهة، وقد وَرَدَ في الحديث تعيينُها، وجاء عن عُلَماءِ السلف تبيينُهـا؛ فتلك الصفةُ هي الموتة على المعاصي، والمؤذنةُ بالأخذ بالأَقدام والنواصي، أعاذنا الله من ذلك.

وإذا وضح صَرْفُ الأشكال في الموت الذي يشمل الخلقَ مصيبتُه فهو في غيره من الابتلاءات التي تخصّ بعضَ الناس أوضح، وإزالتها أقرب، لأنّا

(١) ـ في الأصل: متمحضاً في لما. . . ولعل كلمة «ذلك» قد سقطت من بعد «في».

(٢) ـ انظر قصة غرق فرعون وجنوده في عرائس المجالس ص ١٩٦ ـ ٢٠٠، قصص الأنبياء لأبي الفداء بن كثير ص ٣٤٨ ـ ٣٥٧.

(٣) ـ من الآية ١٨٥ من سورة ال عمران، والآية ٣٥ من سورة الأنبياء، والآية ٥٧ من سورة العنكبوت.

مثلاً إذا وجدنا الابتلاء بالقحط قد عمّ، أو المَوتَان قد ألمّ، ونظرنا في المبتلين بذلك فوجدناهُمْ مجاهرين بفاحشة الزنا باخسين للمِكْيال والميزان علمنا قطعاً أنَّ ذلك الابتلاء بسبب ذَيْنِكَ الذنبين، فكيف يُرْتَجى أن يكونَ منعُ القطر لإعظام الأجر أو الإصابة بغدّة كغدة البعير لإحراز الشهادة؟! كلا والله بل هو رجْزٌ مرسل، وبلاءٌ معجل، ولا ينكر أن يصاب به من لم يكن من جُناة أسبابه، لما أراد الله من إعظام أجره أو تخفيف وزره، ويحشر على نيته، كما ورد في مثله عن أمّ سَلَمة زوجِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم: «**ليخسفنّ بقومٍ يغزونَ هذا البيتَ ببيداءَ من الأرض**» فقالت أمُّ سلمة: يا رسول الله إن كان فيهم الكاره؟ قال: «**يبعثُ كلّ رجلٍ منهم على نيّته**»(١) وإلى نحو ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**واتّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبنَّ الذين ظَلَموا مِنْكم خاصَّة**﴾(٢).

ولا شكَّ أن وُقُوعَ الإنسانِ في الخطايا معلومٌ قَطْعاً، وأنّ اعترافَهُ بذلك مَرْجُوّ الفائدة نظراً وسَمْعاً، وأنّ (ص ٢٢) الشيطانَ هو الذي يُدْليه(٣) بغروره، والهوى هو الذي يحجب العقلَ بظُلْمَته عن شُروقِ نوره، ولذلكَ يتعامى الإنسانُ عن ذنبه، ويجهلُ في إقدامه بالخطيئة على ربّه، ولهذا المعنى رغِبَ الفضلاءُ في إهدائهم عيوبَ أنفسهم(٤)، وإنما احتاجَ الإنسانُ إلى معرفة عيبه لأنه لا يخلو من ذلك فمتى عرفه كفَّ ذلك من غَرْبِه، وثنى عنان عُجْبه، فصلح بذلك أمرهُ، وانشرحَ للاستقامة صدرُه، كما قال ابنُ المعتزّ: (العاقلُ لا يرُعْهُ ما سَتَرَ الله من عَيْبِه يفرحُ بما أَظْهَرَ من محاسِنِه)(٥). وقيل لبعضِ الحكماء: أيُّ خصلة

---

(١) - مسند ابن حنبل ٦ / ٣٢٣.

(٢) - الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) - في القاموس المحيط مادة (دلو): دلوتُ الناقةَ سيَّرتُها رويدا.

(٤) - قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي (إحياء علوم الدين ٣ / ٦٤).

(٥) - التمثيل والمحاضرة ص ٤٠٨، زهر الآداب ٤ / ١٠٥٤.

أعظمُ بالإنسان ضرراً؟ قال: (قلةُ معرفتِه بعيوبِ نفسِه)[1]. وقد كان يُقال: (معرفةُ الإنسانِ بعيوبِه أكبرُ ذُنُوبه) ولابن الروميّ في ذمّ من خَفِيَ عليه عيبُه: [2]

إصابةُ مَعْنى المَرْءِ روحُ بيانه ... فإنْ أَخْطأ المعنى فذاكَ مُواتُ
إذا غابَ عَقْلُ المرءِ عن عَيْبِ نَفْسِهِ ... فَيَقْظَتُهُ في العالَمين سُباتُ

فإذا تقرّر هذا الأصل، وتمهّد هذا الفصل، وتحقّق أن الأسبابَ التي أوجَبَتْ لنا من تغيُّر الحال ما أوجبت، وحجبت عنّا من وجوه الفضلِ ما حَجَبت، إنما هي أسبابٌ مكتسَبةٌ بأيدينا، وواقعة لتجاوزنا لحدود الشرع وتعدّينا، فما أحقّنا أن نطلُبَ لها الأدوية في مظنَّتها، ثم أن نَشُدَّ الكفَّ منها إذا وجدناها على عِلْقِ مضنّتها.

والدواءُ الشرعي المشترك هنا لهذه الأمراض كلّها الذي هو كالانكفافِ عن المضرّات التي منها مادةُ المرض، والزيادة في كمّيته أو كيفيّته المشبه ببرء المرض من صناعة الطب، الاحتماءُ المطلوب فيه، إنّما هو التوبة، كما قال الزاهد أبو عمران المرتلّيّ رحمه الله[3]:

شَكَوْتُ دائي إلى طبيبي ... فقالَ إنّي بِهِ عَليمُ
أدْواءُ أدوائِكَ المعاصي ... فأنْتَ من أجلِها سَقيمُ
وبالمتَابِ الشِفاءُ منها ... إنّي بِمَنْ تابَ لي رَحيمُ

فإنّ أعظم أسباب الأمراضِ المزمنة بالإنسان في هذا المعنى المقرر،

---

(١) ـ سئل قسّ بن ساعدة: ما أفضل العقل؟ قال: معرفة المرء بنفسه. (لباب الآداب ص ٢١).

(٢) ـ لم يرد البيتان في ديوان ابن الرومي.

(٣) ـ هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلي الزاهد، المنسوب إلى حصن مارتلة من حصون باجة، من أشهر شعراء الزهد بالأندلس، وتوفي سنة ٦٠٤ هـ عن ٨٢ سنة (انظر ترجمته في: المغرب لابن سعيد ١ / ٤٠٦، الغصون اليانعة ١٣٥، المقتضب من تحفة القادم ص ٥٤٥ وله أشعار متفرقة في نفح الطيب وشرح الشريشي على المقامات).

أو الداخلة عليه هو الكُفْر، لأنّه هو الذي يقع به الشقاءُ الذي لا ينقطع، وتُفْقد به السعادةُ التي لا تخلف، وقد وجدنا التوبة شافيةً من آلامه، ومُبرئةً من أسْقامه، على القطع اتفاقاً لقول الله تعالى: ﴿فإذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتلُوا المُشْركينَ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدوا لَهُمْ كلَّ مَرْصَدٍ فإنْ تابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُمْ إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿فإنْ تَابُوا وأقامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فإخْوانُكم في (ص ٢٣) الدِّين ونُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون﴾[2] وقال تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يَكْتُمونَ ما أنْزَلْنا من البيّناتِ والهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنّاهُ للنّاسِ في الكِتابِ أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله ويلْعَنُهُمُ اللاعِنُون * إلاّ الّذِينَ تابُوا وأصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولئِكَ أتُوبُ عَلَيْهم وأنا التوّابُ الرّحيم﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنَّ المنافِقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إلاّ الّذينَ تابُوا وأصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأخْلَصُوا دِينَهُم لله فأولئِكَ مَعَ المُؤْمنين وسَوْفَ يُؤْتِي الله المُؤْمِنينَ أجْراً عَظيماً﴾[4] وقال النبي صلّى الله عليه وسلم: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»[5]. فإذا كانت التوبةُ نافعةً في هذا المرض الذي لا يُقاسُ به مرض مُذْهِبة لهذا السقم الذي لا يتمُّ به في الدنيا والآخرة غرض لقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاء﴾[6] فأحرى أن تكونَ نافعة فيما دونه من المعاصي والآثام ونافعةً مما هو أخفّ منه من الذنوب والأوزار، إلاّ أنّ العلماءَ اختلفوا في توبة العاصي هل هي مقبولة على القطع إذا صحت شروطها كتوبة الكافر على قولَيْن رجّح الغزاليُّ منهما

---

(١) ـ الآية ٥ من سورة التوبة.

(٢) ـ الآية ١١ من سورة التوبة.

(٣) ـ الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠ من سورة البقرة.

(٤) ـ الآيتان ١٤٥ ـ ١٤٦ من سورة النساء.

(٥) ـ مسند ابن حنبل ٤ / ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) ـ من الآيتين ٤٨، ١١٦ من سورة النساء.

القول بقبولها قطعاً[1] وهو الواضح، قال الله تعالى: ﴿وإذا جَاءَكَ الذينَ يُؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجهالةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فإنَّهُ غَفُورٌ رَحِيم﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنوا تُوبُوا إلى الله تَوْبَةً نَصُوحاً عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ويُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ﴾[3] قالوا: وعسى من الله واجبة، وذلك مِنْ أدلّة مَنْ قال بقبولها على القطع. وقال الله تعالى: ﴿وتوبُوا إلى الله جَميعاً أَيُّها المُؤْمِنُون لَعَلّكُمْ تُفْلِحون﴾[4]. ولا إشكالَ في حمل هذه الأوامر على الوجوب. وقال تعالى في أَكَلةِ الربا وهو من أعظم الذنوب بالنسبة إلى الأموال: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من[5] الرِّبا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنين * فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فاذَنُوا بِحَربٍ مِنَ الله ورَسُوله وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظلَمُونَ﴾[6]. فانظر إلى عظيم هذه المعصية المؤذن الإصرار عليها بحرب من الله ورسوله كيف أثمرت التوبةُ منها مع النجاةِ من تبعتها الفوزَ برأس المال المتضمن لعدم الظلم من الجهتين لطفاً من الله ورحمة، وقد كان شؤم هذه المعصية ماحقاً لأصل الربا وفرعه، ومُعَرِّفاً لما قصد ربُّ ذلك المال من جمعه لقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ الله الربَا ويُرْبي الصَدَقات﴾[7] وذلك من الجزاءِ الوفاق. وقال الله تعالى: ﴿إنّما جَزاءُ الذينَ يحارِبُونَ الله ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فساداً أن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهِمْ وأَرْجُلُهُمْ (ص ٢٤) مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الأرضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنْيا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيم * إلاّ الذينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِم فاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُورٌ

(١) ـ إحياء علوم الدين ٤ / ١٣ ـ ١٦.

(٢) ـ الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

(٣) ـ الآية ٨ من سورة التحريم.

(٤) ـ آية ٣١ من سورة النور.

(٥) ـ سقطت من الأصل.

(٦) ـ الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩ من سورة البقرة.

(٧) ـ من الآية ٢٧٦ من سورة البقرة وتتمتها: «... والله لايحبّ كلّ كفّار أثيم».

رَحِيم﴾(١) فتأمّلْ هذه الموقعةَ الكُبْرى مع ما تضمنته من المفاسد الكثيرة، واشتملتْ عليهِ من المضارّ(٢) العظيمة، ولكن التوبةَ من أهلِها قبلَ القدرة عليهم، والاستيلاءِ على ما لديهم، ضمِنَتْ لهم من رحمةِ الله وغفرانِه ما تقرّر الكلام فيه في موضعه، إذ ليس هذا موضعَ استيفائه. وقال الله تعالى: ﴿والّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ ولا يَقْتُلونَ النَّفْسَ الّتي حَرَّمَ الله إلَّا بالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً * يُضَاعَفْ(٢) لَهُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيه مُهَانا * إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وكانَ الله غَفُوراً رَحِيما﴾(٣) فاسْتَحْضِرْ عظيمَ ما سبق من تقرير هذه المعاصي المنفية عمّن سبق تقريرُ صفاتهم من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ومن عطف عليهم، ثم انْظُرْ إلى عظيم الوعيد الوارد على من تركبها(٤) من تضعيف العقاب والتخليد فيه على ما في ذلك من الأبحاث والتأويلات ثم إلى الاستثناء من ذلك وما قضت التوبةُ من تبديل السيئاتِ حسنات، ولاغايةَ بَعْدَ هذا في الفضل ولا مَطْمَحَ وراءه في الغُفْران والعفو، وقد ظهر بسببها نوعٌ من مُتَمنَّى البُوصيري(٥) المستبعد عليه في قوله: (٦)

لَعَلَّ رَحْمَةَ ربّي حِينَ يَقْسِمُها ... تأْتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القَسَمِ

فسبحان ذي الطِوَلِ العظيم والفضل العميم والإحسان الجسيم لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم!

---

(١) ـ الآيتان ٣٣ ـ ٣٤ من سورة المائدة.

(٢) ـ في الأصل: يضعف.

(٣) ـ الآيتان ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الفرقان.

(٤) ـ هكذا في الأصل، ولعل المراد: ارتكبها.

(٥) ـ هو محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي اصل احد والديه من أبو صير فنسب إليها، توفي في حدود ٦٩٧ هـ وله ديوان شعر، وهو صاحب قصيدة البردة المشهورة (فوات الوفيات ٣ / ٣٦٢، الوافي بالوفيات ٣ / ١٠٥).

(٦) ـ ديوان البوصيري ١٩٠ ـ ٢٠١.

قال سَهْلُ بنُ عبدِ الله(١) ـ رَضِيَ الله عَنْه ـ: «إنّه كان فيمن قَبْلكم رجلٌ أسرف على نفسه ثم رُمِزَ له(٢) في الخروج بإذن الله طلباً للتوبة هارباً إلى الله تعالى من ذنبه، فلما كان في بعض الطريق لقيه مَلَكٌ في صورة إنسان فقال له: يا عبدَ الله أين تريد؟ قال: أريد من أستشفعُ به على ربّي ليقبل توبتي. فقال له المَلَك: وأيّ شيء تصنع بشفيع؟! إنه بك أرحم من الشفيع. فقال له الرجل: إنّ لِلّذي أستشفع به عند الله جاهاً، وإني لا جاه لي. فأرسل الله عزّ وجلّ إلى المَلَك: صَدَقَ عبدي لا تَرْدُدْهُ وادلُلْهُ على وليٍّ من أوليائي يستشفع به عليّ، فإنّ رحمتي وسِعَتْ كلَّ شيء. فدلّه الملك(٣) على وليٍّ من أولياء الله تعالى، فلما جاءه سلّم عليه، فردّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بحبيب الله، مرحباً بالمعتذِر من جنايته، مرحباً بالمستقيل من عثرته، اعلمْ أنّ الله ما رَزَقَ عبداً توبةً إلاّ وقد علم فيه خيراً ساقه إليه، وأنّ الله عزّ وجلّ قد قبل توبتك فأصلحْ باقي عملِك، فإنّ الله عزّ وجلّ يغفر لك الأول بالآخر. فقال له التائب: فكيف لي بصحة عملي؟ فقال له وليُّ الله: أن (ص ٢٥) تدعو بهذا الجبل فيُجيبك: فقال له التائب: أيّها الجبل أقبِلْ إلينا. فما تمّ الكلم حتى جاء الجبل مسرعاً، ثم قال له ارجعْ(٤) فرجع فقال الرجل التائب: أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء عِلْماً، وأحصى كل شيءٍ عدداً. فلم يَزْل مواظباً مداوماً حتى قبضه الله إليه».

وإذا كانت التوبة من عموم الناس مُقْتضِيةً لهذه المصلحة العظيمة وموجباً لهذه المنفعةِ العميمة فهي من ملوكهم أجزلُ فائدة وأجملُ عائدة. كما يُرْوى

---

(١) ـ أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري، أحد المتصوفة، صحب خاله محمد بن سوّار ولقي ذا النون المصري، وتوفي سنة ٢٨٣ هـ (طبقات الصوفية ٢٠٦، حلية الأولياء ١٠ / ١٨٩، وفيات الأعيان ٢ / ٤٢٩).

(٢) ـ في الأصل: رمر.

(٣) ـ في الأصل: مَلَك.

(٤) ـ في الأصل: ثم قال ارجع له فرجع.

أن أنوشروان خرج يوماً إلى الصيد، فأوغل في الركض، وانقطع من عسكره، واستولى عليه العطشُ، ووصل إلى بستان، فلما دخل ذلك البستانَ رأى أشجار الرمّان، فقال لصبيّ حضر في ذلك البستان: أعطني رُمّانة واحدة. فأعطاه فشقّها وأخرج حبّها وعصرها، فخرج منها ماء كثير فشربه، وأعْجَبَهُ ذلك الرمّان، فعزم على أن يأخذ ذلك البستان من مالكه، ثم قال لذلك الصبيّ: أعطني رمانةً أخرى. فأعطاه فعصرها وخرج منها ماء قليل فشربه فوجده عفِصاً[1] مؤذياً، فقال: أيها الصبي لِم[2] صار الرمان هكذا؟ فقال الصبيّ: لعلّ ملكَ البلد عزم على الظلم فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا. فتاب أنو شروان في قلبه عن ذلك الظلم، وقال للصبيّ: أعطني رمانة أخرى. فأعطاه فَعَصَرَها فوجدها أطْيَبَ من الرمّانة الأولى، فقال للصبيّ: لِمَ تبدلت هذه الحالة؟ فقال: لعل ملك البلد تابَ عن ظُلْمه. فلما سمع أنو شروان هذه القصّة من ذلك الصبيّ وكانت مطابِقَةً لأحوال قلبه تاب بالكليّة عن الظلم، فلا جرم يبقى في الدنيا بالعدل، حتى أن من الناس من يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ولدتُ في زمانِ المَلِكِ العادل**»[3]. ولا يُسْتَنْكر ذلك فإن صلاحَ الدنيا بصلاحِ مُلوكها. وفي المنقول من ذلك عن صَلاح الدنيا في مدة عمر بن عبد العزيز وتغيّرها بعد مُدّته ما يُعْطي في ذلك برهاناً واضحاً.

فلنرجع إلى ما كنّا فيه، فإنّنا إذا تأمّلْنا بنظرِ العقل هذه الآيات المسطورة وتحقّقنا ما أفادتْ التوبةُ من محوِ كبار الذنوب، والعفو عن عظيم الجرائم، ونزل بنا من هذه التمحيصاتِ ما تيقن أنه أصابنا بذنوبٍ نحن لها مرتكبون، ولثقل أوزارها محتقبون وظهر من مناسبة الابتلاء للذنب ما شهد أنه صادرٌ مصدرَ العقوبة لكونه من بابِ الجَزاء الوفاق بفرضٍ لازمٍ وحتم واجب تعيّنت المبادرةُ إلى التوبة من تلك الأفعال كلّها، والندمِ على ما فرط من اكتسابها، والعزمِ

(١) ـ العفِص: المرّ.

(٢) ـ في الأصل: لِما.

(٣) ـ ورد هذا الحديث في كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ٢ / ٣٤٠ ـ ٣٤١.

على عدم العودة إلى جريّة واحدة من جريّاتها، فلعلَّ سخطَ الله فيها والضراعةَ إلى الله في قبولها والاستشفاعَ إليه بأكرمِ الخلق عليه محمدٍ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم، (ص ٢٦) ثم بمن عَيَّـنَ لنا صِفَتَهم من أولياءِ الله تعالى وأهل اصطفائه وأرباب اختصاصه، كما نُقِل في الحكايةِ المنقولةِ عن سَهْل بنِ عبد الله آنفاً[2].

ولتعلم أن المُسَابقةَ لهذا من ألْزَمِ الفُروضِ المحتومة[3] وآكدِ الواجبات المطلوبة، وأنَّ إضاعةَ هذا الحتم الواجبِ والفرضِ اللازم من أعظم ما يلحقُ عليه الندم، ويُدْرَكُ بفوْته الأسف، وعليه تَنَزَّلَ قولُ بعضِ الحكماء وقد سُئل: ما الحق المُضَيّع؟ فقال: ما صَح فَضْلُه وأمكن فِعْلُه ثم سُرَّ به أهلُه. قيل له: ومن أشدُّ الناسِ ندماً؟ قال: مَنْ قعد به الكَسَلُ عن خير عمل حتى قطع دونه الأجل. انتهى.

ولا يغفل عن رؤيةِ اللطفِ من الله والتجاوزِ في هذه التمحيصات بحيث لم يحل الابتلاء مستأصِلاً، ولم يُرْجَ العقابُ إلى الوقت الذي لا يجد الإنسان فيه مستعتباً، وربما يجب حمد الله على ما عجل منه في هذه الدار المنقضية الفانية، ولم يؤخره إلى الدار التي هي دائمة باقية، ففي التأخير من الابتلاء الذي يَصْحَبُه عدم الإقلاع غالباً ما ينبغي الاستعاذةُ منه. كما أنّ في تعجيل المؤاخَـذةِ غالباً من الإيقاظ من سِنات الغَفْلات والتجذّر من التمادي على ارتكاب السيئات ما يقتضي أنّه لطفٌ من الله قَوَّمَ به زَيْغَ عبده وسبب منه في مراجعته لأمره. وقد كُنْتُ على الإقصار عن هذا الكلام خشية اعتراضِ من يظهر له البَوْنُ بين قولي بالحضّ على المبادرة إلى التوبة وفعلي بالتسويف عن

---

(١) ـ في الأصل: محمداً.

(٢) ـ انظر ص ٢٤ من الأصل المخطوط.

(٣) ـ في الأصل: المحتمومة.

ذلك لولا أني تذكّرتُ قولَ الحسن البصري[1] لمطرّف بن عبد الله بن الشخير[2] - رحمهما الله: (يا مطرّف عِظْ أصحابَك. فقال مطرِّف: أخافُ أن أقولَ ما لا أفعل. فقال الحسن: يرحمك الله! وأيُّنا يفعل ما يقول! لودَّ الشيطانُ لو ظَفِرَ بهذه منكم فلم يأمُرْ أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن منكر) ولا يُحْمَلُ قولُ الحسن - رضي الله عنه - على أن قول الله تعالى ﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[3] ظاهرٌ في معارضته لأن فِعلَ المخاطبين بالآية الكريمة من الأمر للناسِ بالبرّ ونسيانِ أنْفُسِهم مِنْ مِثْلِ ما أمروهم به ظاهر الشناعة، وليسَ في قول الحسن مثلُ ذلك، وإنما أمره أن يَعِظَ الناسَ وإنْ قصّر في فِعْلِه مع رُؤيةِ ذلك واعترافه به لا على وَجْهِ نسيان نَفْسِه ذاهلاً عن عُيوبه، وغافلاً عن ذُنُوبه، وفي مِثْلِ ذلك يُنْشَدُ:

اعْمَلْ بقوْلي وإنْ قَصَّرْتُ في عَمَلي ... يَنْفَعْكَ قَوْلي ولا يَضْرُرْكَ تَقْصيري

وليكن على بالٍ منّا أنّنا بحالِ مَنْ غَلَبَ عليه هواه، وضَعُفَ خوفه من مولاه، وقد قال ابنُ شرف[4] في رسالة سرّ البرّ: (واعلمْ بأنّ الهوى مهواةٌ بصاحبه، ومزلّةٌ براكبه، ونَيْلُ أنواعِ السيئاتِ يرجِعُ إلى الهوى كما يَرْجِعُ الناسُ إلى قبائلهم ومن لايعرفُ أنّ (ص ٢٧) الخيرة فيما يأتي ويذر، فليخالِفْ هواه، فهنالِكَ الخيرةُ كلُّها، ولو جاهدَ الناسُ أهواءَهم ما احتاجوا إلى شيء آخر، ولو عصى الناسُ أهواءهم لقلَّ أهلُ النار، وفي المثل: (من غَلَبَ هواه فهو أشجعُ

---

(١) - هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (٢١ - ١١٠ هـ) من كبار التابعين، كان في زمنه إمام أهل البصرة في الزهد والعلم والورع والعبادة (وفيات الأعيان ٢ / ٦٩، حلية الأولياء ٢ / ١٣١، وأفرد له الدكتور إحسان عبّاس كتاباً باسم «الحسن البصري» دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٥٢م).

(٢) - زاهد من كبار التابعين ومن المحدثين الثقات له حكم مأثورة، أقام بالبصرة، وتوفي بها سنة ٨٧ هـ(وفيات الأعيان ٥ / ٢١١، حلية الأولياء ٢ / ١٩٨).

(٣) - الآية ٤٤ من سورة البقرة.

(٤) - هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني وقد سبق الحديث عنه.

من أَلْفِ ضِرْغام). [1] وفي المثل: (عجِبْتُ لمن أطاقَ هواه كَيْفَ لم يحمِلِ الجَبلَ) وفي المثل: (الهوى يُبْطِلُ الجوارح) انتهى.

وحالتنا غيرُ المرضيّة في متابعةِ الهوى فينبغي لمن يكونُ في هذه الحالةِ أن يَعُودَ على نفسه بالملامة، وأنْ يذكر أهوال يوم القيامة، وأنْ يخوّفها عاقبةَ الحسرة هنالك والندامة، حتى يُسْرع بما وَجَبَ عليه من فَرْض التوبة عَيْناً، ويقتضي من التمكّن في هذا المقام الأشرف دِيْنا[2]. قال الله تعالى: ﴿وأمّا مَنْ خَافَ مقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإنّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوى﴾[3] وبعيدٌ لغَرورٍ منّا أن يرقى إلى هذا المقام الأسنى، أو يتعلّق بأذيال من سبقت لهم من الله الزيادةُ والحسنى، إلاّ أنْ يشاءَ الله كَقَوْده بِسلسلةٍ[4] من التمحيص تجذبهُ لذلك اضطراراً كما جاء في الحديث.

ومقامُ الخوفِ بأمثالِنا من الخطّائين أَلْيَق، وهو بالنسبةِ لتوقّي المَدِينينَ أَسْبَق، وإنّما نحنُ فيه في قولٍ غير موافقٍ للفِعْل ودعوى غيرِ مطابقةٍ للعمل، ولو أننا في دعوى الخوفِ صادقون، والعَمَلُ منّا موافِقٌ لما نحن به ناطقون لأسْلَمَتْنا من أَسْرِها الذنوب، وتجافَتْ بنا عن المضاجِعِ الجُنوُب، وسَلْ بالتماس رحمةِ الله الغَرَضَ المطلوب، فقد سئل عزُّ الدين بنُ عبد السلام[5]

---

(١) ـ أدب الدنيا والدين ص ٣٦ ـ ٣٧ وفيه: من جاهد هواه فهو أشجع الناس.

(٢) ـ في الأصل: دنيا

(٣) ـ اية ٤٠ من سورة النازعات.

(٤) ـ الأصل: بسلسة.

(٥) ـ هو عبد العزيز بن عبد السلام بن حسن السلمي المغربي الأصل الدمشقي المولد، يكنى أبا محمد ويلقب بعز الدين وسلطان العلماء، ولد عام ٥٧٧ أو ٥٧٨ هـ، تولى التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء في دمشق ومصر، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ، وكان نزيهاً عادلاً لايخشى في الحق لومة لائم، وتعرض بسبب ذلك إلى النفي والتشريد من قبل الحكام، وقد خلف عدداً من المؤلفات في التفسير وعلوم القرآن والحديث والعقائد والفقه والسيرة والتصوف، وقد ألف فيه الدكتور علي الفقير كتاباً في مجلدين عنوانه: الإمام العز بن عبد السلام وأثره في الفقه الإسلامي ـ عمان ـ ١٩٧٧م.

عن التائب من الكبائر وغيرها يسأل الله مقامات الأولياء؛ أيكون ذلك منه سوءَ أدب أم لا؟ فأجاب: إنما إذا تابَ الإنسانُ من كفر أو كبيرة أو صغيرة فليس من سُوءِ الأدب أن يَسْأَلَ الله المقامات؛ فإنّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء، وقد تابَتْ الصحابةُ رضوانُ الله عليهم من الكفر ثم رفعهم الله تعالى بعد قربتهم إلى أرفع أعلى[1] المقامات، وجعلهم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، وأيُّ سُوءِ أدبٍ في سؤال أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ورسوله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لا يقولنَّ أحدُكم اللهم اغِفْر لي إن شئت وليعزم المسألةَ وليعظم الرغبة فإنّ الله تعالى لايتعاظَمهُ شيءٌ أعطاه**»[2] وقضيةُ الفضيلِ بن عياض[3] مشهورة[4] انتهى.

وكان يحيى بن مُعاذ الرازيّ[5] يقول: (كيف أَمْتَنِعُ بالذنبِ من الدعاء ولا أراك تمتنِعُ بذنبي من العطاء)[6] وأكيد عليه ألاّ يغفل طرفة عَيْن عن إشعارِ نفسه الخوفَ، وإدمانه فيه الفِكْرَ، وعمرانه بالجدّ في ذلك القلب، متحفّظاً من دُخول اليأس عليه، أو تسرُّع القُنوط من رحمةِ الله إليه. قال (ص ٢٨) الشيخُ تاجُ الدين[7] ـ رضي الله عنه ـ في حِكَمِه: (لا يَعْظُمُ الذَنْبُ عندكَ عَظَمةً تَصُدُّكَ

---

(١) ـ هكذا في الأصل.

(٢) ـ صحيح البخاري ٧ / ١٥٣، صحيح مسلم ٨ / ٦٣ ـ ٦٤.

(٣) ـ يشير إلى: الفضيل بن عياض أبو علي التميمي أحد الزهاد المعروفين في زمن هارون الرشيد، توفي مجاوراً بمكة سنة ١٨٧هـ (حلية الأولياء ٨ / ٨٤، كتاب التوابين ٢٠٧، وفيات الأعيان ٤ / ٤٧).

(٤) ـ انظر قصة توبته في كتاب التوابين ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤٧.

(٥) ـ هو أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ من مشايخ المتصوفة، توفي بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ، حلية الأولياء ١٠ / ٥١، طبقات الصوفية ١٠٧، تاريخ بغداد ١٤ / ٢٠٨، وفيات الأعيان ٦ / ١٦٥)

(٦) ـ حلية الأولياء ١ / ٥١.

(٧) ـ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الاسكندري، وقد مضت ترجمته.

عن حُسْنِ الظنّ بالله فإنَّ مَنْ عرف ربَّه استصْغَرَ في جَنْب كَرَمِه ذَنْبَه)[1]. وقال أيضاً رضي الله عنه: (إذا وَقَعَ منك ذنبٌ فلا يكن سبباً يؤيسك من حصولِ الاستقامة مع ربّك فقد يكون آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ لك)[2].

وإنّ من أعظم ما يقوي الرجاء في رحمة الله لمن حَصَلَتْ له التوبة من العصاة ما نُقِلَ عن ابنِ عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سَمِعْتُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم حديثاً لو لم أسْمَعْهُ إلّا مرّةً أو مرّتين أو ثلاثاً أو أربعاً حتى عدّ سبع مرات سَمِعْتُه يقول: «**كان ذو الكِفْل رجلاً[3] من بني اسرائيل، وكان لا يتورّع من ذنبٍ عمله حتى أتَتْه امرأةٌ فأعطاها سبعين ديناراً على أن يطأها، فلما أُجلِسَ منها مجلسَ الرجلِ من المرأة ارْتَعَدَتْ وبكتْ فقال لها: ما لكِ؟! أكْرَهْتُكِ؟ فقالت: لا، لكن هذا عمل ما عملتُه قط، وإنما حَمَلَني عليه الحاجة، قال: فتعملي هذا أو لم تعمليه قط قومي والدنانير لك. قال: ثم قال: والله لا يعصي الله ذو الكفل أبداً. قال: فمات من ليلته فأصبح على بابه مكتوب: قد غفر الله لذي الكفل**» انتهى[4].

وإنما يتحفظ بتقوية الرجاء من دُخولِ اليأس فإنَّ المذنب منا كَثُرَ ما يؤيسه المستعظِمُ لذنوبه من رحمة الله، وفي هذا المعنى قال بعضُهم:

أيْأَسُـوني لمّـا رأوْا مِنْ ذُنـوُبي ... أتُـراهُمْ هُمُ الغَفُـورُ الـرَّحيمُ؟!
اتْـرُكُـوني وإنْ تَعـاظَـم ذَنْـبي ... إنّـمـا يَغْفِـرُ العـظيمَ العـظيمُ

والاعترافُ بالذنب صادقاً من القلب سببٌ في حصول التوبة من الرب قال الله تعالى: **﴿وآخَرُونَ اعْتَرفوُا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالحاً وآخَرَ سَيِّئاً**

---

(١) ـ حكم ابن عطاء الله ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) ـ نفسه ص ٢٥٣.

(٣) ـ في الأصل: رجلٌ.

(٤) ـ انظر كتاب التوابين ص ٧٢ ـ ٧٣.

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1] وعسى كما قالوا من الله واجبة، ويُناسِبُ هذا المحلّ قولُ أبي العتاهية[2] ـ رحمه الله ـ:

إلــهــي لا تُعَــذِّبْـنــي فإنّــي — مُقِــرٌّ بالــذي قَدْ كان مِنّــي
فمــا[3] لي حيلةٌ إلّا رَجــائــي — لِعَفْـوك[4] إنْ عَفَوْتَ وحُسْنُ ظَنّي
وكم[5] مِنْ زلّــةٍ لي في الخـطايا — وأنْــتَ عَلَيَّ ذو فَضْــلٍ ومَــنِّ
إذا فكّــرتُ في نَدَمــي عليْهــا — عَضَضْتُ أنــامِلي وقَــرَعْتُ سِني
أُجَــنُّ بزهــرة الــدنـيا جُنُــونــاً — وأَقْــنَــعُ طولَ عُمْــري بالتمنّي[6]
ولـو أنّي صَدَقْتُ الـزُهْـدَ عنها[7] — قَلَبْـتُ لأهْـلِهــا ظَهْــرَ الـمِـجَـنِّ
(ص ٢٩) يَظُنُّ النــاسُ بي خيراً وإنّي — لَشَــرُّ النــاسِ إنْ لم تَعْفُ عنّي[8]

وواجبٌ عليه إذا تمّ من التوبةِ غَرَضُه، وذهب بأدويتها الشافيةِ مَرَضُه، أن يستحضِرَ كونَه بحالِ مَنْ عُفِي عن إجرامه، وتعوّض عمّا يجب من هونه إلى ما تفضّل به من إكرامه، فينجو بذلك من مهواةِ الغُرور، ويشهد من رؤية المنّة من الله نوراً على نور، ورَحِم الله الأستاذَ أبا سعيد بن لُبّ[9]، فإلى هذا المعنى أشار وفائدته الجليلة بقوله أثار:[10]

(١) ـ آية ١٠٢ من سورة التوبة.

(٢) ـ ديوان أبي العتاهية ص ١٢٥.

(٣) ـ في الديوان: وما.

(٤) ـ في الديوان: وعفوك.

(٥) ـ في الديوان: فكم.

(٦) ـ في الديوان: وأفني العمر فيها بالتمني.

(٧) ـ في الديوان: فيها.

(٨) ـ هذا البيت في الديوان هو الخامس في القصيدة.

(٩) ـ هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لُبّ التغلبي، أسلفنا الترجمة له.

(١٠) ـ ورد البيتان في الإفادات والإنشادات للشاطبي ص ٩٤، ونيل الابتهاج ص ٢٢١.

وَهَبْـكَ وَجَدْتَ العَفْوَ عَنْ كُلِّ زلّةٍ فأيْنَ مقـامُ العَفْوِ مِنْ مَقْعَدِ الرضا
وكيفَ بثـوبٍ حالكِ اللوْنِ رُحْتَ أنْ يَصيرَ كثـوبٍ لم يَزَلْ قطُّ أبْيَضـا

ولكنا نتمسّك بمثل قوله صلى الله عليه وسلّم: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لذَهَبَ الله بِكُمْ ولجاء بقومٍ يُذْنِبُون فيسْتَغْفِرون فيغْفِر لهم**»[1] وما أنسب قول القاضي منصور الهَرَويّ[2] لهذا الموضع:

لمّـا عَدِمْـتُ وسـيلةً ألـقى بهـا ربّـي تقـي نَفْسـي أليمَ عَذابِهـا
قَدَّمْـتُ رَحْـمَـتَـهُ إلَـيْهِ وَسيلةً وَكَفَىَ بهـا وَكَفَىَ بهـا وَكَفى بِهـا

وإذا كان كذلك فَظَهَرَ اسمُه التوّاب ونحوه من أسمائه لا بُدَّ منه في الوجود، وله الحمدُ على ما مَنَح من هذه الموجبة لعبيده الخطّائين المعروضة لهم التوبة بعد ارتكابِ الخطايا واقترافِ البلايا.

وهذه المقدّمةُ إذا منّ الله بحصولها، وأنْعَمَ توفيقاً منه بمَحْصُولها فإنها مُؤْذِنَةٌ بإذن الله بالشِفاء، وافيةٌ بحول الله بصلاحِ الحال أتمَّ الوفاء.

إلاّ أنّه تَلْزَمُ مع ذلك حالةٌ أخرى هي المسمّاةُ بالتقوى، وهي أشْبَهُ شيء باجتناب الأمورِ المُضِرَّة والاحتماء مِنْها والتزامِ الأمورِ النافعة والمحافظة عليها، وهي الضمينةُ لاستقامةِ الحال الصحيّة.

والتقوى فرضٌ لازم أوجبها الله علينا كما أوجبها على الذين مِنْ قَبْلِنا حسبما تضّمنته الآية الكريمة.

والتقوى المفروضةُ علينا هى أن يتخذ العبد وقايةً بينه وبينَ الذنوبِ بقُوى

---

(١) ـ صحيح مسلم ٨ / ٩٤.

(٢) ـ هو أبو أحمد منصور بن الحاكم أبي منصور محمد الأزدي الهروي من أعيان هراة وشعرائها (يتيمة الدهر ٤ / ٩٩٣) وكان قاضياً لمدينة هراة، وفقيهاً، امتدح القادر بالله وتوفي سنة ٤٤٠ هـ (معجم الأدباء ١٩/ ١٩١) ترجم له الباخرزي (دمية القصر ٢ / ٩٣ ـ ١٠٢) وقال: إنه أفضل من بخراسان على الإطلاق وأنه كان مغرى بالشراب والطرب وأن ديوان شعره بلغ أربعين ألف بيت.

من العزم وتوطينٍ من القلب على تَرْكِ المخالفات وامتثالِ الطاعات. ولن يُتوصَّلَ إلى هذا الغرضِ الذي هو التقوى إلاّ بِعِلْمِ ما يكونُ به متّقياً، فيلزم أن يَعْلَمَ ما أُمِرَ به ليمتَثِلَهُ وما نُهِيَ عنه لِيَجْتَنِبَهُ، لأنّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلاّ به فهو واجب. ولذلك يقولُ الله تعالى: ﴿واتّقُوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله﴾[1] ذَكَرَ كثيرٌ من المُفَسِّرين أنّ مَعْنى الآية: يبيّنُ الله لكم الواجبَ والمحرَّم عليكم لِتعلموا ولِتَعملوا ولِتَنْتَهوا ولِتَتَّقُوا الله في ذلك. ولمّا ربط بين تقواهم له وتعليمِه لهم بيّن أنه مليٌّ لهم بما ضَمِنَ من التعليم، فقال: ﴿والله بكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] (ص ٣٠) وإلى هذا المعنى المقرّر أشار قولُه صلى الله عليه وسلّم: «**والله إنّي لأتْقاكُمْ لله وأعْلَمُكُمْ بحدوده**»[3] وإنما قارن بين العلم والتقوى إشعاراً بهذا القصد، وتنبّهاً على هذا الأمر، إذا كانت التقوى الواجبة لاتمكن إلاّ بعد العلم بالمُتَّقَى والمُتَّقى به.

وتحتَ هذا يندرِجُ من العلوم الشرعيّة كلُّ ما يفتَقِرُ إليه المكلَّف في يومه وليلته من هذه العلوم وبحسبها ما أقيم فيه من وظيفٍ[4] أو صناعةٍ يحتاج فيه إلى ما لا يحتاج غيرُه ممّن ليس في تلك الصناعة ولا في ذلك الوظيف[5]، وهذا ظاهرٌ، فإنَّ مَنْ لا مالَ له لا يفتَقِرُ إلى فِقْهِ الزكاة، ومن لا يُعضّى[6] قِراضا[7] ولا مساقاة ولا يأخذهما غير محتاج إلى فقههما، وإنما يفتقر إلى فِقْهِ ما يُعانيه من عمل، وما لا يعلمه فهو عنه في غنىً، فإنْ افتقَرَ إلى عمله فلا ينبغي له

---

(١) ـ من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٢) ـ من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

(٣) ـ الموطأ ١٩٨.

(٤) ـ في الأصل: وضيف.

(٥) ـ في الأصل: وضيف.

(٦) ـ هكذا في الأصل، وفي القاموس المحيط التعضية: التجزئة.

(٧) ـ في القاموس المحيط: القِراض والمقارضة: المضاربة كأنه عقدٌ على الضرب في الأرض والسعي فيها وقَطْعِها بالسير، وصورته أن يدفع له مالاً ليتّجر فيه والربحُ بينهما على ما يشترطان والوضيعة على المال.

أن يُقْدِم عليه حتى يَعْلَمَ حُكْمَ الله تعالى فيه، فهذا ما يلزمُ من التقوى التي هي أكيدة في هذا القصد الذي نحنُ بسبيله، والله أعلم.

والأمرُ بالتّقوى والحضّ عليها وإجمال موعود من اتّصَفَ بها قد تضمّنته آياتٌ كثيرة من الكتابِ العزيز لايمكننا الآن استقصاؤها، ذكر بعضُ الناس أنها في نحو من مائةٍ وتسعين موضعاً، وفي بعضها كفاية كقوله تعالى: ﴿واتّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّ الله مَعَ المُتَّقِين﴾(١) فهذا أمرٌ بالتقوى وإعلامٌ من الله أنه مع من امتثل هذا الأمر واتّصف بالتقوى، وهذه رُتْبةٌ شريفة بأنّ من كان الله معه فلا خوف يلحقه ولا قصد يفوته، وكفى بأنّه نوعٌ مما أعطاه الله نبيَّه صلّى الله عليه وسلّم وصاحِبَهُ أبا بكر الصدّيق ـ رضِيَ الله عنه ـ في الغار حيث يقول الله تعالى: ﴿إذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ الله مَعَنا﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿فاتّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم﴾(٣) وهذه الآيةُ محكمةٌ فيما يقول المفسّرون، والمنسوخُ بها قولُه تعالى: ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا الله حَقَّ تُقاتِهِ﴾(٤).

ولا خفاءَ بأنَّ محصولَ قوله تعالى: ﴿فاتّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم﴾ أخفُّ من محصولِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اتّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، لأنّ تَقْوى الله حَقَّ تقاته مما يعذر إلّا لأفذاذ من الأمة تولاهم الله بحفظه وأقامهم في هذا المقام حجّة على خلقه، ثم لطف الله تعالى في هذا الحكم بِنَسْخِهِ بقوله تعالى: ﴿فاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم﴾. وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله ذو الفَضْلِ العَظِيم﴾(٥)، فهذا أيضاً وَعْدٌ من الله صَدَرَ مَصْدَرَ الشرطِ والمشروطِ وإنّ تقوى الله كفيلةٌ بجَعْلِ الفرقان وتكفير السيئاتِ والغفران، وكفى بذلك فضلاً عظيماً،

---

(١) ـ الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

(٢) ـ الاية ٤٠ من سورة التوبة.

(٣) ـ الآية ١٦ من سورة التغابن.

(٤) ـ الآية ١٠٢ من سورة آل عمران.

(٥) ـ الآية ٢٩ من سورة الأنفال.

ولذلك خَتَمَ الآية بقوله: ﴿والله ذو الفَضْل العَظِيم﴾. وقوله تعالى: ﴿واتَّقُوا الله واعْلَمُوا أنَّكُمْ مُلاقُوه﴾(١) فهذا أمرٌ من الله لعباده (ص ٣١) بتقواه، وإعلامٌ لهم أنّهم مُلاقوه لا محالة. وفي ذلك من الفائدةِ ما لا يَخْفى، فإنّ العبد إذا أمره سيّده بأمـر وألزمه القيامَ بقصد، وأعْلَمَهُ أنّه لا بُدَّ ملاقيه بعد ذلك، وراجِعٌ إليه، فإن التزامَ ذلكَ الوظيف يَسْهُلُ لديه، وثِقَلُ التكليفِ يخفّ عليه. وما أقبحَ بالعبد في التقصير في حقّ مولاه وهو من الوُقوفِ بين يَدَيْه على يقين، ومن الرجعى إليه على سبيلٍ مبين. وفي هذه الآية الكريمة لحظ هذا المعنى كما سبقت إليه الإشارة، وإن قصرت عن شرح جُزْئياته العبارة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بالغُ أمْرِه قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾(٢) فقد جعل الله تعالى بنصِّ هذه الآية الكريمة لِمَنْ يتّقيه(٣) مخرجاً مما يكونُ فيه قد نشب، وَتَكَفَّلَ برِزْقِه من حيثُ لا يحتسب، وكفى بذلك لمن اتّقى نوالاً عاجِلاً إلى ما يدّخره الله له آجلاً. وفي خاتمةِ الآيةِ لمن توكَّلَ عليه ما يشد عليه لديه، فمن علم أنّ الله حَسْبُه فقد وثق بالكفالة قلبُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أمْرِهِ يُسْراً﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في الأمْر بالتّقوى والمُخْبِرةِ عن استنادِ المتّصف بها للركن الأقوى.

ومثلُ ذلك في الأحاديثِ الصحيحة كثير، كقولِ النبي صلى الله عليه وسلّم «اتّقُوا الله وأجْمِلوا في الطَلَب»(٥). وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي ذَرّ ومعاذ ـ رضي الله عنهما ـ عن رسولِ الله صلى الله عليه

(١) ـ الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.
(٢) ـ الآيتان ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.
(٣) ـ في الأصل: لمن يتّقِهِ.
(٤) ـ الآية ٤ من سورة الطلاق.
(٥) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ٧٢٥ (حديث رقم ٢١٤٤).

وسلم قال: «اتَّقِ الله حيثُما كُنْتَ وأتْبِعِ السيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»[1] أمر بالتقوى مُطْلقاً ويحمل الأمر على الوجوب فيما يذهب إليه أكثر الأصوليين، إلى غير هذا من الأحاديث تكاد لا تحصى، بها الأمرُ بالتقوى والحضُّ عليها وضمان ما يثلج به الصدر ديناً ودنيا لمن تمسّك بها واستند إليها.

ولا نطول في ذلك فالأمر فيه أوضح، وإنما اجتلبتُ ما قَرُبَ مأخذه وسَهُلَ مدركُه لتكونَ تذكرة لي ولمن نظر بمثل نظري ومن الله التوفيق.

ولنختم الحثَّ على تقوى الله بقولِ الشيخ أبي جعفر أحمد بن خاتمة:[2]

مِلاَكُ الأمْـرِ تَقْـوى الله فاجْعَـلْ ... تُقـاهُ عُدَّةً لِصَـلاحِ أمْـرِكْ
وبـادرْ نَحْـوَ طاعَـتِـهِ بِعَـزْمٍ ... فمـا تَدْري متى يَمْضِي بِعُمْـرِكْ

ولقد رأيتُ في عَالَم النوم الشَّيْخَ أبا إسحق الشاطبي[3] رحمه الله ولم أُدْرِكْهُ بسنّي ولكنّي علِمْتُ في النوم أنّه هو وأُخْبِرْتُ بذلك وهو رَجُلٌ أمْيَلُ[4] اللونِ للصُّفْرة، خفيفُ العارضَيْن، عليه جبّة مختصرة وَقَبَلا[5] ومثلها عَرْيٌ[6]

(١) ـ مسند ابن حنبل ٥ / ١٥٣، ١٥٨، ١٦٩، ١٧٧، ٢٢٨، ٢٣٦.

(٢) ـ هو الفقيه الكاتب أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن خاتمة الأنصاري، شاعر وكاتب ووشّاح من مدينة المريّة، ولد حوالي عام ٧٠٠ هـ وتوفي عام ٧٧٠ هـ، وله مؤلفات أدبية منها ديوان شعر وكتاب مزية المريّة، وعن هذا الكتاب نقل المقّري في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً، وله كذلك رسائل كثيرة في موضوعات شتى (انظر ترجمته في. نثير فرائد الجمان ص ٣٣١، نثير الجمان ص ١٧٥، الإحاطة ١ / ٢٣٩، الكتيبة الكامنة ٢٣٩، نيل الابتهاج ٧٢، درة الحجال ١ / ٨٥، وانظر البيتين المذكورين أعلاه في الإحاطة ١ / ٢٥٠ ونيل الابتهاج ص ٧٢).

(٣) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أسلفنا الترجمة له.

(٤) ـ امّحت ملامح هذه الكلمة في الأصل.

(٥) ـ القَبَلا: نوع من الملابس في المغرب، ذكره رينهارت دوزي في مقالته بعنوان: المُعْجَم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب (مجلة اللسان العربي المجلد العاشر ـ الجزء الثالث ـ يناير ١٩٧٣م، ص ٧٥).

(٦) ـ العَرْيُ: قميص طويل واسع (المرجع السابق ص ١٥٧).

حوليّ[1] (ص ٣٢) اللون كأنه مِلَفٌّ بلِدِيّ صُبِغَ تلك الصِّبْغَة، فكنت أسأله أن يوصيني فقال لي: (اتّقِ الله وٱخْشَهُ) فأَخْبَرْتُ بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخ الأستاذ أبا عبد الله المُجاري[2] ـ حفظه الله ـ لكونه ممن لَقِيَه، وأخبرني بأنها صِفَتُه، وأنَّ اللباسَ لباسُه، وعجِبَ من ذلك لكونه قصده فيما أعلمني به إلى داره أيام حياته طالباً منه الوصاة فقال له: (قد وصّاك الله تعالى قبلي) ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنا الذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[3]. ورجح لي بذلك أن الرؤيا صحيحة لموافقتها لما صَدَرَتْ له منه الوصاة به، ولكون صفته صحيحة، والله وليُّ العفو والمغفرة.

وقد تذكَّرتُ هُنا قولَ أبي العتاهية رحمه الله[4]:

أراك امـرءاً تَرْجُـو من الله عَفْـوَهُ ... وأنْـتَ على ما لا يُحِـبُّ مقِيمُ
تدلُّ على التَّقْـوى وأنْتَ مُقَصِّـرٌ ... أَيَا مَنْ يُداوي النـاسَ وهوَ سَقِيمُ
وإنّ امـرءاً لم يُلْهِهِ اليومُ عن غدٍ ... تَخَـوَّفَ ما يأتـي به لحـكـيم
وإنّ امـرءاً لم يَجْعَـل البرَّ كَنْزَهُ، ... وإنْ كانـتِ الـدُّنيا له، لَعَـدِيمُ

والعذر عن ذاك قد تقدّم في الفصل قبل هذا في الحكاية عن الحسن البصري ـ رضي الله عنه[5] ـ، ويُحْكى أنَّ أبا العتاهية أمر أن يُكْتَبَ على قبره[6]:

---

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلّها: حوّيّ نسبة إلى أحوى أي ذو لون أسود مائل إلى الخضرة.

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المُجاري الأندلسي، وقدَ أسلفت الترجمة له.

(٣) ـ الآية ١٣١ من سورة النساء.

(٤) ـ انظر الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ٣٩٣، وهذه الأبيات منتخبة من قصيدة أبي العتاهية التي مطلعها:

أيا ربّ يا ذا العـرشِ أنتَ حكيمُ ... وأنـت بما تُخفـي الصـدورُ عليمُ

(ديوانه ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

(٥) ـ انظر ص ٢٦ من الأصل المخطوط.

(٦) ـ الأغاني ٤ / ١١١، ديوان أبي العتاهية ٢٦٨، مع بعض اختلاف في الترتيب.

أُذْنَ حيٍّ تَسَمَّعي | اسْمَعي ثم عِي وعي
عِشْتُ تسعينَ حِجَّةً | أَسْلَمَتْني لمضْجَعي
ليسَ زادٌ سِوى التقى | فَخُذي منْهُ أو دَعِي
أنا رهنٌ بمضجع | فاحذروا[1] مثلَ مَصْرَعي
كم ترى الحيَّ ثابِتاً | في ثيابِ[2] التَزَعْزُعِ ؟!

أردتُ البيتَ الأخير.

اقتضَبْتُ معانَي هذه المقدّمة في قصيدةٍ اعْتَمَدْتُ نَظْمَها في أثناءِ الفِكْر في هذا القَصْد، وفي تضاعيف إنشائي لما سبق من هذا الكلام، فلا بأسَ بإثباتها هنا لِما اشْتَمَلَتْ عليه من أغراضٍ جمّةٍ[3] مطابقةٍ لما قَدَّمْتُه. وهي:

بِحِمَى الله عُذْتُ مِنْ سُوء كَسْبي
فَهْوَ مِنْهُ إذا تَخَوَّفْتُ حَسْبي[4]
وإلى الله مِنْ ذُنوبي[5] التجائي
فَهْوَ مَنْجىً منها ومِنْ كُلِّ كَرْبِ
فإذا تُبْتُ فَهْوَ قابلُ تَوْبي
وَهْوَ مَهْما أذْنَبْتُ غافِرُ ذَنْبي[6]
أنا في لُجَةِ المعاصي غَريقٌ
وخَلاصي عَلَيْهِ لَيْسَ بِصَعْبِ
أنا ممّا اجْتَرَحْتُ في أزَماتٍ
رَوَّعَتْ من معاهِدِ الأَمْنِ سِرْبي[7]

(١) - في الأغاني: فاحذري.
(٢) - في الأغاني والديوان: ديار.
(٣) - في الأصل: حجّة.
(٤) - في الأصل: حسب.
(٥) - في الأصل: ذنوب.
(٦) - في الأصل: ذنب.
(٧) - في الأصل: سرب.

أنـا ممّـا اقْـتَـرَفْـتُ في نَقَـمـاتٍ
كدَّرَتْ مِنْ مواهـبِ الـعـيْشِ شُربـي[1]

(ص ٣٣)

أنـا ممّـا جَنَـيْتُ في ظُلُمـاتٍ
طبّـقَـتْ لي ما بينَ شَرْقٍ وغَـرْبِ
حمّـلتْـنـي أوزارُهـا كُلَّ ثِقْـلٍ
أنـا مِنْـهُ ما بَيْنَ خَوْفٍ ورُعْـبِ
وغـزانـي للابـتـلا أيُّ جَيْشٍ
أنـا مِنْـهُ ما بَيْن طَعْـنٍ وَضَـرْبِ
وبِـجـدّي بالـسـيِّئـاتِ انـتـفـاءٌ
حالَ[2] فرضُ الـدُّعـاءِ منـه بحَـجْـبِ
فبـفـكـري في أمْـرِهـا طارَ عَقْـلي
وبـخَـوْفـي مِنْ شرِّهـا طاشَ لُبّـي
قَدْ أقَـضَّـتَ من مَضْجَـعـي في حَياتـي
وهْيَ أدْهى إذا امْتَـطى التُـربَ جَنْبي[3]
طالَ ما اسـتـلزَمَـتْ جزاءً وِفـاقـاً
في ارتـبـاطٍ بين ابْـتِـلاءٍ وذَنْـبِ
لسـتُ أخْـشـى بُؤسـاً ولا أتّـقـيه
مِنْ سِوَاهـا عنـدَ انْـفِـرادي برَبّـي[4]
دَهَـمَـتْـنـي بكـلِّ خَطْبٍ وإنّـي
لسـتُ أرجـو سواهُ في كَشْـفِ خَطْبـي[5]

---

(١) ـ في الأصل: شرب.
(٢) ـ في الأصل: بحال.
(٣) ـ في الأصل: جنبِ.
(٤) ـ في الأصل: بربِّ.
(٥) ـ في الأصل: خطب.

طَرَقَتْني بكلِّ كَرْبٍ وإنّي
مِنْهُ مُسْتَوْثِقٌ بتفريجِ كَرْبي[1]

نَصَبَتْني حِبالةً[2] أرْهَنَتْني
للذّي مَسَّ مِنْ عذابٍ ونُصبا[3]

أبْدَرَتْني من الزمانِ بخَسْفٍ
أدَّبتْني من الخُطوبِ بحرْبِ

وقّفَتْني في الناسِ موْقفَ خِزْيٍ
بُؤْتُ منه بكُلِّ لَوْمٍ وعَتْبِ

وأحاطتْ بيَ الخطايا وإنّي
لَيكادُ القُنوطُ يَصْدَعُ قَلْبي

ونَجاتي أنْ لو منَنتَ بعفْوٍ
يَتَلافى مِنْ عِلّةٍ كُلَّ صَعْبِ

كَيْفَ يَشْفى[4] مِنَ الذُّنُوب عَليلٌ
لم يُوفَّقْ من المتابِ لِطِبٍّ؟!

وإذا للمَتابِ أرْهَفْتُ عَزْماً
فَلَّ من سَيْفِه الهوى كُلَّ غَرْبِ

أنا عاصٍ وكلُّ وَصْفٍ لعاصٍ
نَرْتَضيه فإنّني عنه مُنْبي[5]

لَيْس مَشْيُ السَّوِيّ فَوْقَ صِراطٍ
مستقيمٍ كمِثْلِ مَشْي المُكِبِّ

(١) ـ في الأصل: كرب.

(٢) ـ الحبالة: المصيدة (لسان العرب: حبل).

(٣) ـ ضُبِطَتْ في الأصل هكذا، والنَّصْبُ والنُّصْبُ: البلاء (القاموس المحيط: نصب).

(٤) ـ في الأصل: يشف.

(٥) ـ في الأصل: فإنّي عنه ملب. وهو يخلّ بالوزن والمعنى.

يَكْـرَهُ الـذَنْـبَ راغـمـاً وبـعـيدٌ
فعـلُ ما لم يكُـنْ له بِمُـحِـبِّ
ومـن الـبـيِّنِ(1) اسـتـحـالـةُ أَمْـرٍ
هو عَيْنُ الـمَـكْـرُوهِ والـمُـسْـتَحَـبِّ
فَتَـنَـافـي الـضِـدَّيْنِ شَرْعـاً وَطَبْـعـاً
واضـحُ الـحُـكْـمِ في ثُبـوتٍ وسَـلْبِ
لَيْتَ أُمِّـي ـ وقُـدِّسَـتْ ـ لَمْ تَلِدْنـي
أو بَكَـتْـنـي ثُكْـلاً ولـمّـا أشِـبِّ
قَدْ شَكَـانـي على الـمَـودَّةِ قَوْمـي
وَجَـفَـانـي على الـمحـبَّـةِ صَحْبـي(2)
وَرُوَيْداً فالـدارُ دارُ ابْـتِـلاَءٍ
طالـمـا اعْـقَـبَـتْـكَ سِلْمـاً بِحَـرْبِ
فَسَتُـبْـكـي إنْ أضْـحَكَـتْ وسَتُـعْـري
إنْ كَسَـتْ في قيامِـهـا الـمُـسْـتَتِـبِّ

(ص ٣٤)

كَمْ صحـيحٍ قد أسـقَـمَـتْ وسَقيمٍ
قد أصَـحَّـت ولـم يُعـانَ بِطبِّ
وغـنـيٍّ قد أفـقـرتْـه بِكَـسْـبٍ
وفـقـيرٍ أغْـنَـتْـهُ مِنْ غَيْرِ كَسْـبِ
بينَـمـا الـشـمسُ قد أنـارَتْ بِشَـرْقٍ
غَالَ من نُورِهـا الأُفـولُ بغَـرْبِ
والـذي سُـرَّ في الـصَّـبـاحِ بِصُنْـعٍ
رُبَّـمـا سِيءَ في الـمَـسـاء بِكَـرْبِ

(١) ـ في الأصل: ومن أبين، والصواب المثبت هو ما يقتضيه البيت الذي يليه.

(٢) ـ في الأصل: صحبِ.

والعطايا أوِ البلايا حُظوظٌ
وهْي في القَسْمِ في وُجوبٍ وسَلْبِ
فنصيبُ العَطاء آتٍ بحدٍّ
ونصيبُ البَلاء آتٍ بِذَنْب
والذي قالَ إنَّ في الشرِّ خَيْراً
ظاهرٌ منه أنّ ذلك نِسْبي(*)
يَحْسُنُ(١) الموتُ مِنْ غيرِ لَيثٍ
دونَ ما جاءَ مِنْهُ مِنْ جُحْرِ ضَبٍّ
والرَّدى إنْ أتى بغُرّةِ بِكْرٍ
ليسَ مِثْلَ الرَّدَى بِحَطْمَةِ عَضْبِ
إنّما الدهرُ مِثْلُ عاملِ نَحْوٍ
والورى منه بَيْنَ خفضٍ ونَصْبِ
وفُروضُ الوجودِ أيّ اعتبار
في مجالٍ من التفكُّرِ رَحْبِ
يَسْرَحُ العَقْلُ في حقائِقَ غُرٍّ
مِنْهُ والطَّرْفُ في حَدائِقَ غُلْبِ
ويُرى الكونُ بالكمالِ شَهيداً
للّذي زَيَّنَ السَّماءَ بِشُهْبِ
وإلى العَجْزِ عَنْ سِوى العَجْزِ نَلْجا
إنّ حِزبَ الرَّشادِ مِنْهُ لَحِزْبي(٢)
ربِّ هَبْ لي جَرائراً قد دَهَتْني
أنتَ يومَ الحساب مِنْهُنَّ حَسْبي(٣)

---

* ـ أي نسبيّ، وفي الأصل: نسب.
(١) ـ هكذا رسمت هذه الكلمة في الأصل. والشطرُ مختلُّ الوزن والمعنى.
(٢) ـ في الأصل: لحزب.
(٣) ـ في الأصل: حسب.

أفــأَخْــشــى ومُــصْــطَفــاك نَبِــيّي
وشَــفــيعــي وأنــتَ يا ربُّ ربّــي[١]

لي رَجــاءٌ فإنَّ رُحْــمــاكَ عَمَّــتْ
ومــخــافٌ فإنَّ ذنْــبــيَ ذَنْــبــي[٢]

لَيْتَــنــي قَدْ عِلِمْــتُ مِنْــكَ مكــانــي
أبِــبُــعْــدٍ وسَــمْــتَــه أم بقُــرْبِ

إنْ يكُــنْ دانــياً فأقْــضــي سُؤالــي
أو يَكُــنْ نائِــياً فأقْــضِــيَ نَحْــبــي[٣]

أنــا والله قد تَبَــلَّدَ ذِهْــنــي
أنــا والله قَدْ تَحَــيَّرَ لُبِّــي[٤]

لَسْــتُ ممّــا جَنَــيْتُــه بِبَــريءٍ
وهــو ممّــا قضــاهُ لي وهــو كَسْــبــي[٥]

غيرَ أنّ الــتــوفــيقَ عنــوانُ صِدْقٍ
منــه عَنْ سابِــقِ الــســعــادةِ مُنْــبــي[٦]

وكــذاك الــخــذلانُ فيه دَلــيلٌ
ربّــمــا كانَ بالــشَّــقَــاوَةِ يُنْــبــي[٧]

ولــلأقــدارِ[٨] بعــدَ ذلــك سِــرٌّ
قد تَوارَى عن الــورَى خَلْفَ حُجْــبِ

---

(١) ـ في الأصل: ربَ.

(٢) ـ في الأصل: ذنب.

(٣) ـ في الأصل: نحبِ.

(٤) ـ في الأصل: لب.

(٥) ـ في الأصل: كسْب

(٦) ـ في الأصل: مُنْب.

(٧) ـ في الأصل: يُنْبِ.

(٨) ـ هكذا في الأصل ولا يستقيم بها الوزن الشعريّ.

كلُّ فعلٍ مِنْ طاعةٍ وسِواها
فَهْوَ جارٍ ما بَيْنَ عَبْدٍ ورَبِّ
فَمِنَ الربِّ عن قضاءٍ وعِلْمٍ
ومِنَ العَبْد باخْتِيارٍ وكَسْبِ
(ص ٣٥)
والتصاريفُ في مطيعٍ وعاصٍ
واقِعاتٌ ما بَيْنَ طَرْدٍ وجَذْبِ
رُبَّ قاصٍ تُدْنيه مِنْ بَعْدِ بُعْدٍ
عَكْس دانٍ تُقْصيهِ مِنْ بَعْدِ قُرْبِ
ومَحلُّ الرضَا مِنَ الله عَبْد
لِدَوَاعي النُّهى مُجيبٌ مُلَبِّ
بلسانٍ من التِلاوةِ رَطْبٍ
وهْو بالصَّوْم يابِسٌ غيرُ رَطْبِ
ولعلّي إذا تدبَّرْتُ أمري
ضاقَ بي من مَذاهبي كلُّ رَحْبِ
فمتى صَحَّ لي من الخَيْرِ فِعْلُ
خالِصُ القَصْدِ مِنْ رياءٍ وعُجْبِ
ومتى تَمَّ لي من البِرِّ أمرٌ
طابَقَ الشرعَ في وُجوبٍ ونَدْبِ
رَبِّ مَهْما غَفَرْتَ لي فَبِلُطْفٍ
مِنْكَ أو عَدَلْتَ بي فَبِذَنْب
سألاني الناس الذي اتمنه
ببنيه بمثل قولك نَبِّ[1]

(١) ـ هكذا ورد هذا البيت في الأصل، وقد وضع الناسخ قبالته هذا الرمز. الذي يعني به إشكال الأمر عليه.

ولـو انّـي علمـتُ أنّـكَ راضٍ
لم تَهُـلْنـي شَدائـدُ عَلِقَـتْ بي
فبِـمَـنْ اسْـتَـغِـيثُ إنْ لم تُغِـثْـنـي
ولِـمَـنْ أَشْـتـكـي سِواكَ بِكَـرْبِ
ليسَ لي مِنْ وسـيلةٍ لِنَـجـاتـي
تُثْـمِـرُ الـفَـوْزَ غيرُ رحـمـةِ ربِّـي[1]
وشَـفـيعٍ لهُ مِنَ الله حُبٌّ
لَيْسَ يُلْفـى بِضَـائـعٍ فيهِ حُبّـي
فَلَهُ أَشْـتـكـي وسِـرٌّ عجـيبٌ
في تَلَقّي الـحبيبِ شَكْـوى الـمُحِبِّ
وبـه أسْـتَـعِـيذُ مِنْ قُبْـح فِعْـلي
وبـه أسْـتـجـيرُ مِنْ سُوءِ كَسْـبـي[2]
يَفْـضُـلُ الـرُسْـلَ من كليمٍ وروحٍ
وخـليلٍ برؤيةٍ وبِـحُـبِّ
سَيِّدِ الـخَـلْقِ بَيْنَ حُمْـرٍ وسُـودٍ
مُـحْـرِزِ الـسَّـبْقِ بين عُجْـمٍ وعُـرْبِ
خُصَّ من أَشْـرَفِ الـمـزايا بخَـمْسٍ
لم يَنَـلْهـا مَنْ كانَ مِنْ قَبْـلُ نُبِّـي[3]
أوضـحَ الـحـقَّ فهـو خَيْرُ رَسُـولٍ
ونَـبـيٍّ، وصـحْـبُـه خيرُ صَحْـبِ
أشْـرَقـوا حولـه نُجـومـاً، ولـكـنْ
غَيْرُ بِدْعٍ أنْ خُفَّ بدرٌ بشُـهْـبِ

---

(١) ـ في الأصل: ربٍّ.

(٢) ـ في الأصل: كسْبِ.

(٣) ـ في الأصل: نُبِّ.

كَثَّــر الــقُــلَّ مِنْ طعــامٍ ومــاءٍ
أنــطقَ الــعُــجْــمَ بين ذِئْــبٍ وضَــبِّ
ولــه الــبــدرُ شُقَّ والــشــمسُ رُدَّتْ
فتــجــلّت بعــد الــغــروب بغَــرْبِ
كم لهــذا الــرســولِ مِنْ مُعْــجــزاتٍ
هي إنْ عُدِّدَتْ على الألْــفِ تُربــي[1]
أوْدَعُــوهــا للحــفْظِ إمّــا صُدوراً
لِرجــالٍ إمّــا بُطونــاً لِكُــتْــبِ
هذه نبــذةٌ توسَّــلْتُ فيهــا
بأجــلِّ الــوَرى لأِعْــظَمِ رَبِّ
إنْ يوافــقْ رِضــا الــنــبيِّ امْتــداحي
فُقْــتُ فيه الــرَّضِــيَّ[2] والــمــتَــنَــبّي
(ص ٣٦)
ولِــيَ الــعــذرُ عن قُصــوري فإنّــي
دون حسّــانَ[3] في الــقــريضِ وكَعْبِ[4]
وبِــوُدّي لَوْ أَسْــعَــدَ الــدهــرُ قَصْــدي
فيُدالَ الــبِــعَــادُ منْــهُ بقُــربِ
ويزورَ[5] الــلحــدَ الــمقــدَّسَ جِسْمــي
بَعْــدَ أن لم أزُرْهُ إلّا بكــتْــبِ
أيُّهــا الــركْــبُ بلِّغــوا عنْ مَشْــوقٍ
بَثَّ مُسْــتَــعْــطِفٍ وشَــوْقَ مُحِــبِّ

---

(١) ـ في الأصل: تُرْبِ.

(٢) ـ الشريف الرضيّ.

(٣) ـ حسّان بن ثابت.

(٤) ـ كعب بن زهير.

(٥) ـ في الأصل: ونزور.

وارْحَمُوا مُغْرَماً تخلّفَ عنكم
باضْطرارٍ ولم يَكُنْ عن تأبِّ

بين لَفْحٍ من اللواعجِ حامٍ
ومُلِثٍّ من المدامعِ سَكْبِ

أيها الظاعنون عَنِّيَ مَهْلاً
لا بُلِيتُم بِلَوْعتي وبِكَرْبي(١)

وَرَدَ الصَبُّ مِنْ أليمِ نَواكُمْ
مَوْرِداً للعَذابِ لَيْسَ بِعَذْبِ

عَجَباً إن رَحَلْتُمُ كيف يَبْقى
فاتّقوا الله في حُشاشةِ صَبِّ

قال صَحْبي وقد أَشَرْتُ إليكم
أيُّ شيءٍ مَشَوْا بِهِ؟ قلتُ: قلبي

فضُلوعي على وُلوعِيَ تُطْوى
ودُموعي عَنْ اشتِياقِيَ تُنْبي(٢)

خانَني الصبْرُ حين لَبَّى أُناسٌ
دعوةً لم أكُنْ لها بالمُلَبّي(٣)

ومُرادي أنْ لوْ أُجِدَّ رحيلاً
يتقاضى ما بَيْنَ فُلْكٍ وركْبِ

ليس مَرْعى عزمي ومَرْعى(٤) هُمومي
غيرَ رَوْضٍ من الأماني بجَدْبِ

أُزْمِعُ السَّيْرَ كلَّ يومٍ مِراراً
وذُنوبي عنْ ذاك قد قَعَدَتْ بي

(١) ـ في الأصل: وبكربِ.

(٢) ـ في الأصل: تُنْبِ.

(٣) ـ في الأصل: بالمُلَبِّ.

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها: مرقى.

قَيَّدَتْني عن المَسيرِ ولَوْلا
أمَلي ما اسْتَسَغْتُ أكْلي وشُرْبي[1]
ليتَ شِعْري هل يُنْزِلُ الدهرُ رَحْلي
بِفِناءٍ من طَيْبَةِ الطِيب رَحْبِ
حيثُ كانَ الروحُ الأمينُ نَجِيّاً
لنَبيٍّ الهُدى بِفَرْضٍ ونَدْبِ
وسفيراً ما بَيْنَ عَبْدٍ حَبيبٍ
في مقامِ الرِضا ومولىً مُحِبٍّ
حيثُ مَثْوى الرسولِ حَيّاً ومَيْتاً
يَفْضَحُ المسكَ منه عاطرُ تُرْبِ
فأنا دُونَه مُقيمٌ بجِسْمٍ
وأنا راحلٌ إلَيْهِ بِقَلْبِ
يا مُسيئاً مِثْلي إلى مكَّةَ اقْصِدْ
واجْعَلِ الشَّامَ بين جَوْفٍ وغَرْبِ
ثم مِنْ ذي الحُلَيْفَةِ[2] انْوِ وأحْرِمْ
وتَجرَّدْ من المَخيطِ وَلَبِّ
واحذَرِ الطِيبَ والنِساء وَدَعْ مَنْ
قبض الله[3] آمناً كلَّ سِرْبِ
وطوافَ القُدوم قدِّمْ وأخِّرْ
مِنْ طوافِ الوَداعِ لاعِجَ حُبِّ
وإلى الكعبةِ اسْتبِقْ فهي خَوْدٌ[4]
قد تَوارَتْ عن العُيونِ بحُجْبِ

(١) ـ في الأصل: وشرب.
(٢) ـ ذو الحليفة مكان على ستة أميال من المدينة وهو ماء لبني جشم ميقاتٌ للمدينة والشام (القاموس المحيط: حلف).
(٣) ـ هكذا في الأصل ووضع الناسخ قبالة البيت هذه العلامة ـ..
(٤) الخَوْد: الحسنة الخلق الشابّة أو الناعمة.

(ص ٣٧)

فَسَتُلْقَى منها بأهْلٍ وسَهْلٍ
وتُلَقَّى الرضا بعُشْرٍ ورُحْبِ

وإلى المَرْوَتَيْنِ[1] فانْهضْ بِسعْيٍ
وإلى زَمْزَمٍ فبادِرْ بِشُرْبِ

وتعرَّفْ لله في عَرَفاتٍ
بالتَّخلِّي إلَيْه مِنْ كلِّ ذَنْبِ

وانْثَنِ نَحْوَ طَيْبَةٍ مُسْتَخِبّاً
كُلَّ سَيْرٍ وسابِقاً كُلَّ رَكْبِ

وإذا ما أَتَيْتَ سَلْعاً[2] فَسَلْ عَنْ
مَنْزِلِ الركْبِ بَيْنَ شِعْبٍ وشِعْبِ

وإذا ما حَلَقْتَ بالجِزْعِ[3] مِنْها
فاقرَ مِنْ جِسْمِيَ السَّلامَ لِقَلْبي[4]

ولدى الروْضةِ الكريمةِ عفِّرْ
كُلَّ خدٍّ واتْرُكْ بها كُلَّ قَلْبِ

والثّرى من مَواطِنٍ قَدْ تَسامَتْ
رَوِّ مِنْ دَمْعِكَ المُعينِ بسُحْبِ

---

(١) ـ الصفا والمروة.

(٢) ـ جبل متصل بالمدينة المنوّرة (معجم ما استعجم للبكري ٣ / ٧٥٠، الروض المعطار ٣١٨).

(٣) ـ موضع بمكة.

(٤) ـ في الأصل: لقلبِ

وأعـــنِ بهـــا[1] قَصَـــدْتَــهـــا عَنْ دلـــيلٍ
فسنـــاهـــا عن مَطْمَـــح القَصْـــد يُنْبي[2]
وسَـــيَهْـــديكَ من شَذاهـــا نَسِـــيمٌ
عنـــبـــريٌّ الأريجِ لَدْنُ الـــمَـــهَـــبٍّ

ولنرجع إلى ما سَبَق من التقسيم، فنقول:

---

(١) ـ كذا في الأصل.

(٢) ـ في الأصل: يُلْبِ.

الصُّورَةُ الأولى[١]

أن يكون الابتلاءُ متوقّعاً في المُقْتَنيات العزيزةِ على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك.

وإنما تكونُ هذه الصورةُ إذا كادَ ذلك المتوقَّعُ أن يكون، وكَرْبُ ذلك المتخوَّفِ أن يقع، وأما قبل أن يَظْهَرَ لتوقّعه أثرٌ، ويبرُزَ من الخوف منه سببٌ، فإنما ذلك نوعٌ من سُوءِ الظن بالله قبيح، وضَـرْبٌ من سوداويّ الفكر رديء، فلا كلامَ فيه، وإنمـا الكلامُ حيث تكونُ المخائِلُ لائحة، والأماراتُ على المُتَوَقَّعِ ظاهرة.

ثم لا يخلو هذا المُتَوَقَّعُ اللائحُ المخائِل الظاهرُ الأمارات أن يكون إلهياً محضاً، لا كَسْبَ فيه للعبد جَلْباً ولادفعاً كالقحط؛ فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: «**اللّهُمَّ اسْقِ عبادَكَ وبَهائِمَكَ وانْشُـر رَحْمَتَك واسْقِ بَلَدَكَ الميّت**»[١] وكما إذا أكثر[٢] المطر وخِيفَ منهُ الضرر فإنّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: «**اللّهُمَّ حوالَيْنا ولا عَلَيْنا اللهُمَّ على الآكام والظِـراب**[٣] **وبطونِ الأوديةِ ومنابتِ الشَّجَر**»[٤].

وكما إذا وقع الحريقُ ففي كتابِ ابنِ السّني عَنْ عُمَر بنِ شعيب عن أبيه عن جدّه ـ رضي الله عنه ـ قال: (ص ٣٨) قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم:

(١) ـ الموطأ ١٢٩.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ في صحيح مسلم: والطراب.

(٤) ـ الموطأ ص ١٣٠، صحيح مسلم ٣ / ٢٥.

«إذا رأيْتُمُ الحريق فكبِّروا فإنّ التكْبيرَ يُطْفيه»[1].

ومحلُّ كلامِنا من هذه الأمور هو في أوائِلها عندَ استشعار النفوسِ الخيفةَ منها لا فيما بَعْدَ ذلك لأنها تصيرُ هنالك واقعة.

أو أنْ يكونَ اختيارياً للمخلوق بحال كسبه الذي خلق له في جلبه ودفعه؛ فإن كانت تجارةً خُشِيَ كسادُها، أو مالاً خِيفَ ضياعهُ، أو عقاراً تُوُقِّع اغتصابُه، أو جاهاً ظُنَّ زوالُه، أو ولايةً استُشْعِرَتْ عُزْلَتُها، وعلى الجملة فنائبةٌ في المال أو الجاه مُتَوَقَّعَة ظاهرةُ الدلالاتِ القريبة من الوقوع، فإن التجلُّدَ في هذه المواضع كلِّها محمود، والتجمُّل فيها مطلوب.

والأسبابُ الجائزة شَرْعاً مسوّغة للفعل إمّا إباحةً وإمّا نَدْباً وإمّا وجوباً على حسب المحلّ الذي يُتَوَقَّعُ فيه الحادث. والمقصودُ في هذا المعنى إنّما هو إحرازُ السلامة من هذه الابتلاءات. ولابن شَرَف[2] في حِكمه في استيفاء قَصْدِ إحراز السلامة ما يُسْتَطْرَف، فإنه قال فيها: (واعْلَمْ أنَّ قابِضاً قَبَضَ على السلامة ليذهب بها لنفسِه، فوجدها قد عُقِدَتْ بالعَفاف، فَقَبَضَ على العَفاف، فوجده قد عُقِدَ بالقَناعة، فقبض على القَناعةِ، فوجدها قد عُقِدَتْ بالأمانة والصِيانة والديانة، فقال: هذه أثقالٌ لا يحمِلُها إلاّ جمّال) انتهى. وقد أحسن ما شاءَ لارتباط هذه الأشياء كما ذَكَرَ.

وهنا يتأكّد النظرُ في شرعيّة الأسباب وكيفيّة الدخول فيها بعد إحكام التوكّل على الله والثقة به فيما ابتُلِيَ به من جوازِها وطَلَبِها؛ فللتاجر إذا خَشِيَ كسادَ تجارته، أو تخوَّفَ خسارةَ رأسِ ماله، أن يرتكِبَ الأسبابَ المُباحةَ له، المطلوبةَ في حقّه، من التحفّظ بسِلْعَتِهِ والتنقيلِ لها أو الاستعاضَةِ منها، وما أشبه هذا مما تكونُ فيه السلامة مما تَوَقَّعَهُ، (ص ٣٩) والأمنة مما تخوّفه،

---

(١) ـ عمل اليوم والليلة ٩٣.

(٢) ـ أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني توفي سنة ٤٦٠ هـ وقد أسلفت التعريف به.

وليس أخذُه في ذلك مما يسوّغُ له من هذه الأسبابِ الجائزةِ له بمُنافٍ لما يأتي الحضُّ عليه من التفويض والتسليم، كما أنّ التفويضَ والتسليمَ لله في أحكامه ليس بمناقضٍ لأخذ[1] هذه الأسباب والحزْمِ فيها، مع مراعاةِ التوكُّلِ على الله في اعتمادها، والاعتدادِ بها، ولذلك يقول الشاعر[2]:

لا تَتْـرُكِ الحـزمَ في شيءٍ تُحـاذِرُهُ ... فإنْ سلِمْتَ فمـا في الحزْمِ مِنْ باسِ
العَجْـزُ ذُلٌّ وما بالحَزْمِ من ضَررٍ ... وأحزمُ الحَزْمِ سُوءُ الظنِّ بالنّاسِ

وقد أغْرَقَ هذا القائلُ في أنواع الحزم، وكثيرٌ من[3] يوافِقُه على ذلك.

وكـذلك لربِّ المال المتوقَّعِ فيه الضياع، أو العقار المتخوَّف عليه الاغتصاب، أن يعتمِدَ أيضاً من الأسباب ما تشهد له العادةُ بنُجْحِه في الأمر الذي يخاف منه، والبابِ الذي كاد يُمْتَحَنُ به، مع جوازِ ذلك شرعاً، أو طلبه كالواقع في قضيّةِ الوديعةِ التي رام المستودَعُ عنده أن يَـجْحَدَها لمُودِعها، حسبما حكى ابنُ كناس قال: حدّثنا محمدُ بن سهل قال: حدّثني عليُّ بنُ أبي عليّ قال: كنت عند المحسّن بن علي[4] قاضي مرو، وقد ذَكَرَ أبا حنيفة وفِطْنَتَه فقال: استودعَ رجلٌ من الحُجّاج رجلاً بالكوفة وديعةً ثم رجع فطلب

---

(١) ـ في الأصل للأخذ.

(٢) ـ جاء في عيون الأخبار (١ / ٤٢) والأغاني ١٩ / ٤١، البيت التالي منسوباً إلى مسلم ابن الوليد:

الحـزم تعـريفـة إن كنـت ذا حذرٍ ... وإنـمـا الحـزم سوء الـظنّ بالنـاس

(٣) ـ في الأصل: ممن.

(٤) ـ هو أبو علي المحسّن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ من مشاهير القضاة في العـراق وفـارس وصاحب المؤلفات الشهيرة متل الفرج بعد الشدة، ونشوار المحاضرة، والمستجاد من فعلات الأجواد، وكانت هذه المؤلفات من أبرز مصادر ابن عاصم في هذا الكتاب. انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ١٣ / ١٥٥، يتيمة الدهر ٢ / ٤٠٥، معجم الأدباء ١٧ / ٩٢، وفيات الأعيان ٤ / ١٥٩.

وديعتَهُ[1]، فأنكر المستودَعُ وجعل يحلِفُ له، فانْطَلَقَ الرجلُ إلى أبي حنيفة يشاوِرُه فقال: لا تُعْلِمْ أحداً بجحوده. قال: وكان المُسْتَوْدَع يجالِس أبا حنيفة، فخلا به وقال: إنّ هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يَصْلُحُ للقضاء، هل تنشط؟ فتمانَعَ الرجلُ قليلاً. وأقبل أبو حنيفة يرغّبه، فانصرف على ذلك وهو طمِع، ثم جاء صاحبُ الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب وقُلْ له: أحسَبُك نسيتَني، أودعتُك في وقت كذا، والعلامةُ كذا» قال: فذهب الرجلُ فقال له: نعم، فَدَفَعَ إليه الوديعة. فلما رجع المستودَع قال له أبو حنيفة: «إني نظرتُ في أمرك فرأيتُ أن أرْفَعَ قَدْرك ولا أسمّيكَ حتى يحضر ما هو أشرفُ من هذا»[2] انتهت. وهذا من أعجبِ ما يُحتال به في ردّ المبطل إلى الحق.

وكذلك لذي الجاهِ المظنونِ به الزوال، والولاية المستشْعَرِ منها العَزْل، إذا كان الجـاه منه في موضعه، والولاية منه في محلّها، لقيامه بشروطها، واستيفائه لحُقُوقها، أنْ يتسبّب بما يناسب صَـرْفَ ما خَشِـيَ أن يدهمه ورفْع[3] ما تخوّف أن يلحقه على الإجمال في تسبُّبه، ومراعاة الحقّ في تحيّله، وإذا جاز التسبّبُ في الولاية مع الاستحقاق كما في قصّة يوسف الصدّيق صلوات الله عليه بقوله: ﴿**اجْعَلْنِي على خَزائِنَ الأرْض (ص ٤٠) إنّي حَفِيظٌ عَلِيم**﴾[4]. فالتَسَبُّبُ في استمرارِها متعيّـن مع الاستحقاق فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قد حضّ عُثمان على أنْ لا يَخْلَعَ القميص الذي خصّه الله[5] وإنما عَنى بذلك

---

(١) ـ في الأصل. ودعيته.

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ودفْع.

(٤) ـ الآية ٥٥ من سورة يوسف.

(٥) ـ أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يا عثمان، إنه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني**».

انظر صحيح الترمذي ١٣ / ١٥٩ ـ ١٦٠، ومسند ابن حنبل ٦ / ٧٥، ١٤٩.

الخلافةَ، وقد أدّى ذلك إلى قتله، فالتسبُّبُ في الاستمرار أخفُّ من هذا والله أعلم. وهذه القضية بعد اشتراط الاستحقاق والقيام بالوظيف، والتوفيةِ لما يكون المتولّي بسبيلهِ من واجباتِ الولاية، إنّما هو على اللائق بمقامنا، والمناسب لانهماكنا في حُبّ الدنيا، وارتكابنا التأويلَ في جوازِ التلبُّس بها في هذه الأزمنة، التي طُمِسَ فيها نورُ الحقّ، وانتشرت فيها ظلماتُ الباطل، وربما جعل الأمثل منّا سبب ترخُّصه كوْنَهُ يقوم من المصلحة ببعضِ ما يقدِرُ عليه، ساتِراً قُبْحَ مُرْتَكَبِهِ، بمثل قولِ مالك وقد قال له بعضهم: الناس مكثرون أنَّك تأتي الأمراء، فقال: لو[1] أني آتيهم لما[2] رأيتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلّم في هذه المدينة سُنَّةً معمولاً بها»[3]. . . . .[4].

تنزيل هذا الكلام، على فرض صحته، في المحلّ الذي اعتمده المتستّر به معلومُ البطلان بالضرورة لمن أنْصَف، والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَع، وهو الاعترافُ بأنّا من ملابَسة هذه الأمورِ على شفا جُرُفٍ هار، تدارك الله بالإقالة منه، وأخذ باليد فيه. وحبُّ الدنيا هو الداهيةُ العظمى لذلك. ويَشْهَدُ لهذه الجملة ما حُكِيَ عن سحنون[5] أنه قال: (اختلف ابنُ غانم[6]

(١) ـ هكذا في الأصل، وفي ترتيب المدارك: لولا.

(٢) ـ في ترتيب المدارك: ما.

(٣) ـ انظر ترتيب المدارك ١ / ٢٠٨.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٥) ـ أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال التنوخي، فقيه زاهد قاض، ولد سنة ١٦٠ هـ وتوفي سنة ٢٤٠ هـ وكان من أشهر فقهاء افريقيا وقضاتها ومن أبرز أتباع المذهب المالكي، سمع من علماء افريقيا والحجاز ومصر والشام والعراق. (رياض النفوس ١ / ٣٤٥ ـ ٣٧٥، ترتيب المدارك ٢ / ٥٨٥ ـ ٦٢٦، وفيات الأعيان ٣ / ١٨٠، فهرست ابن خير ص ٢٤٠).

(٦) ـ هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شراحيل بن عين يكنى أبا عبد الرحمن ويعرف بابن غانم الافريقي كان فقيهاً مقدماً ثقة، دخل الحجاز وسمع من الإمام مالك وأصله من القيروان، ولي قضاء افريقيا زمن الرشيد سنة ١٧١هـ وتوفى سنة ١٩٠ هـ. (ترتيب المدارك =

وابنُ فروخ[1] في الرجُلِ يوليه أميرٌ غيرُ عدْلٍ القضاءَ، فأجاز ابنُ غانم له أن يلي، وأباه ابنُ فروخ، وكتبا بذلك إلى مالك، فلما قرأ مالكُ الكتابَ قال للرسول: وَلِيَ ابنُ غانم؟ قال: نعم، قال مالك: إنّا لله وإنا إليه راجعون! ألا هرب وألا فرّ حتى تقطع يده! أصابَ الفارسيُّ وأخطأ الذي يزعم أنّه عربي)[2] انتهى.

وأنت ترى هذا الجوابَ من مالك ما أقطعه لكلِّ حُجَّةٍ تعرِضُ في هذا المحلّ.

وربما يشكل بعضُ ما تقدّم من هذه الإطلاقات. وفي سَرْد الحكايات فيّ هذا المعنى إيضاحٌ لما قصد فيه وبيانٌ لما أجمل منه مما يلتمس لها التأويل في . . .[3] بضاعة من . . .[4] مثل حكاية سعيد الدارميّ[5] من عُبّاد المدينة، وكان من ظرفائها، وأصحابِ الغَزَلِ فيها، فتاب، والتزم العبادةَ والمسجد؛ فاتّفقَ أن وصل تاجرٌ فكسدت عليه خُمُـرٌ سود فشكا ذلك إلى الدارميّ، فنظم هذه الأبيات[6]:

= ١ / ٣١٦).

(١) ـ هو أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي مولده بالأندلس سنة ١١٥ هـ، ثم سكن القيروان ورحل إلى المشرق وسمع من الإمام مالك وتوفي بمصر سنة ١٧٥ هـ (ترتيب المدارك ١ / ٣٣٩، رياض النفوس ١ / ١٧٦).

(٢) ـ انظر ترتيب المدارك ١ / ٣٤٤، رياض النفوس ١ / ١٧٨.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٤) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(٥) ـ هو سعيد الدارمي من ولد سويد بن زيد حلفاء بني نوفل بن عبد مناف، وكان الدارمي في أيام عمر بن عبد العزيز، وكان من ظرفاء مكة وله أشعار ونوادر (الأغاني ٣ / ٤٥ ـ ٥١).

(٦) ـ القصة والبيتان الأول والثاني في الأغاني ٣ / ٤٥ ـ ٤٦، ووردت القصة والبيتان الأول والثاني في وفيات الأعيان ٤ / ١٦١ منسوبين إلى مسكين الدارمي، ووردت القصة والأبيات في المختار من قطب السرور للقيرواني منسوبة لابن جندب (المختار من قطب السرور ص ٢٠٧) ووردت القصة كاملة في المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد ص ٢١٠ ـ ٢١١=

قُلْ لِلْمَليحةِ بالخِمارِ الأسْوَدِ ماذا فَعَلْتِ بزاهدٍ[1] مُتَعَبِّدِ
قَدْ كانَ شَمَّرَ للصَّلاةِ ثيابَهُ[2] حتَّى وَقَفْتِ[3] لهُ ببابِ المَسْجِدِ
رُدِّي عَلَيْهِ صَلاتَهُ وصِيامَهُ لا تَفْتِنيهِ بحقِّ دِينِ مُحمَّدِ

(ص ٤١) فحُفِظَتْ الأبيات، وغُنِّيَ بها، وشاعَ أنَّ الدارميَّ رَجَعَ إلى ما كان عليه من الغَزَل والظَّرَف، فلم تَبْقَ ظريفةٌ بالمدينةِ حتى ابتاعت خماراً أسود؛ فلم يُبْقِ للتاجرِ مِنْها خماراً. انتهى ما حكاه ابنُ سعيد[4] في مقتطفه[5] من ذلك. وإذا نُظِرَ في مثلِ هذا السَّبَبِ لتنفيقِ كاسدِ التجارةِ فعلى اسْتِكْراهٍ شديد يكون جَرَيَانُه على الجواز دُون كراهة، والله أعلم.

ويلحقُ بكسادِ التجارةِ تعذُّرُ المعيشة، وتعثُّرُ أسبابها، ومن أحضِّ الأدعيةِ في ذلك ما في كتابِ ابنِ السنّي[6] عن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: **«ما يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إذا عسر عليه أمرُ معيشتِه أن يقولَ إذا خرج من بيتِه: باسم الله على نَفْسي ومالي وديني، اللهُمَّ رَضِّني بقضائِك، وبارِكْ لي فيما قُدِّر لي، حتى لا أُحِبَّ تعجيل ما أَخَّرْتَ، ولا تأخيرَ ما**

= وفي مقالات الأدباء (٥٨ ب).

(١) ـ في المقتطف: بعاشق.

(٢) ـ في المقتطف: رادءه.

(٣) ـ في المقتطف: برزت.

(٤) ـ هو أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي، ولد في قلعة يحصب بالأندلس سنة ٦١٠ هـ، رحل إلى عدة أقطار مثل تونس ومصر والمشرق وألف عدداً من المؤلفات الشهيرة مثل المغرب ورايات المبرزين والغصون اليانعة ونشوة الطرب وغيرها، وتوفي في تونس سنة ٦٨٥ هـ (نفح الطيب ٢ / ٢٦٢ وما بعدها، المغرب ٢ / ١٧٢، فوات الوفيات ٣ / ١٠٣).

(٥) ـ اسم كتابه: المقتطف من أزاهر الطرف، قام بتحقيقه دكتور سيد حنفي حسنين، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٣م. وردت الحكاية المذكورة في صفحه ٢١٠.

(٦) ـ أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق السني الحافظ الدينوري، وقد أسلفت الترجمة له.

عَجَّلْت»(1). وإنما يُتَخَوَّفُ من تعسُّرِ المعيشةِ، واغتصابِ المالِ، والعَزْلِ من الولايةِ، من لحوقِ الفَقْر، فهو أعظمُ هذه الابتلاءات المُتَوَقَّعة، وما لم يقع فإنه لا يَنْبَغي لعاقلٍ أن يُشْغِلَ نَفْسَه بالاهتمام من وقوعه. وفي التعجُّب من خوفِ ذلك والأمن مما لا بدَّ منه، وهو الموت، أنشد بعضُهم:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَخافُ حُلولَ فَقْرٍ ... ويأمَنُ ما يكونُ من المَنُونِ(2)
أتَأْمَنُ ما يكونُ بغيرِ شَكٍّ ... وتَخْشى ما تُرَجِّحُهُ الظُّنُونُ؟!

ومن أفضلِ ما يُسْتَدْفَعُ به مُتَوَقَّعُ الفقر الاستعاذةُ بالله منه، حسبما ثبت في أحاديث كثيرة. ولمتخوف العداءِ على ماله والاغتصاب على مُلْكه الاحتيالُ بما لا ضرر فيه على غيره والارتكابُ لما لا يحظر مما فيه الأمنة من خوفه، فقد أخْبَرَنا الله تعالى بما كان من فعل الخَضِر عليه السلام في السفينة التي تخوّف عليها عداء المَلِك الذي كان يأخذُ كلَّ سفينة غصباً، إذ قال جلّ من قائل: ﴿أمّا السَفِينَةُ فكانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ في البَحْرِ فأَرَدْتُ أنْ أَعِيبَها وكانَ وَراءَهُمْ مِلكٌ يأْخُذُ كُلَّ سَفينةٍ غَصْباً﴾(3).

وقد وقع للقاضي منذرِ بن سعيد البلوطيّ(4) مع الناصر لدين الله القضيةُ المشهورةُ التي... (5) عليها هذه الآيات الكريمة. حكى الشيخ أبو مروان بن

(1) - عمل اليوم والليلة ١٠٧ - ١٠٨.

(2) - في الأصل: المهون.

(3) - الآية ٧٩ من سورة الكهف

(4) - هو القاضي منذر بن سعيد بن عبد الله، يكنى أبا الحكم ويعرف بالبلوطي، كان عالماً أديباً فقيهاً. ولد سنة ٢٧٣ هـ وولي قضاء قرطبة سنة ٣٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٥٥ هـ. انظر ترجمته في: قضاة قرطبة للخشني ص ١٢٠، مطمح الأنفس ص ٢٣٧ - ٢٥٩، بغية الملتمس ص ٤٦٥، تاريخ قضاة الأندلس للنباهي المالقي ص ٦٦ - ٧٥، جذوة المقتبس ٣٤٨، نفح الطيب ١ / ٣٧٢ - ٣٧٥، ١ / ٥٧٠ - ٥٧٦، ٢ / ١٦ - ٢٢ وصفحات أخرى، أزهار الرياض ٢ / ٢٧٢ - ٢٨٣ ومصادر أخرى.

(5) - بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

حيّان في مُقْتَبَسِهِ[1]، قال: (وكان منذِرُ بنُ سعيد من ذوي الصَّلابة في أحكامه والتأنّـي في أقضيته وقوةِ القَلْب في القيامِ بالحقّ في جميعِ ما يجري على يديه لا يَهابُ في ذلك السطانَ الأعْظَمَ فمن دونه، ومِنْ مشهورِ ما جرى له معه في ذلـك قضيتـه[2] المشهورةُ في أيتامِ أخي نجدة المحفوظة عند الفقهاء وأولي المعرفة[3] أنّ الخليفةَ الناصرَ لدين الله احتاج إلى شِراءِ دارٍ بقرطبة لحظيّةٍ من نسائه (ص ٤٢) تكْرُمُ[4] عليه فأمر بارتيادِها، وَوَقَفَ استحسانُهُ على دارٍ لأولاد زكـرياء أخي نجـدة كانت بقُرْبِ النشّارين بالربض الشرقي مُفَضَّلةً على دورٍ تتصل[5] بها حمامٌ للعامّة له غَلَّةٌ وافرة[6]، وكان أربابُها أولادُ زكرياء أيتاماً في ولايةِ القاضي منذر، فأرسل الناصرُ لدين الله إلى الدارِ مَنْ قَوَّمها بعددِ ما طابت نفسُه بابتياعها به، وأمر بمداخلةِ وصيّ الأيتام في بَيْعِها عليهم بتلك القيمة، فذكر أنه لا يجوزُ ذلك إلّا عَنْ أَمْرِ القاضي، إذ لم يبح بيع أصل عليهما إلّا عن أمره ومشورتِه، فأوصى الناصرُ لدين الله إلى القاضي في بيع هذه الدار منه، وعرّفه بِعِلْمِهِ في تحقيق قيمتها، فقال لرسوله: إنّ البيع على الأيتامِ لا يكونُ إلّا لوجـوه: منها الحاجة، ومنها[7] الوهي الشديد ومنها الغبطة، فأما الحاجةُ فلا حاجـةَ لهؤلاء الأيتام إلى البيع وأما الوهيُ فليس فيها وهيٌ، وأما الغِبْطةُ فهذا إمكانها[8] فإن أعطاهم أميرُ المؤمنين ما تُسْتَوْفى به الغبطة أمرت وصيّهم بالبيع وإلّا فلا. فنقل رسولُه جوابه هذا إليه فأظهر الزُهْدَ في شِراءِ الدار طمعاً في أن

(١) ـ لم أجد الحكاية في ما نشر من المقتبس.

(٢) ـ في المطمح والنفح: قصته

(٣) ـ وردت هذه القصة في مطمح الأنفس ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ونفح الطيب ٢ / ١٦ ـ١٧ مع بعض اختلاف في اللفظ.

(٤) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة والتتمة من مطمح الأنفس ونفح الطيب.

(٥) ـ في المطمح والنفح: منفصلة عن دور يتصل.

(٦) ـ في المطمح والنفح: واسعة.

(٧) ـ في الأصل: ومنهنّ.

(٨) ـ في المطمح والنفح: مكانها.

يتـوخى(1) فيها إرادته، وخاف القاضي أن يلتفت فيه غريمته(2) فتلحق الأيتامَ سورتُها، فأمر وصيَّ الأيتام بنقْض الدار وبيع أنقاضها، وكانت لها تيمةٌ أكثر مما قُوِّمت به قائمةً للسلطان، واتصل به الخبر، فأسِيَ لخرابها، وتفجّع لفوْتها، وأمر بتوقيف الوصيّ على ما أحدثه فيها، فأحال على أمر القاضي إيّاه بذلك، فأرسل عند ذلك في القاضي منذر وقال له: أنت أمرْتَ بنقض دار أيتام أخي نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ فقال: أخذتُ فيها بقول الله تعـالى: ﴿أمّـا السَفِينَـةُ فَكـانَتْ لِمَسَـاكِينَ يَعْمَلُونَ في البَحْـرِ فأَرَدْتُ أنْ أَعِيبَها﴾(3) الآية، لم يُقَدِّرْها مُقَوِّمُكَ إلاّ بكذا وكذا وبذلك تعلَّقَ وهمُك، فقد نضّ(4) في أنقاضها أكثر من ذلك بكثير، وبقيت القاعةُ والحمّامُ فضلاً ونظر الله للأيتام. فصبر له الخليفة الناصر على ما آتاه من ذلك وقال له: نحن أوّل(5) من انقادَ للحقّ فجزاك الله عنّا وعن أمانتك خيراً). انتهى

وهاتان الحكايتان وإن كان المتسبّب في صَرْف الغصب غير المتخوَّف منه والمتخوف منه غير المتسبب في صرفه، فأحرى أن يكون ذلك إذا كان المتخوف منه هو المتسبب فيما يصرف الغصْب والعِداء عن ملكه، وهذا ظاهرٌ لا إشكالَ فيه.

ومن تاريخ دِمَشْق(6) عن أبي عبد الله المحاملي(7) وغيره قالوا: حَدَّثَنا أبو

---

(1) ـ في المطمح: تتراخى رغبته فيها.

(2) ـ في المطمع والنفح: تنبعث منه عزيمة.

(3) ـ الآية 79 من سورة الكهف. ووردت الآية في المطمح والنفح كاملة وتتمتها «... وكان وراءهم ملِكٌ يأخذُ كُلَّ سفينةٍ غَصْبا».

(4) ـ نضّ: تحصّل.

(5) ـ في النفح: أولى، ووردت الحكاية في مطمح الأنفس ص 252، نفح الطيب 2 / 16.

(6) ـ للحافظ أبي القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر (499 ـ 571 هـ).

(7) ـ أبو عبد الله الحسين بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل الضبي المحاملي، فقيه=

القاسم عبيدُ الله بنُ سليمان[1] قال: (كنت أكتبُ لموسى بن بغاء[2] وكنا بالريّ وقاضيها إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي[3]، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعةً هناك كان له (ص ٤٣) فيها سهام ملك، وكان فيها سهمٌ ليتيم، فصِرتُ إلى أحمد ابن بديل، فاستحضرتُ أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيعَ عليه حصةَ اليتيم ويأخذَ الثمن فامتنع وقال: ما لليتيمِ حاجةٌ إلى البيع، ولا آمر أن أبيع ما له وهو مستغنٍ عنه فيحدث على المال حادثة، فأكون قد ضَيَّعْتُ عليه. فقلت: أنا أعطيك في ثمن حصّتك ضِعْفَ قيمتها، فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كَثُر مثلُه إذا قَلَّ، قال: فأخذته بكل لون وهو يمتنع، فأضجرني فقلت: أيها القاضي لا تفعل فإنه موسى بن بغاء. فقال لي: أعزّك الله، إن الله تبارك وتعالى، قال: فاستحييتُ من الله تعالى أن أُعاوِدَهُ بعد ذلك وفارقته، فدخلتُ على موسى فقال: ما عمِلْتَ في الضيعة؟ فقصصت عليه الحديث فلما سمع «إنّه الله» بكى، وما زال يكررها. ثم قال: لا تتعرّض لهذه الضيعة، وانظُرْ في أمر هذا الشيخ الصالح؛ فإن كانت له حاجةٌ فاقضِها، قال: فأحضرته وقلت له: إن الأميرَ قد أعفاك من أمرِ الضيْعة وذلك أنّي شرحتُ له ما جرى بيننا وهو يعرض عليك حوائِجَك، قال: فدعا له وقال: هذا الفعلُ أحْفَظُ

=ومحدث، ولي قضاء الكوفة وبلاد فارس مدة طويلة، وتوفي سنة ٣٣٠ هـ.

(تاريخ بغداد ٨ / ١٩ ـ ٢٣، المنتظم ٦ / ٣٢٧، الوافي بالوفيات ١٢ / ٣٤١).

(١) ـ في الأصل: عبد الله بن سليمان والصواب من تاريخ بغداد ٤ / ٥٠، وهو أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ولد سنة ٢٢٦ هـ وتوفي سنة ٢٨٨ هـ.

(ترجمته في: الوزراء والكتاب ٢٥٢، فوات الوفيات ٢ / ٤٣٤ وفيات الأعيان ٣ / ١٢١).

(٢) ـ أحد القاده الأتراك وهو ابن خالة المتوكل، ولي الريّ زمن المعتز والمهتدي وتوفي سنة ٢٦٤ هـ (انظر مروج الذهب ٤ / ١٨٣ ـ ١٨٦).

(٣) ـ أبو جعفر أحمد بن بُديل بن قريش بن الحارث اليامي الكوفي، ولي قضاء الكوفة وتقلد أيضاً قضاء همذان، وكان يسمى بالكوفة «راهب الكوفة» روى عنه ابن ماجة. وتوفي سنة ٢٥٨ هـ.

(تاريخ بغداد ٤ / ٤٩ ـ ٥٢، المنتظم لابن الجوزي ٥ / ٩، الوافي بالوفيات ٦ / ٢٦٣).

بنعمته وما لي حاجة إلاّ إدرار رزقي فقد تأخر منذُ شهور وأضرّني ذلك، قال: فأطلقت له جِرايته). انتهت[1].

وهـذا من آثـار الصِـدْق وإنّمـا سُقْتُ هذه الحكايةَ لشبهها بالتي جرت للقاضي منذرِ بن سعيد مع الناصر رحمهما الله. وهذه التسبُّبات لا إشكالَ فيها لوضـوح شرعيّتهـا في هذا المحلّ، وإنما التي تفتقر إلى إجادة النظر إذا كان التسبب فيما يستدفع به نقصُ الجاه أو صرف العزل، والظاهر أنّ ذلك يسوغ لا سيما إذا كان نقصُ الجاه أو زوالُ الحرمة واقعين... [2] أن ينقص له الجاه لا أن تُزالَ له الحـرمـة ويكـون تمكينُ الجاه أو تثبيتُ الحرمة أو كلاهما لمن لا يستحِقّ ذلك.

كما يُحْكى عن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان[3] رضي الله عنه قال اسحق: حدّثني مصعبُ بن عبد الله الزبيري قال: (كان عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ولي صدقاتِ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وأحباسه وأوقافه، وله أخٌ من أبيه يُقال له عثمان بن عمرو ويُلَقَّبُ بخُرْءِ الزنج[4] سفيهٌ خبيثٌ مهتوك. فقيل له: «ويلك أخوك من الجلالةِ والفضلِ على ما قد عَلِمَهُ الناسُ وهو يلي صدقاتِ جدّك وأنتَ سفيهٌ مهتوك، فلو لزِمْتَ المسجِدَ واستقام مذهبُك جَعَلْتَ لك يداً

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٤ / ٥٠ ـ ٥١، والمنتظم ٤ / ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٣) ـ عبد الله بن عمرو بن عثمان سبط ابن عمر، مدني، كان يقال له المطرف من ملاحته وحسنه وهو والد محمد الديباج، روى عن ابن عباس ورافع بن خديج والحسين بن علي، توفي بمصر سنة ٩٦ هـ وروى له مسلم وأبو داود والترمذي.
(المعارف لابن قتيبة ١٩٩، تاريخ الإسلام للذهبي ٤ / ١٩، نسب قريش ١١٣، الوافي بالوفيات ١٧ / ٣٨٣).

(٤) ـ انظر هذا اللقب في الأغاني ١٩ / ١٤٧، أما اسمه فهو عثمان بن عمرو بن عثمان ابن عفان(ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف ص ١٩٩) وذكره الزبيري في كتاب نسب قريش (ص ١١٢ ـ ١١٣) وقال إنه كان يعرف بخراء الزنج ولاعقب له.

مع أخيك، ؤلعلّها كانت تُفْضِي إليك بعده» وجعل قومٌ يحسدون عبد الله ويُغْرون أخاه بذِكْرِ هذا، وكان عبدُ الله أجْمَلَ أهلِ زمانه وكان يُلَقَّبُ قُبَّةَ الدِيباج، فذكر الماجشون(١) قال: كان الناسُ يجتلبون إلى عليّ بن عبد الله بن عباس وإليه وهما بالمسجد يتأمّلون حُسْنَهُما، ويزعمون أنهما أجملُ أهلِ زمانِهما. فلزم خُرْءُ الزنج المسجدَ والصلاةَ والجماعةَ (ص ٤٤) والقراءةَ حتى عُرِفَ بالخير، ثم خاصم أخاه عند القاضي سيء الرأي في عبد الله، فوعد خُرْءَ الزنج أن يُدْخِلَ يَدَهُ مع عبد الله في الوَقْف، ولم يأمَنْهُ عبدُ الله أن يفعل الذي قصد من الخلاف، فضاق به أمرُه، وكان يَمْزَحُ معَ أشعب(٢) فرآه مغموماً فقال: ما لكَ يا سيّدي يا ابنَ الشهيد؟ فعرّفه فقال: إن احْتَلْتَ أن تَصْرِفَهُ عن رأيه فلك مائة دينار فإنه يقبل منك لما بينك وبينه. فقال أشعب: كَفَيْتُك. وجاء أشعبُ حتى أتاه في المسجد فقال له: ويلك ما هذا الشؤم الذي ألزمْتَهُ نَفْسَك؛ ما لك وللصلاة والقراءة ولزوم المسجد؟ وتركتَ اللهوَ والطربَ والغِناءَ والنبيذَ والأكبار(٣) والناياتِ والطبول؟ فقال له خُرْءُ الزنج: ويلك أنا أخاصِمُ عبدَ الله أخي في الوقف وقد وَعَدني القاضي أن يُدخِلَ يدي مع يده، فإذا فَعَلَ هذا رميتُ بهذا، وعُدْتُ إلى كلّ شيء تعرفُه فلا تغتمّ، قال: فاحتلْ عليَّ في يوم واحد تذكّرني به أيامَنا. قال: والله ما عندي في هذا الوقتِ شيء. قال له أشعب: أتسلّف لك من فُلان التاجر مائةَ دينار. قال: فافعل ذلك. فمضى أشعب إلى التاجر فقال: قد علمتَ أن خُرْءَ الزنج يأخذ منك الدرهمَ بعشرة، وغداً يُدْخِلُ القاضي يدَهُ مع يد أخيه، فلا يذهب لك

---

(١) - أبو يوسف يعقوب بن أبي سلمة دينار، وقيل ميمون، الملقب بالماجشون القرشي التيمي، من موالي آل المنكدر من أهل المدينة، كان فقيهاً توفي سنة ١٢٤ هـ (المعارف ٤٦٢، وفيات الأعيان ٦ / ٣٧٦).

(٢) - هو أبو العلاء أشعب بن جبير نشأ بالمدينة في آل أبي طالب وتولت تربيته وكفلته عائشة بنت عثمان بن عفان، كان معروفاً بالظرف والنهم، وتوفي سنة ١٥٤ هـ (الأغاني ١٩ / ١٣٥، تاريخ بغداد ٧ / ٣٧، الوافي بالوفيات ٩ / ٢٦٩).

(٣) - مفردها كَبَر وهو الطبل (القاموس المحيط: كبر).
وفي لسان العرب: كَبَر (بفتح الكاف).

مما عليه درهم، وقد احتاج إلى مائةِ دينار تُعامِلُه عليها، فعرف التاجرُ الخَبَرَ بما ذاع عن القاضي، فأعطاه المال، وخرج خُرْءُ الزنج إلى قصره بالعرصة، وأمر بفسطاطه فضُربَ له هنالك، وقال لأشعب: ويلك هل عَلِمَ بنا أحد؟ قال: لا وحقِّ أبيك الـطيب. فقال: اذبحوا لنا كذا واطبخُوا لنا كذا، فقال أشعب: يا سيّدي أيّ شيء نأكل إلى أن يدرك هذا الطعام فإن انتظَارَهُ يطول علينا؟ قال: ما تشتهي؟ قال: الرؤوس. قال: ويلك إن بعثتُ غلاماً إلى السوق في ابتياع الرؤوس لم آمَنْ أن يسأل أحدٌ عنّا فيخبره بموضعنا، ويتّصلَ الخبرُ بالقاضي فلم يتمّ لنا ما نؤمّله. قال له أشعب: فأنا يا سيّدي أتلطّف وآتيك بكلّ ما تحتاجُ إليه من غير أن يَعْلَمَ أحـد. قال: فدونك، فركب دابّةً وركض إلى السوق فأوهم الدنيا، واشترى كلَّ رأسٍ في السوق، وجعل أهلُ السوقِ يُنْكِرون كَثْرةَ ما اشتراه منها، فيُقال له: وَيْلَكَ يا أشعب ما تصنع بهذه كلّها؟ فيقول: لأن ابن الشهيد[1] أخـرجنـا للنـزهـة في قصـره بالعرصة ومعنا الأكبارُ والطبولُ والناياتُ والعيدانُ والمخانيثُ وكلُّ شيء طيّب فملأ به الدنيا. ومرّ أشعب بعبدِ الله بنِ عمرو فقال: وافني وقت كذا بمن قدرت عليه من العُدول إلى قَصْرِ أخيك بالعرصة (ص ٤٥) ووافى أشعبُ بالرؤوس فقال: يا سيدي: ما عَلِمَ بنا أحدٌ من خَلْقِ الله. فقال: أحْسَنْتَ وألـطفت، فأكلوا وقـدّمـوا النبيذ فشربوا وتضمخوا بالخَلوق[2] ولبسوا المصبّغات والحلي الحسان. وأرسل عبدُ الله إلى أهلِ المسجد وأهلِ الفضل ووجوه الناس فقال: إنّ أخي عثمان تحامل عليّ في حائط بيني وبينه، وكنت آمَنُ أن يقع بيننا اختلاف، فأحبّ أن تحضروا معي حتى تحملوني وإيّاه على الحق. فأسرع الناسُ معه. وجعل خُرْءُ الزنج يقول لأشعب: ويلك غنِّ فيغنيه

(١) ـ في الأصل: لأنّ الشهيد.

(٢) ـ الخَلْوق: ضرب من الطِيب (القاموس المحيط: حلق).

من أجود أغاني الناس لابن سُرَّيج[1] ومعبد[2] ومالك بن أبي السمح[3]، وخُرْءُ الزنج يقول: دعني من هذا يا ابنَ الفاعلة، ويعطِفُ على من معه من المخانيث فيقول: شدّوا طبولكم وانفخوا في الشريانات وغنّوا معي وأرهجوا[4] الأكبار والطبول والشريانات والنايات، وجعلوا يغنّون معه:

بأمّ حوف زانة هيّء لي الأتانة

فما زالوا على هذه حتى هَجَمَ عليهم عبدُ الله ومن معه من الفُقهاءِ والعدولِ وفي عُنُقِ عثمان كُبَر، وفي عُنُقِ أشعب طَبْل، وقد سكِروا، فقال عبدُ الله للعدول: هذا الذي يريدُ القاضي أن يُدخِلَ يَدَهُ معي في الوقف. فقال القوم: كلاّ والله ما ذلك له، ولا هذا الرجلُ بأهلٍ أن يؤمَّن على نفسه فكيف على مالِ غيره! قبّح الله هذا. فالتفت خُرْءُ الزنج إلى أشعب فقال: ماذا صَنَعْتَ يا ابن الزانية قتلني الله إن لم أقتُلْك. فقال أشعب: يا مشؤوم قد علمتُ أنك ستجرّنا إلى النار حين جعلت تقترح عليّ بأمّ حوف زانة. وقال للقوم: احملوني معكم وإلاّ قتلني. وجعل يحدّثهم حديثه وهم يضحكون وخُرْءُ الزنج يعدو على رجليه خَلْفَ دوابّهم ويصيح: ردّوا عليّ نديمي. والقومُ يلعنونه ويسبّونه حتى دخلوا المدينة، فلقوا القاضي، فأعلموه بما رأوْا ولاموه في عبدِالله، فعاد إلى إجلالِه وتعظيمِه، وطرد خُرْءَ الزنج وأبعده ووفّى عبدُ الله لأشعب بمائةِ دينار). انتهت.

ويظهرُ أن إظهارَ. . .[5] مثل هذا المحكيّ عنه ممن يضمر مثلَ اعتقادِه

(١) ـ أبو يحيى عبيد بن سريج، كان مغنياً مشهوراً وغنى في زمن الخليفة عثمان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك عن خمس وثمانين سنة (الأغاني ١ / ٢٤٨).

(٢) ـ معبد بن وهب، مغن مشهور، مات في عهد الوليد بن يزيد.
(انظر: الأغاني ١ / ٣٦).

(٣) ـ مالك بن أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائي، يكنى أبا الوليد، مغن معروف وكان تلميذاً لمعبد، وكان منقطعاً إلى سليمان بن علي، ومات في خلافة المنصور (الأغاني ٥ / ١٠١).

(٤) ـ أرهج: أثار الغبار وكثر بخور بيته.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة.

ويتظاهر مثلَ ذلك الذي تظاهر به من الرياء والسمعة واجب إذا كان ينبني على ما تستّر به حكمٌ شرعيّ مثل تشريك ذلك الذي ليس بمستحقٍّ النظرَ في وَقْف أمير المؤمنين عثمان ـ رضي الله عنه ـ مع مستحقّ ذلك من ذرّيته، والله أعلم.

ومن أعظمِ فتن[1] الله فيما صَرَف من مُتَوَقَّع العزل ما كُفِيَ معرَّتَه شيخُنا قاضي الجماعة أبو القاسم بنُ سرّاج[2] ـ رحمه الله ـ في أيام ثَورة المعروف بابن المَوْل[3] الماتّ بنسبةِ القربى لهؤلاء الملوك النصريين، وقد كانت الفِرقة القائمة بأمْرِ هذا الثائر حَنِقَةً على شيخنا (ص ٤٦) المسمّى ـ رحمه الله ـ بأسبابٍ يستدعي تقريرُها المَلِكَ إذ ذلك العهد عَزْلَه، والاستعاضةَ منه بالفقيه أبي جعفر العربي رحمه الله، وزيّنت له قَصْرَ الشيخ ـ رحمه الله ـ في بعض دور الحمراء عن التصرُّف في البلد مموّهاً في ذلك لقصد الكرامة وللاغتباط بقربه، والاستكثارِ من إفادته في الرأي والمشورة وتصرحاً[4] لمستنكر ذلك بالخيفة عليه ممن بمالقة، ونُمي له ذَرْءٌ[5] مِن خبرِ تفاوضِهم في عزله، فتعيَّنَتْ له منه الحقيقة، وطُلِبَ مني كَتْبُ ظهير[6] المُعَوَّضِ منه[7]، فاستثقلْتُه وكَتَبْتُه على غضاضةٍ وأخذٍ بالتقية. ولثاني يومٍ من كَتْبه وجّه لي الشيخُ ـ رحمه الله ـ يطلبُ منّي الاجتماعَ به في المسجدِ الأعظم من الحمراء في صلاة الظهر على حال

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: منن.

(٢) ـ هو قاضي الجماعة بغرناطة الوزير أبو القاسم محمد بن محمد بن سراج الغرناطي أحد شيوخ أبي يحيى بن عاصم، وقد أسلفت الترجمة له.

(٣) ـ هو يوسف بن المول قام بثورته على محمد الأيسر، واستطاع بمساعدة خوان الثاني ملك قشتالة أن يتربع على عرش غرناطة سنة ٨٣٥ هـ ولستة أشهر فقط حيث مات بعدها مما أتاح لمحمد الأيسر أن يعود ثانية إلى عرش غرناطة (وثيقة أندلسية ص ٤١ ـ ٤٥، إنباء الغمر ٣ / ٥١١، الضوء ١٠ / ١٠٠).

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ومصرّحاً.

(٥) ـ ذرءٌ من خبر: شيء منه (القاموس المحيط: ذرأ).

(٦) ـ في الأصل: ظهر.

(٧) ـ المُعوَّض مه: الذي خلفه على منصبه.

توقٍّ وحذر، فلم أشُكَّ أنّه يسألني عن كَتْب ظهير المتولّي عِوضَه أو عدمه، فنظمتُ بديهةً في طريقي إليه لذلك الموعد على أن أنشده إيّاها إنْ سأل(1):

فَدَيْتُكَ لا تَسْأَلْ عن السرِّ كاتباً فَتَلْقَاهُ في حالٍ من الرشدِ عاطِلِ
وتضطرُّهُ إمّا لحالةِ خائنٍ أمانَتَهُ أو خائضٍ في الأباطِلِ
فلا فَرْقَ عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وَشَى ذا بحقٍّ أو قَضَى ذا بباطِلِ

ولما اجتمعتُ به حيثُ ذكر أَعْرَضَ عن سؤالي عن كَتْب الظهير المظنونِ مني سؤاله عنه، ولم أفتقِر لإنشاده القطعة، وحفظ الله فيما بيني وبينه سياجَ المروءة(2) لثقل معنى القِطْعة في نظري، وإلجاءِ الضرورة إليها إن سأل المتوقعِ الشرَّ من أولئك القوم. وأقبل الشيخُ عليّ راغباً أن احتالَ له في صَرْف معرّة هذا العزل، وكأنّه كان على علم منه، لما علم من ماتّةٍ بيني وبين بعضِ أولئك المتصرّفين لذلك الثائر، قاصداً بذلك المطاولة(3) في الأيام، مرتقِباً من فَرَجِ الله تعالى ما صدق الله فيه ظنه، فقد كان تخيُّلُه من هذا العَزْل عظيماً، لما كان يتوقّع بعد وقوعه من أمورٍ محتملة لم يُوقَفْ بعد على حقيقتها، كفاها الله بكفاية ما قبلها. فتجرّدتُ لذلك مع من طَلَبَ الحديثَ معهم فيه، فهيّأ الله من ذلك ما طلَب، ويَسَّر ما قَصَدَ، وتوقّفوا عن التقديم المستعجل كان إبرامه، إلى أن قضى الله من الحوادثِ المانعةِ لهم عن القصْدِ المذكور ما أوجبَ استمرارَ ولايته بعودةِ السلطان الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ إلى مُلْكه، وتعجيلِ ما انْحَتَمَ لذلك الثائرِ من هُلْكِه. ولله المَشيئةُ النافذةُ والقُدْرةُ الغالبة عزّ وجهه.

(1) ـ وردت هذه الأبيات في أزهار الرياض للمقّري (3 / 323) وقد قدم لها المقّري بقوله ـ مشيراً إلى ابن عاصم ـ : ومن بديع نظمه رحمه الله قوله قاصداً مخاطبة شيخه الحافظ، قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج، وقد طلب منه الاجتماع به زمان فتنة، فظنّ أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان، فباعده معتذراً، ولم يصدق الظن: . . . » (أزهار الرياض 3 / 322).

(2) ـ رسمت في الأصل: المروة، ولعل الناسخ صحفها عن المودّة.

(3) ـ في الأصل: المطلولة ـ وكأن الناسخ خلط بين المطل والمطاولة.

ولم أقف في صرف متوقَّع العزْل[1] على أعجبَ مما اتفق فيه للقاضي أبي القاسم الحَسَنيّ ـ[2] رحمه الله، حكى ابنُه شيخُنا القاضي أبو العباس أحمد[3] بن (ص ٤٧) قاضي الجماعة وخطيبِ الحضرة العليّة أبي القاسم الحسني ـ رحمه الله ـ أنّ السلطانَ أبا الحجاج[4] بن السلطان أبي الوليد بن نصر ـ رحمه الله ـ مستقضِيه، عنَّ له غرضٌ في الاستبدالِ من أبيه القاضي أبي القاسم المذكور في قضاءِ الجماعة بواحدٍ من أعلام عصره، وأمر رئيسَ الكتّاب في ذلك العهد الشيخ أبا الحسن بن الجيّاب[5] ـ رحمه الله ـ أن يَكْتُبَ

---

(١) ـ في الأصل: التنزل.

(٢) ـ هو أبو القاسم محمد بن أحمد الحسني، ويعرف بالشريف الغرناطي، سبتي الأصل، ولد في سبتة سنة ٦٩٧ هـ وانتقل إلى غرناطة حيث ولي عدة مناصب مثل الكتابة والخطابة والتدريس والقضاء، وانتهى به الأمر إلى قضاء غرناطة ثم عزل عن القضاء والخطابة في المسجد الجامع سنة ٧٤٧ هـ لكنه أعيد إلى القضاء مرة ثانية واستمر قاضياً للحضرة حتى وفاته سنة ٧٦٠ هـ. كان عالماً باللغة والنحو والبلاغة وله مؤلفات منها شرحه على مقصورة حازم، المعروف بـ «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» وله كذلك شعر ونثر كثيران بلغ بهما درجة عالية من الجودة. (انظر: نثير فرائد الجمان ص ٢٣١ ـ ٢٣٥، نثير الجمان ص ١٤٥ ـ ١٥٠، الإحاطة ٢ / ١٨١ ـ ١٨٦، المرقبة العليا ص ١٧١ ـ ١٧٧، الديباج المذهب ص ٢٩٠، درة الحجال لابن القاضي ٢ / ٢٦٨، التعريف بابن خلدون ص ٦٤، وانظر خبر استبداله في الإحاطة ٤ / ٣٢٠).

(٣) ـ ذكره ابن خلدون في التعريف ص ٨٤.

(٤) ـ سابع ملوك بني الأحمر في غرناطة حكم بين سنتي ٧٣٣ هـ و ٧٥٥ هـ. انظر ترجمته في الإحاطة ٤ / ٣١٨ ـ ٣٣٨، اللمحة البدرية ص ١٠٢ ـ ١١٢.

(٥) ـ ذو الوزارتين أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن الجيّاب الغرناطي، صديق أبي القاسم الحسني المذكور آنفاً، وكان كلاهما شيخا للسان الدين بن الخطيب. كان ابن الجياب كاتب الدولة النصرية خلال ما يزيد على خمسين عاماً انتهت بموته بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ، وكانت ولادته سنة ٦٧٣هـ، كان متبحراً في علوم شتى كالأدب والتاريخ والقراءات والحساب، له مجموع شعري كبير نشر جزءاً منه مع ترجمة اسبانية، خيسوس روبييرا ماتا في كتابه: «Ibn Al - Yayyab El - Otro Poeta De La Alhambra» Granada - 1982. =

بولاية ذلك الذي اقتضى نظره أن يقدّمه عِوضاً من الشريف المذكور فتلقّفَ الخبرَ بعضُ الكتاب ممن كان القاضي الشريفُ قد وَتَرَهُ بعدم قبول شهادته أو ما أشبه ذلك مما يقعُ للقضاة كثيراً مع غير المستحقّين ممّا يتطلّبونه. . .[1] من رتبةِ عدالةٍ أو ولايةِ خُطّة. فذهب ذلك الكاتب إلى مجلس القاضي من المسجد الأعظم وقعد أمامه وأعلمه بتأخيره عن الخطة في معرض الشمات به والانتقام منه، وظن الكاتب أن ذلك الأمر قد انعقد، فلا يمكن حلّه، وأحكم فلا يسع نسخه، وأنّ القاضي ليس له عليه من سلطان، فلا يلحقه ضرّه، فظهر للقاضي من بابِ الدهاءِ وعدم احتمالِ الهضيمة أن أمَرَ أعوانَه بالقبضِ على ذلك الكاتبِ اليائسِ وناله[2] بذنوب من العقوبة والإشادة عليه[3] هذا جزاءُ من خرّج سرّ السلطان. ثم صرفه للاعتقال، وارتفع عن مجلس القضاء. فما كان بأسرعَ من وصولِ الخبر على حقيقته للسلطان العازم على عزله، فبدا له[4] عن ذلك، وامتلأ غيظاً على الكاتِبِ النَّمُوم بسرّه، فصرفه عن الكتابة، ورأى أن نكال القاضي منه في موضِعِه، وأقرّه في قضائِه إلى وفاته. فهذا من الأسباب التي وافقت القدر في صرف العزل ودوام الولاية. وكان شيخُنا الشريفُ أبو العباس يحكي أن الخطيبَ أبا علي القرشيّ[5] اعترض على أبيه ما صَدَرَ منه للكاتب،

=كما قام بتحقيقه في الجامعة الأردنية سنة ١٩٨٣م مشهور الحبازي في اطروحة ماجستير ما زالت مخطوطة على الآلة الكاتبة. لترجمة ابن الجياب انظر: نثير فرائد الجمان ص ٢٣٩ - ٢٤٢، نثير الجمان ص ١٢٥ - ١٣٠، الإحاطة ٤ / ١٢٥ - ١٥٢، الكتيبة الكامنة ص ١٨٣ - ١٩٣، نفح الطيب ٥ / ٤٣٤ - ٤٦٤، الديباج المذهب ص ٢٠٧، نيل الابتهاج ٢٠٤، درة الحجال ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٨.

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - في الأصل: ولا له

(٣) - الإشادة رفع الصوت بالسيء وتعريف الضالّة والإهلاك (القاموس المحيط: شيد).

(٤) - بدا له في الأمر: نشأ له فيه رأي (القاموس المحيط: بدو).

(٥) - أبو علي عمر بن علي بن عتيق بن أحمد القرشي، من الخطباء الصالحين في القرن الثامن الهجري، تولى الخطابة في غرناطة بالجامع الأعظم بعد عودته من الحج سنة ٧٠١=

فقال له: يا أبا عليّ إنّك رجُلٌ صالح ولستَ بفقيه، إنّ للقاضي أن ينتصِـرَ لنفسه ممن أساء عليه الأدب، وهو أوْلى من العفو. فقال له الخطيب: وهب ذلك كذلك فقد كنتَ معزولاً. فقال له القاضي: (بخبرِ مَنْ كنتُ معزولاً؟ إن المُخْبرَ بالعَزْلِ فاسِقٌ عندي، فخبرُهُ ليس بمقبول حتى يُعمَل عليه، وإذايته واقعةٌ لمن هو مولّـى بحق) فسكت الخطيب.

ويقربُ من هذه قضيّةُ ابراهيم بن العباس(1)، كان ابراهيمُ بن العباس يتولّى ديوانَ الضِياع، وكان رجُلًا متقدّماً في البلاغة وإنشاء الرسائل والشعرِ الرقيق، ولم يَكُنْ له تقدُّمٌ في عَمَلِ الخراج، وكان بينه وبين أحمد [بن](2) المدبّر(3) تباعد. وكان أحمدُ متقدّماً في علم (ص ٤٨) الخَراج ووجوه جبايةِ الأموال، فقال للمتوكل: (قَلَّدْتَ ابراهيمَ بن العباس ديوانَ الضِياع، وهومتخلِّفٌ لا يحسن) وطَعَنَ عليه طعناً قبيحاً. فقال المتوكل: في غدٍ أجمعُ بينكما. واتصلَ الخبرُ بابراهيم، فأيقن بحُلول المكروه، وعَلِم أنّه لا يفي بأحمد بن المدبّر في صناعته. وغدا إلى دار السلطان آيساً من نَفْسه ومن خُطّته*. وحضر

=هـ، وله شعر قليل، توفي بغرناطة سنة ٧٤٤ هـ (انظر ترجمته في: الكتيبة الكامنة ص ٥١ ـ ٥٢، نيل الابتهاج ص ١٩٥).

(1) ـ هو ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول (الصولي) مولى يزيد بن المهلب يكنى أبا اسحق، وأصله من خراسان، كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً وتوفي سنة ٢٤٣ هـ في خلافة المتوكل (تاريخ بغداد ٦ / ١١٧، مروج الذهب ٤ / ١٠٦، إعتاب الكتاب ١٤٦ ؛ الأغاني ١٠ / ٤٣).

(2) ـ ليست موجودة في الأصل.

(3) ـ هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبيد الله المعروف بابن المدبر الضبي الرستياني، كان يتقلد للخليفة المتوكل ديواني الخراج والضياع، نُفي إلى الشام، وحبسه أحمد بن طولون حتى مات في الحبس سنة ٢٧٠ هـ، (انظر: الفرج بعد الشدة ١ / ٢٤٧ ـ ٢٥٠، وفيات الأعيان ٧ / ٥٦، فوات الوفيات ١ / ١٣٢، إعتاب الكتاب ١٥٧، الفهرست ١٣٧، الوافي بالوفيات ٨ / ٣٨).

* ـ في معجم الأدباء ١ / ١٩٥، وإعتاب الكتاب ١٥٠: آيساً من نفسه ونعمته.

أحمدُ فقال له المتوكل: [قد حضر ابراهيم وحضرت][1] فاذكر ما كنتَ فيه أمسِ فمن أجلِكُما قَعَدْتُ. فقال أحمد: أيّ شيءٍ أذكر عنه! إنه لا يحفظ أسماءَ عُمّالهِ في النواحي، ولا يَعْلَمُ ما ثبت في ديوانه من حزورهم[2] وكيولهم، ولا ما حَمَلَ كلُّ واحدٍ منهم من المال، ولا يحفظ أسماءَ الأعمال التي يتقلّدها، وقد اقتطع عامله بكذا كذا وكذا ألْفاً، واختلّت ناحيةُ كذا في العمارة. ومرّ في أبوابٍ قبيحةٍ منكرة يعدّها. فالتفت المتوكلُ إلى ابراهيم فقال: ما سكوتُك؟ تكلّم. فلم يكن عنده جواب، فقال: يا أميرَ المؤمنين جوابي في بيتَي شِعْرٍ إن رأى أميرُ المؤمنين ذِكْرَها. قال: هات. فأنشأ يقول:

رَدَّ[3] قوْلي وَصدَّقَ الأقوالا ... وأطاعَ الوُشاةَ والعُذّالا
أتراه يكونُ شَهْرَ صُدودٍ ... وعلى وَجْهِهِ رأيتُ الهِلالا؟![4]

فقال له المتوكّل: زه زه[5]، أحسنْتَ واللهِ! ائتوني بمن يَعْمَلُ في هذا لحناً، وهاتوا ما نأكلُ، وجيئوا بالندامى[6] والمغنّين، ودعونا من فضولِ ابن المدبّر، واخلعوا على إبراهيم بنِ العباس. فخُلِعَ عليه، وانْصَرَفَ إلى منزله. فبقي يومَه ذلك مفكّراً مغموماً، فقال له كاتبُه وَهْبُ بن سليمان[7]: يا سيّدي هذا يومُ سرور

---

(١) - بياض في الأصل وتتمته من معجم الأدباء وإعتاب الكتاب.

(٢) - مفردها حزر وهو التقدير. وفي معجم الأدباء: ولا يعلم ما في دساترهم من تقديراتهم وكيولهم.

(٣) - في وفيات الأعيان: صدّ.

(٤) - البيتان وجزء من الحكاية في الأغاني ١٠ / ٥٨، والوافي بالوفيات ٦ / ٢٧، وانظرهما أيضاً في معجم الأدباء ١ / ١٧٩، إعتاب الكتاب ١٥١، وفيات الأعيان ١ / ٣٩١.

(٥) - كلمة تقولها الفُرْس عند استحسان شيء.

(٦) - في معجم الأدباء: بالنساء.

(٧) - وزير المهتدي والمعتمد من الخلفاء العباسيين، وكان قبل ذلك كاتباً للمأمون، توفي ٢٧٢ هـ (الأغاني ٢٣ / ١٤٣، أخبار أبي تمام ١٠٤، وفيات الأعيان ٢ / ٤١٥، العقد «في صفحات متفرقة»).

بما جدّد الله عندكَ من رأيِ أميرِ المؤمنين. فقال: يا بُنَيَّ الحقُّ أولى بمثلي، والله ما كذب ابنُ المدبّر في شيء، ولا دَفَعْتُ حُجَّتَهُ بحقّ، ولا أنا ممن يَعْشُرُهُ[1] في الخراج، كما أنه لايَعْشُرُنَي في البلاغة، أفلا أبكي فضلاً عن أن أغتمَّ في زمانٍ يُدْفَعُ فيه ذلك الحقُّ كلُّه بما دَفَعْتُه من الباطل؟! انتهت[2].

والقصدُ من هذه الحكاية إنما هو محصولُها المشتمِلُ على الاحتيال في صرفِ العزل دون التعرّض لإباحةِ ذلك أو منعِه، والظاهرُ أن التسبُّبَ غيرَ المستحقّ في دوامِ ولايته أولى فإذا قيل بعدم جوازِها أولى فكذلك يقال في التسبب في قضية أخرى، والله أعلم.

ويمكنُ أن يدّعى أن التسببَ في البقاءِ أخفُّ من التسبّب في الولاية تخريجاً على القاعدة المشهورة: هل الدوام كالابتلاء أو لا، حسبما كان شيخُنا القاضي أبو القاسم بن سرّاج رحمه الله يعتذر به في مسائل. ولكنَّ الحقَّ أحق أن يُتَّبع، وهو أنّ الذي يُلْقى أولاً هو الذي يُلْقى (ص ٤٩) آخراً، فإذا قيل إنّ غيرَ المستحقّ ليس بسائغ له التسبُّبُ أن يولّى بل ولا القبول، كذلك إذا ولّي ليس بسائغٍ له التسبّبُ في الدوام والاستمرار على ما هو، وقد يخِفُّ هذا ويَثْقُل بحسب القُرْب من الاستحقاق والبُعْد منه، وبحسب الولايةِ في كوْنها ضروريَّة وانخرام المصالح لعدم مستحقّها، وعكس ذلك كلّه، ولسنا لاستيفاء ذلك، وإنّما نبّهنا عليه لئلا يُظَنَّ أنّا أهملنا[3] ذلك، وبالله التوفيق.

وقد يكونُ الخوفُ على القُنْيَةِ الماليّةِ مِنْ ظَلُومٍ يغتصِبُها أو يغتصِبُ بَعْضَها، ولايمتنع التسبُّبُ في دفعِ ذلك بالوجوهِ المرجوِّ فيها النُجْح، المأمولِ فيها النفعُ، المأمونِ فيها التصرّف.

---

(١) ـ يعشره: يبلغ عُشْرَه في معرفة ذلك الأمر.

(٢) ـ انظر هذه القصة كاملة في: معجم الأدباء ١ / ١٩٤ ـ ١٩٦، وإعتاب الكتاب ١٥٠ - ١٥١.

(٣) ـ في الأصل: أعملنا.

ومن أغرب ما سمعت فيما صرف الله من مُتَوقَّع عظيمة منه ما حُكِيَ عن بعضِ التجار الواردين على الحضرةِ بنفيس السِلَع الخفيفة المَحْمَل ورفيع المتاعِ المُتعالي القيمة على حال خيفة من والي البلد المسمّى في العُرْف عندنا بالحافز[1] وذلك في مدّةِ المعروفِ منهم بمُسَلَّم؛ المثلِ المضروب في شدةِ التنقير عن المغارم وغرابةِ المَنازع في إثارتها والاجتهاد في التفتيشِ عن مظنّاتِ أجبائها ومغابن التورية عن كتمانها، والاشتهار عند من ذكرنا من التجار بعُنْفِ الأخْذِ وظُلْمِ الطَّبْع وسُوءِ السيرة في دولةِ مولّيه في الخطة من سَلَفِ هؤلاء الملوك النصريين، فوصل هذا التاجرُ إلى ظاهرِ الحضرة خائفاً يترقَّبُ آخذاً بالحذرِ من هذا الحافز، ولم يكن قبلَ ذلك يعرفه، وقد اضطبن سِلَعاً على السلعة المُشارِ إليها من خفة المحمل ورفعة القيمة وعزّة الوجود. وجمع الطريقُ بينه وبين فارسٍ حَسَنِ الوجه رفيعِ البزّة سَـرِيّ المركب رائقِ الحلية ظاهـرِ المروءة، فانقدح في نفس التاجرِ أن يشكوَ إليه أمره ويطلعه طلعته ويستجيرَ به من ظُلْم الحافز المعروف بمسلّم، وأن يكونَ في كَنَفِ حُرمته خشيةَ عدواه، وأخبره بما عنده من السِلَع ورغب منه أن يتولّى له إجازَتها على الباب، فأسْعَفَهُ بذلك، ودفع له ما كان عنده بما اجتلبه من هذه السِلَع، وتواعَدَ معه إلى موضعٍ داخلَ البلد يدفعها له فيه، بحيثُ يأمن من مُسَلّم المذكور المشتدّ منه خوفه. فلما انفصل من الفارس أُخْبِرَ أنّه مسلّم حافز البلد، فسُقِط في يدِ التاجر، وذهب إلى الموضع الذي تواعَدَ إليه معه ظاناً أنه قد (سَقَطَ به الغِطاءُ على سِرْحان)[2] وأن لا بدّ أن يلقى منه ما يكره، ويلحقه من غَصْبِ ماله أو جُلِّهِ ما يَحْذَر، فوجده ينتظرُه فدفع إليه (ص ٥٠) مالَه الذي استأمَنَهُ عليه وقال

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وقد شُرحت الكلمة على يمين السطر بخط مغاير جاء فيه «بل الحافظ». ولعل الحافز هي الحافظ باللغة الدارجة عند أهل غرناطة بدليل قول المؤلف: «والي البلد المسمى **في العرف** عندنا بالحافز. . . ».

(٢) ـ هكذا في الأصل، وورد المثل في فصل المقال: سقط العشاء به على سرحان (فصل المقال ٣٦٢، أمثال الميداني ١ / ٢٢١).

له: اذهبْ حيثُ شئتَ بسِلْعَتِك فقد سَلَّمَكَ الله من مُسَلِّم، أو كلاماً هذا معناه. انتهت منقولةً بالمعنى.

وهذه غريبة من غرائِب الاتفاق. ولعلَّ مثل هذا ممّا يبقي الله به الرحمةَ على. . . .[1] هذا؛ فقد آثر مُقْتَضى الحِلْم ورجَّح منقبةَ المروءة وحفِظَ أمانةَ الاسترسال وتجافى عن نسبَةِ الظُلْمِ له وتغاضى عن سيئةِ سُوء الظَّنِ به رحمه الله.

وهذه الصورةُ التي يُتَوَقَّعُ فيها التمحيصُ ثم يَتَلافى الله بصرفه متسعةٌ جداً، ولو تَتَبَّعْنا فيها الحكاياتِ لطال بنا القولُ في ذلك، فما من قُنْيةٍ ماليَّة أو جاهيّة إلاّ وهي بصدد الذهاب والزوال في كل لحظة لحظة، والطمعُ في غير الدائم أن يكون دائماً وفي غير الثابتِ أن يكون ثابتاً هو الذي يؤدّي لاستثقال[2] هذه المتوقّعات، ولو أُخذت هذه الأمورُ أولاً مأخذها لما كان في زوالِها إذا زالت[3] ما يُسْتنكر، ولما كان في ذهابِها إذا ذهبت ما يُسْتَثْقَل.

وهذه الدعوى بكثرة توقُّعِ هذه الابتلاءات في هذه المُقْتَنيات مما لا يُفْتَقَرُ عليه إلى دليل، فكلُّ ذي مال من عقار وغيره يتحقق أن الله هو الواقي لماله من تسليط الغُصّاب والسُرّاق ودفع آفات السيل والحريق وكفّ أيدي الظَّلَمة وأهل الجور وصرف شرّ الحَسَدة وإصابة العين وكذلك كل ذي ولاية من الملك فما دونه يتحقق أنّ الله هو الذي يحمله[4] في ولايته ويصرف عنه مضرّة المثابرين على إذايته. فما من ولاية إلاّ ولها طُلاّب وعليها حُسّاد كلّهم يَسْعون في إرغام ذلك المتولّي وإتعاس جدّه[5] وبحسب نفاسة الولاية وجلالتها تكون السهام المفوّقة إلى متولّيها.

---

(١) - بياض في الأصل مقدار كلمة.

(٢) - في الأصل: لاستنقال.

(٣) - في الأصل: رأيت.

(٤) - هكذا في الأصل: ولعلها يحميه.

(٥) - في الأصل: وانعاش.

وكلّ هذه الإذايات قد لا تصيبُ في هذا[1] الأمرِ الأغلب، ولا تقارب الإصابة، وقد تقارب بعضها الإصابةَ، وهذا القِسْمُ هو المترجم له. إلاّ أنّ في هذه الصورةِ ـ وقد تصيب ـ وهو الآتي في الصورة بعد هذه، وإذا قاربت الإصابة فهو الذي يعذر في الاهتمام به وهو المقصودُ هنا بالكلام في مداواتِه وصرفِ الفكرة فيه وعدمِ القَلَقِ منه وترك مطاوعة النفس في التأثّر من أجله واستعمال الأسبابِ الجائزةِ أو المطلوبةِ في دفعِه حسبما قُرِّرَ في أول الكلام في هذه الصورة.

وقد لحقني من هذا الخوفِ المتوقَّع في المالِ القريب من الوقوع ما عظُمَتْ بصرفِه من الله المنّة، وجلّت من قِبَلِه بالنجاة منه النعمة، وذلك في الوقت الذي قدِمْتُ فيه من مالقة على (ص ٥١) السلطان أبي الحجاجِ رحمه الله في قصدِ الموادعةِ بينه وبين السلطان الغالبِ بالله أيّده الله حسبما أُشير إليه في غير هذا الموضع[2]، فإن أربابَ دولته كان من رأيهم الأنكد إغراءُ العامّة بي، وتسليطُ الرَّعاعِ على جهتي، فوقع من تَوَعُّدِهم بهدمِ الدُورِ وخرابِ الأملاك ما كان مُقْتَضى الحالِ شاهداً بوقوعه ودليلاً على حصوله، لِما سَبَقَ من أولئك الغوغاءِ في الأملاكِ الموالية لهم لي ولغيري، فقد كانوا عاثوا في إفسادها، وابتدروا إلى انتسافِها، جُرأةً منهم على الله فيما نهى عنه من إضاعة المال، وتعدّياً على خلقه، واستطالةً على ما أبدع من أنواع رزقه، صادراً ذلك منهم عن غلّ كامن وحَسَدٍ باطن، والله بالمرصاد، وعند الله تجتمعُ الخُصوم. وأنا معترفٌ بالذنوب المُوجبة لتلك العقوبة، وراجٍ أن لا يضيّع الله حقّي عند من لم أَجْنِ عليه. فَصَرَفَ الله من هذا المتوقَّعِ أمراً عظيماً وبلاءً مبيناً، ولله الحمدُ على ذلك.

وقـد يتسنَّى في بعضِ هذه الصُّوَر من التدبيرِ الإلهي ما تعجز عنه الأسباب، وتعتبرُ في تباين ما بينَ مبدئه ومنتهاه الألباب؛ كما حدّث عليُّ بن

(١) ـ وضعت فوق «هذا» إشارة «خـ».

(٢) ـ انظر ص ١٤٥ من الأصل المخطوط.

يحيى بن منصور[1] قال: حدثني بعضُ التجار قال: حملنا متاعاً من الصين إلى الأُبُلَّة[2] وكان قد اجتمع ركبٌ فيه مقدارُ عشر سُفُن قال: فبينا أنا قد أصْلَحْتُ ما أردتُ من السفر إذا شيخٌ قد وقف عليَّ وسلّم فرددتُ عليه السلام فقال: يا هذا إني قد صرتُ إلى التجار في هذه السفن فسألتهم قضاءَ حاجتي فلم يقضوها، وأنا أسألُك أن تقضيها لي فقلت: وما حاجتُك عافاك الله؟ قال: أقول لك بعد أن تَضْمَنَ لي قضاءها. قلت: أفعل، فأَحْضَرَ رصاصة مثلَ الكرة فيها نحوٌ من مائة مَنّ[3] وقال لي: تأمر بحمل هذه الرصاصة معك، فإذا صرتَ في لُـجّة بحرِ كذا وكذا، وذكر لجّةً هائلة، تطرحُها في البحر. قلت: يا هذا ليس هذا ممّا أفعلُه. قال: قد ضمنتَ لي وسبق فيه وعدُك، ولابدّ لك من الوفاء به. قال: فلم يزل حتى قَبِلْتُها ثم قال لي: أَحْضِـرْ برنامجاً واكتب ذكرها فيه لئلا تنساها، وتذكّرني إذا رجعت فتخبرني بما صنعت، ومنزلي في موضع كذا وكذا. فكتبتُ ما قال من صفتِه، وخرجنا حتى إذا مررنا بتلك اللُّجَّةِ وصِـرْنا نسيت، حتى إذا وافَيْنا موضِعَنَا بِعْتُ فيه ما كان معي، وحضرني رجلٌ فقال: ما هذا [الذي][4] معك؟ رصاص؟ والرصاص هنا يدخل في عمل.....[5] فقلت: ليس معي (ص ٥٢) رصـاص. وكنتُ نسيتُ الرصاصة، فقال لي غلامي: معنا رصاص. قلت: لم أحمِلْ معي رصاصاً. فقال: بلى رصاصُ الشيخ، فذكرته، فقلت: خالفناه وبلغت إلى هذا الموضع وينبغي أن أبيعَه

(١) ـ هكذا ورد الاسم في الأصل ولعل المقصود علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم كنيته أبو الحسن ولد سنة ٢٠١ هـ وتوفي سنة ٢٧٥ هـ بسامراء، كان شاعراً وراوية ومن ندماء الخليفة المتوكل. (تاريخ بغداد ١٢ / ١٢١، وفيات الأعيان ٣ / ٣٧٣، الوافي بالوفيات ٢٢ / ٣٠٣).

(٢) ـ مدينة بالعراق قريبة من البصرة على نهر دجلة وهي قديمة وفتحها عتبة بن غزوان في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (الروض المعطار ص ٨، معجم البلدان لياقوت الحموي).

(٣) ـ المنّ: وزن يساوي رطلين وجمعه أمنان (لسان العرب).

(٤) ـ ليست في الأصل.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

له، فإن ذلك خيرٌ مما أراد به. فقلت للغلام: أحضِرْها، فأحضرها، وساوَمَني الرجلُ بها فبعتُها منه بمائةٍ وثلاثين ديناراً، وابْتَعْتُ للشيخ بها من طرائفِ الصين، وخرجنا حتى وافَيْنا الأُبُلّة، فبعتُ ما كان معي، وبعتُ تلك الطرائف، فبلغ ثمنُها سبعمائة دينار، وصرتُ إلى البصرة إلى الموضع الذي كان الشيخُ وصفه لي، ووقفتُ بباب داره، وسألتُ عنه، فقيل لي إنه قد مات. فقلت: هل خلّف أحداً يرثُه؟ قالوا: لا نعلم له إلاّ ابنَ أخٍ في بعض نواحي البحر. فسقط في يديّ، وبقيت لا أدري ما أعمل بما كان له عندي. وقيل لي إن دارَه موقوفةٌ بيد أمين القاضي، فرجعت إلى الأُبلّة والمالُ معي لا أدري ما أعمل به. فبينا أنا ذاتَ يومٍ جالسٌ إذْ وَقَفَ على رأسي رجلٌ فقال: أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: كنتَ خرجتَ إلى الصِين؟ قلتُ: نعم. قال: وبعتَ رجلاً هناك رصاصة؟ قلتُ: نعم. قال: أفتعرِفُ الرجل؟ فتأمَّلْتُهُ وقلت: أنت. قال: نعم يا هذا، إني قطعتُ من تلك الرصاصة شيئاً لأستعمله فوجدتُها مجوّفة ووجدت فيها اثني عشر ألف دينار، وقد جئتُ بالمال، فخذ مالك ـ عافاك الله ـ قلت: ويحك، والله ما المال لي، ولكنه كان من خبره كذا وكذا، وحدّثتُه بحديث الشيخ كلّه، وأنه قد اجتمع مِنْ ثمن الطرائف سبعُمائة دينار أيضاً لا أدري ما أصنع بها. فتبّسم الرجل ثم قال: أتعرِفُ نسبي من الشيخ؟ قلت: لا. قال: فأنا والله ابن أخيه، وليس له وارثٌ غيري، وأراد أن يزول هذا المالُ عني، وهو غرّب بي من البصرة منذ تسعةَ عشر عاماً، فأبى الله إلاّ وصولَ المال إليّ على رغمه. قال: فأعطيته السبعمائة دينار التي كانت معي، ومضى إلى البصرة، وأخذ متاعه وأقام بها. انتهت.

ومن تأمَّلَ هذه الحكايةَ حقَّ التأمُّل، تعجَّبَ من التصريف القَدَريّ والتدبير الإلهي، وشاهَدَ من جميلِ صُنْع الله في تصييرِ هذا المال لمستحقّه، وعكسِ قصْدِ من أراد قطعَ رَحمِهِ بصرفه عن وارثه من غير أن يَسْتَعيضَ من ذلك في الآجلة أجراً، ولا[1] يكسب به في العاجلة شكراً؛ فقد كان صرفه في وجوه البرّ

(١) ـ في الأصل: أولاً.

على معارضة لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّكَ إن تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغنياء خيرٌ من أنْ تَذَرَهُمْ عالة يتكفّفُون الناس»(١) أولى من رَمْيِه في لجّةِ البحر، لولا أنّ الله زيّن له سوءَ (ص ٥٣) عمله، فرآه حسناً حتى يكون ذلك القصدُ من إتلافه على مستوجبه هو السبب في تلافيه له وجَبْره عليه. وقد كان ذلك الوارثُ من التحرُّج عن أخْذِ ما ليس له بالمنزلة التي اقتحم بها تلك الشقة في التقصّي عن عُهدةِ ما ليس له، والخروج عمّا بيده ممّا اعتقده مِلْكاً لغيره، لما قيّض الله له من أمانة التاجر تتمةً لما جبر عليه من المال، ولمّا تحقق من قِبَلِهِ أن ما بيده هو مالُ موروثِهِ السائغ له الانتفاع به. إنّ في ذلك لذكرى لمن تذكّر وتبصرة لمن استبصر.

ومما يدخلُ في بابِ الكرامات، فكانت الكفايةُ فيه إلهيّةً محضة، ما نقله بعضُهم، قال: قامتْ رابعة(٢) ليلةً في التهجّد والصلاة، فلمّا انفجر الصبح نامت(٣)، فدخل السارقُ دارَها، وأخذ ثيابَها، وقصد الباب، فلم يهتدِ إلى الباب، فوضعها فوجَدَ الباب، ففعل ذلك ثلاث مرّات، فنُودي من زاويةِ البيت: ضَعْ القماش [فإنّا نَحفظُها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة](٤) انتهت.

وفيما اقتصَّ الله علیْنا من نبأِ موسى والخَضِر ـ عليهما السلام ـ ما رُوي في بعض الأخبار أنّ بعضَ الأنبياء عليهم السلام ـ كان مُشْرِفاً من قُنّةِ جبل

---

(١) ـ صحيح البخاري ٣ / ١٨٦ وأماكن أخرى، صحيح مسلم ٥ / ٧١، مسند ابن حنبل ١ / ١٦٨.

(٢) ـ أم الخير وأم عمرو رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية الصالحة المشهورة، كانت مولاة لآل عتيك توفيت سنة ١٣٥ هـ. ترجمتها في: وفيات الأعيان ٢ / ٢٨٥، الوافي بالوفيات ١٤ / ٥١، وانظر كتاب «شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية» تأليف عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ١٩٧٨م.

(٣) ـ في الأصل: قامت.

(٤) ـ بياض في الأصل أتممناه من كتاب: شهيدة العشق الإلهي ص ١٣٩.

على فلاة، وفي تلك الفلاة عين، فإذا فارسٌ قد أقبل وبين يديه على قَرَبُوس[1] سرجه بِدْرةٌ، فلما انتهى إلى عين الماء نزل، فشرب من ذلك الماء، وسقى دابَّته، وركب ونسِيَ البدرة مكانه، فلما مضى الفارسُ أقبل راعٍ بغنمٍ يسقيها، فسقاها وأخذ البِدْرةَ، فمرّ بها وحملها، فلما ذهب الراعي أقبل رجلٌ عابرُ سبيل، فلمّا انتهى إلى العيْـن جلس يشربُ ويستريح، فما لبث أن أقبل الفارسُ راجعاً في طلب البِدْرة، فلما انتهى إلى العَيْـن، ورأى الرجلَ جالساً، لم يشكّ أن البدرة معه، فطالبه بها، فأخبره أنه لم ير شيئاً، فسلّ سيفه يحذّره ويهوّل عليه حتى أضجره، وهو لا يشكّ أنه يناكره[2]، ثم هجم عليه وقَتَلَه ورِكبَ دابّته ومرّ، فاشتغل فِكْر ذلك النبيّ ممّا رأى من شأنِ القوم، وفوزِ الراعي بالبدرة، ووقوع القتل بالرجل البريء من حمل البدرة. وعلم الله ما قد خَطَر ببالِ النبيّ عليه السلام فأوحى الله إليه: «ما لَكَ والفكرةَ في أحكامي وتدبيرِي وتقديري! هذه البدرة كانت وديعةً لوالدِ هذا الراعي عند والد ذلك الفارس، وماتا ولم يَعْلَم الراعي ما كان لأبيه عند أبي الفارس، ولا عَلِمَ الفارسُ أن البِدْرَةَ ليست له وهي لغيره، فقد رَدَدْتُ الحقَّ على صاحبه بقُدْرتي ورأفتي، وإن هذا (ص ٥٤) الرجلَ كان قتل أبا هذا الفارس، فأنصَفْتُه منه، وأخذتُ بثأره على يد وليّه[3]، ولا يَعْلَمُ أحدٌ ما كان في علمي منه». فاستصغر النبيُّ ـ عليه السلام ـ ما فكّر فيه وتاب. انتهت[4]. فهذه الحكاية شبيهةٌ بحكاية الخَضِرِ والمالِ لما لم يكن الراعي يعلم [ما][5] عنده لم يجد ألم فقده، فلذلك حسن وضعُ الحكايةِ هاهنا، ولو عَلِمَ بفقده وأسفه ذلك لكان محلُّ هذه الحكاية الصورةَ بَعْدَها.

---

(١) ـ القرَبوس كحلزون: حِنو السرج وجمعها قرابيس (القاموس المحيط).

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: بناكره. والمناكرة: المقاتلة والمحاربة (القاموس المحيط: نكر).

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ولدِهِ.

(٤) ـ وردت هذه الحكاية مختصرة في عجائب المخلوقات للقزويني ص ٢٧.

(٥) ـ سقطت من الأصل.

خاتمة لهذه الصُّورة الأولى

ومن أعظم ما يُتَحدَّثُ به من التمحيص المتوقَّع في المال القريبةِ من الوقوع علاماته، المتوانيةِ من التحقيق مقدماته، ما وقفتُ عليه في جهةِ مولانا السلطانِ الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ منذُ أيام قريبة؛ ذلك أن خالصته المكينَ الحُظْوة لديه، القائد مفرّج بن فَتُّوح سيقَ[1] له عِقدٌ نفيسٌ من ذخائرِ دارِ الملك المنقطعة النظير كانت للضرورة، أيّامَ الإقامة بإليرة[2] قد أفْرَجَتْ عنه لهمٍّ وقتيّ استدعى تخلّفه لدى بعضِ أهل الثغور المجاورةِ لها، وتمّ القصدُ الذي تخلّفَ من أجله، وجاء به الرجل الذي كان عنده متفصّياً[3] من عهدته، ومُلقياً للقائد المذكورِ بأمانته، فتبرّأ به إليه في صِوانه، ذلك المنسوقِ بالذهب، بعد اختياره إيّاه سلكاً لايشتمل إلاّ على يتيمةٍ من الجوهر، أو فذّةٍ من الزمرّد، أو فريدةٍ من الياقوت، يعدل ثمنه ملكاً، وتبلغُ قيمتُه بيتَ مال، ثم أعاده إلى ذلك الصِوان المَلَكيّ، واضطبنه في كُمّه، وذلك بالمَشْورَ من اسطوان الدار الكريمة. وترادف عليه هنالك من طُلاّب الحوائج، وقُصّاد مظهر الوزارة في الأغراضِ المتباينة، أعدادٌ متكاثرة، ثم قام القائدُ مفرّج المذكور ناسياً لما كان قد تأبّطه من هذا العِقْد النفيس، وتبعه من أولئك القاصدين رِجْل الدَّبى[4]، فانساب ذلك السِمْطُ في صِوانه انسيابَ الأرْقَم بين الأرجُل، فكان من غريبِ الاتفاق أن وَطِىَء

---

(١) ـ رسمت في الأصل هكذا «سق» ولعلها نُسِقَ أو شُقَّ أو سِيقَ.

(٢) ـ بالإسبانية Illora وتقع إلى الشمال الغربي من غرناطة.

(٣) ـ أفصى: تخلص من خير أو شر (القاموس المحيط: فصى).

(٤) ـ الرِجْل: الطائفة من الشيء والقطعة العظيمة من الجراد (القاموس المحيط: رَجَلَ) والدبى: أصغر الجراد (القاموس المحيط).

عليه الفقيهُ أبو الحسن البُشَاريّ[1]، فاستنكر أن ذلك الصِوان تحت أخمصه في ذلك المحلّ الذي لاعهد فيه بمثل ذلك، فتشبث[2] فيه والتقطه مرتاعاً دَهِشاً، إذ كان قبض القائدُ مفرّج إيّاه بحضرته، ثم تبع به القائدَ المذكور، مبادراً بإعلامه به قبل تمكُّن خشيةِ فقدِهِ من قلبه، فارتاع لذلك ارتياعاً عظيماً فلم يُرَ أشدَّ اشتباكاً هنالك من تَرْحَةِ التَلَفِ بفَرْحَةِ التلافي، ولا أقرب اتصالاً من مساءة الفَقْدِ بِمَبَرّةِ[3] الوُجود.

كما أنّ من أعظمِ ما يُتَحدَّثُ به من التمحيصِ[4] المُتوقَّعِ في الجاهِ الظاهر المخائل في الوقوع، والقريب (ص ٥٥) الأمارات من الحدوث، ما شوهِدَ عِياناً في جهته في قضيّةِ الرجُلِ المعروفِ بيوسف المُدَجَّن[5] الشهيرةِ الكيان، المُدْرَكَةِ بالأسنان، منذ سنين تجاوز العشرين، فقد كان في ذلك ما يَقْضي منه العجبَ مَنْ شاهَدَهُ أو باشَرَه[6]، من رجلٍ لم أعرفْه قطّ ولا فاتَحْتُه بكلمةٍ، إلاّ أنه كان يبدو لي من ظاهره أنّه بعيدٌ من تَرَفِ الحضارة، وعريقٌ في نَسَبِ البداوة، مثل رعايةِ البَهَمِ وإثارةِ الفلاحة، وما أشبهَ ذلك، يستظهر مع ذلك من السذاجةِ البارزةِ في مِسْلاخ القِحَةِ والاستصحابِ لأضْغاثٍ من العُشبِ يفرغها جهلة العوامّ في قالَب حُسْن الظن. حدثني من أثق به أن شيخنا القاضي أبا القاسم بنَ سرّاج ـ رحمه الله ـ أمر بإخراجها من المسجد الجامع، إذ كان لا يُفارقُها إذا دخل المسجدَ أو غيرَه، يهتف في أثناء تصرّفاته، بأفذاذِ كلماتٍ لاطائلَ تحتها يحملُها أولئكَ المَفْتُونُونَ بأمثاله، من أولي المنازع الغريبة، ما

(١) ـ لعله نسبة إلى منطقة البشرات أو البشارات Alpujarras الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة غرناطة.

(٢) ـ في الأصل: فتثبّت.

(٣) ـ في الأصل: عسرة.

(٤) ـ في الأصل: المحيص.

(٥) ـ انظر بدائع السلك لابن الأزرق ١ / ١٣٩ (أشار إلى هذه الحادثة بإيجاز شديد).

(٦) ـ في الأصل: ياشرِه.

لا تحتمِلُه من لطائِف إشاراتِ الصوفيّة أربابِ السّلوك الخاصّ والعلومِ اللّدنيةِ. ثم ترقّى من هذه الحالة إلى إنشاءِ شوانيّ[1] مختلفةِ الأوضاع من الصغير الذي يعتمد فيه أوصاف الجَرْم[2] واستخفاف الثقل، والكبير[3] الذي يُقْصدُ فيه تكثيرُ أعدادِ المقاتلة وتوسعة احتمال العدد والمرافِق، فتمّ له من ذلك على طريق ابتغـاءِ ما عندَ الله واستجداءِ ما ينطوي على تحسين الظنّ بأولياء العِباء[4] والدبابيس[5] ما لا يتمُّ لأولي الوَجْدِ[6] من الملوك. ولم يَزَلْ السلطانُ ـ أيّده الله ـ يندرِجُ في طيّ خلُوصِ النيّةِ فيه، ويُسْعِدُ قَصْدَهُ من ذلك بكلّ ما لا يُوجد من آلاتِ تِلْكَ السُّفُنِ التي تصدّى لإنشائِها إلّا في دُورِ صنعةِ الإنشاء، التي ينفَرِدُ بها أولو الأمر، ويتميّزُ بأمثالِها في هذا القُطْرِ وُلاةُ المُلْك، غيرَ مُصْغٍ في الأخْذِ بالتقية من مِثْلِ ذلك الرجل لمقتضى الحزم من أربابِ النُّصح، إلى أنْ استفحل أمره[7] وأعضَلَ داؤه، وأعوَزَ طبّه، وأعيا عِلاجُه، فلم يَرُع السلطانَ ـ أيّده الله ـ يوماً ما إلّا هجومُه على بعضِ أرباض الحضرة داعياً الناسَ إلى بيعته، فانتدبَ له من الغوغاءِ والأوْباشِ عَدَدُ الحصى، هاتفين بالخلعان، مُعْلِنين بالإقـامةِ لدعوته، مُتَهالِكين بالاستماتة في طاعته، باذلين للنفوسِ والأمـوالِ في خِدْمته، فاستطارَ مِنْ فِتْنَةٍ شواظٍ إياسُ النفوسِ الضعيفة من خموده، وعصفَ من محنته إعصارٌ أوهم القلوبَ المشفقة ألّا طَمَعَ في ركوده. ولم يكن إلّا كلاّ ولا، وإذا بذلك الشّواظ قد انطفأ، وذلك الإعصارِ قد سَكَنَ وهدأ[8]، فركب الليلَ جملاً، وغشيته الضيقة أفسحَ ما كان أملاً، وانكفأ على

(١) ـ مفردها شَوْنة وهي المركب المعدّ للجهاد في البحر (القاموس المحيط).

(٢) ـ الجَرْم: زورق يمنيّ وجمعها جروم (القاموس المحيط: جرم).

(٣) ـ في الأصل: والكبر.

(٤) ـ العِباء كساء معروف (القاموس المحيط: عبء).

(٥) ـ في الأصـل بالفـاء، والـدبابيسُ: المقامع وكان يتخذها كثير من نبهاء الأندلس وشمال إفريقيا، ولذلك نجد بينهم لقب أبي دبّوس.

(٦) ـ الوجْد: الغِنى (القاموس المحيط: وجد).

(٧) ـ في الأصل: استمحل.

(٨) ـ في الأصل: وهواء.

أدراجه، ظاهراً فيه قصد الإملاء (ص ٥٦) باستدراجه. وكفى الله تلكَ الوهْلَةَ وجلا تلكَ الغمرة. وتوجّه في طلبِهِ من خُدّامِ السُلْطان من كانت مَنِيَّتُهُ على يده، فهلك في هذه السبيل.

وقد كان من أغربِ ما يُوقَفُ عليه في التواريخ السالفة قضيةُ المؤيَّد هشـــام، وما وقف من الإرجاف بحياتِهِ بعد موته مرّة أو مرّتين حسبما حكى ابنُ حيّان في مقتبسه وغيرُه من المؤرخين[1]، فأرانا الله لهذا العهد في ذلك الرجل المعروف بالمدجّن هذه الغريبة المُسْتَبْعَدَةَ كانت على هشام المذكور، فَبَعْدَ مُعَايَنةِ رأسه محوزاً[2] من جَسَدِه لارتاب فيه أحد ممن شاهده، ولا يشك فيه بشرٌ ممن عاينه وَقَفَ على ذلك من الخَلْقِ من لا يحْصيهم إلّا خالقُهم عزّ وجهُه، ولايحصُرُهم إلاّ بارِئهم جلّت قدرته، حتى إذا وارى[3] ذلك الرأسَ الترابُ، وطَمَسَ شكلَهُ التغيير، طفقت زعنفة من أتباعه يقولون فيه بالرَّجْعَة، ويزعُمون أنّ ذلك الذي صُلِب كان غَيْـرَ جثمان الذي طُلب، وذلك الرأس الذي طِيفَ به علانيةً كان غيرَ رأسه، ومن قال إنه كان فهو عندهم كاذب لامحالة، ويزعمون أن ذلك الذي قُتِل هو رجل كان يشبهه، فشُبِّهَ لهم به، وليس هو بالمدجّن. مقالة شنيعة لاتنتهي القِحةُ لِأعظَمَ منها. ثم صاروا يدّعون رؤيتَهُ، ويرتقبون ميعادَ خروجه، ويُسْنِدون الرواياتِ عن فلان وفلان من خدّامه أنهم لقوْه في الكهف الفلانيّ والغارِ الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارجٌ

(١) - لم أجد هذا الخبر في ما وصلنا من أجزاء كتاب المقتبس لابن حيان، وقد وردت بعض تفصيلاته في كتاب البيان المغرب ٣ / ٧٧ - ٧٨ وأعمال الأعلام ص ١١٢، ١٢٠.

وتقول المصادر إنّ الذي قُتل هو شخص يهودي أو نصراني شديد الشبه بالمؤيد وأن خليفته محمد ابن هشـام بن عبد الجبار فعل ذلك ليتقي استمرار فتنة المؤيد، وذلك سنة ٣٩٩هـ، لكن هشاماً المؤيد عاد وتولى الخلافة ثانية سنة ٤٠٠ هـ (البيان المغرب ٣ / ١٠٠ - ١٠١) وخلع ثانية سنة ٤٠٣ هـ (٣ / ١١٣) وبعد ذلك غاب عن الناس خبره واختلف في أمر مصيره (البيان المغرب ٣ / ١١٣، وفيات الأعيان ٥ / ٢٢، نقط العروس ٩٧).

(٢) - هكذا في الأصل ولعلها: محزوزاً.

(٣) - في الأصل: ولدى.

عمّا قريب، فيملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جوراً، ويقولون أموراً تغيظُ الحليمَ وتُزْعِجُ الوَقُور، وربما تغالى بعضُهم فيجاوز في الأيمان المحرجة على ذلك الغَموس[1] إلى ما لا يحلُّ شرعاً من الطلاق وغيره.

فاعجب لهذا التمحيص القريب كان من الوقوع، وما كفَّ الله من معرّته وصَرَفَ من مَضَرّته. وليستْ هذه القضيةُ مما تُستَوْفى بالقَلَم بياناً لاسيّما مع الاختصار؛ فقد كان حالُها عظيماً وخطرُها كبيراً. وربّما كانت أوّلَ أمرٍ سهّل هذا الخلاف، وأوقع الافتراقَ بين القلوب، والله غالبٌ على أمره، سبحانه لا إله إلّا هو.

وهذا النوع الذي استظهر به هذا المدجَّن من تغطيةِ قصده أولاً للثورة بالصلاح، وإبرازِ تصرّفاتِه المُفْضية أخيراً إلى طَلَب المُلْك، في مسلاخ الانتماءِ للولاية هو الـذي مُنِيَ به المرابطون من المتسمّي بالمهدي[2] القائم بدولة الموحدين. ولذلك كانت هذه الدولةُ الموحّدية لا تسامح أحداً ممن يستظهر بتغيير مُنْكَرٍ في قالب الديانة، أو تحيز عن الجملة بخصوصية عِلْمٍ أو ولاية، إذ كان موليهم[3] على الملك من هذا الباب حسبما حكى المؤرخون من ذلك أعاجيب، (ص ٥٧) وهو الجاري على قولِ أردشير[4] في عهده إلى مَنْ بَعْدَهُ

(١) ـ الغموس: الأمر الشديد الغامِسُ في الشدّة، والطعنة النافذة (القاموس المحيط: غمس)

(٢) ـ الإشارة هنا إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت تلقب بالمهدي وهو من بلاد السوس في المغرب الأقصى وأسس دولة الموحدين في المغرب والأندلس، وكانت وفاته سنة ٥٢٤ هـ (وفيات الأعيان ٥ / ٤٥ ـ ٥٥، المعجب ص ٢٦٢، وانظر كتاب أخبار المهدي بن تومرت للبيذق، الأنيس المطرب ص ١٧٢).

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ هو أردشير بن بابك بن ساسان أحد ملوك الفرس، وهو الذي وحد بلاد فارس بعد أن حكمتها الطوائف حوالي ٤٦٥ سنة، وقد مهد لتوحيدها بكتاب مشهور خاطب به الرعية وملوك الطوائف (المعارف لابن قتيبة ص ٦٥٣، مروج الذهب ١ / ٢٤٣، تاريخ غرر السير للثعالبي ص ٤٧٣ ـ ٤٨٧).

من ملوكِ فارس. فإنه قال فيه: (إنّ رأسَ ما أخافُ عليكُمْ مبادرةُ السِّفْلةِ إياكُم إلى دِراسةِ الدين وتناوُلِه والتفقُّه فيه، فتحملكم الثقةُ بقوّة الملك على التهاونِ به، فتحدث في الدينِ رياساتٌ مسْتَسِرّةٌ فيمن قد وَتَرْتُم وجَهَوْتُم[1] وحرمتُم وصغرتُم من سِفْلةِ الرعية وحَشْو العامّة[2]). انتهى. وفيه ما يُشْعِرُ بما يجبُ من التحفّظ من نَمَطِ المدجّن ممن اسْتَظْهَرَ بصلاحٍ أو دين، وما يردُ على الملوك من قِبَلِهم من التمحيص. وقانا الله من كلّ داعيةٍ للفتنة وموجبة للفُرْقة.

وفيما نقلْنا من هذه الصورةِ كفاية، إذ كان موضوعُها متّسِعاً جداً، ومختلِفاً للأنظار غاية. ولله في صرف هذه المتوقّعات لطائفُ جميلة[3]. فلو استَقْصَيْنا ما تُوُقِّعَ من ذلك لخرجنا للطول المملّ فلنعتمد على الوقوف عند هذا الحدّ بحول الله.

ثم تطاولت المـدّةُ، وتعـاقَب الـرخاءُ والشدّة، فكانت النادرةُ الفذّةُ، والحادثةُ المُسْتَفْظَعَةُ المُسْتَلَذّة، تِلكُم الغريبةُ التي لم تَأْتِ مِثْلَها الأعصار، والعجيبةُ التي أسفرتْ [عن][4] حُسْنِ العاقبةِ فيها حُجُبُ الأقْدار، وذلكم أن الرئيسَ إسماعيل الذي سبقتِ الإشارة[5] بما ذَخَرَ الله للغالب بالله - أيّده الله - في مقامه بأرض الكفر بين[6] وجوه الفوائد التي كانت له في طيّ المكاره - حسبما يَقَعُ الإلمامُ به في بعضِ الصُوَر الآتية - كان قد استقرّ بأرضِ الحرب بعد تمامِ قضيةِ السلطان أبي الحجّاج - رحمه الله - راكناً إلى الكُفْر على نحو

(١) - أجهى فلانٌ علينا: بخل، وجهِيَ البيتُ: خرب (القاموس المحيط) وفي عهد أردشير: جفوتم.

(٢) - انظر عهد أردشير ص ٥٣ - ٥٤، حققه وقدم له: الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر - بيروت - ١٩٦٧م. وورد هذا النص أيضاً في لباب الآداب لابن منقذ ص ٤٣.

(٣) - في الأصل: لطالِب جميلهِ.

(٤) - في الأصل: صح.

(٥) - لم يسبق فيما مضى من هذا الكتاب أن أشار المؤلف للرئيس اسماعيل.

(٦) - في الأصل: الكفرين، وربما قصد بها الكافرين.

ما سبق له مُنْذُ المدّةِ الطويلة، في أقاصيصَ يطولُ ذِكْرُها، ليست من غَرَض هذا الكتاب[1]، إلى أن استقرّ بحِصْنِ قُمارش[2] من أرض غربيّ الوطن، منتزياً هنـالِـكَ بنفسِه. وقد سَقَبَت[3] الخَواطرُ أيْدته[4] المرتقبة وحادثته المُتَوَقَّعة، فأكسَبَ الإرجافُ به وهناً في عضد النصر الذي كانت قد هبّت[5] منذ نحو ثلاثة أعوام سالفة عن غاية اختلاله بحيث ذكر.

وفي صفر من صدرِ سنتِنا هذه التي هي عامُ أربعةٍ وخمسين وثمانِ مائة اشتعَلَتْ به في الوطنِ نارُ الفتنة، وأعضل به لولا تداركُ الربّ الرحيم داءُ المِحْنة، فاحتلّ قصبة مالَقَة في يوم الخميس التاسع عشر من شهرِ صفر المؤرّخ به، ولذلك العهد ماجت الحضرةُ بأهلها مَوْجاً، واستشعرتِ النفوسُ عظيمَ الحادثة، وخشيت عاقبةَ هذه الواقعة، وجعلَ الله في قلوبِ الخاصِّ والعامِّ، والقريبِ والبعيدِ، استقباحَ هذه الثورة، واستنكارَ هذه (ص ٥٨) الفِعْلة، ولُقِن الناسُ ما تضمَّنَتْهُ من أماني طاغية قشتالة في تشتيتِ الكلمة، وتفريقِ الأمّة المسلمة، وضُـرِبت لهم في ذلك الأمثال، وحُذِّروا من عواقب هذه الأحوال، وناصح الفقهاءُ في ذلك الدينَ الحنيف، والإسلامَ الشريف، فجزموا بحظْرِ الواقع وحُرْمَتِهِ، وثبتوا على الاستمساكِ بعزّ المُلْكِ وحرمته، وحافظوا للملك المصون عن دناءة خدمة الطاغية برعي ذمته. فكان ذلك من أعظم الأسبابِ في ائتلاف القلوب، وتيسيرِ الغَرَضِ المطلوب. فنهد السلطانُ ـ نَصَرَهُ الله ـ في جيشه المظفّر تقدمه السعادة، ويتهيأ له وفق ما في ضميره الإرادة، في منتصفِ شهرِ ربيع الثاني من العام المذكور، فجعل الله له مدينة بلّش[6] باكورة

(١) ـ في الأصل: الكتب.

(٢) ـ بالإسبانية Comares غربي غرناطة وقريباً من مالقة.

(٣) ـ هكذا في الأصل، وسَقُبَت الدار: قرُبت (القاموس المحيط) وقد تكون مصحّفة.

(٤) ـ اشتداد أمره وتعاظُم شأنه (آد يئيد أيدا اشتدّ وقوي) (القاموس المحيط).

(٥) ـ هكذا في الأصل، ولا يستقيم المعنى إلاّ بإضافة «رياحه» بعد كلمة «هبت».

(٦) ـ بالإسبانية Velez Malaga وتقع بين غرناطة ومالقة وهي إلى الشمال الشرقي من مالقة وإلى الجنوب الغربي من غرناطة.

الفتح، وتحفةَ القادم من النصر. ولسادسِ يومِ حُلوله بفِنائها استنزلَ من كان فيها من أصحابِ الرئيسِ المذكور على أمانٍ بُذِلَ لهم. ثم كان الانتقالُ إلى مدينةِ مالَقَة في يومِ الخميس الثالثِ والعشرين من الشهر المؤرّخ به، تهدرُ طبولُ عزّه، وتلوحُ مخايِلُ سعده، فنزل منها فُوَيْقَ الجَنّةِ المعلومة هنالك لابن سالم، فكان في ذلكَ من أكفال ما استبشر به سامعُه. ثم انتقَل يومَ السبتِ التالي ليومِ الجمعة ثانيَ يوم نزولِه بحيث ذُكِر، إلى شرقيِّ رابطة السُعَداء، فكان الاستبشارُ في ذلك بالفأل أتمّ، والاستبصارُ في نُجْحِ القَصْدِ به أعمّ، إلى أن تأذّنَ الله في فتح البلدة عَنْوةً في يومِ الخميسِ الخامس عشر من الشهر بعده في يوم أغرّ محجّل، أتى الله فيه من عجائبِ صُنْعه، وغرائبِ لُطْفِه، ما بَهَرَ العقولَ، وأبْهَجَ النُفُوسَ، وأعْلَقَ برحمةِ الله في تدارُكِ الوطنِ الغريبِ الأطماع، بعد أن كانت النصرانيةُ - قصمها الله - قد جاشَتْ جموعُها، واستشْرَفَتْ للنَّكْث، واشرأبَّتْ للغَدْر، على الشِنْشِنَةِ المعروفة منها، وطفِقَتْ تَعِدُ ذلك البائسَ اسماعيل بأنها تَحْطِبُ في حبله، وتجهد في نصره، وقد جعل الله بين رؤوسِهم من الشَّتات، ومكّن بين قوامسهم[1] من الخِلاف ما أضعف به أيْدهم،[2] وأوْهَنَ به كَيْدَهُم. ولله في سِرِّ أقدارِه لطائف، لا يعرف كُنْهَها إلّا المستبصِرُون في آياته. ولثاني يومٍ من احتلالِ السلطانِ - نصره الله - بدارِ الصنعة من ظاهرِ مدينة مالَقَة أذعنتِ الفِرْقَةُ المنتزيةُ بالقَصَبةِ من أشياع إسماعيل للانقياد للكلام، فنزلَ منهم من تحدَّثَ في القضيّة على الإفراجِ عنه لحُكْمِ السلطان، أيّده الله، وبَذْلِ الأمانِ لهم في أنفُسِهم وأموالِهم، والتخلّي عن القصبتين (ص ٥٩) وقصبة جَبَلِ فار[3] لمالكها. فكان ذلك على أكملِ الوُجوهِ الموافِقة لِغَرَضِ الملك وعزّ الإسلام. وفي يَوْمِ السَّبتِ السابع عشر من الشهر المذكور صعد السلطانُ أيّده الله للقصبةِ في جملةِ قُوّاده وخدّامه، وقعد على أريكةِ مُلْكه، وانثال عليه الجمُّ الغفير من أهل مالَقة وغربيّها، ووجوهِ من كان

(١) - في الأصل: قواميهم.

(٢) - الأيْد: القوة (القاموس المحيط).

(٣) - بالإسبانية Gibralfaro وهي قلعة مطلة على شاطىء مالقة.

معه من أهل الحضرة مهنّئين له على ما هيّأ الله من الصُنع الجميل والفتح العجيب. وفي الليلةِ الثانيةِ ليوم صُعودِه بحيثُ ذُكِر طاح ذلك البائسُ، فدُفِنَ بإزاءِ أبيه وجدّه فما انتطح فيه عنزان[1]. إنّ في ذلك لعبرةً للمعتبِرين، وآيةً للمُسْتَبْصِرين. وصَحِبَ هذا الصنعَ للغالبِ بالله من الألطافِ الخفيّة ما عوّده ربُّه.

(١) - لا ينتطح فيه عنزان: لا يكون له تغيير ولا له نكير، وهو مثل عربي ورد في مجمع الأمثال ٢ / ٢٢٥.

تتميم

إنْ كان بصددِ شَيْءٍ من هذه الابتلاءات فنجّاه الله منها، وأصاب به سواه، فهو دائرٌ بين أن تكونَ نجاتُه بتوبته من الذنوب المُوجبة لتلك العقوبة أو لتجاوزِ الله عنه فيلحق بالبريء، أو تكونَ نجاتُه إمهالاً في سبيلِ الإملاء له، وعلى كلا التقديرين فينبغي له أن يَسْتَكْثِرَ من حَمْدِ الله على ما منحه من النجاةِ للاحتمال الأوّل، وأن يَسْتَشْعِرَ كونَ من أُصيب بذلك الخطب دونه خيراً منه لما أصابه ممّا لعلّه في سبيل الإعظامِ لأجرِه أو التخفيفِ لوزره للاحتمال الثاني. ومثلُ ما يحكى عن سَريّ السقطي[1] من أنه: (قيل له: كيف يَجِبُ الإتيانُ بالطاعة؟ قال: أنا منذُ ثلاثين سنةً أستَغْفِرُ الله عن قولي مرّةً واحدةً الحمدُ لله. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: وقع الحريقُ في بغداد، واحترقَتْ الدكاكينُ والدور، فأخبروني أن دكّاني لم يحترقْ، فقلت: الحمدُ لله. وكان معناه أني فرحْتُ ببقاءِ دكاني حالَ احتراقِ سائرِ دكاكين الناس، وكان حقُّ الدِين والمروءة ألّا أفرح بذلك، فأنا في الاستغفارِ منذُ ثلاثين سنة على قَوْلي الحمد لله)[2] غيرُ لائقٍ بمقامنا. وفي مِثْله يقال: حَسَناتُ الأبْرار سيّئاتُ المقرّبين. وَمَنْ لنا بأنْ نَكُونَ من الأبرار بَلْ مَنْ لنا أن نكونَ ممّن علم أنه مُسْرِفٌ على نفسه، خابطاً عشواءَ في غمراتِ ذنبه!؟ فلعلَّ قلبَهُ بذلك ينكسِر، وحاله عند مولاه يَنْجَبِر، لقوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه: **«أنا عِنْدَ المنكَسِرَةِ قلوبُهم من أجلي»**. تابَ الله علينا وهُدينا.

---

(١) ـ هو أبو الحسن سريّ بن المُغَلِّس السَقَطيّ من مشاهير المتصوفة، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه، توفي ببغداد سنة ٢٥١ هـ (انظر ترجمته في: حلية الأولياء ١٠ / ١١٦، تاريخ بغداد ٩ / ١٨٧، طبقات الصوفية ٤٨، وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٧ ـ ٣٥٩).

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ٩ / ١٨٨، وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٧.

الصُّورَة الثانية

أنْ يكونَ الابتلاءُ في المُقْتَنَياتِ العَزيزةِ على النُّفُوس، كالمالِ والجاه، واقعاً في الحال، وهو مأمولُ الجَبْرِ، مرجُوُّ الزَّوال.

وهذه الصورةُ أوسعُ من التي بعدها، لإمكان الجَبْر في هذه الأمور، لأنّ أعلى أجناسِ هذه المُقْتَنَيات على الجملة إمّا جاهٌ وإمّا مال، (ص ٦٠) وكلاهما ممكنُ التلافي بعَوْدَتِه كما كان؛ فكم رأيْنا من ذي جاه أو مالٍ أو كليهما قد سُلِبَ ذلك، ثم أعاده الله إليه كأحسنَ ما عوّده! وفي قصةِ سليمان[1] ـ صلوات الله عليه ـ فمن دونَه من ملوكٍ وسواهم مُعْتَبَرٌ لمن كان له قَلْبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهُوَ شَهيد. وما أعوز تلافيه بنظيره فأعلى مُغْنٍ عنه في الجاه، وما يتعلّق به ومثله ومماثله ممّا فوقه مغنٍ عنه إن كان من ذوات الأمثال، أو من ذواتِ القِيَم في المال، وذلك في نَظَرِ من يستقصي، حظٌّ لنفسه، إذ القيمة في نَظَرِ الشَّرْع مُغْنِيَةٌ عنه في ذواتِ القيم. وعند ذلك لا يبقى في الصورة الثالثةِ إلاّ ما حال دون عَوْدته أو دونَ عِوَضِه مانعٌ يمنع منه بتّاً، أو كان من النُدورِ بحيثُ لايُوجَدُ منه عِوض، ولايتأتّى عنه بدل.

ولا شكَّ أن هذه المُقْتَنَيات على الجملة من الأمورِ التي بها للقلوبِ تعلُّقٌ عظيم، وللنفوسِ عليها حِرْصٌ شديد. ولن يَخْفى كَلَفُ النفوس بهذه الأمور، وتمكّنُ إيثارها من القَلْب، وَفَرْطُ ميلِ الخاطر إليها.

ومن البيّنِ أنَّ اختصاصَ الابتلاءِ بهذه الأشياء دونَ شموله لما هو أهمُّ للإنسانِ منها، كالنفس وما سِيقَ معها من الصحة وغيرها، مما يُوجِبُ طموحَ الفكر، لاستعظامِ الواقع ذاهلاً ممّا منح الله السلامةَ منه. ولكون النفْسِ بمنجاةٍ

(١) ـ انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٨ ـ ٥٢٠.

من الآفةِ في هذه الحال نَعْتَريها الغَفْلَةُ كثيراً عن مُشَاهَدةِ لُطْفِ الله في تمحيصه بكونه خاصّاً بالقُنْية الماليّة والجاهيّة وما أشبه ذلك، دون أن يقعَ في النفسِ أو في الأعضاءِ التي يودّ المبتلى فيها لو بَذَلَ مالَه في وقايتها وحفظها.

ومن الواجبِ هنا استحضارُ هذا المعنى، وأنَّ الابتلاء كما خُصَّ فقد كان من الجائز أن يَعُمّ، أو يقع في الأنْفس على الممتَحَن دون الأخسّ[1] عنده إذا تأمَّلَ حقَّ التأمُّل، ثم إذا نظر في هذا المفقود بالابتلاء، إذا كان مالاً فقد يَسْلَمُ سواه ممّا لو شمِلَتْهُ الآفةُ التي طَرَقَتْ غَيْرَهُ لم يكن ذلك بدعاً. فحقٌّ على المُصابِ بهذا المعنى أن يَتَسَلّى بتحقيقِ النَظَرِ في هذا حتى لا يَجد لما فَقَدَهُ ألماً، فلو فَرَضَ استئصالَ مالِه ففي سلامةِ النَفْسِ ومَنْ يعزُّ عليها من أهلٍ وبلدٍ وأحبّة ما يسهُلُ به فقدُ كلٍّ[2] مفقود، لأنّا نرى كثيراً من المبتلين بنوائب الدهرِ في أنفُسِهم أو مَنْ يعزُّ عليهم يبذُلون جميعَ ما يملِكون في خَلاصِ نُفُوسهم من الابتلاء الذي يكونون فيه، ثم لا يكونُ في ذلك عتابٌ عليه، وإلاّ فكم من أسيرٍ قد بَذَلَ مالَه كُلَّه في فكاك رقبته من رِبْقَةِ الأسْر! وَكَمْ مِنْ مُصَادَرٍ[3] أو منكوبٍ قد خَرَجَ من مَوْرُوثِه ومُطَوَّبه[4] فِراراً من العذاب المعروضِ عليه أو على من يَكْرُم عليه! وذلك لوجُودِ البَذْلِ من المالِ وعدمِ وُجودِه من النَّفْس ومن ذكر مَعَهَا، (ص ٦١) كما قال الفرزدق:[5]

يَمْضِي أخـوكَ فلن تَلْقى له خَلَفاً والمـالُ بَعْدَ ذهابِ المالِ يُكتَسَبُ

---

(١) - في الأصل: الأحسن.

(٢) - في الأصل: كان.

(٣) - كذا في الأصل ولعلّها مصحّفة عن «مصاب» أو لعلها مشتقة من الفعل صادره على كذا بمعنى طالبه به (القاموس المحيط: صدر).

(٤) - المبنيّ من الطوب.

(٥) - لم أجـد البيت في ديوان الفرزدق، وورد في التمثيل والمحاضرة ص ٧٠، وأدب الدنيا والدين ص ١٧٣.

من البيّـن إذاً أن شِدّة الشَغَفِ بالمالِ والحرص عليه إنما هو بعد سلامةِ الإنسان من الآلام التي تؤذيه في الجسمِ أو النفسِ أو فيهما معاً، وفي هذا المعنى يقولُ أبو النجم المرعي رحمه الله:

هِيَ الأيّامُ من نُعْـمـىٰ وبُـوسِ ... وكـرّاتِ السُعُـودِ على النُّحـوُسِ
فَلا يَعْـظُمْ عَلَيْكَ ذَهـابُ مالٍ ... وخَـيْلٍ أو رَقِـيقٍ أو لَبُـوسِ
فكـلُّ الـمـالِ مَحْـقُـورٌ يَسِيرٌ ... إذا سلِمَتْ حُشَاشَاتُ النُّفُـوسِ

وفي اللازم عن عَدَمِ المالِ وعن وُجُودِه قال حسّانُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه[1]:

رُبَّ حِلْمٍ أضـاعَـهُ عَدَمُ المـا ... لِ وجَـهْـلٍ غطّى عَلَيْهِ النّـعِيمُ

وقال بعضُ أهلِ الحكمة: «الغِنى في الغُربةِ وطن، والمُقِلُّ في أهْلِهِ غريب»[2]. وإنّ شيئاً يكونُ عَدَمُه سبباً في ضياع الحِلْم، ووجودُه سبباً في تغطيةِ الجهل، ويكونُ في الغربةِ مُغْنِياً عن الوطن، وفقده في الوطنِ قائمٌ مقامَ الغربة، بما يُدْخِلُ من الغمّ، ويسبِّبُ من الكربة، لجديرٌ أن يُهتَمَّ لفقده، وتجزع النفوسُ لفَوْته. وقد ظرفَ القائلُ في فضلِ الدرهم من أسباب الغنى:[3]

وقَائلةٍ: ما الحِلْم والفَضْلُ والتُقى ... وما الدِينُ والدُنْيا؟ فقلتُ: الدَّراهِمُ
تُداوي جِراحَ الفَقْـر حتى تُزيلَهـا ... ومـا هِيَ في التحقيقِ إلاَّ مَراهِمُ

---

(١) ـ شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٧، بهجة المجالس ١ / ٢٠٢.

(٢) ـ ورد هذا القول في كتاب عين الأدب والسياسة لابن هذيل ص ١٤٧ منسوباً إلى أرسطو طاليس مع بعض اختلاف ونصه في عين الأدب والسياسة:
الغنى في الغربة وطن والفقر في الأهل غربة.

(٣) ـ انظر البيتين في عين الأدب والسياسة ص ١٥١ وقد ورد الشطر الأول من البيت الأول على النحو التالي: وقائلة ما العلم والحلم والحجا. . . .

وأنشد أحمدُ بنُ الحارث[1] فيما ينحو نَحْوَ قولِ حسّان: [2]

تُغَطّي عيوبَ المرءِ كَثْرةُ مالِهِ ... يُصدَّقُ فيما قالَ وهو كَذُوبُ
وتُزْري بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مالِهِ ... يُحمِّقُه الأقوامُ وهو لَبِيبُ

وأنشد أحمدُ بن الحارثِ فيما يُنْظَرُ إلى ذلك:

كَمْ من لئيمِ الجُدودِ سَوَّدَهُ المالُ أبُوه وأُمُّهُ الوَرَقُ!
وكم كريمِ الجُدودِ لَيْسَ له عَيْبٌ سِوى أنّ ثَوْبَهُ خَلِقُ!

وهاتان القطعتان في المعنى قريبةٌ إحداهما من الأخرى، ولذلك يعظُم الابتلاءُ بما يُفْقَدُ من المال، إذ ومِنْ مسبّباته إحالةُ صفة اللبابة إلى ضدّها. . . . [3] كرم الجدود بإخلاق الثوب.

وما سبق في الصورة الأولى من إظهارِ التحمُّل وإيثارِ التجمّل[4] فاستعمالُه هنا أوْجَبُ والتحقّقُ به ألزم، وما يجِبُ هنالك من الصَّبْر والتسليم والرضا (ص ٦٢) والتفويض فإنه هنا آكد في باب الوُجوب وأسعدُ بالغَرَضِ المطلوب.

وما يعرض من استحضار التسلّي واستشعار الراحة بالتأسّي فله في هذا المحلِّ مناسبةٌ بيّنة وله في هذا الموضع فائدة متعيِّنة. والشكرُ لله على ما أبقى من نِعَمِهِ ثمرة المزيد التي يجبر لها النقص وينجح بها القصد، ولذلك قال

---

(١) ـ هو أحمد بن الحارث بن المبارك الخرّاز أبو جعفر راوية العتابي وأبي الحسن المدائني وكان شاعراً من موالي الخليفة المنصور، وله عدد كبير من المؤلفات الأدبية والتاريخية وتوفي ببغداد سنة ٢٥٩ هـ (انظر: الوافي بالوفيات ٦ / ٢٩٧، معجم الأدباء ٣ / ٣، تاريخ بغداد ٤ / ١٢٢، طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦).

(٢) ـ البيت الثاني موجود في بهجة المجالس لابن عبد البر ١ / ٢٠٢، وانظر عيون الأخبار ٣ / ٢٤٠، وجاء البيتان في روضة العقلاء ص ٢٢٦.

(٣) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة واحدة لعلها: واستبدال.

(٤) ـ في الأصل: التحمّل.

ابنُ شرف في حِكمه(١): (اعلمْ أنَّ صَبْرَ النفسِ وحملَ الجوارح اجتمعا فنتجا ستةَ أولاد، فضرب ثلاثة منها بعِرْقٍ إلى الصبرِ من أبويْها، وهي القناعةُ واليأسُ والسلوةُ، فتولّت القناعةُ الغَناء بالحاضر، وتولّت السلوةُ طِيبَ النفْسِ من الماضي، وتولّى اليأسُ كفّ الرغبة في المستقبل. وضرب ثلاثةٌ منها بعرقٍ إلى العمل من أبويْها، وهي الطاعةُ والأداءُ والوصول، فتولّت الطاعةُ الانقياد، وتولّى الأداءُ توفيةَ الغرض(٢)، وتولّى الوصولُ إدراكَ المطلوب. ثم إن القناعةَ لمّا تولّت الرضا بالحاضر نتجت الغَناء، والسلوة لما تولّت طيبَ النفس عن الماضي نتجت الراحة، واليأس لمّا تولّى كفَّ الرغبة في المستقبل نتج التسليم. ثم إن الطاعة لما تولّت حُسْنَ الأداء نتجت الأثرة، والأداء لما تولّى توفيةَ الغرض نتج الغبطة، والوصول لمّا تولّى إدراكَ المطلوب نتج النَّيْل، ثم الغَناء والراحة والتسليم والأثرة والغبطة والنَّيْل اجتمعت فصارت غنيمة، ومَنْ غَنِمَ فقد فاز فوزاً عظيماً) (٣) انتهى. وهذا مناسبٌ جِداً لما نَحْنُ بسبيله، فانظر ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض، وما حصل منها من الخيرات المسمّاة عنده خَيْراً وغنيمة.

وحدّث الجاحظُ قال: حدّثني حميد عن عطاء(٤) قال: كنتُ عند الفضل ابن سهل(٥) وعنده رسولُ ملِك الخَزَر، وهو يحدّثنا عن أخت لمليكهم قال:

---

(١) ـ انظر حاشية ص ١٢ من الأصل المخطوط، وقد مر ذكر حِكَم ابن شرف في أكثر من موضع.

(٢) ـ في الأصل: الفرض بالفاء، ولكنها ذكرت بعد ذلك بالغين.

(٣) ـ لم أقع على هذا النص فيما رجعت إليه من المصادر التي ترجمت لابن شرف.

(٤) ـ في زهر الآداب: حدثني حميد بن عطاء.

(٥) ـ هو أبو العباس الفضل بن سهل بن عبد الله الملقب ذا الرياستين، كان من أولاد ملوك المجوس وأسلم أبوه في أيام هارون الرشيد، وقد اتصل الفضل وأخوه الحسن بالبرامكة، وفوّض الخليفةُ المأمونُ معظم أموره للفضل بن سهل وولاه رئاسة السيف والقلم، فكاد يغلبه على أمره فدبر المأمون مقتله في الحمام سنة ٢٠٢ هـ (تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٩، مروج الذهب ٤ / ٢٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤١).

أصابتنا سنة احتدم شواظها بحرّ المصائب وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك، فلم يَدْرِ ما يجيبهم. فقالت أخته: (أيّها الملك إنّ الخوف لله علْقٌ لا يخلُقُ جديدُه، ولا يمتنع عزيزُه، وهو دالٌّ الملك على استصلاح رعيّته، وزاجره عن اسْتِفْسَادِها، وقد فزعت رعيتُك إليك بفضل العجز عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءةُ إلى خلقه عزاً، ولا يُنْقِصُه العَوْدُ بالإحسان إليهم مُلْكاً، وما أحدٌ أولى بحفظِ الوصيّةِ من الموصي، ولا بركوب الدلالةِ من الدالّ، ولا بحُسْنِ الرعاية من الراعي، ولم تزلْ في نعمةٍ لم تغيرها نقمة، وفي رضا لم يكدّره سخط، إلى أن جرى القَدَرُ بما عمي عنه البصر، وذهل عنه الحذر، فسُلِبَ الموهوب، والواهبُ (ص ٦٣) هو السالب، فعُدْ إليه بشكْرِ النعم، وعُذْ به من فظيعِ النِقم، فمتى تنسَهُ يَنْسَك، ولاتجعلنَّ الحياءَ من التذلّل للمعزّ المذلّ ستراً بينك وبين رعيتك، فتستحقَّ مذموم العاقبة، ولكن مُرْهُم ونفسَكَ بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة، وبتذلّل الإنس في الدعاءِ بمحضِ الشكر له، فإن الملك ربّما عاقب عبده ليرجعه عن سيّء فعل إلى صلاح عمل، أو ليبعثه على دائبِ شكرٍ ليحرز به فَضْل أجر). فأمرها الملكُ أن تقومَ فيهم فتنذرهم بهذا الكلام، فرجع القومُ وقَدْ علمَ الله منهم قبول الوعظِ في الأمر والنهي، فحال عليهم الحَوْلُ وما منهم مفتقِدٌ نِعْمةً كان سُلِبها، وتواترت عليهم الزياداتُ بجميل الصنع، فاعترفَ لها الملِكُ بالفضل، فقلّدها المُلْك فاجتمعت لها الرعيةُ على الطاعة في المكروه والمحبـــوب. قال: وهذا وهُمْ أعداءُ الله وضرائرُ نِعْمَتِهِ ومُسْتَوْجِبو نِقْمته، أعاد الله لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم بالإقرار له بكُنْهِ قدرته ما تمنّوا، فكيف بمن يجمعه على الشكر نوران اثنان قرآن[1] منزّل ونبيٌّ مرسل! لو صَدَقَتِ النيّات، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات، لكنّهم أنكروا ما عرفوا وجهلوا ما علموا، فانقلب جِدُّهم هَزْلاً وسكوتهم خبلاً. انتهى.[2]

---

(١) ـ في الأصل: قويّان، والصواب من زهر الآداب.

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في: زهر الآداب للحصري ١ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

وهذا الكلامُ في غايةِ النفاسة، ومعناه شاهد لقائلته بالعقل والرجاحة[1]، ونحنُ باعتقاد محصوله أحقّ، والمحذور الذي حضّت على اجتنابه بنا أخصّ.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى ما يُناسِبُ هذا الموضعَ من تلك الأحكام على اختصار، وبحسب ما يليقُ منها بهذا القصد بعد أن يقدّم هنا مقدّمة تَـحْسُن[2] في صور هذه الصورة؛ وذلك أن المقتنياتِ العزيزةَ على النفوس من المالِ والجاهِ وما يندرجُ تحت ذلك من الأمور المحبوبة للناس عادة من متاع هذه الحياة الدنيا، ولن يَخْفى، كما ذُكِر قبل، شدةُ الميْل إليها، والحرصُ عليها، وتسرّعُ النفوس إلى اقتنائها، ومبادرةُ الأيدي إلى اكتسابها، وَمَيَلانُ القلوبِ إلى التنافسِ فيها، والاستكثار منها، والاستيلاء عليها، والازدياد من أعراضها، والافتنان في أنواعها، والمغالاة في التماسِ أعلاقها، والمباهاة في اقتناص أفذاذها. وهذا مغروزٌ في الجِبلّة وموضوعٌ في أصل الخِلْقة، ولا تمكن النازعة[3] في ذلك لقوله تعالى: ﴿إنّا جَعَلْنَا مَا عَلى الأرْضِ زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً﴾[4] ولقـوله تعالى: ﴿زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النساءِ والبَنِينَ والقَنَاطيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَب (ص ٦٤) والفِضَّةِ والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمآبِ﴾[5] وبقوله تعالى: ﴿المَال والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا﴾[6] مع قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمتَاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وزِينَتُها﴾[7] فهذه الأمورُ كلُّها معروضةٌ[8] لتَوَقانِ النُّفُوسِ إليها ومَيَلانِ القُلوب نحوها كلّ واحد من الناس وما أثر من ذلك.

---

(١) ـ في الأصل: بالغفل والرجاجة.

(٢) ـ هذه الكلمة غير منقوطة في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها: للنازعة.

(٤) ـ الآية ٧ من سورة الكهف.

(٥) ـ الآية ١٤ من سورة آل عمران.

(٦) ـ الآية ٤٦ من سورة الكهف.

(٧) ـ الآية ٦٠ من سورة القصص.

(٨) ـ هكذا في الأصل.

وليس من جاري عادةِ الله اتّفاقُ الخَلْقِ على معنى واحد؛ لاختلافِ قواهم وأساليبهم [في](1) الاختيارات والاقتراحات، وتبايُنِهم في الطبائعِ والهِمَمِ والأخْلاق والانتسابات، وإنما هذا على الجُمْلة، والميلُ إلى ذلك طبيعيٌّ لهم لا يَفْتَرِقون فيه إلى باعث. ولمّا علم الله من النفوس من الشره إلى ذلك والميلِ للاستكثار منه فوقَ الحاجة التي تقوم بها المصلحة حضّ هنا على الزهد في الدنيا التي هي مشتملةٌ على هذه الأنواع كلّها لأنه قد قيل: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة»(2). وفي هذا المعنى يقول القاضي أبو بكر بن شَبْرين(3) ـ رحمه الله:

أثْقَلَتْني الذنوبُ وَيْحي وَوَيْسي ... لَيْتَني كنتُ زاهداً كأُوَيْسِ
إنّما أصلُ مِحنتي حبُّ دنيا ... هي لَيْلى ولي بها وَجْدُ قَيْسِ(4)

وإذا كان أصلُ المحنة بأثقال(5) حبّ الدنيا فهو بمعنى كونه رأسَ كلّ خطيئة، ولذلك يكونُ الزهد فيها رأسَ كلّ عبادة. وقد عدّ العلماءُ الحديثَ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالأمر بالزهد في الدنيا رُبْعَ الإسلام، وهو الحديثُ

(1) ـ زيادة من المحقّق.

(2) ـ عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣١ عن الثوري منسوبة إلى المسيح عليه السلام، وكذلك في التذكرة الحمدونية ١ / ٥٨، ووردت في بهجة المجالس ٢ / ٢٧٩ منسوبة للرسول عليه السلام وللمسيح عليه السلام، وفي لباب الآداب ص ٤٦١.

(3) ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين، واحد من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، أصله من مدينة اشبيلية، وعندما استولى القشتاليون على هذه المدينة سنة ٦٤٦ هـ رحل أهله إلى سبتة وبها ولد ابن شبرين سنة ٦٦٤ هـ. انتقل إلى غرناطة سنة ٧٠٥ هـ وعمل بها كاتباً للسلطان النصري محمد الثالث، وولي القضاء بعدة جهات، وتوفي في غرناطة سنة ٧٤٧ هـ وخلف شعراً كثيراً ونثراً (انظر: الإحاطة ٢ / ٢٣٩ ـ ٢٤٩، الكتيبة الكامنة ١٦٦ ـ ١٧٢، المرقبة العليا ١٥٣، نفح الطيب ٥ / ٥٤١ ـ ٥٤٣).

(4) ـ انظر البيتين في الكتيبة الكامنة ص ١٧٢ وانظر البيت الأول في الإحاطة ٥ / ٢٤٥. وأويس الوارد في البيت الأول هو أويس القرني من زهاد الكوفة في القرن الأول الهجري (البيان والتبيين ٣ / ١٦٢ ط. دار الفكر للجميع سنة ١٩٦٨م).

(5) ـ في الأصل: بأثقل.

المرويّ في سننِ ابنِ ماجة(1) عن سهل بن سعيد رضي الله عنه قال: «جاء رجلٌ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا رسولَ الله دُلّني على عملٍ إذا عَمِلْتُه أحبّني الله وأحبّني الناس، فقال: «ازهَدْ في الدنيا يحبّك الله وازهَدْ فيما في أيدي الناس يحبّك الناس»(2). وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أرادَ الله بعبدٍ خيْراً زهّده في الدنيا ورغّبه في الآخرة وبَصَّرَهُ بعيوبِ نَفْسِه»(3). وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لرجلٍ وهو يعِظُه: «ازهَدْ في الدنيا يحبّك الله وازهَدْ فيما في أيدي الناسِ يحبّك الناس»(4).

وإذا كان ذلك كذلك فإنّ هذه الرتبةَ التي هي الزهد رتبةٌ عظيمةٌ ومزيّةٌ رفيعة. قال الله تعالى في معنى التبيين لحقيقة الدنيا والترغيب عنها والتعريف بحقيقةِ الآخرة والترغيب فيها: ﴿وَمَا هٰذِهِ الحَياةُ الدُّنْيَا إلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيوَانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُون﴾(5). فما أحْرى الدارَ التي حقيقتُها لَهْوٌ ولَعِبٌ أن يَزْهَدَ فيها العقلاءُ ويَرْغَبَ عنها الألبّاء، وما أحقَّ الدارَ التي هي الحيوانُ أن يَحْرص (ص ٦٥) عليها العلماء بها، ويرغبَ فيها العارفون بقدرها ويشمّر عن ساعِدِ الجدِّ لاقتنائها المنافسون فيها. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا الحَياةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ولَلْدارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للّذِينَ يَتَّقُونَ أفَلا تَعْقِلُون﴾(6). وهذه الآيةُ في معنى الآيةِ التي قبلها. وقال تعالى: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحياةِ الدُنيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾(7). هذه الآيةُ الكريمةُ ضربها الله مثلاً للدنيا في حين بهجتها وجمالِ نضرتها وسرعة تلوّنها وقُرْبِ استحالتها وأنها وإن طالت

(1) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ (حديث رقم ٤١٠٢).

(2) ـ المصدر نفسه ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤.

(3) ـ ورد هذا الحديث في: إحياء علوم الدين ٤ / ٢٢٣.

(4) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤.

(5) ـ آية ٦٤ من سورة العنكبوت.

(6) ـ آية ٣٢ من سورة الأنعام.

(7) ـ الآية ٤٥ من سورة الكهف.

أيّامُها وتعددت أزمانُها مثلُ فصلِ الربيع منها الذي هو بهذه الصفة من حُسْنِ الرواء وسُرعة الزئال[١]، وبيده القدرةُ التامّةُ على كلّ شيء. وقال الله تعالى: ﴿إنّما مَثَلُ الحياةِ الدُّنْيا كماءٍ أنْزلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ والأنْعَامُ حتّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازّيَّنَتْ وَظَنَّ أهْلُها أَنّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أتَاهَا أَمْرُنا لَيْلاً أوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقومٍ يتفكّرُون﴾[٢]. وهذه الآيةُ أيضاً في معنى الآية التي قبلها وفيها مزيدٌ في المثل الذي ضَرَبَهُ الله تعالى لها. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «الدُنيا دارُ مَنْ لا دارَ له وبها يَعِيشُ مَنْ لا عَقْلَ له»[٣]. وقالَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلم: «آثِروا ما يَبْقى على ما يفنى فإنّ الدُنيا دارُ فَناءٍ والآخرة دارُ بقاء»[٤]. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «آثِرُوا الآخِرَةَ على الدُّنيا»[٥]. وهذا الحديثُ بمعنى الذي قَبْلَهُ لتضَمُّنه الأمرَ بإيثار[٦] الآخرة على الدنيا، وهو معنى الزهدِ فيها والرغبةِ عنها لإيثار[٧] الآخرة والرغبة فيها. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «ازْهَدُوا فيما في أيدي الناسِ يُحبّكم الناسُ وازهَدوا في الدُّنْيا يحبّكُمُ الله»[٨]. وهذا أمر منه صلّى الله عليه وسلّم بالزهد مُطْلقاً، ورتب على الزهد فيما بأيدي الناس حبّهم، وذلك بيِّنٌ لأن مَنْ لم يُنازِع الناسَ فيما بأيديهم بالمزاحمة لهم عليه والمنافسة لهم فيه واستشراف النفس إلى أن تملك منه ما لهم من ذلك، واستطلاع القلب على أن يحتويَ منه على

---

(١) ـ في الأصل: الزبال. وفي القاموس المحيط: مادة زول: زالت الشمس زوالاً وزوولا بلا همز وزئالا وزولانا: مالت عن كبد السماء.

(٢) ـ الاية ٢٤ من سورة يونس.

(٣) ـ مسند ابن حنبل ٦ / ٧١.

(٤) ـ مسند ابن حنبل ٤ / ٤١٢، ونسبت في محاضرة الأبرار (١ / ٩٥) لعثمان رضي الله عنه.

(٥) ـ لم أقع على هذا الحديث فيما وقفت عليه من المصادر.

(٦) ـ في الأصل: بإشارة.

(٧) ـ في الأصل: لإشارة.

(٨) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ (حديث رقم ٤١٠٢).

ما قد احتووا عليه من ذلك، فإنّ حُبَّ الناس له متعيّـن، فإذا ترقّى من هذه درجةً وذلك بأن يَزْهَدَ في الدنيا التي هي أعمّ من أن يكونَ بأيدي الناس فإنه يترتّب على ذلك حبُّ الله، وهذا ظاهر فإنّ مَن تَرَكَ الدنيا التي حُبُّها رأسُ كلّ خطيئة فقد سنّى الله له مِنْ أسبابِ القُرْبِ (ص ٦٦) ما يقتضي حبَّه له، فإنّ من يسّر الله عليه الترقّي إلى مقامِ الزهد في الدنيا التي هي دار الغرور فقد يسّـر الله له جوامع الخير كلّه، وباعد عنه أسبابَ الشرّ كلّه. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**الزهد في الدنيا يُريحُ القَلْبَ والبَدَنَ**»(١). ويحقّ أن يريحَ الزهدُ في الدنيا القلبَ والبدنَ، لأنّ مَنْ صان قلبَه عن الفِكرة في هذه المُقْتَنَيات الدنيوية فقد أراحه الراحةَ الكلّية، فأحرى إذا صان بدنه عن اكتسابها أن يريحه مثل ما أراح قلبه. وقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «**أزْهَدُ الناسِ في الدنيا أقربُهم عند الله يومَ القيامة**»(٢). ووجهُ قربِ الزاهدِ في الدنيا من الله يومَ القيامة واضح، ولذلك قال الفضيل بن عياض(٣) رحمه الله: (جُعِل الشرُّ كلُّه في بيت، وجُعِل مِفتاحُه حبّ الدنيا، وجُعِل الخيرُ كلُّه في بيت، وجُعِل مفتاحُه الزهد)*. وقال ابنُ المعتزّ: (طلاقُ الدنيا مهرُ الجنّة)(٤). وقال الكِسائيّ الصوفيّ: (الشيءُ الذي لم يخالِفْ فيه كوفيٌّ ولامدنيٌّ ولا عراقيّ ولا شاميّ الزهدُ في الدين وسخاوةُ النفس والنصيحةُ للخلق). قال القشيري(٥): (يعني أنّ هذه الأشياء لايقول

(١) ـ كنز العمال ٣ / ١٨٢ (رقم ٦٠٦٠، ٦٠٦١).

(٢) ـ لم أجد هذا الحديث فيما وقفت عليه من المصادر.

(٣) ـ أبو علي الفضيل بن عياض التميمي الزاهد المعروف المتوفى سنة ١٨٧ هـ وقد سبقت ترجمته.

* ـ طبقات الصوفية ص ١٣، حلية الأولياء ٨ / ٩١.

(٤) ـ البديع ص ٩٠ (ط ١٩٤٥م)، الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٠١، محاضرة الأبرار ٢ / ٢٧٧.

(٥) ـ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري عالم في الفقه والحديث والتفسير والأدب والتصـوف، سلك طريق التصوف، وصنف الرسـالـة القشيرية المشهورة في رجال الطريقة، ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ (تاريخ بغداد ١١ / ٨٣، وفيات الأعيان ٣ / ٢٠٥).

أحدٌ إنها غيرُ محمودة). وقال ابراهيم بن أدهم[1]: (الزُهْدُ ثلاثة أصناف، فزُهْدُ فرْض وزهدُ فضل وزهدُ سلامة، فالزهدُ الفرضُ الزهدُ في الحرام، والزهدُ الفضلُ الزهدُ في الحلال، والزهدُ السلامة الزهدُ في الشُبُهات)[2].

وروي أنّ رجلاً دخل على أبي ذرّ[3] فجعل يقلّب بصره في بيته فقال له: يا أبا ذرّ ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث، فقال: (إنّ لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمتَ ها هنا فقال: إنّ صاحب المنزل لا يدعنا فيه). وقال أوس بن حجر[4]:

ولستُ بخابىءٍ لغدٍ طعاماً حذارَ غدٍ لِكُلّ غدٍ طعام

قال بعض العلماء: (مِنْ أفضل الزهد الزهْدُ في الرئاسة على الناس وفي المنزلة والجاه عندهم والزهد في حبّ الثناء والمدح منهم لأن هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء فالزهد فيها هو زهد العلماء بالله). وقال بعضهم: (رأينا مَنْ زَهِدَ في الدنيا كثيراً وقلّ من رأينا [من][5] زهد في الرئاسة، وذلك أن طائفةً قد تزهد في الدنيا للرئاسة، فإذا زهد في الرئاسة فهو زهد الزهد). وقال الثوري[6]: (الزهد في الرئاسة ومدح الخلق أشدّ من الزهد في

---

(١) ـ أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور العجلي أصله من بلخ من كبار الزهاد وتوفي سنة ١٤٠ هـ. (حلية الأولياء ٧ / ٣٦٧، ٨ / ٣ ـ ٥٨، الوافي بالوفيات ٥ / ٣١٨، طبقات الصوفية ص ٢٧، وفيات الأعيان ١ / ٣١).

(٢) ـ حلية الأولياء ٨ / ٢٦.

(٣) ـ أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة بن كعب بن سفيان بن عبيد بن حرام من أعلام الصحابة وزهادهم المهاجرين، وهو أول من حيّا النبي صلىّ الله عليه وسلّم بتحية الإسلام، قدم المدينةِ وتوفي بها سنة ٣٢ هـ في خلافة عثمان. (أسد الغابة ١ / ٣٠١، حلية الأولياء ١ / ١٥٦، المعارف ١١٠، الوافي بالوفيات ١١ / ١٩٣).

(٤) ـ ديوان أوس بن حجر ص ١١٥.

(٥) ـ إضافة من المحقق.

(٦) ـ أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري (حلية الأولياء ٦ / ٣٥٦ ـ ٣٩٣، ٧ / ٣ ـ ١٤٤).

الدينار والدرهم)[١]. وكان يقول: (هذا بابٌ غامِضٌ لا يبصره إلّا العلماء)[٢].
وقال فضيل[٣]: (نقلُ الصخورِ من الجبال أيسرُ (ص ٦٧) من إزالة[٤] الرئاسة وَقَد ثَبَتَتْ في قلبِ الجاهل). وقال سفيانُ الثوريّ: (الزهدُ في الدنيا قصَرُ الأمل ليس بأكل الغليظ ولُبْسِ العَباء)[٥]. وقال بعضُهم: (ليس الزهدُ بتركِ كلّ الدنيا ولكن الزهد التهاونُ بها وأخذُ البلاغِ منها).

ولاعتماد قصدِ الزهد قال سقراط: (القُنْيةُ مخدومة ومن خدم غيرَ نفسِه فليس بحُرّ)[٦]. وفي هذا المعنى يقول أبو العتاهية[٧]:

إذا المرءُ لَمْ يعتِقْ من المالِ نفسَه[٨] تملّكــه المـالُ الـذي هو مالكُـه

ألا إنّ لي المـالَ[٩] الذي أنا مُنْفِقٌ وليس ليَ المـالُ الـذي أنا تاركُه

إذا كنتَ ذا مالٍ فبـادِرْ به الـذي يحِق[١٠] وإلّا استهلكَتْكَ[١١] مهالِكُه

وقال سقراط أيضاً: (القُنْيةُ ينبوع الأحزان فأقِلّوا القُنْية تقلّ همومكم)[١٢]. وما أعجبَ قول ذي الوزارتين الشيخ أبي عبد الله بن الخطيب رحمه الله[١٣]:

---

(١) ـ حلية الأولياء ٦ / ٣٨٧.

(٢) ـ حلية الأولياء ٦ / ٣٧٧.

(٣) ـ أبو علي الفضيل بن عياض، المذكور سابقاً.

(٤) ـ في الأصل: ازلة.

(٥) ـ حلية الأولياء ٦ / ٣٨٦، إحياء علوم الدين ٤ / ٢٢٨.

(٦) ـ الامتاع والمؤانسة ٢ / ٣٦، وورد هذا القول في ربيع الأبرار (٤ / ١٣٧) منسوباً إلى أرسطاطاليس.

(٧) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٣١٧.

(٨) ـ في الديوان: رقّه.

(٩) ـ في الديوان: ألا إنّما مالي.

(١٠) ـ غير منقوطة في الأصل.

(١١) ـ في الأصل: استهلكك، وفي الديوان: استهلكته.

(١٢) ـ التمثيل والمحاضرة ١٧٤.

(١٣) ـ انظر الأبيات في نفح الطيب ٦ / ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

أأُلـقي إلى الأيّام فَضْـلَ مقـادَتي فتـجـنـبـني ما بين كدٍّ وإرهـاقِ
وأُتْلِفُ بين الخلقِ والـرزقِ فِكْرتي ولـسـتُ بخـلاَّقٍ ولـسـتُ برزّاقِ
إذا طُويَ الإثـراءُ لي في تملُّقٍ رَضيتُ بعزِّ النفسِ في عزِّ إملاقِ

ومن أعظمِ أسبابِ الزُهدِ المعرفة بحالِ الدنيا وما هي عليه من سرعة الانقلاب، وتفريقِ[1] الأحباب، واستلابِ المال، واستحالة الحال، والتعويضِ من الجاه بالخمول، ومن السلامةِ بالابتلاء، ومن الولايةِ بالعزل، ومن الرخاء بالأَزْل[2]، والوقوف على ما ورد في ذمّها، وقد تقدم في ذلك من آيات الكتاب العزيز والأحاديث النبويّة بعضُ ما يُرْشدُ إلى الجليّة في القضية، وقول الأمير أبي الفضل الميكالي[3] بيّـنٌ في إظهار عيبِ الغِنى الذي حاصلُه الاستكثار من الدنيا: [4]

وكـلُّ غِنـىً يتـيهُ به غنيٌّ فمُـرْتَجَـعٌ بمـوتٍ أو زوالِ
وَهَبْ جدّي زوى لي الأرضَ طُرّاً أليسَ المـوتُ يزوي ما زوى لي[5]

ويُروى أنَّ عيسى عليه السلام خرج على أصحابِه وعليه جُبَّةٌ من صوفٍ وكساءٌ، وتبان[6] حافياً مجزوز الرأس[7] باكياً شعثاً مصفرّ اللون من الجوع، يابسَ الشفتين من العطش، طويلَ شَعْرِ الرأسِ[8] والذراعين والساقَيْن، فقال: السـلام عليكم يا بني اسرائيل، أنـا الذي أنزلتُ الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عُجْبَ

(١) ـ في الأصل: تفريق (دون واو العطف).
(٢) ـ الأَزْل: الضيق والشدّة (القاموس المحيط: أزل).
(٣) ـ الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي ت ٤٣٦ هـ، وقد أسلفنا التعريف به.
(٤) ـ البيتان في التمثيل والمحاضرة ١٢٨.
(٥) ـ في الأصل: زوالِ.
(٦) ـ التبّان سراويل صغيرة يستخدمها الملاحون والمصارعون.
(٧) ـ في عيون الأخبار مجزوز الرأس والشاربين.
(٨) ـ في عيون الأخبار: شعر الصدر. وهو صواب لأنه عليه السلام كان مجزوز شعر الرأس كما تقول هذه الحكاية.

ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أينَ بيتُك يا روحَ الله؟ قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، ودابّتي رِجْلي، (ص ٦٨) وسِراجي بالليل القمرُ، وصِلائي في الشتاء مَشَارِقُ الأرض، وطعامي ما تيسَّر، وفاكهتي بُقُولُ الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري الخوف، وجُلَسائي الزَّمْنَىٰ والمساكين، أُصبح وليس لي شيء، وأُمسي وليس لي شيء، وأنا طيِّبُ النفس غنيٌّ مكفيّ، فَمَنْ أغنى وأَرْبَحُ مِنّي؟!(١).

ورُوِيَ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قاز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**من أصبحت الدنيا همَّه نزع الله عزّ وجلّ الغِنى من قلبه، وصيّـر الفَقْرَ بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كُتِبَ له، ومَنْ أصبحت الآخرةُ همَّه نزع الله الفقرَ من قلبه وصيّـر الغِنى بين عينيه وأَتتْهُ الدنيا وهي راغمة**»(٢).

وفي التعجّبِ من موفِّرِ الدنيا لغيره يقول أبو العتاهية(٣):

عجبـاً من مَعْـشَـرٍ سلفـوا   أيّ غَبْـنٍ بيّـنٍ غُبِـنـوا
وفّـروا الـدنـيا لغـيرِهـمُ   أثـبـتـوا(٤) فيهـا ومـا سكـنـوا

ويُحكى أنّ في التوارةِ أوحى الله إلى الدنيا «من خَدَمَكِ فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه»(٥)، وهو قريبٌ من معنى الحديث. وقال صلّى الله عليه وسلّم: «**من أصبح والدنيا أكبرُ همّه فليس من الله وألزمَ اللهُ قلبَه أربعَ خِصال: همّاً لاينقطع عنه أبداً وشُغْلاً لايفرغُ منه أبداً وفقراً لايبلغ غناه أبداً وأملاً* لايبلغ**

---

(١) ـ وردت هذه الحكاية في عيون الأخبار ٢ / ٢٦٩.

(٢) ـ عيون الأخبار ٢ / ٣٢٧.

(٣) ـ ديوان أبي العتاهية ص ٤١٢.

(٤) ـ في الأصل: وأثبتوا، وفي الديوان: وابتنوا.

(٥) ـ في محاضرات الأدباء ٢ / ٥١٥ منسوباً إلى الرسول عليه السلام، وفي البيان والتبيين ٣ / ١٤٣، والتمثيل والمحاضرة ص ١٣ وأدب الدنيا والدين ١١٨.

* ـ في الأصل: وآمالا.

منتهاه أبداً»[1]. وذمّ بعضُ الصالحين الدنيا فقال: «دارٌ غُرِسَتْ بها الأحزان وسكنها الشيطان وذمّها الرحمن وعُوقِبَ بها الإنسان»[2]. يعني هبوط آدم عليه السلام من الجنة بذنبه. وقال عبد الله بن مسعود: «الدنيا كلُّها همومٌ فما كان مِنْها في سرور فهو رِبْح»[3]. ومّما روى العُتْبي[4] عن أبيه في وصيّة وصّاه بها «ولاتمِلْ إلى الدنيا فإنّ الله لم يَرْضَها ثواباً لمن رضي عنه ولاعقاباً لمن سخط عليه». وقال أبو الدرداء[5]- رضي الله عنه: «من هوانِ الدنيا على الله ألاّ يُعْصى إلاّ فيها ولا يُطاع إلاّ بتركها»[6].

فهذا كلّه إذا تُؤمِّل غايةَ التأمّل، وفُكِّر فيه بأحسن وجوه التفكُّر، فإنه يَسْتدعي الزهد، ويُرْشِد إلى احتقارِ زينةِ الدنيا وزخرفِها، ويُدني ما هي عليه من سُرْعَةِ التقلّب وعدم الثبوت. دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده:[7]

ما أَحَسْنَ الدُّنْيا وإقبالَها ... إذا أطاعَ اللهَ من نالَها
مَنْ لَمْ يُواسِ الناسَ من فضلِه[8] ... عرِّض للإدبارِ إقبالَها

(ص٦٩) فقال له المأمون: ما أَجْوَدَ البيتَ الأول وأما الثاني فما صَنَعْتَ فيه شيئاً

(١) - إحياء علوم الدين ٣ / ٢٠٣، كنز العمال ٣ / ٢٢٥ (حديث رقم ٦٢٦٧).

(٢) - انظر محاضرات الأدباء ٤ / ٣٨٦ - ٣٨٧ مع تقديم وتأخير.

(٣) - عيون الأخبار ٢ / ٣٣٠.

(٤) - أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله العتبي القرشي، شاعر بصري مشهور، له كتاب في الأخلاق وكان هو وأبوه سيدين أديبين فصيحين، وتوفي العتبي سنة ٢٢٨ هـ (انظر: تاريخ بغداد ٢ / ٣٢٤، وفيات الأعيان ٤ / ٣٩٨، الوافي بالوفيات ٤ / ٣).

(٥) - عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري من صحابة الرسول عليه السلام عرف بنسكه وشجاعته وتوفي في دمشق سنة ٣٢ هـ (الإصابة ٥ / ١٤٧).

(٦) - في بهجة المجالس ج٢ ص ٢٨١ (ولا ينال ما عنده إلا بتركها) وكذلك في البيان والتبيين ٣ / ١٤٣، ونثر الدرّ ٢ / ٩٤.

(٧) - ديوان أبي العتاهية ٣٧٤، المحاسن والأضداد ٩٨، وورد البيتان في محاضرة الأبرار ١ / ٣١٦ منسوبين للإمام عليّ.

(٨) - في الأغاني ٤ / ٥٣: فضلها.

الدنيا تُدْبِرُ عمّن واسى[1] منها أو ضنّ بها، وإنما يوجب السماحةُ بها الأجرَ، والضنُّ[2] بها الوزْرَ، فقال: صدقتَ يا أميرَ المؤمنين أهلُ الفضل أوْلى بالفضل، وأهلُ النقصِ أوْلى بالنقص، فقال المأمون. يا أبا ثابت* ادفع إليه عَشْـرَةَ آلافِ درهم لاعترافه بالحقّ. فلما كان بعْدَ أيّام عاد فأنشده:[3]

كم غافـلٍ أودى به اَلمـوْتُ	لم يأخـذِ الأُهْـبـةَ للفَـوْتِ
من لم تَزُلْ نِعـمـتُـه قَبْـلَهُ	زالَ عن الـنِـعْـمَـةِ باَلمـوْتِ

فقال له: أحسنتَ، الآنَ طبقت* المعنى. وأمر له بعشرة آلاف درهم[4].

وإنّ ما قصدت من هذه الحكاية البيتين الأخيرين، فإنّ فيهما من معنى التسليةِ عن زَوالِ النعمةِ ما لا شيء فوقه.

ومن المحقَّقِ أنّ النعمة إن لم تزُلْ بنفْسِها عن المنعَم بها عليه لا بدّ له من الموت. والمبالغة في هذا الباب لا تردّ أمثالنا ممّن ابتُلِيَ بحبّ هذه العاجلة إلى اعتدال بوجه، لغلبة ميل النفوس إليها على إيثار الحق، وقبول مقتضى العقل. ومثل قول كسرى اردشير[5] فيما كتب به إلى عمّاله من رسالة: «ولا تعدّوا هذه الحياة الدنيا شيئاً فإنها لا تبقي على أحد، ولا ترفضوها[6] مع ذلك، فإنّ الآخرة لا تتمُّ إلّا بها»[7]. ومثل قول عمر ـ رضي الله عنه: «ليسَ خَيْـرَكم

---

(١) ـ هكذا في الأصل وفي الأغاني.

(٢) ـ في الأصل: الظنّ

* يا أبا ثابت: ليست في الأغاني.

(٣) ـ انظر البيتين في ديوان أبي العتاهية ٩٤، الأغاني ٤ / ٥٣.

* ـ في الأغاني: طيّبتَ.

(٤) ـ في الأغاني: بعشرين ألف درهم. وردت الرواية في الأغاني ٤ / ٥٣.

(٥) ـ هو اردشير بن ساسان من ابنة بابك. ترجمت له في حاشية سابقة.

(٦) ـ في الأصل: تفرضوها.

(٧) ـ زهر الآداب ٢ / ٥٤٥، عين الأدب والسياسة ص ٢٨١، وتاريخ غرر السير للثعالبي ص ٤٨٢.

من عمِل للآخرةِ وتَرَكَ الدنيا، وعمِل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خَيْرَكُمْ من أخَذَ مِنْ هذه ومِنْ هذه»[1]. ومثل قولِ الشمّاخ[2] مأخوذاً مأخذ الحِكمة[3]:

لمـالُ المـرءِ يُصْلِحُـه فيُغْني[4] مفـاخـرة[5] المحبّ[6] من القَنوع

ومثل قول بعض الحكماء لابنه: يا بني احفظ المال فإن الرجل إذا افتقر اتهمه من كان يحسن الظنَّ به، فإن كان شجاعاً سُمِّيَ أهوج وإن كان جواداً سُمِّيَ مفسداً، وإن كان حليماً سُمِّيَ ضعيفاً، وإن كان وقوراً سُمي بليداً، وإن كان صَموتاً سمي عيِّاً، فالموتُ خيرٌ له من الفقر»[7]. ويشبه هذا قول خالد ابن صفوان[8]: «اطلبوا الغنى فإن الفقرَ مجمعةٌ للعيوب»[9]. ونظيره قول الآخر:[10]

---

(١) ـ عين الأدب والسياسة ص ٢٠٧، وفي بهجة المجالس ٢ / ٢٨١ منسوبة إلى حذيفة بن اليمان.

(٢) ـ هو الشماخ بن ضرار الغطفاني ويقال اسمه «مَعْقِل» شاعر مخضرم وهو أوصف الشعراء للقوس والحمر (الأغاني ٩ / ١٥٨، الشعر والشعراء ١٧٧).

(٣) ـ ورد البيت في بهجة المجالس ١ / ١٩٧، ديوان الشمّاخ ٢٢١، البخلاء للجاحظ ١٣٤، وحماسة البحتري ٢١٦.

(٤) ـ في الأصل: فيغنى.

(٥) ـ في الأصل: مفاخره.

(٦) ـ في الأصل: الحب

(٧) ـ عين الأدب والسياسة ١٤٨، بهجة المجالس ١ / ٢٠٩، عيون الأخبار ١ / ٢٣٩، محاضرة الأدباء ١ / ٥٠٣.

(٨) ـ أبو صفوان خالد بن صفوان (انظر بعضاً من ترجمته في الكامل للمبرد ٢ / ٥٥٦ ـ ٥٥٩ ط. مؤسسة الرسالة).

(٩) ـ التمثيل والمحاضرة ٣٩٥.

(١٠) ـ انظر البيتين في: عين الأدب والسياسة ١٥٠، بهجة المجالس ١ / ٢٠٩، الآمل والمأمول ٤٦ (مع بعض اختلاف)، روضة العقلاء ٢٢٦، الغيث المسجم ١ / ٢٢٠.

ألم تعلمي أن الغِنى يجعلُ الفتى سنيّاً وأن الفقرَ بالمرءِ قد يُزْري
فمـا رَفَعَ النفسَ الوضيعةَ كالغِنى ولا وَضَـعَ النفسَ الـرفيعة كالفقر

وقال أبو اليقظان: «ما ساد مملِقٌ قطّ إلّا عتبةُ بن ربيعة مُـخْبرك بأنّ السيادةَ مواد المال»(١). وقد ذَكَرَ نظيرَ هذا المعنى ابنُ المعتزّ رحمه الله فقال(٢):

إذا كنـتَ ذا ثروةٍ من غِنـىً فأنتَ الـمسـوَّدُ في الـعَـالَـمِ
وحـسـبُـك من نَسَـبٍ صورةٌ تخـبِّـرُ أنّـك مِنْ آدَمِ

وكلّ ما يندرج في هذا المعنى من الغبطة بالمال مما لم يغفل عنه، وهذا إن احتَجَجْنا به وادّعينا (ص ٧٠) أنّا نعتمده فإنّ ذلك يُفْضي بنا إلى أشدّ ما يكـون من حبّ الـدنيا والاغتباط بها، لتعدّينا السبيلَ الأوسط في تسبّبها، وخروجنا(٣) عن الحدِّ المحدودِ في اقتنائها. وأما الكلامُ الواردُ عن عمر وما سبقه وما ردّ به في نفسه فهو الحقُّ الواضح الذي ينبغي أن يعتمده من أراد عمارة الدنيا على ما أجرى الله من سنّته في خَلْقه دونَ من برّز في الزهد وأخذ نفسه مآخذ(٤) الخواصّ في الصلاح.

كما أن الكلام عن بعض الحكماء بِحفظِ المال وما بعده من ذمّ الفقر مما يمكن الجمع بينَهُ وبين طلب الزهد وإن كان بظاهره مُنافياً له، فقد تعوّذ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم من الفقر(٥) وهو رأسُ الزاهدين يدلّ ذلك على إمكان الجمع، ولكن الأَوْلى المبالغةُ في الحضّ على الزُهد. فإن طَبْعَ الناسِ لاسيّما في هذه الأزمنة قد جاوز الحدّ في التناغي في إيثار العاجلةِ وتركِ الإقبال على

(١) ـ بهجة المجالس ١ / ١٩٨، عيون الأخبار ١ / ٣٤٣.

(٢) ـ ورد البيتان في عين الأدب والسياسة ١٥٠ غيرَ منسوبين، وفي بهجة المجالس ١ / ٢٠٨ منسوبين ليحيى بن حكم الغزال، ووردا أيضاً في ديوان ابن المعتز ٤١٤.

(٣) ـ في الأصل: وخروجها.

(٤) ـ في الأصل: مما خذ.

(٥) ـ صحيح مسلم ٨ / ٧٥ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «اللهم فإني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار وفتنة القبر وعذاب القبر ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر...».

الآخرة. قال الله تعالى: ﴿بَلْ تحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ ﴿وتَذَرُونَ الآخِرةَ﴾(١). وإذا كان الخطابُ بهذا وارِدَ العُموم بالآيةِ فنحنُ الأحقُّ بما يُفْهَمُ منه من الإنكار وأوْلى بالدخول تحت هذه الترجمة من كثيرٍ ممّن سبقنا، حسبما أرشَدَتْ إليه الأحاديثُ الصحيحةُ الدّالةُ على انتقاصِ الخير وازديادِ الشرّ.

وإلى ما أُشِيرَ إليه من سنّة الله في خَلْقِهِ يُرْشِدُ ما قال بعضُ السائحين قال: «قلتُ لبعضِ الأبْدال وقد جرى ذكرُ أكْلِ الحلال: إنكم تَقْدِرون على أكْلِ الحلال ولا تُطْعِمونَه إخوانكم من المسلمين فقال: لا يصلح لجملةِ الخَلْق ولم نُؤْمر بذلك لأنهم لو أكلوا أكْلَهُم حلالاً لبطلت المملكةُ وتعطّلت الأسواقُ وخرِبت الأمصارُ ولكنّه في قليلٍ من الخَلْق وخصوص في مخصوص». أو معنى هذا الكلام. ولست بغافلٍ عن معنى قول الجمّاز(٢):

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ	يزهّد الناسَ ولا يزهدُ
لو كان في تزهيده صادقاً	أمسى وأضحى بيتَه المسجدُ
يخاف أن تَنْفَدَ أرزاقُه	والرزقُ عند الله لا ينفَدُ
الرزقُ مقسومٌ على ما ترى	ينالُه الأبيضُ والأسودُ(٣)

ولكنَّه قد سَبَقَ الاعتذارُ عن ذلك في أوّل الكتاب عند الحضّ على التقوى فليتذكر له.

---

(١) ـ الآيتان ٢٠ ـ ٢١ من سورة القيامة.

(٢) ـ اسمه محمد بن عمرو بن حمّاد بن عطاء وهو ابن أخت سلم الخاسر، وكان الجمّاز صديقاً لأبي نواس، كان حلو النادرة والحكاية لذلك أصبح من جلساء المتوكل العبّاسي. توفي في حدود ٢٥٠ هـ. (انظر: قطب السرور في أوصاف الخمور لأبي اسحق ابراهيم المعروف بالرقيق النديم ص ٢٠٦، الوافي بالوفيات ٤ / ٢٩١، زهر الآداب ١ / ٢٠٥، معجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣١، وفيات الأعيان ٧ / ٧٠، تاريخ بغداد ٣ / ١٢٥).

(٣) ـ انظر هذه الأبيات في: وفيات الأعيان ٢ / ٣٥٢ (والمقطوعة في الوفيات من ستة أبيات).

وإذا سلمت هذه المقدّمة واعتمد معها ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم من قوله: «**انظروا في الدنيا لمن دُونَكم* ولا تنظُروا إلى مَنْ هو فوقكم فهو أجْدَرُ ألّا تزدروا نِعْمةَ الله عليكم**»[1] ففي الحديث الكريم لمن التزمَ العملَ بمقتضاه ما يُريحُ القلبَ والنفسَ ويمكّن الرضا والزهد. وبعد ذلك النظر، فإنه ينبغي أن يتحفّظ بالمال من إضاعته بالانقياد لدواعي الشهوات، ويرغب عن إنفاقه في وجوه السفاهات؛ فالتمحيص (ص ٧١) اللاحق من هذا الباب شرُّ التمحيصات. والأسفُ فيه يعظُمُ باعتبار ما يجرّ تَلَفُه من التباعات.

لهذا المعنى كتب البديع[2] إلى رجل يعزّيه عن أبيه: «وَصَلَتْ رقعتُك ـ أعزّك الله ـ معرّفاً بوفاة الشيخ ـ رحمه الله ـ والعزاءُ على الأعزّ رُشْدٌ كأنه الغيّ*، وقد مات الميت فليحْيَ الحيّ، والآن فاشْدُدْ على مالك بالخَمْس، فلستَ اليوم كعهدِك بالأمس[3]، قد كان ذلك الشيخ وكيلك[4]، يضحك[5] ويبكي لك، وقد موّلك ما ألّفه من سَـراه وسَيْره، وخلفك فقيراً إلى الله تعالى غنياً عن غَيْره، وسيعجم الشيطانُ عودَك، فإن استلانه رماك بقوم يقولون خير المال خير ما أُتلف بين الشراب والشباب، وأنفق بين الحَبابِ والأحْباب، والعيشُ من

---

* ـ في كتاب الزهد للإمام ابن حنبل: انظروا إلى من هو أسفل منكم...

(١) ـ كتاب الزهد للإمام ابن حنبل ص ٥٩، الفتح الرباني ج ١٩ ص ١٠٠.

(٢) ـ بديع الزمان الهمذاني أبو الفضل أحمد بن الحسين ت ٣٩٨ هـ صاحب المقامات. (يتيمة الدهر للثعالبي ٤ / ٢٥٦، معجم الأدباء لياقوت ٢ / ١٦١، وفيات الأعيان ١ / ١٢٧).

* ـ مطلع هذه الرسالة كما ورد في زهر الآداب للحصري ٤ / ١١٥٠:

«وصلت رقعتك يا سيّدي، والمصاب لعمر الله كبير، وأنت بالجزع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغيّ...».

(٣) ـ في زهر الآداب: فأنت اليوم غيرك بالأمس.

(٤) ـ في زهر الآداب: وكان الشيخ ـ رحمه الله ـ وكيلك.

(٥) ـ في زهر الآداب: تضحك.

الروح والراح[١]، والقِداح والأقداح، ولولا الاستعمال، ما أريد المال، فإن أطَعْتَهُمْ فاليومَ في الشراب، وغداً في الخراب، واليوم بآطربا للكاس[٢]، وغداً واحَرَبا للإفلاس، (يا مولاي ذلك الخارجُ من العود يسمّيه الجاهلُ نقْرا، ويسمّيه العاقل فقْرا، وذلك المسْموع من الناي وهو في الآذان زَمْر وفي الأبدان قمر)[٣]، وإن لم يجد [الشيطان][٤] مغمزاً من هذا الوجه رماك بآخرين يمثّلون الفقرَ بين عَيْنَيْك، فتجاهد نفسك وتحاسب بطنك[٥]، فقصداً بين الطريقين وميْلاً عن الفريقين، ولا مَنْعَ ولا إسراف، والبخل فقرٌ خاص[٦] وضُرٌّ عاجل، وإنما يبخلُ المَرْءُ خيفةَ ما هو فيه[٧]، ولله في مالك قِسْط[٨]، وللمروءةِ قِسْم، فصِلْ الرحمَ ما استطعت وقدِّرْ إن أقطعت[٩]، وأن يكون إلى جانب التقدير خيراً من أن يكون إلى جانب التبذير[١٠]، والسلام» انتهت[١١].

---

(١) ـ في زهر الآداب: والعيش بين القداح والأقداح.

(٢) ـ في زهر الآداب: واليوم واطربا للكاس.

(٣) ـ ما بين القوسين ورد في كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن لأبي منصور الثعالبي ص ١١٩ وهذا نصه: «يا مولاي ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ويسميه العاقل فقرا، وذلك الخارج من الناي هو اليوم في الآذان زمر، وهو غداً في الأبواب سمر» وفي زهر الآداب: وفي الأبواب سمر.

(٤) ـ زيادة من زهر الآداب ٤ / ١١٥١.

(٥) ـ في زهر الآداب: فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتتوقى دنياك بوزرك وتراه في الآخرة في ميزان غيرك.

(٦) ـ في زهر الآداب: حاضر.

(٧) ـ ورد بعد ذلك في زهر الآداب ما نصّه:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي صنع الفقر

(٨) ـ في زهر الآداب: وليكن لله في مالك قسم.

(٩) ـ في زهر الآداب: وقدّر إذا قطعت.

(١٠) ـ في زهر الآداب: فلأن تكون في جانب التقدير خير من أن تكون في جانب التبذير.

(١١) ـ وردت الرسالة في زهر الآداب ٤ / ١١٥٠ ـ ١١٥١.

وقد بان هذا الحدُّ الوسطُ الذي هو أقرب، ولعمومِ الناس أنسب، إذا تُؤمِّلَتْ مع ما سبق في الزهد من الكلام.

ولنعد إلى موضع الصورة؛ فإن كان الابتلاءُ في مالٍ تحيّفَتْهُ الخسارة، أو طرقَتْهُ الإضاعة، أو اختلَسَه سارق، أو اعتدى عليه غاصِب، فإنّ الصبرَ والتجمُّلَ في هذا الحال من آكدِ ما يستعمله المبتلى، ولذلك يقول عليّ بن الجهم[1]:

وعــاقبـةُ الصبـرِ الجميلِ جميلةٌ وأفضـلُ أخـلاقِ الرجالِ التفَضُّلُ
ولا عارَ أنْ زالت عن الحرِّ نعمةٌ ولـكنّ عاراً أن يزولَ التجمُّـلُ[2]

والاستغناءُ بما بقي عمّا ذهب فَتْحُ بابٍ للتسلّي كبير، ومظهرُ حزمٍ للاستراحة من فقد ما رُزِىء فيه عجيب.

وكما أن الابتلاء في هذه المُقْتَنَيات من قِبَلِ الحوادث الدنيوية عظيم، واستدفاعها عنها أكيد، فكذلك الابتلاءُ فيها من قِبَلِ الحوادثِ الدينيّة[3] أعظم، واستدفاعه عنها آكد، كقضية هذا الربا الداخلِ على (ص ٧٢) كل أحدٍ في مكسوبه من أجْلِ الدراهم المغشوشةِ الجاريةِ كانت فيما سلف عن هذا الوقت

(١) - أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر من ندماء المتوكل الخليفة العباسي، حبسه المتوكل ونفاه إلى خراسان بسبب كثرة سعايته بين الناس وسوء طبعه، وقتل في طريقه متوجهاً من بغداد إلى الشام سنة ٢٤٩ هـ (الأغاني ١٠ / ٢٠٣ - ٢٣٤، تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧، معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٨٦، طبقات ابن المعتز ٣١٩، وفيات الأعيان ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٨).

(٢) - انظر البيتين في ديوان علي بن الجهم ص ١٦٣ (تحقيق خليل مردم بك / بيروت، ١٩٨٠م)، طبقات ابن المعتز ٣٢١، ومعجم الشعراء ص ٢٨٦.
وورد البيت الثاني في الفرج بعد الشدة ٥ / ٦٤.

(٣) - في الأصل: الدنيوية.

منذ زمان يسير، ومن أجْلِ هذا الذَّهَب الأبيض المغشوشِ الجاري إلى الآن، فإنّ هذه نازلة كبيرة، وفادِحةٌ عظيمة، لَمْ يَسْلَمْ من شرِّها أحد، ولا أظنّه نجا منها في هذا الوطن بَشَـر، وبها تبيّن ما نقله أبو عمرو الداني[1] عن أبي هريرة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: «**يأتي على الناسِ زمانٌ يأكل الناسُ فيه الربا. قال: قالوا: فالناس كلُّهم؟ قال: مَنْ لم يأكُلْه ناله من غباره**»[2]. فتأمَّلْ هذا الحديث مع الواقع في هذه الأزمنة في السِكّة، فإنه مطابق له، وفي ذلك من الابتلاء في الدين ما نسأل الله العافية منه، ونضرعُ إليه في الخلاص من معرّته، والنجاةِ من مضرّته.

وإن من أعظمِ الابتلاء العامّ الإصابة، الشاملِ العقوبة، لَهَذا الجرادَ المنتشرَ اللاحقةَ غائلتُه شرقيَّ هذا الوطن في هذا العام، الذي هو عام اثنين وخمسين وثمانِ مائة الـمُرْتَقَبَةَ[3] مضرَّتُه في العام الـمُسْتَقْبَل، عسى الله أن يكفيها بدفاعٍ من لدنه، فربّما عجزت القدرةُ البشرية عن مقاومته. وقد أطبق الناقلون على أنه من تفاوُتِ كثرته آيةٌ من آيات الله. وتبيّـن للعقول من عيثه وإضراره أنه عِقابٌ مُرْسَل، وجُنْدٌ من جنود ربّك، التي لا يعلمها إلّا هو، مسلّط. فتحدّثَ أهلُ وادي آش[4] وحصون سندها، وأهل بسطة[5] وحصون حفرتها، وأهل بيرة[6] ووادي منصورتها[7]، أنه هالتهم كثرتُه، وقطعوا بإعواز مدافعته، وجزموا بالعجز

---

(١) ـ هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الأموي الداني نسبة إلى مدينة دانية في الأندلس، ولد سنة ٣٧١ هـ وألف كتباً مشهورة في التجويد والقراءات منها كتاب المقنع وكتـاب التيسير، توفي بدانية سنة ٤٤٤ هـ (انظر: نفح الطيب ٢ / ١٣٥، ومعجم الأدباء ١٢ / ١٢٤).

(٢) ـ انظر سنن النسائي ٧ / ٢٤٣، ومسند ابن حنبل ج٢ ص ٤٩٤.

(٣) ـ في الأصل: المرتنبة.

(٤) ـ بالاسبانية Guadix وتقع إلى الشرق من مدينة غرناطة.

(٥) ـ بالاسبانية Baza وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة.

(٦) ـ بالاسبانية Vera وتقع شمال شرقي مدينة المرية.

(٧) ـ بالإسبانية Gueyas de Almanzora وهي مجاورة لبيرة إلى الشمال الشرقي من المرية.

عن مكافحته، ورقبوا منه في حال مروره من مغابن الأرض، حيث ذرأ[1] السابقُ لعامهم هذا نسلَه، وخلف[2] من قرارات الصعيد[3] مستودع . . . .[4]، فكانت تلك الفجاج الفِيحُ تموجُ بهم مَوْجاً، وما على وجه الأرض من عشب أو نبات يُسْتَأْصَلُ بسارحه أكلاً، وهي ترجف تلقاءَ مثارات الحرث، وأخمال الاعتمار، ومنابت الزرع، ومطارح البذر، إلى أن شارف انتسافه، وهو لا يُبقي ولا يَذَر مما سيقه[5] من العشب، ومرّ عليه من النبات كثيراً ولا قليلاً، وإنما يَذَرُ الأرضَ بعده جرداء كأنها لم تنبت في عامها خضرا. فهنا انقسم المبتلون به إلى قسمين: فمِنْ آخذٍ بالحزم ممتثلٍ في دفعِ هذا الحيوانِ المؤذي نَدْبَ الشرع، كأهلي بسطة وأهل أُشْكَر[6]، فإنهم أخذوا في دفْعِ هذا الحيوان بأقصى العزم، شمّروا في قتله ودفعِ أذاه عن ساعد الجدّ، فخدّوا له أخاديد اضطروه إلى الهُوِيّ فيها، ودكدكوا عليه بالأرجل، وألجؤوه[7] إلى الأنهار المقمعة بالماء[8]، ثم يستخرجون ما احتمله تيارُها بغرابِلِ الزرْع، فيطرحونها في تلك الأخاديد، (ص ٧٣) سالكين فيه سبيلَ ما اضطروه إليه من دَوْسِهِ بالأرجل، وإهلاكه بما أمكن من حَثْوِ التراب عليه، وبما يناسب ذلك، وتراكم عندهم من ذلك المدوس بالأقدام أكوام تُغولِيَ في أثمانها للتدمين[9]، فبلغت زهاء أربعة آلاف حِمْل بالتخمينِ والحَدْسِ المأخوذ فيها بالاحتياط، حَسْبَما ثبتَ بذلك رسمٌ شرعيٌّ

---

(١) ـ ذرأ الأرض: بذرها (القاموس المحيط: ذرء).

(٢) ـ في الأصل: حلف.

(٣) ـ الصعيد: وجه الأرض، والقرارات جمع قَرارة وهو المطمئن من الأرض.

(٤) ـ فراغ في الأصل مقدار كلمة واحدة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ بالإسبانية Huescar وتقع هذه البلدة شمال بلدة بسطة وإلى الشمال الشرقي من مدينة غرناطة.

(٧) ـ في الأصل: وألجوه.

(٨) ـ لها منافذ يجري من خلالها الماء.

(٩) ـ التدمين: سرقنة الأرض أي تسميدها.

شهِدَهُ العدول، وورد على الحضرة تحت خطاب مستخلِف قاضيها، فكان في ذلك عبرةٌ لمن شاهده او سمع به. ومثلُ ذلك كان الواقع بأُشْكَرِ، فقد ورد من قائِدِها تعريفٌ يتضمن أنّهم فتحوا لقتلها أربعاً وعشرين ساقية اخرى حاجزة لها دونه ثم يقتلونها بغرابيل الزرع كما تقدم عن أهل بسطة، ولا يزالون كذلك إلى أن تغلبهم وتجوزَ الساقيةَ راجعةً إلى منابت الزرع، وهم ينتقلون أمامها إلى أن تمّ قتلُهم لها على رأسِ الرابعة والعشرين من السواقي، وإذ ذاك كفى الله شرَّها، وتمَّ - على ضعْفِ هؤلاء المدافعين لها - قتلُها. ومِن مُلْقٍ باليد مستسلِمٍ للعجز كأهلِ وادي آش وسَنَدِها وأهل بيرة وما يرجع إليها وكثيرٍ من أهل وادي المنصورة وبعض حصون بسطة فإنهم استكثروها وألقى الشيطانُ في قلوبهم أنّها جندُ الله الذي لا يُدافَع، فكادت تستأصِلُ جُلَّ الأقوات وتُلْحِقُ الأحياءَ من عدم الطُعمةِ بالأموات، إلّا أنّ لُطْفَ الله للجميع مُتَعرَّف، وفَضْلَه مُتَعَوَّد، والأوّلون جنوا ثمرة أسبابهم الظاهرةِ المشروعية، والآخرون لا بدّ أنْ تداركهم لُطْفٌ من الله أَسْأَرَ [1] لهم مِنْ مُزْدَرَعِهِمْ يسيرا يتبلّغون به إلى ما شرعوا فيه من عمل الذرة والاستكثار من عمل ازدراع التلف[2] فضلاً من الله ونعمة وهذه عريقة في هذه الصورة الثانية، وما يُرْتَجى من الله دفعه من المتوقَّعِ في السنةِ المقبلة بالحضرةِ وجهاتِها متّجه التسطير في الصورة الأولى، وعسى الله أن يمنَّ بدفعه ويهيء الأسبابَ الموجبة لِصَرْفه.

ونرجِعُ إلى ما كنّا بصدده من سرْدِ الحكايات في هذا المعنى المبوّب له، قال الواقدي[3]: كنتُ خياطاً[4] بالمدينة، في يدي مائةُ ألفِ درهم أُضارِبُ

(١) - أسأر: أبقى (القاموس المحيط: سأر).

(٢) - كذا في الأصل ولعلها: التالف.

(٣) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) له مؤلفات تاريخية، وكان مقرباً من الخليفة المأمون، (مروج الذهب للمسعودي ٤ / ٣٣، تاريخ بغداد ٣ / ٣، معجم الأدباء ١٨ / ٢٧٧، ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ٤٠٤ - ٤٠٧، وفيات الأعيان ٤ / ٣٤٨ - ٣٥١).

(٤) - في تاريخ بغداد: حناطا (أي يتاجر بالحنطة).

بها، فتَلِفَتْ الدراهم، فشخصْتُ إلى العراق، فقصدتُ يحيى بن خالد[١] فسألني من أنت[٢] وما قضيَّتُك[٣]؟، قال: فأخبرته، قال: فأمر لي بأربعةِ آلافِ دينار ومائتيْ ألفِ درهم وقال: لتقضِ دَيْنك بمائة ألف وتُصْلح شأنَك بالباقي، ثم قال: يا غلام اعطِهِ الدارَ الفلانيّة وافرش له الفرشَ الفلانيّ، وقال: الزمني فكُنْ في داري فقلت: أعزّ الله الوزير لو أذِنْتَ لي بالشخوص إلى المدينة لأقضيَ الناس أموالَهم وأعودَ إلى حضرتك كان ذلك (ص ٧٤) أرفقَ لي؟ فقال: قد فعلت، وأمر بتجهيزي، فشخصت إلى المدينة فقضيتُ ديْني ثمَّ رجعتُ إليه فلم أزَلْ في ناحيته»[٤]. انتهى.

وهذا مِنْ جميلِ صُنْعِ الله في جَبْرِ ما ضاع بأفضلَ منه، وخلفِ ما فاتَ بأحسنَ منه.

ولِمَنْ سَمَتْ مقاماتُهم في الفضلِ والصلاح أحوالٌ في عدم الاكتراث لفقد هذه القنية الخسيسة تَعْجَبُ بحقٍّ منها، وفي الوقوف عليها تخفيفٌ على من ابتُلِيَ من ذلك بشيء يعظُمُ وَجْدُهُ بفقده.

كما رُوِيَ أنّ الربيع بن خُثَيْم[٥] سُرِقَتْ له فرسٌ وهو يصلّي قيمتُها عشرون

---

(١) ـ هو أبو الفضل يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد، ولما قتل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي ونكب البرامكة حبس يحيى في الرافقة على شاطىء الفرات وظل يحيى في الحبس حتى مات سنة ١٩٠ هـ (انظر: تاريخ بغداد ١٤ / ١٢٨، مروج الذهب ٣ / ٣٩٣، وفيات الأعيان ٦ / ٢١٩ ـ ٢٢٩).

(٢) ـ هناك زيادة في تاريخ بغداد مقدار أربعة أسطر.

(٣) ـ في تاريخ بغداد: قصتك.

(٤) ـ انظر القصة مفصلة في تاريخ بغداد ٣ / ٤ ـ ٥.

(٥) ـ هو أبو يزيد الربيع بن خثيم واختلف في اسمه، فبعضهم يقدم الياء على الثاء، كان من النساك وأهل البيان وأورد له الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عدة أقوال (البيان والتبيين ٢ / ٨) وكذلك فعل صاحب العقد وصاحب عيون الأخبار، توفي سنة ٦٣ هـ (انظر ترجمته في حلية الأولياء ٢ / ١٠٥، تهذيب التهذيب ٣ / ٢٤٢، صفة الصفوة ٣ / ٥٩).

ألفاً، فلم يقطع صَلاته ولا انزعج فأتاه قومٌ يُعَزُّونه، فقال: كنتُ فيما هو أحبُّ إليّ منها. فجعلوا يَدْعونَ على السارِق، فقال: لا تفعلوا فإنّي قد جعلتُها صدقة، قيل: فلو جاءك بها؟ قال: لم أكن لآخذها، فإنّي كنتُ قد أحللْتُها له[1].

وسُرِقَ إزارُ سفيانَ الثوريّ[2] في الحرم، فجعل يبكي، فقيل له: ممّ بكاؤك؟ فقال: شفقةً على آخِذِه في الوقوف معه غداً بين يديْ الله تعالى، ثم قال: اللهم استُرْنا في الدنيا والآخرة واجعلْهُ منّي في حِلّ. انتهى.

ونمطُ هؤلاء نمطٌ عالٍ، وأفعالُهم غيرُ متّفقةٍ بما عندنا مِن أفعال، وحسبُنا أن نتبرَّكَ بهم وأنْ ندعوَ الله أن يصلَ شَبَبَنا بسَبَبِهم. ومن آكدِ ما يجبُ على من ابتُلي بشيءٍ من هذه التمحيصات عدمُ التشكّي من ذلك؛ فإنّ التشكّي من بابِ عدمِ الرضا. وقبيحٌ بالعبدِ أن يُكثِرَ التشكّيَ بربّه، ويبوحَ بسرّه لِمَنْ لا يَقْدِرُ على كشفِ كَرْبِه، ولذلك يقول ابنُ جُبَيْر[3]:

عليكَ بكتمانِ المصائبِ واصطبرْ ... عليها فما أبقى الزمانُ شَفيقا
كفاكَ من الشكوى إلى الناسِ أنَّه ... يسرُّ عدوّاً أو يَسُوءُ صديقا[4]

(١) ـ انظر القصة مع بعض الاختلاف في حلية الأولياء ٢ / ١١١، صفة الصفوة ٣ / ٦١.

(٢) ـ هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من أهل الكوفة، محدث وزاهد مشهور، ولد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ١٠٠ هـ، وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ (انظر الفهرست ٢٨١، المعارف ٤٩٧، حلية الأولياء ٦ / ٣٥٦ ـ ٣٩٣، ٧ / ٣ ـ ١٤٤، تاريخ بغداد ٩ / ١٥١).

(٣) ـ هو الرحالة الأندلسي الشهير محمد بن أحمد بن جبير الكناني، كان من أدباء غرناطة البارعين في زمن الموحدين، ارتحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ثلاث مرات الأولى سنة ٥٧٨ هـ وصنف بعدها رحلته المشهورة، والثانية سنة ٥٨٥ هـ بعد أن فتح صلاح الدين القدس، أما الثالثة فانطلق اليها من سبتة بعد موت زوجته عاتكة، وقد درس على عدد كبير من علماء الأندلس والمغرب والاسكندرية والمشرق، كان مولده ببلنسية سنة ٥٣٩ هـ وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ (انظر الإحاطة ٢ / ٢٣٠ ـ ٢٣٩).

(٤) ـ البيتان في الإحاطة ٢ / ٢٣٧.

ومسرّةُ العدوِّ ومساءةُ الصديقِ هو أقلُّ ما يُثْمِره التشكّي إلى المخلوق؛ وفي الذي يُلقَى في ذلك يقولُ الشيخ أبو الوفاء بنُ عقيلٍ الحنبليّ أو غيرُه:

لا تَشْكُونَّ لعاذرٍ أو عاذلٍ حالَيْكَ في السرَّاءِ والضَرَّاءِ
فلِرحمةِ المتوجِّعين مرارةٌ في القلبِ مثلُ شماتةِ الأعْداء

فإنْ كان مع التشكّي تأميلُ غير بابِ الله في دفعِ ما لحق، ورجاءُ سوى القادرِ على كلِّ شيءٍ في صَرْف ما دَهَم، فهنالك يضِلُّ السَّعيُ ويخيبُ القصد...(1) (ص ٧٥) قال.....(2) بن نصير: كنتُ في مجلسِ يزيدِ بن هارونَ الواسطيّ(3) وقد نَفِدَت نفقتي في بعضِ الأسفار، فقال لي بعضُ أصحابِ الحديث: مَنْ تؤمِّلُ لِما نَزَلَ بك؟ فقلت: فلاناً، كأني عَنَيْتُ يزيدَ ابن هارون. فقال: إذاً لا تُقضى حاجتُك ولا تنجحُ طِلبتُك قلت: وما عِلْمُك؟ قال: إني أجد في بعض الكُتُب أنَّ الله عزَّ وجلّ يقول: **«وعزّتي وجلالي، وارتفاعي على مكاني، لأقطعنَّ أمل كلّ مؤمِّلٍ أمَّلَ غيري باليأس، ولألبسنّه أثوابَ المذلّةِ بين الناس، ولأُقْصِيَنّه(4) من قُرْبي، ولأباعِدنّه من فَضْلي، أيؤمِّلُ غيري في الشدائدِ والشدائدُ بيدي وأنا الحيّ؟! ويرجو غيري ويطرُقُ بالبُكَر بابَ غيري والأبوابُ ومفاتحُ الأبوابِ بيدي وبابي مفتوحٌ لمن دعاني؟! مَنْ الذي أمّلني لنوائبه فقطعتُ به دونها؟! مَنْ الذي رجاني لعظيم جُرْمه فقطَعْتُ رجاءه؟! من الذي قرعَ بابي ولم أفتح له؟! جَعَلْتُ آمال عبادي بي متّصلة فقطعوها وجعلتُ أرجاءهم مذخورةً عندي فلم يرضوا بحفظي، وملأتُ سمائي ممّن لا يملّون من ذكري وأمرتُهم ألّا يغلقوا الأبوابَ بيني وبينَ عِبادي، فلم يثِقْ الأدنيون(5) بقولي، ألا يعلم من طرقَتْه نائبةٌ مِنْ نوائبي أنّه لا يملكُ كَشْفَها**

(1) ـ بياض في الأصل مقدار كلمتين.

(2) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

(3) ـ أبو خالد يزيد بن هارون الواسطي السلمي ولاءً. من حفاظ الحديث، توفي سنة ٢٠٦ هـ (تاريخ بغداد ١٤ / ٣٣٧).

(4) ـ في الأصل: ولأقضينّه.

(5) ـ هكذا في الأصل.

إلاّ مِنْ بَعْدِ إذني؟! ما لي أرى عبدي مُعْرِضاً عنّي أُعطيه بجودٍ منّي فلم يسألني، ثمّ انتزعتُه منه فلا يسألني ردّه؟! أفتراني أبتدىء بالعطيّةِ قبل المَسْألة ثمّ أُسْأَلُ فلا أجيب؟! يا سائلَ غيري أبخيلٌ أنا فَيُبَخِّلَني عبدي؟! أليسَ الدنيا والآخرةُ لي؟! أليسَ الجودُ والكرمُ لي؟! أليس الفضلُ والرحمةُ لي؟! أنا محلُّ الآمال فمن يُعْطيها[1] دوني؟! وما عسى أنْ يؤمِّلَ المؤمِّلون لو جمعتُ أهلَ سمائي وأرضي ثم أَعْطيتُ كلَّ واحدٍ منهم ما أمّل الجميعُ ما نَقَصَ ذلك من مُلكي، وكيف يَنْقُصُ مُلْكُ أنا قيِّمهُ! فيا بُؤْسى للقانطين من رحمتي، ويا بؤسىٰ لمن عصاني، وتوثّب على محارمي، ولم يستحْيِ منّي» فقلت: يرحمُك الله أمْلِ عليّ هذا الكلام، والله ما أكْتُبُ شيئاً بعده. فأملاه[2] عليّ، وما كتبتُ شيئاً بعده. انتهت.

وهذا المقام وإنْ كان كما نبّه عليه غيرَ ما مرّة أعلى مِنْ مقامِنا، فإنّ اللائق بنا أن نُلاحِظ في مثلِ هذا التسبُّب الإذنَ الشرعيَّ ملموحاً فيه التوكُّلُ على مَنْ بيده مقاليدُ كلِّ شيء، ومجزوماً بأن المقصودَ لمثلِ هذه النازلة لا يَمْلِكُ لنفْسِهِ ضرّاً ولا نَفْعاً فضلاً عن غيره، ولكنَّ الله شَرَعَ الأسبابَ فتُرتَكَبُ مِن حيثُ الإحاجة[3] لها والإذنُ فيها، وأحوالُ القوم هي المُرْشِدةُ لقوّة القلْب في ذلك.

قال سَرِيُّ السَّقَطي[4]: «أصابتْني فاقةٌ شديدةٌ بمكة حتى أقمتُ تسعةَ أيّام لم أَطْعَمْ فيها، فكنتُ إذا اشتدَّ بي الجوعُ أتيتُ زَمْزَمَ فشربتُ منه لقولِ النبيّ صلّى الله عليهِ وسلّم: «ماءُ زَمْزَمَ هو لِما شُرِبَ له»[5] ثم إنّي ضَعُفْتُ عن

---

(١) ـ في الأصل: يُعْطِها.

(٢) ـ في الأصل: فأمله.

(٣) ـ هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة: الإباحة.

(٤) ـ هو أبو الحسن سَرِيّ بن المغلِّس السَقَطي أسلفنا التعريف به في حاشية سابقة.

(٥) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ١٠١٨ (حديث رقم ٣٠٦٢).

الطواف، فبينا أنا واقفٌ (ص ٧٦) مع حائطٍ إذا بأسودَ متّزراً بخَيْشَةٍ، على أكتافِه نصفُ عَباءَة، فقال لي: أبو تراب أنتَ أم سَريّ؟ قلت: بل سَريّ، قال: ما تقولُ إنْ بَعَثَ الله عَزَّ وجَلّ الريحَ فلم تَدَعْ على الأرضِ عَيْناً تطرِفُ غَيْـرَك ما كنتَ تَصْنع؟ قال: كنت أطوفُ حولَ هذا البيت بتسبيحٍ لله عزّ وجلّ وتقديس، قال: فَبَعَثَ الله بريحٍ ثانيةٍ فأتلف كلَّ مصالِحهم ما كنتَ صانعاً في المضمون؟ قلت: أرجِعُ فيه إلى الضامِن. قال: فكُنْ الساعَة كما تكونُ في ذلك الوقت. ثم غابَ عنّي فلم أَرَه، فذهب عنّي ما كنتُ أجِدُه من جوعٍ وعطشٍ وتعب، فلم أزَلْ أطوفُ ليلتي كلَّها إلى الصباح ولا أجد أَلَمَ ذلك». انتهت.

وهذه الحكاياتُ عن أمثالِ هؤلاء السادة كما نبّه عليه في غير موضع مِنْ تعاليها عن أحوالنا وما ينقل من ذلك عن أرباب الدنيا المنغمسين في تربها[1] هو اللائق بنا.

ومن أعجبِ ما حُكِيَ في تكميلِ قَصْدِ مَنْ فاته شيءٌ مِنْ زُخْرُفِ هذه الدنيا الغَرور ومتاعِها القليل ما جَبَر الله على الرشيد من خاتَمه الذي كان أبوه قد وَهَبَهُ إيّاه وهو الملقّب بالإسماعيليّ، فَحَسَدَهُ عليه أخوه الهادي، ورام أخْذَه منه قهراً، فرماه في دِجلةَ بمَشْهَدٍ من الفضلِ بن الربيع،[2] ثم لمّا أفْضَت إليه الخلافةُ طَلَبَهُ له الغوّاصون فأخرجوه بعد عَجْزِهم عن إخراجه لأخيه، وستأتي الحكايةُ بكمالِها في الصورةِ بعد هذا[3]، لكونِ ذلك المحلِّ أنسبَ إليها فيما يختصُّ منها بالهادي، وهذا المحلّ أنسب لما يختصُّ بالرشيد منها لِما مَنَحه

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ترفها.

(٢) ـ هو أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس من وزراء الرشيد وهو الذي سعى بالبرامكة عند الرشيد حتى نكبهم وذلك عندما عجز الفضل عن إدراك المنزلة التي بلغها هؤلاء البرامكة عند الرشيد، وتوفي سنة ٢٠٨ هـ(انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤٣، البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢٧٤، وفيات الأعيان ٤ / ٣٧ ـ ٤٠).

(٣) ـ سوف يأتي تفصيل هذه الحادثة في الصفحة ١١٩ من الأصل المخطوط.

الله من تأتّي قَصْدِه وتسنّي غَرَضِه في جَبْرِ ما فاته بعينه وعَوْدَتِه ليده بعد خروجه عنها[1].

ومما يُشْبه ذلك أن الأميرَ يمينَ الدولة[2] ركِبَ ببلْخ إلى المُتَصَيَّد، وتعرّضَ له مُسْتَمْنِحٌ[3] من أهلِ بُخارى يدعو ويبْرُم، وكان يَضْجَرُ بأمثالِه، فأمر بأن يُعْلى بالمقَارِع، واتّفقَ أن حرّكَ يَدَه، فَسَقَطَ الفصُّ من خاتَمِه، وذلك بمرأى من البخاريّ المصفوع، فتربَّصَ مُرورَ المَركَبْ، ثم جاءَ ورَفَعَ الفصَّ من الطريق، ووقع بَصَرُ الأميرِ على الخاتَمْ بعدما انصرف، فأمر بطَلَب الفصّ، وشدّد فيه، ثم ركب من الغد، وقد وقف له البخاريُّ في موقفه بالأمس، وعاد إلى إضجارِه، فأمر بشرخ * رأسِه بالدّبابيس[4]، فقال البخاريّ: إن كنت غَيْرَ معطي شيءٍ من مالِكَ فخُذْ ما معي من مَتَاعِك. وناوَلَهُ الفَصَّ، فبهت له، وسأله عنه، فأخبره بالقصّة، قال: قد أرغَمَني الله بك. وأمر بثلاثمائة دينار، فأُحْضِرَت، وقال: خُذْها ولا تَشْكُرْني عليها، فليسَتْ بعطيّتي، إنما هي من عندِ الله، ولو كانت إليّ ما أعطيتُك منها واحداً». انتهت[5].

وفي آخر هذه الحكاية بالنسبة إلى البخاريّ المُلحّ في الطلب (ص ٧٧) ما يُشْبِهُ ما يأتي بعد هذا في الحكايةِ عن القائد رضوان النّصريّ[6] ـ رحمه الله، وما يأتي في الحكاية بعدها في قضية الهُبَيْرِيّ أو الزبيري[7] ـ على الخلاف

---

(١) ـ انظر الحكاية في «كتاب الجماهر في معرفة الجواهر» للبيروني ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) ـ في كتاب الجماهر: أمين الدولة.

(٣) ـ في كتاب الجماهر: مستميح.

* ـ في كتاب الجماهر: بشدخ.

(٤) ـ الدبابيس: المقامع، والمقمعة خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه.

(القاموس المحيط: دبس، قمع).

(٥) ـ وردت هذه الحكاية في كتاب الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ص ٦٤.

(٦) ـ انظر لاحقاً ص ٨١ من الأصل المخطوط.

(٧) ـ انظر لاحقاً ص ٨١ ـ ٨٣ من الأصل المخطوط.

في ذلك ـ حسبما يأتي إن شاء الله، وأوّلُها شبيهٌ بقضيّة الرشيد في جَبْرِ ما ضاع له.

وأعجبُ من هذا ما حكاه بعضُهم أنَّ رجلاً من أهل فراوة يُسَمّى أحمد ابن الحسن اليزيدي، كان مُولَعاً بالشراب، خالعاً عِذارَهُ فيه، وأنّه شربَ ذات ليلة مع أصحابه في رَبَضِ الجُرْجانيّة. بخوارزم، ونزل[1] الفصُّ من خاتَمه هناك، وهو لا يشعر به إلى الغد، وقد نَسِيَ الموضِع، وأتى على الحديث سنتان، فدُقَّ عليه بابُه ليلاً، وقيل: إنّ الفقيهَ الإخْشيديَّ الخطيبَ أنْفَذَ إليك هذا الفصّ. وإذا به فصُّ خاتَمه المفقود. فغدا إليه وسأله عنه، وكان لذلك الفقيه عِدّةُ أتاتين[2] يشوي فيها اللّبِنات آجُرّاً، فقال: كنتُ واقفاً عند الأتّون، وحاملو[3] اللبن ينقلونها من الظهور إلى الأرض، فوقَعَتْ من يد أحدهم لبنة فظهر من منكَسَرِها هذا الفصّ فعرفتُه من اسمِك المكتوبِ عليه». انتهت[4].

وقد أعاد الله لهذا ما فَقَده مِنْ فَصِّ خاتَمه. ولعلّ من يعترض جَلْبَ مِثلِ هذه الحكاية لتخلّفِ صاحبِها بما نُقِلَ عنْه من التولُّع بالشراب، بل والتي قبلها. . . . .[5] المفقود بالنسبة إلى فاقده، ولا اعتراضَ يلزمُ من ذلك، لأنّا قد أطلقنا القولَ فيمن يَفْقِدُ ما يعزُّ عليه من قُنْيَتِه الماليّة أو الجاهيّة أو بعضِها، ثم يتداركُ الله ما لحقه من التمحيص خفيفاً كان أو ثقيلاً، بِجَبْرِ مفقودِه عليه أو ما يُغْنيه عنه، وإنما القصدُ بذلك عدمُ الإملال، وأن يكونَ الناظِرُ في الكتابِ ينتقِلُ من حالٍ إلى حال.

---

(١) ـ في الأصل: وبزر، وفي كتاب الجماهر ص ٦٤: وندر.

(٢) ـ في الأصل وفي كتاب الجماهر: أتانين، والصواب أتاتين وهي جمع أتّون وهو أخدود الجيّار والجصّاص ونحوه (القاموس المحيط. أتن).

(٣) ـ في الأصل: وحامل.

(٤) ـ انظر هذه الحكاية في الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٥) ـ بياض في الأصل مقدار كلمة.

ومن الممكن أن يكونَ فاقداً مثالَ هذه الأشياء التي يكون بعضُ ما تشتمل عليه يدُ المروي[1] بالتمحيص أشدَّ جَزَعاً، وأعْظَمَ أسَفاً ممن يفقِد جميع قُنْيَتِهِ[2] الماليّة إذا قلّت، ويكون هذا المقلُّ منها أعظمَ منه صبراً، وأحسنَ عزاءً، وقد لا يَبْعُدُ ذلك، ولعلّه الأكثر.

ولنعد إلى ما كنّا بسبيله، فيُروى عن إبراهيم بن الحسن أنه قال: قال رجلٌ من أصحابنا: ضاعَتْ نفقتي مرّةً وأنا في بعضِ الثُّغور، فأصابتني حاجةٌ شديدة، فبينما أنا أفكّر في حالتي إذا برجُلٍ من المتعبّدين قد أشرف عليّ وهو خارجٌ من المسجِد يقول:

تبـارَكَ الله وسُبْحـانَـه ... مَنْ جَهِـلَ الله فذاكَ الـفَـقِـيرْ
مَنْ ذا الـذي تَلْزَمُـهُ حاجـةٌ ... وذُخْـرُهُ الله الـعَـلِيُّ الكَـبيرْ!

انتهت.

ولا يمكن أن يكون مَنْ أمدّه الله مِنْ إرشاد وليٍّ من أولياء الله تعالى كُوشِفَ بحاله فأنشده هذين[3] البيتين منبّهاً له على اللجأ[4] إلى الله والتوكّلِ عليه، مِثْلَ من كانت (ص ٧٨) الدنيا نصْبَ عينيه يَضِيعُ له فَصُّ خاتَم في خزائنه مِنْهُ أعدادٌ كثيرةٌ في شدة الحزنِ عليه والوَجْدِ لفقده، وإنما نحن من هؤلاء. وأيْنَ نحنُ من قولِ بعضِ السَلَف: «نِعْمَةُ الله علينا فيما صَرَفَ عنّا أكثرُ من نعمتِه فيما صَرَفَ الينا»[5]. وفي نحوٍ من هذا يقول أكثمُ بن صَيْفيّ[6]

---

(١) ـ هكذا في الأصل.

(٢) ـ في الأصل: قيلته.

(٣) ـ في الأصل: هذا.

(٤) ـ في الأصل: اللجاء. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ـ كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص ٥٧ والقول منسوب إلى أبي حازم.

(٦) ـ هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث، من شعراء تميم في الجاهلية، وأدرك الإسلام، وهو صاحب أمثال مشهورة (الإصابة ١ / ١١٣، المعمّرون للسجستاني ص ٢٢، الوافي بالوفيات ٩ / ٣٤٢).

المثَل المشهورَ عنه: «لم يَضِعْ من مالِكَ ما وَعَظَكَ».[1] وفي المعنى بعينِه من أمثالِ العَرَبِ قولُهم: «خيرُ مالِكَ ما أنْفعَك»، كان أبو عبيدة[2] يتأوَّلُه: في المالِ يضيعُ للرَّجُلِ يَكْسَبُ به عقلاً. وقال النَّمرُ بنُ تَوْلَب[3]:

ومَتى تُصِبْكَ خصاصَةٌ فَارْجُ الغِنى   وإلى الـذي يَهَبُ الرغائِبَ فَارْغَبِ

والـلائقُ بأمثالنا في هذا المقام الإجمالُ في الطَّلب وملاحظةُ إباحةِ الشَّرْعِ في ارتكابِ السَّبَب، وما فوقَ ذلك فغيرُ مناسِبٍ لأقدارِنا ولا مشوبةٌ مواردُه الصافيةُ بأكْدارنا. كما أنّ من الأكيد الوقوفَ دون الغايةِ التي تَرامى إليها معنى قولِ عُرْوَةَ بنِ الوَرْد[4]:

ومَـنْ يكُ مِثْلي ذا عيالٍ ومُقْتِـراً   من المالِ يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ
ليبـلُغَ عذراً أو ينـالَ غنـيمـةً   ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

فإنّ معنى هذين البيتين[5] يقتضي من التغالي في طَلَبِ الأسبابِ ما يتضمَّنُ إهمالَ شروطِها المُعْتَمدةِ فيها عن مِثْلِ ذلك لازم، ورعيُ النفسِ عن الوقوعِ فيه واجب، وكثيراً ما شُوهد المُغْرِقُ في ارتكابِ السَّبَبِ إذا ذهلَ عن شرْطِه المرعيّ من الثقةِ فيه بالله وإخلاصِ التوكُّلِ عليه في التماسِ النُّجْحِ به مُعاملاً بنقيضِ مَقْصودِه، يتعدّدُ في ذلك القضايا الواقعة والكوائنُ السالفةُ والراهنة،

---

(١) ـ في بهجة المجالس ٢ / ١٨٨: لن يذهب من مالك ما وعظك. وفي الكامل للمبرد ١ / ٢٠٥: لم يذهب... الخ.

(٢) ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى وله كتاب «المجلة في الأمثال» ذكره ابن خير في فهرسته ص ٣٤١

(٣) ـ ترجمته في الأغاني ٢٢ / ٢٧٣ وانظر البيت في الأغاني ٢٢ / ٢٨١ وبهجة المجالس ١ / ١٧٢ والشعر والشعراء ١٧٤.

(٤) ـ انظر البيتين في: بهجة المجالس ١ / ١٩٩، ديوان عروة ص ٨، نهاية الأرب ٣ / ٦٥، حماسة أبي تمام ١ / ١٧٨، الأمالي ٢ / ٢٣٤، العمدة ٤٨، المحاسن والأضداد ٩٥، عيون الأخبار ١ / ٢٣٨

(٥) ـ في الأصل: هذان البيتان.

والأمرُ لله وبيده مقاليدُه، ولن يشتمِلَ على بَسْطِ الرجاء، وحُسْنِ الانْتماء[1]، والوقوفِ عند الرِضا بالقضاء، إلّا قولُ الأضبطِ بنِ قُرَيْع[2] السَّعْديّ[3]:

لكلِّ هَمٍّ من الهُموم سَعَة ... والمسْيُ والصُّبحُ لا بقاءَ مَعَهْ
قد يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكِلِهِ ... ويأكُلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
لا تحقِرَنَّ الفقيرَ علَّكَ أن تَرْكَعَ ... يوماً والدهرُ قَدْ رَفَعَهْ
وصِلْ حبالَ البعيدِ ما وَصَلَ ... الحبلَ وأقْصِ القَريبَ ما قَطَعَهْ
وآقبَلْ من الدهْرِ ما أتاك بِهِ ... مَنْ قَرَّ عيْناً بعيشِهِ نَفَعَهْ

وشطرُ هذا البيتِ الأخير مما جرى مجرى المَثَلِ، وهو مُتَضَمِّنٌ لمعنى الرِضا بما قَسَم الله من المعيشة. وأمْكَنُ منه في المعنى قولُ القاضي أبي القاسم بنِ المُعافى العرنوني:

رُزِقْتُ كَفافاً لي وأَمْناً وصِحّةً ... فما لِلْهُمومِ الطارِقَاتِ وما لي؟!
(ص٧٩)وفي الناسِ مِثْلي غَيْرَ أنْ ليسَ راضياً ... وأحسنُ مِنْ حالي رِضايَ بحالي

ومن وفّقه الله للقيامِ في هذا المَقام، فما يمكنُ أحسن حالةً ولا أعظم راحةً منه.

---

(١) ـ هكذا في الأصل، وربما حسن الانتهاء.

(٢) ـ في الأصل: فريع، والصواب ما أثبتناه.

(٣) ـ هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي من بني سعد، من شعراء الجاهلية، وهو صاحب المثل: «بكلّ وادٍ بني سعد» ومناسبته أن الأضبط جاور ناساً فلما رأى مذهبهم وظلمهم لم يحمدهم، ورجع إلى قومه، وأرسل هذا المثل. انظر ترجمته في: بهجة المجالس ١ / ٣٦٤، الكامل للمبرد ١ / ١٧٤، زهر الآداب ٢ / ٥٦١، الأغاني ١٨ / ١٢٧، الشعر والشعراء ٢٢٥. ووردت الأبيات في الشعر والشعراء ٢٢٦، البيان والتبيين ٤ / ٤٥، بهجة المجالس ١ / ١٧٧، ١ / ٦٧٤، ١ / ٧٨٠، ٢ / ٣٠٩، الفرج بعد الشدة ٥ / ١٠، زهر الآداب ٢ / ٥٦٠، الأغاني ١٨ / ١٢٩، سمط اللآلي ١ / ٣٢٦، التمثيل والمحاضرة ٦٠، الحماسة البصرية ٢ / ٢.

ومن تأمَّلَ الوجوهَ التي يُسنّي الله منها الأرزاق، وعلِمَ أنَّهُ يقدِّرُ يَسيرَها وإن عَجَزَتْ الحِيَلُ وَوَهَنَت الأسباب، فكيف لا يَقَرُّ عيناً بعيشتِه؟! وكيف لا يُسَلِّمُ الأمْرَ لمن بيدِه السَّعَةُ والضِيقُ في معيشته؟. كما يحكى أنه كان فيما يُجاوِرُ عبيدَ الله بنَ يحيى بن يحيى[1] بقرطبة رَجُلٌ من شيوخ قريش مُخْتَلِفاً إليه مُقاعِداً له يُكنى أبا الأصْبَغ، فلما كان في سنةِ ثمانين ومائتين أخَذَت الناسَ مجاعةٌ عظيمة، وتوالتِ الأمطار، فأخْبَرَهُ ذلك القرشيّ قال: بقيتُ أنا وأهلي ثلاثةَ أيَّام لم نَجِدْ شيئاً يَأْكُلُه ذو كَبِد، قال: فأحْسَسْنا الموتَ، فلما كان في صبيحةِ اليوم الرابع قال لي أهلي: «ما جلوسُك في هذا البيتِ ونحن كذا؟!، وكان لي ثلاثُ بنات، اخرُجْ واسْعَ واستجْدِ لا نموت كلُّنا جُـمْلةً» قال القرشيّ: فخرجتُ إلى اسطواني، وأغلقتُ الباب، وفكّرتُ إلى مَنْ أقصِد، إلى من أمضي، وقد يئسَتْ النفسُ مِنْ كلِّ أحَد، وأسْكَبَت السماءُ مطراً وابلاً، دامَ حيناً وشُهوراً، فبينا أنا قاعدٌ إذْ دخل عَلَيَّ مارّ[2] عليه مِمْطَر[3]، والمطر كأفواهِ القِرَب، فإذا بأبي مروان عبيدِ الله [بن][4] يحيى قال: فقمتُ إليه، وقلتُ له: يا سيِّدي أنتَ في مِثْلِ هذا اليوم؟! فقال: «إيّاكَ قَصْدي، بَعُدَ عَهْدي بك، وغمّني فقرُك، وأحسَبُ أن يكون دَخَلَتْ إليك الضَّيْعَةُ مما أكبّ من هذا الشتاء، وهذه عشرةُ دنانير تُنْفِقُها فيما تحتاجُ إليه، وقد أمَرْتُ طريفاً فتايَ بأن يُقْبِلَ إليكَ بِحِمْلِ دقيقٍ ورُبْعَيْنِ من الزَيْت حتى يَفْتَح الله» قال القُرَشِيّ: فشكرتُ الله تعالى، وشكرتُه ودعوتُ له، ثم خَرَجَ عنّي، فلم يكُنْ إلاّ أن بَلَغَ دارَه، وأتاني حِمْلُ

---

(١) ـ أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، روى عن والده عن مالك بن أنس، وله رحلة دخل فيها العراق وسمع بها، روى عنه نفر كبير من العلماء منهم أبو عبد الله محمد بن عبد البر القرطبي، وكانت وفاته بالأندلس سنة ٢٩٧هـ (انظر: بغية الملتمس ص ٣٥٥، جذوة المقتبس ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ابن الفرضي ص ٢٥، الديباج المذهب ١٤٦).

(٢) ـ في الأصل: مان.

(٣) ـ المِمْطَر: ثوب صوف يُتَوقّى به من المطر (القاموس المحيط: مطر).

(٤) ـ سقطت من الأصل.

الدقيق مع غُلامِهِ ستّةُ أقفزة، وغلام ثانٍ بجرّتين رُبْعَيْن من الزيت قد غطّاها بجلّ دابّته عن المطر، وأنزل ذلك كلّه في اسطواني، ثم انصرف الأعوانُ عنّي، فوقَفْتُ عند الباب، فيسَّرَ الله لي رجُلًا من جيراني، فقلت له: تلطّفْ لي في ابتياع حِمْل حَطَب وأغِثْني به، فقال لي: وأين يُوجَدُ الحَطَبُ في مثل هذا اليوم؟! فقلت: لعلّ الله ييسّره، ثم أخرجْتُ أربعةَ دراهِم من كُمّي وأعطيتُه، فلم يهبِطْ إلّا يسيراً حتى صادَفَ حِمْلَ حطب، فابتاعه وأتاني به، فأنزلْتُه في الاسطوان، ثم أقفلتُ بابَ الدار، ودخلتُ إلى زوجتي وبناتي فما قدِرْن[1] على القيام إلّا بحيلة، فلما صِرْنَ معي قلتُ لهنّ: هذا رزق، فَبَدَرتْ واحدةٌ توقد النار، وأخرى تَعْجِنُ في الاسطوان، وأخرى تجعل المِقْلى على النار، حتى عُمِلَ لنا خبزٌ مغلق، فاسْتَغَثْنا به، وأكَلْنا حتى شبِعْنا، وحَمدْتُ الله كثيراً على ما منّ». انتهت.

ومن اضطرّ من ضيقِ الحال وشدّةِ الفاقَةِ إلى مِثْلِ حالةِ هذا القرشيّ فإنّ الله لا يُضَيّعُ عبداً خلق، وهو الذي أَوْجَدَ وَمَنَعَ وَرَزَقَ، وما أعجبَ ما تضمنّتْهُ هذه الحكاية من تيسير الرزق، وتهيئة اللُّطف، وتدارُكِ الرَمَق بعد الإشرافِ على الهلاك، والإغاثةِ بالفَرَج بعد الإشراف على الفَوْت! وما خَلَقَ الله عند ذلك الرَّجُلِ الذي أعانه بمعروفه ونَعَشَهُ للتفقّد من الاهتمام (ص ٨٠) بحاله والملاحظةِ لأمره في مثلِ ذلك اليوم الذي تتعذّرُ فيه المعيشةُ على مَنْ له قُوّة، ويصعُبُ فيه التصرُّفُ على مَنْ له حيلة، فسبحانَ الله ما أوْسَعَ فَضْلَه وأعمَّ جودَه! لا إله إلّا هو.

وقال أحمدُ بنُ خالد[2]: بَقِيَ ابنُ وضّاح[3] يوماً لا قُوتَ معه، فحرّكَتْهُ

---

(١) - في الأصل: محاقدين.

(٢) - أحمد بن خالد بن يزيد يعرف بابن الجبّاب، كنيته أبو عمر، جيّاني الأصل وسكن قرطبة، سمع من كثيرين منهم محمد بن وضاح، ألف في مسند حديث مالك ومات بقرطبة سنة ٣٢٢ هـ (جذوة المقتبس ١٢٢، بغية الملتمس ١٧٥).

(٣) - هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بديع قرطبي الأصل كان جده بديع مولى لعبد

امرأتُه لطلب الرزق، ولامَتْهُ على لُزومِ البيت. قال: فخرجْتُ وقد ضاقَتْ عليّ الأرض، فقلت: إلى مَنْ أقصِد؟ فقصَدْتُ الله تعالى في المَسْجِدِ الجامع، فكنتُ فيه إلى أن صلَّيْتُ العَصْر، فلما خرجتُ قلت: إن رجعتُ إلى الدارِ بغيرِ شيءٍ ضَيَّقَتْ عليّ المرأة، وفي الوقتِ فُسْحَة، فنويتُ زيارةَ إخوانٍ لي في قريةِ المرضا[1]. قال: فلما تَوَسَّطْتُ القنطرةَ إذا غلامُ صديقٍ لي ومعه دابّةٌ موقَّرةٌ بدقيق، وجرّةٌ من زيت. فقال لي: فلانٌ يقرئُكَ السلام، وقد بَعَثَ إليكَ بهذا. فحمدتُ الله تعالى، وصرتُ بذلك إلى داري». انتهى. وهذه الحكايةُ قريبةٌ من التي قبلها في المعنى، وهي في الغايةِ من طَلَبِ الرزق ممن هو بيده.

وكأنّ نقيضَ هذا في المعنى قولُ ابن التعاويذي[2]، وما قاله حقّ[3]:

سَعَيْتُ إلى الغنى وجَهدْتُ نفسي فلم أحصلْ على غيرِ العَناءِ
فزالتْ راحةُ الفُقَراءِ عنّي ولم أظْفَرْ بعَيْشِ الأغنياءِ

والذي يحقّقُ هذا المعنى ما فيه من مخالفةِ قوله صلّى الله عليه وسلّم: «**اتّقوا الله وأجْمِلوا في الطَّلَب**»[4]. ولا شك أنّ ما قال نقيضُ الإجمال، فبواجبٍ زالت عنه راحةُ الفقراء، ولم يظْفَرْ بعيشِ الأغنياء.

= الرحمن بن معاوية، رحل إلى المشرق مرتين كانت احداهما سنة ٢١٨ هـ وذلك من أجل الزهد والعبادة، وسمع عن عدد كبير من العلماء كان عالماً بالحديث ورعاً فقيراً زاهداً ولد سنة ١٩٩ هـ وقيل ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٧ هـ وقيل ٢٨٦ هـ (الديباج المذهب ٢٣٩ ـ ٢٤١، جذوة المقتبس ٩٣ ـ ٩٤، بغية الملتمس ١٣٣).

(١) ـ لم أجد لها ذكراً في المصادر ولعلها ماردة Merida

(٢) ـ أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذي، كان شاعراً جزل الألفاظ عذب المعاني، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد، عمي في آخر عمره، ولد سنة ٥١٩ وتوفي سنة ٥٨٤ هـ ببغداد. (وفيات الأعيان ٤ / ٤٦٦، معجم الأدباء ١٨ / ٢٣٥، الروضتين ٢ / ١٢٣).

(٣) ـ ديوان سبط بن التعاويذي ص ١٤.

(٤) ـ سنن ابن ماجة ٢ / ٧٢٥ (حديث رقم ٢١٤٤).

وإذا كان الابتلاءُ ممّا مَنَعَ الرزْقَ، أو وقوعَ العَزْلِ ففي مطاولة الأيّام واختلافِ قرائحِ الكرامِ ما تُهَيَّأُ به الأسباب، وتَنْفَتحُ به الأبواب، وإنما الرزْقُ بيد الله يُعْطيه إذا شاءَ ويمنعُه إذا شاء. قال الله تعالى: ﴿الله يَبْسُطُ الرزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ويَقْدِرُ له﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿ما يفتحُ الله للناسِ من رحمةٍ فلا مُـمْسِكَ لها وما يُمْسِكُ فلا مُرْسِلَ لهُ من بعدِه وهو العزيزُ الحكيم﴾(٢). إلى غير هذه من الآيات التي فيها الدليلُ الواضح على هذا المعنى كقوله: ﴿هَلْ من خالقٍ غيرُ الله يَرْزُقُكم من السماءِ والأرْض﴾(٣) وقوله: ﴿وامُرْ أهْلَكَ بالصّلاة واصطَبِرْ عليها لا نسألُكَ رِزْقاً نحنُ نرزُقُك والعاقبةُ للتّقوى﴾(٤). وقوله: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ * ما أريدُ مِنْهُمْ من رِزْقٍ وما أُريدُ أنْ يُطْعِمُونِ * إنّ الله هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتين﴾(٥) فمن تأمل هذه الآياتِ بعينِ العقلِ ونظر فيها نظرَ الفِكْرِ عَلِمَ أنَّ الرزقَ بيد الله وأنه هو الذي يمنحُه ويمنعُه وهو الذي يضيّقُه إذا شاء ويوسّعه؛ فالموفَّق الرشيدُ لا ينسِبُ الفعلَ في الوجود إلّا لله، ولا يرى لغيرِ الله في نفسه ـ فضلاً عن غيره ـ فعلاً، ولا يملك له ضُـرّاً ولا نَفْعاً، فكيف في الرزقِ الذي قد نَصَّ عليه في غير ما موضع من كتابه. إنّه هو الذي يبسُطُه ويقبضه. والواقع قد أفاد في القضيّة يقيناً لا يحتملُه النقيضُ بوجه، فأنّى يبقى للشكِّ مع هذا مدخل! كلّا والله لولا أنّ عقولنا سخيفة، وقلوبَنا ضعيفة، ولا حَوْلَ ولا قوّةَ إلّا بالله العليّ العظيم. وما أعْجَبَ في هذا المقام قولَ ابنِ مرجِ الكُحْل(٦):

---

(١) ـ الآية ٦٢من سورة العنكبوت.

(٢) ـ الآية ٢ من سورة فاطر.

(٣) ـ الآية ٣ من سورة فاطر.

(٤) ـ الآية ١٣٢ من سورة طه.

(٥) ـ الآيات ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات.

(٦) ـ هو محمد بن ادريس المعروف بابن مرج الكحل شاعر أندلسي من جزيرة شقر، يقال إنه كان أمياً وكان يحتفظ بزيّ أهل البادية. وله مخاطبات مع شعراء عصره، كانت ولادته سنة ٥٥٤ هـ في شقر وبها توفي سنة ٦٣٤ هـ (انظر ترجمته في الإحاطة ٢ / ٣٤٣، نفح الطيب =

مَثَـلُ الـرزْقِ الـذي تَطْلُبُـه مَثَـلُ الـظِلِّ الـذي يَمْشي مَعَكْ
أنـت لا تُدْرِكُـهُ متَّبِـعـاً فإذا ولّـيتَ عنـهُ اتّـبـعَـكْ[1]

(ص ٨١) ومما يؤنسُ هنا ما سمعتُه غير ما مرّة عن بعض الشيوخ الذين أدركوا وزارة القائد رضوان النصريّ رحمه الله أنّ بعضَ أعيانِ غرناطة المرتسمين في خُطّة القيادة التي هي في العُرْف من أَوْجَهِ الرُّتَب الدنيوية، شرٌّ وقع بينه وبين الوزير المذكور أدّى إلى شَحْناء ومقاطعة، فكان بينهما في آخرِ موطن تلاقى القائدُ المشارُ إليه بالوزير المذكور أن قال له الوزير: «والله ما ترى على يديّ رِزْقاً[2] ما أبقاني الله هنا» أو كلاماً هذا معناه، فراجعه القائدُ بأن قال: «إن قُضِيَ لي برزقٍ فسيكون الخَلُّ في مناخِرِك» كلمة تقولها العامة عوضاً من قول العرب: رغمًا على أنفك. وانصرف ذلك القائد تاركاً للإلمام بالوزير المذكور والتعرّضِ لمشاركته لما وقـع بينهـما. وطالت المدةُ إلى أن افتقر مستوزِرُهُ لسفيرٍ فيما بينه وبين الإيالة المرينية[3]، فَرَجَحَ في نظره أن يكون ذلك القائد، لكفاية قدّرها فيه واضطلاعٍ

= ٥ / ٥٠، المغـرب ٢ / ٣٢٠، ٣٧٣، ٤٥٠، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٦ - ٣٩٧، برنامج شيوخ الرعيني ٢٠٨، الوافي بالوفيات ٢ / ١٨١).

(١) - انظر البيتين في: الإحاطة ٢ / ٣٤٧، وفيات الأعيان ٢ / ٣٩٦، نفح الطيب ٥ / ٥٤.

(٢) - في الأصل: رزق.

(٣) - يشير المؤلف هنا إلى الدولة المرينية التي خلفت دولة الموحدين في المغرب، أسسها أبو بكر بن عبد الحق من قبيلة بني مرين الزناتية، واتخذ فاس عاصمة له سنة ٦٤٦ هـ، تزامن قيام هذه الدولة مع قيام دولة بني الأحمر في غرناطة، وكذلك تزامن سقوط الدولتين في أواخر القرن التاسع الهجري، فبينما سقطت غرناطة في يد الاسبان انتقل الحكم في فاس إلى فرع آخر من زناتة هو فرع بني وطاس، وكان المرينيون أثناء حكمهم سنداً لأهل غرناطة في حربهم ضد الاسبـان، للمزيد من المعلومات عن تاريخ الدولة المرينية انظر: الذخيرة السنية في تاريخ الـدولـة المرينية - تأليف علي بن أبي زرع الفاسي (ط. الرباط ١٩٧٢م)، الأنيس المطرب لابن أبي زرع (نشر في فاس سنة ١٣٠٥ هـ)، العبر لابن خلدون - بيروت ١٩٥٦ - ١٩٦١م، درة الحجـال لابن القـاضي، الحلل المـوشيّة في ذكـر الأخبار المراكشية لابن

رجّحه به على من سواه، وجهد به الوزير المذكور أن يَصْرِفَه عن هذا القصد، فلم يستطع، وصمَّم في العزيمة على التوجيه عنه وإجازتِه بمال عظيم له خطرٌ وبال، وإعلامه بما ارتضى له من السِفارة فوجّه عنه الوزيرَ المسمّى، وأعدّ له المالَ والكُسْوَةَ المأمورَ له بهما، واستحضر صَحْفَةً[1] مملوءةً خلاًّ، فلما حضر القائدُ المذكور عنده وأعلمه بما اقتضى نَظَرُ السلطان فيه ودَفَعَ له الكسوةَ والمالَ، وجعل صَحْفَةَ الخَلِّ عند أنفه يستنشِقُها إعلاماً له بأنّ ذلك كما قدّر على رغم أنفه لمّا أراد الله أن يرزقَه، فعدّها الناس من مناقب الوزير المذكور. وانصرف القائد المشار إليه وقد صدّق الله ظنه وأجمل له عاقبةَ صبره.

وليس ذلك بغريب فيمن صدقَ الوجهةَ لله وعزم التوكُّلَ عليه وأخْلَصَ في عزيمته التفويضَ إليه، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿**ومن يَتوكّلْ على الله فهو حَسْبُه إنّ الله بالغُ[2] أمره قد جَعَلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْرا**﴾[3] وعلى مثل حالةِ هذا الرجل يتنزَّلُ مِثْلُ قولِ الشيخ أبي مَدْين[4] رضي الله عنه في حِكَمِهِ: «التوكُّلُ وثوقُك بالمضمون واستبدالُ الحركة بالسكون». انتهى قوله. وإذا عَلِمَ الله صدقَ عبده

الخطيب، (نشر في تونس سنة ١٣٢٩ هـ)، الاستقصاء للسلاوي (الدار البيضاء ١٩٥٤م).

(١) ـ الصَحْفة: الجَفْنة (القاموس المحيط: صحف).

(٢) ـ سقطت من الأصل.

(٣) ـ آية ٣ سورة الطلاق.

(٤) ـ هو الشيخ الصوفي الشهير أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد سنة ٥٢٠ هـ بقرية من قرى اشبيلية، جاب مدن المغرب ورحل إلى الشرق وأدى فريضة الحج، مال إلى التصوف واشتهر بكراماته، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور إلى مراكش، فتوفي في الطريق على مقربة من تلمسان سنة ٥٩٤ هـ وما زال ضريحه مزاراً إلى اليوم (نفح الطيب ٧ / ١٣٦ ـ ١٤٤، نيل الابتهاج ١٢٧ ـ ١٢٩، أنس الفقير لابن قنفد (خاصّ به)، جامع كرامات الأولياء ٢ / ٣٩، تعريف الخلف ٢ / ١٨٠، البستان لابن مريم ١٠٨ ـ ١١٤).

في توجّهه بهمته إلى بابه وتعلّقه بالكُلّية بعليّ جنابه فإنّ الله بفضله يهيء له أسبابَ اكتسابه، وييسّر له من الخير ما لم يكن قطّ في حسابه[1]. وأشبه شيء بهذه القضيّة ما حدّث به أحمدُ بن اسرائيل[2] حسبما حكاه عنه غيْر واحد قال: كنت كاتبَ محمد بن عبد الملك الزيّات[3] فقدِمَ عليه رجلٌ من ولد عمر بن هبيرة[4] يقال له ابراهيم بن عبد الله الهُبَيْريّ، فلازمه يلتمِسُ منه أن يُصَرِّفَهُ في شيء يتمعَّشُ فيه. وكان ابنُ الزيات قليلَ الخير، لا يَرْعى ذماماً، ولا يُوجب حُرْمة، ولا يحبّ أن يصطنع أحداً، فأضجره ذلك الرجلُ الهبيْريّ من طُول تردّده عليه، فدعاني ابنُ الزيّات يوماً وهو راكب فقال: قد تبرَّمْتُ بملازمةِ هذا الرجل، فقل له عنّي إني والله لستُ أوليه ولا أصرّفه، ولا له عندي شيء أنفعُه به، فقل له ينصرفْ عني، ولا يلقني البتة. قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أستحي والله أن أُلْقِيَ عنه بمثل هذا الكلام القبيح مؤملاً له قد أمّله واعتمد عليه، ثم قلت: أصلح الله الوزيرَ سيّدي كيف أقابلُ عنك رجلاً أمّلك وانقطع إليك بمثل هذا الكلام؟

---

(١) ـ في الأصل: حسابيه.

(٢) ـ أبو جعفر أحمد بن اسرائيل الأنباري الكاتب من كبار كتاب الدولة العبّاسية زمن المتوكل، خاصم القائد التركي صالح بن وصيف في حضرة المعتز، فاعتقل بسبب ذلك وعُذِّب حتى الموت (الوافي بالوفيات ٦ / ٢٤٣).

(٣) ـ هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيّات وزير المعتصم، كان من أهل الأدب وعالماً بالنحو واللغة، له شعر في موضوعات شتّى. وتذكر المصادر أنه خلف ديوان رسائل جيداً، وكان ممدحاً لشعراء عصره، استمرت وزارته أيام الواثق والمتوكل، لكن المتوكل سخط عليه واعتقله وأدخله تنوراً ظل فيه حتى مات وذلك سنة ٢٣٣ هـ (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد ٢ / ٣٤٢، البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٥، وفيات الأعيان ٥ / ٩٤، مروج الذهب ٤ / ٤٧، ٨٨).

(٤) ـ هو أبو المثنى عمر بن هبيرة بن سعد بن عديّ الفزاري، والي العراق وخراسان زمن يزيد بن عبد الملك، امتحن بالسجن بعد أن عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ لكنه هرب من السجن ولجأ إلى مسلمة بن عبد الملك فأمّنه. (الاغاني ١٥ / ١٢٨، الفرج بعد الشدة ٢ / ١٦٤).

فقال: ليس هو إلّا ما أخبرتُك ولا بُدَّ لك من أن تفعل، قلت: نعم، فلما صُرتُ إلى منزلي وَجَّهْتُ إلى الهبيريّ فجاءني فقلت له: كم كنت تؤمل أن تنال بصحبة هذا أبي جعفر محمد بن عبد الملك فخذه من مالي ولا تَقْرَبْ بابَه. فقال لي: من مالك؟! من مالك؟! متعجباً (ص ٨٢) من قولي. قلت: نعم فقال: أنا أؤمّل أن أكتسب معه أكثر مما تحويه يدُك. فقلت له: يا سيدي إنّه حمّلني إليك رسالةً استحييتُ من أن أوصلها إليك، فعدلتُ بكَ عنها إلى هذا القول: قال: فهاتِ ما حَمّلك. قال: فحدّثته بما أوصاني به إليه ابنُ الزيات، قال: «قد سمعتُ منك وفهِمْتُ عنك فهل أنتَ مؤدٍّ عنّي ما أقولُ لك؟» قلت: نعم. قال: «قل له قد كنتُ آتيك في صبيحةِ كلّ يوم، والله لآتينّ إليك منذ الآن في كلّ غدوة وعشيّة، فإن قضى الله لي على يديك رِزْقاً لآخذنّه منك على رغم أنفك» فرجعت إلى ابن الزيات فأعلمتُه بقول الرجل، فقال: دعه فوالله لا يرى مني خَيْراً. قال: ولازمه الـرجلُ غدوةً وعشيّا وكان إذا رآه التفت إليّ وقال: قد جاء البغيض. فمكث كذلك مُدّة. وركب ابنُ الزيات يوما إلى الواثق بالله وهو بالهاروني بِسُـرَّ مَنْ رأى[1] (وكان يوم دجن)[2] وكنت معه، فدخل إلى الخليفة، وجلستُ في بعضِ الدور أنتظرُ خروجَه، فخرج وهو يكثر التعجُّبَ فسألتُه فقال: أنت تعرف مذهبي في هذا الرجل. قال: وكان يرى رأي المعتزلة ويقول: إنّ الأرزاقَ بالاكتساب. فقلت: وماذا أتمّ الله عليك النعمة؟ قال: دخلتُ إلى الخليفة فقال لي: على بابنا أحدٌ فنصطنِعَه؟ فلم يَحطرْ ببالي إلّا الهبيريّ، فأمسكتُ فقال: ويحك أكلِّمُكَ فلا تجيبُني. وأعْجَلَني عن الفِكْر فقلت: على باب أمير المؤمنين رجلٌ من أعدائه وأعداء دولته[3]، وأولادِ أعداءِ سلفه ومن صنائعِ بني أميّة[4] من ولد عمر بن هبيرةِ.

---

(١) ـ الهاروني: قصر قرب سامراء (سرّ من رأى) ينسب إلى الواثق هارون ويبعد عن سامراء ميلًا واحداً (معجم البلدان).

(٢) ـ ما بين القوسين ساقط من الفرج بعد الشدة.

(٣) ـ جاءت في الأصل مكررة.

(٤) ـ في الأصل: بني الجمّة أو الجنة (دون اعجام) والصواب من كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

قال: فنصطنعُه نحن فيشكرنا كما اصطنع أباه بنو أميّة فشكرهم. قلت: إنه معدم. قال: نُغْنيه. قلت: إنّه لا معنى فيه. قال: كم ذا تدفعني عنه! أعْطِهِ الساعةَ ثلاثين ألف درهم. ثم قال: أمِنْ أهل الدراريع[1] هو أم مِنْ أهلِ الأقبية؟[2] قلت: صاحبُ قباء. قال: قلِّدْهُ الساعةَ عملاً يصلح له، وأثبت له من أهله وولده وغلمانه مائةَ رجل. فلما فرغ من كلامه قال: قل للهبيريّ ما عرَّفتك، وادفع إليه[3] ما أمر له به الخليفة وآسألْه ألاّ يشكرني، فقد اجتهدتُ في دفعِ الرزق عنه فما اندفع. قال أحمد بن اسرائيل: فلما خرجتُ إلى الشارع وإذا بالهبيريّ ينتظرُ خروجَ ابن الزيات، فعرّفْتُه ما جرىٰ، فقال: لا بدّ من شُكْرِهِ على كلّ حال. وجاء ابنُ الزيّات فترجَّل[4] له الهبيريُّ وشَكَرَه فقال: ألم أقل لأحمد ابن اسرائيل أن يقول لك ألاّ تشكرني؟ قال: لا بدَّ من ذلك لأنّ الله تعالى قد أجرى رزقي على يَدَيْك[5].

قال التنوخيّ في كتاب «الفَرَج بعدَ الشِدّة»[6]: «وقد حدّثني أبي رضي الله عنه بهذا الحديث بإسناد لستُ أحفظه فخَالَفَ في ألفاظ بأنْ ذَكَرَ أنّ تَرَدُّدَ الهُبَيْرِيّ ـ ولم يسمّه ـ كان إلى [ابن][7] أبي خالد الأحول[8]، وأنّ الرجُلَ الذي

(١) ـ أهل الدراريع يريد بهم الكتّاب أي المدنيين.

(٢) ـ أهل الأقبية: الجند والعمال.

(٣) ـ في الأصل: وادعُ الله والصواب من الفرج بعد الشدّة.

(٤) ـ في الأصل: فرحل، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٥) ـ انظر هذه القصة في الفرج بعد الشدة (٣ / ٢٧٥ ـ ٢٧٨) مع بعض اختلاف في اللفظ، وانظرها أيضاً في نشوار المحاضرة ٢ / ٢١١ ـ ٢١٥.

(٦) ـ الفرج بعد الشدّة (٣ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠).

(٧) ـ في الفرج بعد الشدة فقط.

(٨) ـ أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون كان كاتباً وتقلد الوزارة سنة ٢٠٣هـ بعد أ، مرض الحسن بن سهل، وظل وزيراً للمأمون حتى وفاته سنة ٢١٠ هـ. (العقد الفريد ٥ ٣٤٣، إعتاب الكتاب ١٠٩، الوافي بالوفيات ٦ / ٣٦٩، نكت الهميان ٩٦، معجم الأدب ٣ / ١٥، إنباه الرواة ١ / ٤١).

حمل الرسالةَ إلى الهبيريّ قَصَدَهُ إلى منزله وحَمَلَ معه ثلاثة آلاف درهم، وقال: إنّ الوزير يقولُ لك: ليس عندي تصرُّف، فخذ هذه نفقتك وسِرْ حيث شئت وأنصرِفْ عني. قال الهبيري: جعلني والله شحّاذاً، والله لا أخذتُها. قال الرسَول: فغاظني، فقلت: والله ما حملني إليكَ هذا، وما المالُ إلاّ من عندي، وإني استحييتُ أن أعيدَ عليك رسالته، فأردتُ أن أغرم مالاً في الواسطة أُجَمِّلُ بذلك صاحبي وأؤجرُ فيك، وأُرَفِّعُ نفسي عن قبيح الوسائط. فقال له: أحْسَنَ الله جزاءك، وبارَكَ في مالك على تأديتك رسالتَك، وأنا أرغبُ إليك أن تتفضَّلَ عليّ بأن تحْمِلَ له حرفين. فقلت: هاتِ قال: تقولُ له: والله ما لزومي لك في خاصّة نفسِك ولو تعطّلْتُ ما مررت بك، ولكنّ الله تعالى (ص ٨٣) يقول: ﴿وآتوا البُيوتَ مِنْ أبْوابِها﴾(١) وأنتَ بابُ رزقي، وأنا وأمثالي لا أُحْسِنُ إلاّ هذه الصناعة، ولا بدّ من أن آتيك طالباً رِزْقي من بابه، وليس يمنعُني من ذلك استثقالُك إيّاي بالردّ، فإن قَسَمَ الله لي على يديك شيئاً أخذتُه منك وأنت راغم، وإلاّ فلا أقلَّ من أن أؤذيك(٢) كما آذيتني بتعطيلي. وقال فيه عن [ابن](٣) أبي خالد: فصرتُ في الوقت إلى المأمون، فقال لي: آسمِ لي رجلاً اقلّده مصر قال: فأراد أن يذكر له رجلاً يعتني به يُقالُ له الزبيري(٤) ليتولّى له ذلك العمل، فلِتَغَيُّظِهِ على الهبيريّ وقُرْبِ عهده به وبحديثِهِ غلِط وقال: الهُبَيْرِيّ. فقال الخليفة: أوَيَعيشُ هو؟ وعرّفه، وذكر له حُرْمةً وخِدْمَةً قديمة، وأن ابن أبي خالد(٥) قال: لَوَيْتُهُ عنه وزهّدته فيه، وطعنت عليه بكلّ شيء، وهو يقول: لا أريد غيره أنا أعرفه بالجلادة، إلى أن قلت له: إني غلطت، وإنما أردت أن أقول الزبيري(٦)، فقال لي: وإنْ غلطت فالهبيريُّ أقْوَمُ بهذا الأمر من

(١) ـ الآية ١٨٩ من سورة البقرة.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: أوذيك برؤيتي.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: فقط.

(٤) ـ في الأصل: الزبيدي والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: الزبيدي، والصواب من الفرج بعد الشدة.

الزبيريّ[1]، فأنا أعرفهما جميعاً. فلما رآني قد أقمت على الدفع قال لي: أظنُّ أن لك مع الهبيريّ قصةً فاصدقني عنها. فصدقته قال: صدق والله فيما قال وقد أجرى الله رِزْقَهُ على يديْك وأنتَ راغم، اخرج إليه فولّه. قلت: إنه ضعيف ولا مالَ له ولا مؤونةَ فكيف يخرج مثلُه على مثل هذا الحال إلى عمل؟ قال: وهذا أيضاً من الرزق الذي يُـجْري الله على يديك راغماً، أطلِق له مائة ألف درهم وأخرجْه إلى عمله. قال ابن أبي خالد: فامتثلتُ ذلك رغْماً مني وأخرجتُ الرجلَ إلى عمله بعد أن أطلقتُ له مائةَ ألفِ درهم وصَلُحَتْ حالُه، وجاءه الله بالفرج بعد الشدّة. انتهت[2].

ومن تأمل هذه الحكايةَ والتي قبلها أتمَّ التأمّل، وتفكّر فيها بأكمل وجوهِ التفكّر، علم ألاّ فِعْلَ في هذا الوجود إلاّ لله، وأنّ الأسبابَ الاكتسابيّة وإن تناهت إلى الغاية، وجرت من الاستبلاغ فيها إلى حدِّ النهاية، لا تفيدُ بوجهٍ إلاّ إن كانت الأقدارُ السابقةُ في علم الله على وفقِها، وإلاّ فهي في استجلاب العكس مما قصدها أمكن، وفي عدم مساعدة مرتكبها أَبْيَن، فانظُرْ إلى هذين الوزيرين كيف أرادا أن يَصْرِفا سلطانيهما عن نَفْعِ هذين الرجلين بأقصى ما قَدِرا عليه، ولما كان الرزق لهما من الله سابقاً لم يَقْدِرا فيهما على شيء بل سنّى[3] الله لهما من الرزق على رغم أنفيْهما، ويَسَّرَ للهبيريّ منهما بحرص المشتدّ في منعه تنميةً في الرزق وبسطةً فيه، فسبحانَ الله العظيم لقد أتاهما بالرزق أقرب ما كانا منه يأسا وأبعد ما كانا[4] فيه رجاء.

وكما أمكن أن يتسبَّبَ للإنسانِ في منع رزقه بتخلُّق[5] الله المنح بذلك السبب المظنون به المنع، فكذلك يخلقُ الله المنْعَ مع توفُّر الأسباب المنتصبة

---

(١) ـ في الأصل: الزبيدي، والصواب من الفرج بعد الشدة.

(٢) ـ وردت هذه الرواية في الفرج بعد الشدة ٣ / ٢٧٨ ـ ٢٨٠ على كثير اختلاف في اللفظ.

(٣) ـ في الأصل: سمّى.

(٤) ـ في الأصل: كان.

(٥) ـ تخلّق الرزق: قدّره.

بالعادة للمنح؛ فكم من مستحفَظِ الأذمّة، مُسْتَرْعى الوسائل، متمّمةٍ له في استحقاقِه الولايةَ الأسباب، مستوفاةٍ له الشروط، مرتفعةٍ في حقه عنها الموانع، أتاه العزل أوثقَ ما كان يوليه أملاً، وأفسحَ ما كان في الثقة به رجاء! لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكل شيء علماً، وإنما ذلك ـ والله أعلم ـ ليحصُلَ الإيقاظُ من سِنة الغفلة في الوقوفِ مع الأسباب والذهول عن رؤية الأمور من حيث هي، فلو لم تنخرم الأسبابُ في مقتضياتها من جهة النفع والضرّ لكان[1] في ذلك للأفكار[2] القاصرة ما يثمر لها شكاً، ويوجب له في الأحكام القدرية ريباً.

وتخلُّفُ مسبّباتِ الأسباب أنموذجٌ من نقضِ العزائم الذي عرَّفَ الأعرابيَّ ربَّه حين سُئِل عمّا عرَفه به. وثمرة الصبر في هذا المعنى (ص ٨٤) غيرُ خفيّة، وقد قال أبو تمام الطائي[3]:

ما أَنْصَفَ الـزمنُ الذي بَعَثَ الهوى ... فقضى عليْكَ بِلَوعْـةٍ ثم انقضى
عنـدي من الأيّامِ ما لو أنّـهُ ... أضحى بشـاربِ مُرْقِـدٍ ما غمّضا
لا تَطْلُبنَّ الــرزقَ بعـد شمـاسِـهِ ... فَتَـرومه سَبَـبـاً إذا ما غيّضـا
ما عُوِّضَ الصبـرَ امـرؤٌ إلاّ رأى ... ما فَاتَـهُ دونَ الـذي قد عُوِّضـا

وفي تسنّي الرزقِ ممّا لا يظنّ أنه سببٌ فيه أعاجيبُ لا يخلو الوجودُ من الابداع بها، حسبما تقرّر فيما سبق من سواه. حدّث عليُّ بن الجهم[4] عن أبيه قال: أصبحتُ ذاتَ يوم وإنّي[5] في غاية الحاجة* والضيقة، لا أهتدي

---

(١) ـ في الأصل: لكلّ.

(٢) ـ في الأصل: للأمطار.

(٣) ـ ديوان أبي تمام ص ٣٣٩ من قصيدة في مدح أحمد بن أبي دواد.

(٤) ـ سلفت الترجمة له.

(٥) ـ في تاريخ بغداد: وأنا.

* ـ في تاريخ بغداد: الخلّة.

لدينارٍ ولا درهم، ولا أملكُ إلاّ دابّةً عجفاء وخادماً جلفاء**، فطلبتُ الخادِمَ فلم أجده، ثم جاء فقلت أين كنت؟ فقال: كنتُ في احتيالِ شيء لك، وعَلَفٍ لدابتك، فوالله ما قدرتُ على شيء. فقلت: اسرُجْ لي دابّتي فأُسْرِجَتْ، ورَكِبْتُ فلما صرت في سوقِ يحيى[1] فإذا أنا بموكبٍ عظيم، وإذا الفضلُ بن يحيى[2]، فلما أبصرني قال: سِرْ. فسرنا قليلاً، وحجز بيني وبينه غلامٌ يحمِلُ طبقاً، فوقف على بابٍ يصيح بجارية لي[3]، فوقف الفضلُ طويلاً، ثم قال: سِرْ، أتدري ما أوقفني؟ قلت: إنْ رأيتَ أن تُعْلِمَني! قال: «كان لأختي جارية، وكنت أُحبُّها حبّاً شديداً، وأستحي من أختي أن أطلبها منها، فمضت* أختي لذلك، فلما كان في هذا اليوم لبّسَتْها وزيّنَتْها، وبَعَثَتْ بها إليّ، فما كان في عمري يومٌ هو أطيبُ عندي من يومي هذا، فلما كان في هذا الوقت جاءني رسولُ أمير المؤمنين فأزعجني وقطع عليّ لذّتي، فلما صرتُ إلى هذا المكان دعا هذا الغلامُ صاحبُ الطبق باسم تلك الجارية، فارتحْتُ لندائه، ووقفت».
فقلت: أصابك ما أصابَ أخا بني عامر[4]حيثُ يقول[5]:

** - في تاريخ بغداد: خلقاً.

(١) - يحيى بن خالد البرمكي.

(٢) - هو أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، كانا متقاربين في المولد، ورضع كل منهما من أمّ الآخر، وكان الفضل معروفاً بكرمه وسعة جوده، ولد سنة ١٤٧هـ وتوفي بالسجن سنة ١٩٣ هـ حين نكب الرشيد البرامكة (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٠ / ٢١٩، وفيات الأعيان ٤ / ٢٧، مروج الذهب ٣ / ٣٧٧، تاريخ بغداد ١٢ / ٣٣٤).

(٣) - هكذا في الأصل، وفي تاريخ بغداد دون «لي».

* - في تاريخ بغداد: ففطنت.

(٤) - هو قيس بن الملوّح المعروف بقيس ليلى أو مجنون بني عامر، وقصته في حب ليلى ابنة عمه مشهورة. انظر ترجمته في الأغاني ٢ / ١ - ٩٦، والشعر والشعراء ص ٣٥٥ - ٣٦٤.

(٥) - انظر البيتين في الأغاني ٢ / ٢٢، التعر والشعراء ٣٦٠.

وَدَاعٍ دعـا إذ نَحْنُ بالخيفِ من مِنىً فهيَّجَ أحـزانَ* الفؤادِ ومـا يَدْري
دعـا بأسمِ لَيْلى غَيْـرُهـا فكـأنما يطيرُ بلبّي طائرٌ[1] كان في صَدْري

فقال: اكتب لي هذين البيتين. فعدلتُ لأطلُبَ ورقة أكتب البيتين له فيها، فلم أجد، فرهنت خاتمي عند بقّال، وأخذتُ ورقةً فكتبتُهُما فيها، وأدركْتُهُ بها فقال: ارجع إلى منزلك. فرجعتُ ونزلت، فقال لي الخادم: اعطني خاتمك أرهنه على قوتك اليوم. فقلت: قد رهنته، فما أمسيتُ حتى بعث إليّ بثلاثين ألف درهم جائزةً وعشرة آلافٍ سلفاً لشهرين من رِزْقٍ أجراه لي». انتهى[2].

وإنّ في مثل هذه الحكاية لَاعتباراً، ومحصولُها جارٍ على مقتضى قوله: ﴿الله يَبْسُطُ الرزْقَ لمن يشاءُ من عِبادِهِ ويَقْدِرُ لَهْ﴾[3] ومقتضى قوله تعالى: ﴿نحنُ قسمنا بينهم معيشَتَهُمْ في الحياةِ الدنيا ورفَعْنَا بعضَهُمْ فوقَ بَعْضٍ دَرَجات ليتّخِذَ بعضُهم بَعْضاً سُخْرِيّا ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يَجْمَعون﴾[4].

وأوضحُ من ذلك فيمن يُسِّرَ له الرزقُ وهُيِّىء له الخيرُ من بَعْدِ ما لحقه الاعتبار وأدركه الاضطرار ما ذكره الصولي[5] قال: رَفَعَ صاحبُ الخَبَرِ بمجلسِ القاضي أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حمّاد بن زيد[6]

* ـ في الأغاني: أطراب.

(١) ـ في تاريخ بغداد والأغاني والشعر والشعراء: أطار بليلى طائراً.

(٢) ـ انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد ١٢/٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٣) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت.

(٤) الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(٥) ـ أبـو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين الكاتب المعروف بالصولي الشطرنجي، نادم الخليفة الراضي وكان أوّلاً يعلّمه، توفي بالبصرة سنة ٣٣٥هـ. من كتبه: الوزراء، الورقة، أخبار أبي تمام، أدب الكاتب. (وفيات الأعيان ٣٥٦/٤، تاريخ بغداد ٤٢٧/٣، معجم الأدباء ١٠٩/١٩).

(٦) ـ قاضٍ بغداديّ ولد سنة ٢٤٣ هـ وتوفي سنة ٣٢٠ هـ، تقلد قضاء القضاة سنة ٣١٧ هـ (تاريخ بغداد ٣ / ٤٠١، البداية والنهاية ١١ / ١٨٣، الوافي بالوفيات ٥ / ٢٤٥).

إلى الراضي[1] أمير المؤمنين رُقْعَةً يَذْكُرُ أنّ رجلًا أَحْضَرَ مُخاصِمَه بمجلسِ القاضي أبي عمرٍ يطلبه بمائةِ دينار فألزم القاضي المدّعى عليه اليمين، إذ لم يكن للآخَرِ بيّنة، فأَخَذَ الخصمُ الدواةَ وكتب[2]:

وإنّــي لذو حَلْفٍ فاجــر[3] إذا ما اضطررت* وفي الحالِ ضِيقُ
وهــلْ من جُنـاحٍ على مُعْسِـرٍ[4] يدافِــعُ بالله ما لا يُطِيقُ؟!

فأمرَ القاضي بإحضارِ مائةِ دينار ودفعها عنه. فعجِبَ الراضي من أَدَبِ الرجلِ وكرمِ القاضي، وأمرني بالركوبِ إلى القاضي والبحثِ عن الرجل، فبحثتُ عنه أياماً حتى وجدتُه فجئتُ به إليه وأَمَرَ له بألفِ دينار وخمس خِلَعٍ ومركوبٍ حَسَن وملازمةِ دارِ السلطان، ثم قلّده الأهواز. انتهى.

وما سنّى الله لهذا المُبْتَلى بالإعْسار بعد توجّه اليمين عليه التي أفصح في بيتي شعره الطريفين أنّها (ص ٨٥) فاجرة من نحو ما سبق الإيماءُ إليه في تسنّي الرِزْقِ من حيث لا يظنّ بالسبب الذي لا يظنّ أنّه فيه سبب وبيد الله مقاليد السموات والأرض.

وقد يتعذر الرزقُ من الوجوه المعتادة لالتماسِه، وتصعب[5] الأسبابُ المأمولةُ لتسهيل شماسه، ويُسَنّيه الله من وجهٍ غيرِ معتاد منه الارتفاق ولا مألوفٍ

---

(١) ـ الخليفة العباسي أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر ولد سنة ٢٩٧هـ وتوفي سنة ٣٢٩ هـ بويع سنة ٣٢٢ هـ (انظر تاريخ الخلفاء ٣٩٠، مروج الذهب ٤ / ٣٢٢).

(٢) ـ ورد البيتان منسوبين إلى ابن الرومي في: تحسين القبيح وتقبيح الحسن للثعالبي ص ٤٤. وانظر: سمط اللآلي ١ / ١٨٨، وشرح مقامات الحريري ١ / ٩٩، محاضرات الأدباء ١ / ٢٣١، طراز المجالس ١٢٩.

(٣) ـ في تحسين القبيح: كاذب.

* ـ في سمط اللآلي: استمحت.

(٤) ـ في تحسين القبيح: مسلم.

(٥) ـ في الأصل: ويصعب.

منه الارتزاق، كما يُحكى عن عبيد الله بن قيس الرقيّات* قال: خرجْتُ مع مصعبِ بن الزبير حين بلغه شخوصُ عبدِ الملك[1] بن مروان إليه، فلما نزل مصعبُ بن الزبير بمسكن[2]، ورأى معالم الغَدْر ممّن معه، دعاني، ودعا بمال ومناطيق فملأ المناطيقَ من ذلك المال وألبسني، وقال: انطلِقْ حيثُ شئت، فإني مقتول، فقلت: والله لا أريمه حتى أرى سبيلك، فأقمتُ معه حتى قُتِل. ثم مضيتُ إلى الكوفة، فأول بيتٍ صِرْتُ إليه دخلتُه فإذا امرأة معها ابنتان لها، كأنهما ظبيتان، فرقيتُ مع درجة إلى مَشْرَبة[3] فقعدتُ فيها، فأَمَرَتْ لي بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حول، تقيم لي ما يصلحني. ثم تغدو عليّ في كلّ صباح، فتسألني بالصباح والحاجة، ولا تسألني من أنا، ولا أسألها من هي، وأنا في ذلك أسمع الصياح بي والجُعْل[4]. فلما طال بي المقام، وفقدتُ الصياحَ بي، وغرِضت[5] بمكاني، غدت عليّ يوماً تسألني بالصباح والحاجة، فأعلمتها أني قد غرِضت، وأحببت الشُخوصَ إلى أهلي. فقالت لي: نأتيك بكلّ ما تحتاجُ إليه إن شاء الله. فلمّا أمسيت، وضرب الليلُ برواقه، رَقِيَتْ إليّ وقالت: إذا شئتَ فانزل، فنزلت، وقد أعدّت راحلتين، عليهما ما أحتاج إليه، ومعهما عبد، وقد أعطت العبدَ نفقةَ الطريق، وقالت: العبدُ والراحلتان لك. فركبتُ

* ـ انظر ترجمته في الأغاني ٥ / ٧٣ ـ ١٠٠.

(١) ـ في الأصل: عبد الله، والصواب من الفرج بعد الشدة والأغاني.

(٢) ـ البلدة التي قتل بها مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ، وآثارها ما زالت ماثلة ويسميها أهل المنطقة: خرائب مسكين، وتقع على نهر دجيل عند دير الجاثليق وبها قبر مصعب (معجم البلدان / ياقوت).

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: مستشرف، والمَشْرَبة ـ وتضم الراء ـ الغرفة والعِلّية والصُفّة (القاموس المحيط: شرب).

(٤) ـ الجُعْل: العطيّة أو المِنْحة (لمن يقبض على ابن قيس الرقيّات).

(٥) ـ في الأصل: عرضت، والصواب من الفرج بعد الشدّة، وغرِضت: ضجِرْتُ ومللت (القاموس المحيط: غرض).

وركبَ العبدُ حتى طرقتُ منزلي، فقالوا: مَنْ هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيّات. فولولوا، وقالوا: ما فرقنا[١] طلبك إلاّ في هذا الوقت. فأقمت عندهم حتى أسحرت، ثم نهضتُ ومعي العبدُ حتى قدِمْتُ المدينة، فجئت عبدَ الله ابن جعفر بن أبي طالب عند المساء، وهو يعشّي أصحابه فجلستُ معهم، وجعلتُ أتعاجَمُ وأقول أبيار أبيار[٢] (أي هات الماء)[٣]. فلما خرج أصحابه وكشفت له عن وجهي. قال: ابنُ قيس؟! قلت: ابن قيْس، جئتُ عائذاً بك. فقال: ويحهم ما أجدَّهم في طلبك وأحرصَهم عليك![٤]، ولكنّي سأكتُبُ إلى أمّ البنين بنتِ عبد العزيز بن مروان، فهي زوجةُ الوليدِ بن عبد الملك، وعبدُ الملك أرقُّ شيءٍ عليها، فكتب إليها يسألها أن تشفع إلى عمّها، وكتب إلى أبيها كتاباً يسألُه أن يكتبَ إليها يسألُها الشفاعة. فدخلَ عليها عبدُ الملك كما كان يفعل، وسألها هل من حاجة؟ فقالت: نعم، لي حاجة. فقال: قُضِيَتْ كُلُّ حاجةٍ لك إلاّ ابنَ قيس الرقيّات. فقالت: لا تستثْنِ عليّ شيئاً. فنفخ بيده فأصاب وجهها[٥]. فوضعت يدها على خدّها، فقال لها: بنيّتي ارفعي يدك، فقد قُضِيَتْ كلُّ حاجةٍ لك، وإنْ كان ابنَ قيس الرقيّات. فقالت: فإنّ حاجتي ابن قيس الرقيّات تؤمِّنُهُ، فقد كتب إليّ أبي يسألُني أن أسألَك ذلك. فقال: هو آمِن، فَمُريه[٦] ليحضر مجلسي العشيّة. فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك. فأخبره[٧] الإذن، ثم أذِنَ للناس، وأخّر إذنَ

---

(١) ـ في الأغاني: فارقنا.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: بنارينا وأي طيّار، وفي الأغاني: يار يار، ابن طيّار، ولم يترجما معناها. و «يار» كلمة فارسية معناها الصاحب والمعين، وابن طيّار أي ابن جعفر الطيار بن أبي طالب.

(٣) ـ ما بين القوسين لم يرد في الأغاني ولا في الفرج بعد الشدّة.

(٤) ـ في الأغاني: وأحرصهم على الظفر بك.

(٥) ـ في الأغاني: خدّها.

(٦) ـ في الأصل: فمر به، والصواب من الفرج بعد الشدّة والأغاني.

(٧) ـ في الأغاني: فأخّر.

ابن قيس حتى أخذوا مجالسهم، ثم أذِنَ له، فلما دخل عليه قال عبدُ الملك: يا أهلَ الشام، أتعرفون هذا؟ فقالوا: لا. قال: هذا ابنُ قيسِ الرقيّات الذي يقول[١]:

كَيْفَ نومي على الفِراشِ ولمّا ... تَشْمَلِ الشامَ غارةٌ شَعْواءُ؟!
تُذْهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبْدي ... عن حزام[٢] العَقيلةِ العَذْراءِ

فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، اسقِنا دمَ هذا المنافق. قال: الآن وقد أمّنْتُه وصار في منزلي على بساطي؟! قد أخّرتُ الإذنَ [له]* لتقتلوه فلم تفعلوا. (ص ٨٦) فاستأْذَنَهُ ابنُ قيس أن يُنْشِدَه، فأَذِنَ له فأنشده قصيدته التي يقولُ فيها[٣]:

عادَ له مِنْ كَثيرة[٤] الطربُ ... فعَيْنُهُ بالدموع تنسكِبُ
كوفيّةٌ نازحٌ محلّتُها ... لا أَمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[٥]
والله ما إن صَبَتْ إليّ ولا ... إنْ كان بيني وبينَها سَبَبُ[٦]
إلّا الذي أَوْرَثَتْ كثيرةُ[٧] في الـقَلْبِ وللحبِّ سَوْرةٌ عَجَبُ

حتى قال فيها:

إنَّ الأغرَّ الذي أبوه أبو الـ ... ـعاصي[٨] عليه الوقارُ والحُجُبُ

---

(١) ـ البيتان في الأغاني والفرج بعد الشدّة، وانظر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة والأغاني: خدام.

* ـ الزيادة بين المعقوفتين من الأغاني.

(٣) ـ وردت الأبيات في الأغاني والفرج بعد الشدة، وانظرها أيضاً في ديوانه ص ١.

(٤) ـ في الأصل: كثرة، والصواب من الأغاني والفرج بعد الشدة.

(٥) ـ في الفرج بعد الشدّة: صعب.

(٦) ـ الشطر الثاني ورد بالصورة التالية في الفرج بعد الشدة: ولا يُعْرَفُ بيني وبينها نَسَبُ.

(٧) ـ في الأصل: كيرة. وهو خطأ.

(٨) ـ في الفرج بعد الشدة: أبو العاص.

يعتدلُ التاجُ فوق مفرقِه على جبينٍ كأنّه الذهبُ

فقال له عبدُ الملك: يا ابنَ قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقولُ في مُصْعَب(1):

إنّما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ بنوره(2) الظّلْماءُ
مُلْكُه مُلْكُ عِزّةٍ(3) ليسَ فيه جَبَروتٌ ولا له كبرياءُ(4)

أما الأمانُ فقد سَبَقَ لك، ولكنْ والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً(5). فقال ابنُ قيس لعبدِ الله بنِ جعفر: ما نفعني أماني، تُركْتُ حيّاً كميّت لا آخذُ مع المسلمين عطاء. فقال له عبدُ الله بن جعفر: كم بلَغْتَ من السنّ؟ قال: ستين سنة. قال: كم تومّل أنْ تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: كم عطاؤك في السنة؟ قال: ألفا درهم. فأَمَر له بأربعين ألف درهم وقال: ذلك لك عليّ حتى تموتَ على تعمير نَفْسِك. فعند ذلك قال ابنُ قيسٍ يمدح عبدَ الله بنَ جعفر(6):

تغرب(7) بي الشهباءُ نحوَ ابنِ جعفرٍ
سواء عليها ليلُها ونهارُها
تزور امرءاً قد يَعْلَمُ الله أنّه
تجودُ له كفٌّ قليلٌ غرارُها

---

(1) - البيتان في الأغاني والفرج بعد الشدة، وانظرهما في ديوانه ص ٩١.

(2) - في الأغاني والفرج بعد الشدة: عن وجهه.

(3) - في الفرج بعد الشدة: رأفة، وفي الديوان: قوة.

(4) - في الفرج بعد الشدة: جبروت منه ولا كبرياء.

(5) - إلى هنا ينتهي الاتفاق مع الفرج بعد الشدة وانظر بقية الخبر في الأغاني.

(6) - الأبيات في الأغاني ٥ / ٨١، وديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٨٢.

(7) - في الديوان والأغاني: تقدّت.

أتـيـنـاكَ نُثْـنـي بالـذي أنـت أهـلُه
عليك كما أثنى[1] على الروضِ جارُها[2]
فواللهِ لولا أن تزورَ ابـنَ جعـفـرٍ
لكـان قليلاً في دِمَـشْـقَ قرارُهـا
إذا مِتُّ لم يُوصَـل صديقٌ ولـم تُقَـمْ
طريقٌ منَ الـمعـروفِ أنـتَ مَنـارُهـا
ذَكَـرْتُـكَ أنْ فاض[3] الفـراتُ بأرضنـا
وفـاضَ بأعـلى الـرقـمتـين* بِحـارُهـا
وعـنـديَ ممـا خوّل الله هجـمـةٌ
عطاؤك منـهـا شَوْلـهـا وعِـشـارُهـا
مبـاركـةً كانـت عطاءَ مبـاركٍ
تمـانـح كبـراهـا وتَنْمي صغـارُهـا**

وإنما أردتُ من هذه الحكايةِ ما يسّر الله على يديْ عبدِ الله بن جعفر ـ أحدِ الأجوادِ المشهورينْ بالكرم ـ من التكفّل لابن قيس الرقيات برزقه إلى تمام تعمير نفسه لقوله[4]، فهي ممّا منع من الرزق ثم مما منح منه داخلة تحت هذه الصورة، وهي مما سبق فيها من توقّع الابتلاء والخوف على النفس ممّا يدخُل تحتَ الصورةِ الرابعة، ولكنّي رأيتُ هذا الموضع أخصّ بها، لما أعقب منع الرزق من تكميله وتعجيله.

---

(١) ـ في الأغاني : يثني.

(٢) ـ ورد هذا البيت في الديوان مطلعاً للقصيدة.

(٣) ـ في الأصل: أفاض.

* ـ في الديوان والأغاني : الرقّتين.

(٤) ـ هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة : «لموته»، أو «لفوته».

** ـ انظر هذه الحكاية في الفرج بعد الشدة ٤ / ٢٨١ ـ ٢٨٦، والأغاني ج ٥ / ٧٦ ـ ٨٠.

وأغربُ مما حكيَ عن ابن قيس الرقيّات في تسنّي الرزق مِنْ غير أسبابه المعتادة، وحصول الغنى بعد الفقر على غير جَرْي العادة، ما حدّث بعضهم، قال: كان بمدينة السلام رجلٌ من أهل اليسار، فبينا هو ذات يوم في مجلسه، وقد جلس يأكلُ مع زوجته، وبين أيديهم سكباجة[1]، قد فاحت رائحتها، إذ دنا سائلٌ من الباب، وغشاه، ممّن امتحن بنكبة بعد نعمة فقال: اطعموني من فضل ما رزقكم الله، فقامت المرأة وغَرفَتْ له من القِدْر، وأخذت رغيفين لتُناولَه، فلمّا رأى الزوجُ ذلك حلفَ عليها ألّا تدفع إليه شيئاً. ومضى السائلُ جائعاً حزيناً، فاستوفى الرجلُ شأنَه وطعامَه واشتغل بشأنه وقعد فوقَ السطح لبعض حاله، فعثر بشيء وتنكّس، فوقع إلى أسفل فاندقّت عُنُقُه فمات مِنْ ساعته وحازت المرأةُ ميراثَه وتصرفّتْ فيه. وضرب الدهر ضربانه، وأتى لهذا الحديث مدّة، وكان السائلُ الذي قد دنا مِنْ باب الدار وانصرف خائباً كئيباً لما لقي من قُبْح الردّ وما هاج به من شهوة الطعام الذي شَمَّ رائحته عاد إلى منزله من وقتِه ولم يملِكْ إلا مضربة معلّقة، وكان اشتراها من الحاج، متّسخة قذرة، وحملتْهُ شهوةُ الطعام على المضربة أن يبيعها، (ص ٨٧) ويصرفَ ثمنَها في نفقة طعام، مثل الذي شمّ، وأراد أن يفتقها فيغسلَها ثم يبيعها، ففتّشها، فإذا فيها ألفُ دينار وسطَ الحشْو، فأخذها الرجل، وغيّر ببعضها حاله، وشغل بعضها في التجارات، وحسنت حاله، وطلب امرأة يتزوّجها، فقالت له بعضُ الدلّالات: إنّ هاهنا امرأة جميلة مُوسِرة قد ورثتْ عن زوجها مالاً كثيراً، فهل لكَ فيها؟. قال: نعم. فخطبها، والتأم الأمرُ بينهما، وبنى بها، وحمد كلُّ واحدٍ صاحِبَه، واتّفقا أحسن الاتفاق. فبينما هما يوماً من الأيّام يتحدثان، وقد وصف الرجلُ لها ما دُفع إليه في بعضِ الأيّام مِن المحنة العظيمة، إذ سألْتُه المرأةُ أن يحدّثها بأمرّ شيء جرى عليه، وأصعب ما دُفعَ إليه، فقال الرجل: ما مرّ عليّ أصعبُ مِن وقتٍ دُفِعْتُ فيه إلى شدّةٍ شديدة، حتى اضطررتُ إلى السؤال، فدنوتُ يوماً من باب دار، وشممتُ من الدارِ رائحةَ سكباجة طيّبة،

---

(١) ـ في ثمرات الأوراق· دجاجة مشوية.

كدتُ أجنّ حرصاً عليها وشهوةً لها، وقامت المرأة لتعطيني منها، فمنعها الزوج، وحلف بطلاقها أنّها لا تعطيني منها، فانصرفتُ وأنا قِلقٌ حزين، إذ كنتُ بعقِبِ علّةٍ شديدة، وقد أبللتُ منها، وكنتُ أشتهي كلّ شيء كما يعتري الناقة. فتبسَّمَتِ المرأةُ تعجّباً، وقالت: فهذه هي الدار، وأنا هي تلك المرأة، وإنّ زوجي صَعَدَ في ذلك اليوم، الذي ردّك فيه الردّ القبيح، هذا السطح، فتنكّس فيه، ووقع واندقّت عنقه، ومات من حينه، وقد أورَثَكَ الله مالَه ومسكنَه وزوجته. قال: فسجد الرجلُ شُكْراً لله عزّ وجلّ، واستأنَفَ نيّةً جميلةً في طلبِ مرضاة الله تعالى، وبقي طولَ عُمْره في نعمةٍ شاملة. انتهى*.

وإنّ في هذه الحكايةِ لمُعْتَبَراً[1] لأولي الألباب، وشاهداً هذه[2] المنية الدحيّة[3]، وما اشتملت عليه من الفظاعة لما سبق تقريره من كون مثل ذلك من صفةِ الموت غير المعتادة، مما كسبت الأيدي واجترحَتْ النفوس. وقد لا يبعد أن يحرم الردّ في مثل هذه الصورة، فقد كان الطعام موجوداً للمسؤول والضرورة ماسّة للسائل بشاهد حاله الذي دعاه إلى بيع مُفْتَرَش نومه على خمول قدره ونزارة ثمنه. ومعلومٌ أنّ الحاجةَ إذا كانت بهذه المثابة[4] والفاقة إذا أكْدت إلى هذا القدْر، والمطلوب منه من الغنى على حالة هذا الرجل، فقد انتقل فرضُ الكفاية في حقّه، ومواساة المحاويج إلى فَرْض العَيْن بسدّ جوعة أخيه الذي لو شاء الله أن يُغنيَه حتى يعود مسؤولاً، ولفقر الآخر حتى يصير سائلاً،

* ـ وردت الحكاية مختصرة في ثمرات الأوراق ص ٣٨٨، المستطرف ١ / ٢٧.

(١) ـ في الأصل: لمعتبر.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل، ولعلها مشتقة من دحا البطن: استرسل إلى أسفل.

(٤) ـ مثابة البئر: مبلغُ جموم مائها وما أشرف من الحجارة حولها أو موضع طيّها. (القاموس المحيط: ثوب).

أو يورثه ماله كالواقع في هذه الحكاية لَفَعَل. ولهذا يقولُ القاضي منتخَبُ الدين ابن أبي الوفاء ـ رحمه الله:

لا يأسفُ المرءُ للأرزاقِ إن قَصُـرَتْ ولا يُطيلنّ طولُ الـدَّهْـرِ من أَمَلِهْ
إنّ المنايا لذي[1] الآمالِ راصدةٌ والـرزقُ أسرعُ نحو العبْدِ من أَجَلِهْ

فكأنه عبّر عن هذا الواقع المشتمِل على منيّة المؤمِّل وإسراع الرزق للآخر.

وقريبٌ من هذا، وإنّ لم يشبهْهُ مِنْ كُلّ الوجوه، ما حدّث به هبةُ الله ابن ابراهيم بن المهديّ قال[2]: سمعتُ أبي يحدّث أنه دخل يوماً إلى الخيزران أمّ الرشيد قال: فوجدتُها جالسةً على نمط أرمينيّ، وعن يمين البساط ويساره نمارقُ أرمينيّة، وعلى أعلى نمرقة منها بنتُ سليمان بن علي[3]، وعن يسار النمارق أمّهاتُ أولاد المنصور والمهديّ والهادي ونسوةٌ من بني هاشم، والبساطُ والنمطُ والنمارق في صحن الدار المعروفة بدار الخيزران، إذ دخلت جارية فقالت: يا سيدتي إنّ بالباب امرأةً رثّةَ الحال والثياب[4] جميلةَ الوجهِ بارعةَ الجمال عَذْبةَ الكلام يدلُّ خُلُقُها على أنّها كريمة الأصل، تستأذِنُ، وقلتُ لها قولي من أنتِ، قالت لا يمكن أنْ أقولَ ذلك إلّا لها أعزّهاالله فما تأمرين؟ قالت: تَدْخُل. فدخلت امرأةٌ رثّة الثياب[5] (ص ٨٨) فسلَّمَتْ ثم قالت: يا زوجةَ أميرِ المؤمنين أنا مُزْنة زوجة هشام بن عبد الملك ثم زوجة مروان بن محمد بعده، نكبني الزمانُ، وزلّت بي النعل، حتى أصارتني إلى ما تَرَيْن. قال: فجالت الدموعُ في عينَيْ خيزران، فرأت ذَلك زينبُ بنتُ سليمان فخشِيَتْ

(١) ـ في الأصل: لدى.

(٢) ـ وردت القصّة في: مروج الذهب ٣ / ٣٢٣، المستجاد ٢١ ـ ٢٥، الفرج بعد الشدة ٤ / ٧٥ ـ ٨٢.

(٣) ـ في المستجاد والفرج بعد الشدة: زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس (ترجم لها البغدادي في تاريخ بغداد ١٤ / ٤٣٤).

(٤) ـ في الأصل: والشباب.

(٥) ـ في الأصل: الشباب.

أن يدركها عليها[1] رقّة فقالت: يا أمَّ أمير المؤمنين اتّقِ الله أن تدخلك على هذه الملعونة رقّة فتبوئي[2] بمقعدك من النار. ثم التفّت إلى مزنة، فقالت: «يا مزنة أنسيت دخولي عليك بحرّان[3] وأنتِ جالسةٌ في صحنِ دار مروان على هذا النمط بعينه، وعن يمينك وشمالك هذه النمارق بعينها، وعليها أمّهات جبابرتكم، وقد مثلتُ في هذا المكان الذي أنت فيه الساعة، وأنا أتضرّع إليكِ واستوهبك جثّةَ إبراهيمَ الإمام[4] - رضي الله عنه - وأسألك أن تسألي[5] مروانَ هِبَتَها لي ألاّ يمثّل بها، وقولك وأنت مكحّلة: ما للنساءِ والدخول في أمور الرجال؟! ثم أمرتِ بإخراجي في غِلظة، فلجأتُ إلى مروان، فوجدتُه على حالٍ أحسنَ تعطّفاً عليّ منكِ، وأنّه قال: «قد ساءتْني وفاة ابن عمّي، وما أردتُ المَثُلَةَ بابنِ عمّي، وكيف يمثّل الرجُلُ بابن عمّه؟!» وخيّرني بين دفنه ودفعه إليّ، فاختَرتُ دفعه إليّ. وأمر له بجهاز، فقبلْتُه منه!». فالتفتَتْ مُزْنَةُ إلى خيزران، فقالت: قد صدقَتْ زينبُ في قولها ووصْفِ ما صَنَعْتُ لها، وذلك الفعلُ مني هو الذي أحلّني هذا المحلَّ، وأوقفني هذا الموقفَ، والسعيدُ من اتّعظَ بغيره. ثمّ ولّت لتخرج، وأشارت الخيزران إلى بعض خَدَمِها أن تميل بها إلى بعضِ مقاصِر الدار، وأدركتْها وهي تقول: ﴿**وضَرَبَ الله مثلاً قريةً كانَتْ آمِنةً مطمئنّة، يأتيها رزقُها رَغَداً من كلّ مكان، فكَفَرت[6] بأنعُمِ الله، فأذاقها الله لِبَاس الجُوعِ والخَوْف بما كانوا يَصْنَعون**﴾[7] فمالت بها الخادمُ حتى إذا قامت زينب. ثم وثبت الخيزران وأمرت الجواري بإدخالها الحمّام،

---

(١) ـ في الأصل: عليه.

(٢) ـ في الاصل: فتبوأ.

(٣) ـ في الأصل: تجرّان.

(٤) ـ في المستجاد والفرج بعد الشدة: ابراهيم بن محمد.

(٥) ـ فى الأصل: تسئل.

(٦) ـ في الأصل: فكّرت.

(٧) ـ الآية ١١٢ من سورة النحل.

وقالت لهنّ: افْعلن بها مثلَ ما تَفْعَلْنَ معي. وجعلتْ تسأل عنها ساعةً بعد ساعة، فخرج الجواري فقلن: ما هذا؟! هي والله تُطالبنا من الخدمة بما لا تطالبيننا أنت به. وأمرت بألوانٍ من الثياب، فأُحضِرَتْ، وأمرت الجواري أن يُحْضِرن من الثيابِ إليها إذا خرجت، لتلبس منها ما تريد، حتى إذا خرجت بُخِّرَتْ بأصنافِ العود، وطُيِّبت بأصناف الطيب. ثم أمرت بإحضار الطعام، فأُحْضِر، وَجَعَلَتْ تلقُمها، وتدع كلّ ما تستطيبه بين يديها، وكذلك كلّ من حضر المائدةَ كان يفعل كفعلِ الخيزران، وتقول: ما فيكم أحوجُ للطعام منّي، لبُعْدِ العهد به. حتى إذا فرغت من الأكل قامت الخيزران وأقامَتْها معها، وأدارتها في عِدّةٍ من ديارها، وقالتْ لها: بحقِّ الله عليكِ إلاّ انظري أيّما اوفق لقلبك. ففرشَتْ ما اختارته من الدور بأنواع الفرش، واعدّت فيه كلّ ما تحتاج إليه من صفـرٍ وغير ذلك، ووهبت لها عشرين جارية صغاراً، وطبّاخاتٍ وخبّازات، وملأتْ خزائنها بثياب وآلات، وحملت إليها عشرةَ آلافِ دينار ومائةَ ألفِ درهم، وسألتها البَعْثَ إلى من بقي من جواريها، ومن أحبته من خاصّتها، فَحَلَفَتْ ألاّ تفعل، وألاّ تزيد على ما اختارته لها شيئاً، وأقامت في مكانها في أجلّ من حالها أيّامَ دولتها، وبقيت كذلك إلى أن هلكت. انتهت(١).

وفي هذه الحكاية موعظةٌ عظيمة واعترافٌ من مُزْنَة بما فعلت بقبحِ ما فعلته مع زينب، واعتقادُ كونِ ما أصابها بسببِ ما أسلفَتْهُ من شناعةِ ردّها، حسبما شهد به غيرُ آية، وتعذّر في محلّه من هذا الموضوع، والمقصودُ منها هو ما منّ الله به من جَبْرِ حالها من جهةِ الدولة المضادّةِ لدولةِ قومِها المُعْتَقَدِ منها عكس الواقع لها، فالله قادرٌ على أن يأتيَ بالفائدة على أيدي الأعداء وبالغائلةِ على أيدي الأودّاء.

---

(١) ـ وردت الحكاية بتفصيلات مختلفة في: الفرج بعد الشدة ٤ / ٧٥ ـ ٨٢ والمستجاد للتنوخي ٢١ ـ ٢٥، ومروج الذهب ٣ / ٣٢٣.

ومن ذلك ما حكاهُ الشيخ تاجُ الدين في «لطائِف المِنَن»[1] قال[2]: قال الشيخ أبـو الحسن، يعني الشاذلي[3]: كنتُ في بعض سياحتي[4] وقد أويتُ إلى مغارةٍ بالقربِ من مدينةٍ للمسلمين، فبقيتُ ثلاثةَ أيّام لم أطْعَم شيئاً فبعد ثلاثة أيّام دخل عليّ ناسٌ من الروم كانت قد أرْسَتْ سفينَتُهم هنالك (ص ٨٩) فلما رأوني قالوا هذا قسّيسٌ من المسلمين ووضعوا طعاماً وإداماً كثيراً، فعجِبْتُ كيف رُزِقتُ على أيدي الكافرين ومُنِعْتُ ذلك من المسلمين. فإذا النداء عليَّ يُقَالُ لي: ليسَ الرجلُ من يُنْصَرُ بأحبّائه وإنما الرجل من يُنْصَرُ بأعدائه. انتهت.

ولا تخلو هذه الحكاية من دخولها في باب الكرامات.

وقد يُحالُ بين الإنسان وبين تَطَلُّبه من رزقه، فييسّره الله على يَدَيْ من شاء من خَلْقِه، كما يُـحْكَى عن إبراهيم بن أدهم[5] أنه قال: كنت ضيفاً لبعض

(١) ـ الكتاب المذكور هو كتاب «لطائف المنن في مناقب الشيخ سيّدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن رضي الله عنهما» لابن عطاء الله السكندري. (انظر النفح ٢ / ١٩٠) والمؤلف هو تاج الدين أحمد بن محمد السكندري المالكي الصوفي الشاذلي المعروف بابن عطاء الله، له عدة مؤلفات في التصوف توفي في القاهرة سنة ٧٠٩ هـ (الدرر الكامنة ١ / ٢٧٣، الديباج المذهب ٧٠).

(٢) ـ لطائف المنن ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) ـ أبـو الحسن علي بن عبـد الله الشـاذلي رأس الطريقة الشاذلية، ولد في تونس سنة ٥٩١ هـ وتوفي في الحجاز سنة ٦٥٦ هـ كان ضريراً، رحل إلى المشرق وله عدة مصنفات (انظر: المفاخر العليّة في المآثر الشاذلية لاحمد بن محمد بن عيّاد، نكت الهميان ٢١٣، لطائف المنن ١٣٥).

(٤) ـ في الأصل: ساحتي.

(٥) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي، أصله من بلخ، روى عن جماعة من التابعين، وقد كان من الزهاد، وله كرامات توفي سنة ١٤٠ هـ في الجزيرة ودفن في صور (وفيات الأعيان ١ / ٣١، كتـاب التوابين ١٤٩، حلية الأولياء ٧ / ٣٦٧، طبقات الأولياء ٥ ـ ١٥، فوات الوفيات ١ / ١٣ ـ ١٤، طبقات السلمي ٢٧، شرح مقامات الحريري ٣ / ٣٨١). وفي فوات الوفيات نقلاً عن البخاري أنه توفي سنة ١٦١ هـ.

القوم، فقدَّمَ المائدة، فنزل غرابٌ وسَلَبَ رَغيفاً، فاتبعته تعجّباً، فنزل في بعض البلاد، وإذا هو برجل مُقَيّد، مشدودِ اليدين، فألقى الغرابُ ذلك الرغيفَ على وجهه. انتهت. فحقٌّ على من تعذّر له الرزق أن يتأمّل مثلَ هذه الحكايةَ، ويعلم أن كلَّ دابةٍ على الله رزقُها، والذي تكفل برزق هذا المقيَّد المشدودِ اليدين هو الكفيلُ برزقه، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِرُ له، فليثِقْ به وليعلق بما في خزائنه التي لا تقيد[1] أمله.

ولمن حدث له العزلُ من الولايةِ، والتأخيرُ عن الرتبةِ، الأسوةُ في سعدِ ابن أبي وقاص- رضي الله عنه - لما عُوِّضَ منه في ولايةِ الكوفةِ الوليد بنُ عقبة، فإن سعداً - رضي الله عنه - خيره[2] من كل معزول بعده، ولو كان من الشرف في الغاية التي لا تُلْحَق، ومن استكمال شروط الولاية في الحدّ الذي لا يُدْرَك. كما أن المُعَوَّض اليومَ ممّن قبله - وإن لم يكن مثله - فلن يقصر عنه قصور الوليدِ عن سَعْد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فقد حكي عن ابن دأب[3] قال: لما وَلَّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة على الكوفة قَدِمَها وعليها سعدُ بنُ أبي وقاص، فأخبر بقدومه؛ فقال: وما صنع؟ قالوا: وقف في السوق يحدّثُ الناسَ هناك، ولسنا ننكر شيئاً من شأنه. فلم يلبث أن جاء نصفُ النهار، فاستأذن على سعد فأذن له، فسلّم عليه بالإمرة* وجلس معه، فقال له سعد: ما أقدمك أبا وهب؟ قال: أحببتُ زيارتَك. قال:

---

(١) - هكذا في الأصل، ولعلها تحريف لكلمة: تنفد.

(٢) - هكذا في الأصل وربما كانت: خيرٌ.

(٣) - هو أبو الوليد عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب من بني ليث بن بكر من المدينة المنوّرة، رحل إلى بغداد وأقام بها، وكان راوية وافر الأدب، وعارفاً بالنسب وأيام العرب والسير، وكان من جلساء الخليفة الهادي (تاريخ بغداد ١١ / ١٤٨ - ١٥٢).

* - في الأصل: الأمر، والصواب من الأغاني.

وعلى ذلك جئت بريّاً[1]؟ قال: أنا أرزنُ مِن ذلك، ولكن القومَ احتاجوا إلى عملهم، فسرّحوني إليه، وقد استعملني أمير المؤمنين على الكوفة. فمكث طويلاً ثم قال: لا والله ما أدري أَصَلَحْتَ بعدنا أم فسَدْنا بعدك! ثم قال:

خُذيني فجرّيني ضِباعُ وأبشري[2] بلحمِ امرىءٍ لم يَشْهَدِ اليومَ ناصرُه

فقال له: أما والله إني لَأَقْوَلُ للشعرِ مِنْك وأرْوَى له، ولو شئتَ لأجَبْتُك، ولكني أدَعُ ذلك لما لا تعلم، نعم وقد والله أمرت بمحاسبتك والنظرِ في أعمالك. وبعث إلى عمّاله فحبسهم[3]، وضيّق عليهم فكتبوا إلى سعد يستغيثونه فكلّمه فيهم: أَوَ للمعروفِ عندك موضع؟ قال: نعم والله. وخلّى سبيلهم[4].

ولن يتّضح وجهُ التأسّي في عزلِ سعد - رضي الله عنه - وتولية الوليدِ مكانَه إلّا ما حُكِيَ عن الوليد في ولايته حسبما ذَكَرَ ذلك أبو عبيدة وهشامُ بن الكلبي والأصمعي[5] قال: كان الوليدُ بنُ عقبة زانياً شريب خمر، فشرِبَ الخمر بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبحَ في المسجد الجامع، فصلّى بهم أربَعَ ركعات، ثم التفتَ إليهم فقال: ازيدكم، وتقيّأ في المحراب، وقرأ بهم في الصلاة وهو يَرْفَعُ صوتَه[6]:

عَلِقَ القلبُ الربابا بعدما شابَتْ وشابا

فَشَخَصَ أهلُ الكوفة إلى عثمان، فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشُربِ الخمر، فأوتي به، فأمر رجلاً يضربه الحدّ، فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابَتي من

---

(١) - هكذا في الأصل وربما كانت: بديّاً أي بادىء الأمر، وفي الأغاني: وعلى ذلك أجئت بريدا؟

(٢) - في الأصل: خزنني وجرمني ضياع والبشرى، والصواب من الأغاني.

(٣) - في الأصل: فحسبهم، والتصويب من الأغاني.

(٤) - الأغاني ٥ / ١٢٣ - ١٢٤، مروج الذهب ٢ / ٣٤٣.

(٥) - عن هؤلاء الثلاثة أخذ صاحب الأغاني (٥ / ١٢٦) روايته.

(٦) - البيت في الأغاني ٥ / ١٢٦.

أميرِ المؤمنين. فتركه، فخاف عليُّ بن أبي طالب أن يُعَطِّل الحدّ، فقام إليه فحدّه، فقال له: نشدتك الله والقرابة، فقال له عليّ عليه السلام: اسكُتْ فإنما هلَكَتْ بنو اسرائيل لتعطيلِهم الحدود، فضربه وقال: لِتَدْعُني قريشٌ بعد هذا جلاّدَها. انتهت[1].

وفي معنى هذه الواقعة قال جمالُ الدين أبو الفضل الشيباني[2]:

الـدهـرُ كالـمـيزانِ يَرْفَـعُ ناقـصـاً
أبـداً ويخـفِضُ زائـدَ الـمِـقْـدارِ

(ص ٩٠)
وإذا انـتـحـى الإنـصـافُ عادَلَ عدلَـهُ
في الـوزنِ بين حديدةٍ ونُـضـارِ[3]

فكيف لا يُتَسَلّى عن الولاية، ما كانت، إذا عُزِلَ سعدٌ أحدُ العشرة المشهودِ، لهم بالجنة والذي فداه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأبيه وأمه وغير ذلك من خصائصه، وعُوِّض منه الوليدُ بنُ عقبة هذا. إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الألباب.

وليس هذا الكلام في الانتصارِ لسعد ـ رضي الله عنه ـ ممّا يبخس به عثمان حقّه فقد أقام عليه الحدّ لما شهد عنه بما أوجبه، وعزله ذميماً لمّا صحّ عنده عدمُ استحقاقه، وإنما العجب فيما تجري به الأقدار، ويأتي به الليلُ والنهار، سنّةُ الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

---

(١) ـ انظر: الأغاني ٥ / ١٢٦، العقد ٥ / ٥٥ ـ ٥٧، ٨ / ٥٥، مروج الذهب ٢ / ٣٤٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٥٤ ـ ١٥٥، وقد تم هذا العزل سنة ٢٥ هـ.

(٢) ـ أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن الأخوة العطار، محدث، نسخ كتباً كثيرة. توفي بشيراز سنة ٥٤٨ هـ (فوات الوفيات ٢ / ٣٠٩).

(٣) ـ البيتان في فوات الوفيات ٢ / ٣١٠.

وهذه اللاحقةُ المسمّاة بالعَزْل من أعظم ما يطرقُ أبناءَ الدنيا المترقِّين فيها العسير عليهم مرُّ فطامها. فقد أشار إلى ذلك النبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «**فنِعْمت**[1]**المُرْضِعةُ وبِئْسَت الفاطمة**»[2]. وإنما ذلك ـ والله أعلم ـ لما يشتمل عليه هذا الابتلاء من لَحاقِ الخمول، وإدراكِ الاحتقار، وضَعة المنزلة، وانحطاطِ المرتبة، وكلّ هذه مضادةٌ لما جُبِلَتْ عليه النفوس المتطلّبة للرئاسة، وهي آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين، فلا يبلغ الوصف مقدارَ اللاحق بالعزل من الحزنيات[3] التي تصعب على من امتُحِن[4] به، وتثقل على من ابتُلِيَ بكرْبه، وذلك بيّن، لأن الولاية من العزل على طرفيْ النقيض، والانتقال من حالة إلى حالة تُضادُّها، على غير تدريج، صعبٌ جداً. ومن هنا يوجد للمعزول اضطرابٌ ربّما أخرجه عن حدّ الاعتدال، واستنقص فيه فعله من كان بمنجاةٍ من السبب الذي أوجب له ذلك كمن لم يتلبّس بولاية قطّ، فإنه يستصعِبُ عقلَ الواجدِ من عزلته، ويتعجّب من وهن سبب انفعاله[5] ويرى أنه مُغالٍ[6] فيما ادّعاه من الأعراض الطارقة له. ويحقّ أن يكون له ذلك فإنه على البراءة الأصلية لم تدرّ عليه تلك المرضعة، التي هي بئست الفاطمة، أخْلافَها الملذوذة، وإنما يشاهد من حاله ما غطّى عليه هواه[7] الذي هو إله معبود، من لواحق لا تفي لذّةَ الولاية بتجرّع غُصَصِها ولا تحمُّل كُرَبها، ولكن هي سنةُ الله في خَلْقه ولن تجد لسنّةِ الله تبديلا. فهو القائلُ[8] سبحانَه: ﴿**ورفعنا بعضَهم**

(١) ـ في الأصل: فنعمة.

(٢) ـ صحيح البخاري ٨ / ١٠٦، سنن النسائي ٧ / ١٦٢، مسند ابن حنبل ٢ / ٤٤٨، ٤٧٦.

(٣) ـ في الأصل: الحرنيات.

(٤) ـ في الأصل: استحق وهي تصحيف للمثبت.

(٥) ـ في الأصل: الفعالة.

(٦) ـ في الأصل: مغي.

(٧) ـ في الأصل: هونه.

(٨) ـ في الأصل: الفاعل.

فوقَ بعضٍ دَرَجات ليتّخذ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً ورحمةُ ربّك خيرٌ ممّا يَجْمَعُون﴾[1].

وعلى صَرْفِ النظر عمّا تعاضد به العقلُ والنقلُ من الاجتناب لهذه المهنة والابتعادِ عن هذه الرتبة فإنَّ من ابتُلي بالولاية وارتضاها لنفسه منزلة، وحَكَمَتْ له الأقدارُ بأنها بابُ معيشته وسبيلُ اكتسابه ومنها قُسِمَ رزقه وبها خُلِقَ تصرُّفُه، فإنّ آكَدَ ما يجب عليه نصرُ المظلوم وإبلاغُ السلطانِ حاجةَ من لا يستطيعُ إبلاغَها، وما أشبه ذلك ممّا عدّه الناسُ أنّه زكاةُ الجاه، وذلك بعد إصلاح نيته في القيام بما أُسْنِد له، والتوفية لما وُلّيَ عليه، فإن إضاعةَ ما أُسْنِدَ له ووُلّيَ عليه أعظمُ سببٍ في الاستعاضة به والاستبدال منه إن سَلِم من جزاءِ التفريط والتضييع، وإلاّ فقد يمكن أن يكون ذلك سبباً مستَغلاً في التنكيل به زيادةً لما خشيه من العزاء، ويغلبُ على الظنّ غلبةً قويةً أنّ هذا المعنى من إضاعة المُسْنَدِ للمتولي أيَّ ولاية كانت هو الذنبُ الموبِق الموجب لعقوبة العزل إمّا وحدها وإما مع ما يلائمها عادةً من لحاق الهون وإدراكِ الاحتقار وتسليطِ المُسْتَضْعَبِ والاستبدالِ مِنْ الأمانِ بالخوف والاستعاضة من العزّ بالذلّ، ووجه ذلك بيّن، فإنا إذا فرضنا هذا المعزول حَكَماً أقامه الله للأخْذِ على يد الظالم حتى ينتصر المظلوم، وللجزالة على الماطل حتى ينتصِف الممطول، وللقسْوةِ[2] على المعتدي حتى يأمن الخائف، وللشدة على المتّهم حتى يأمن البريء، فإذا عطل ما هو بسبيله وعجز عمّا أُمِرَ بإقامته بتمرّد الظالم، وانطوى على أسفه المظلوم وتلذّذ الماطلُ وغُلِبَ على حقّه الممطول وتأمّن المعتدي وازدادت رهبةُ الخائف وتجرّأ المتّهم وأُخِذَ بجنايته البريء، وفي هذا من مضادّة الشرع ومضادّته[3] الحقّ ما لا يستقرّ معه الملك ولا تستقيم (ص ٩١) عليه

---

(١) ـ الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(٢) ـ في الأصل: النسوة.

(٣) ـ هكذا في الأصل.

الدولة؛ فإن كان الأمر جزئياً[1] فربما لحقت العقوبة مثله، وإن كان كليّاً[2] فربما شملت العقوبة، ويتنزل من ذلك مثل حالنا قريباً، فقد كانت الأخذةُ عظيمة، والعقوبةُ فظيعة[3]، والنكالُ شاملاً، والعذابُ واقعاً، ولا تظنّ الموجِبَ لذلك إلاّ ما قدّمناه من هذا الذنب الكبير، والإثم العظيم فإنا لله وإنّا إليه راجعون. ثم إن الله جلّت قدرتُه، وتعالى في عظمته، أقال من تلك العَثْرة، وفرج من تلك الكُرْبة، ووقى من الاستئصال بتلك الأخذة، ثم أعاد الدولةَ غضّة، وأعقب من الفُرقة أُلفة، وعوّض من العذاب رحمة، إعذاراً ـ فيما يظهر ـ إلينا، وإبلاغاً في إقامة الحجّة علينا. ثم لا يبدو كون ذلك من النعم التي يجزلها، والمواهب التي يخوّلها، إلاّ إنْ عرفنا قدر التمحيص السابق فاستقمنا، وحقّقْنا ما أضعنا ممّا أمر به فأنفذنا حكمه وأقمنا، وتبيّن لنا الخطأ فيما كنا نأتيه وَنَذَرهُ، وتيقنّا أنه العزيزُ الجبّار، فنخشى انتقامه ونحذره، وإذ ذاك يتعيّن أنّ تلكَ الإقالة نعمة، وأنّ صَرْفَ ما كان قد أزِفَ من العذاب رحمة، وإلاّ فهو استدراجٌ وإملاء، ومِنْحةٌ في طيّها بلاء، عياذاً بالله من ذلك، عياذاً بالله من ذلك. يقول الله تعالى: ﴿**ولقد أرْسلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِك فأَخَذْناهُم بالبأْسَاءِ والضَرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتضرَّعُون * فَلوْلا إذْ جاءَهم بأسُنا تَضرَّعُوا ولكنْ قَسَتْ قُلوبُهم وزَيّن لهمُ الشَّيْطانُ ما كانوا يَعْمَلون * فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عليهم أبْوابَ كلِّ شَيْء، حتّى إذا فَرِحوا بما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فإذا هُمْ مُبْلسون**﴾[4]. ويقول: ﴿**وما أَرْسَلْنا في قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أَخْذنا أَهْلَها بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لعلّهم يضَّرَّعُون * ثم بدّلْنا مكانَ السَيّئةِ الحَسَنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قَدْ مَسَّ آباءَنا الضَرَّاءُ والسَرَّاءُ فَأَخَذْناهُم بَغْتةً وهم لا يَشْعُرون**﴾[5].

---

(١) ـ في الأصل: حرينا.

(٢) ـ في الأصل: كلباً.

(٣) ـ في الأصل: قطيعة وهو تصحيف.

(٤) ـ الآيات ٤٢ ـ ٤٤ من سورة الأنعام.

(٥) ـ الآيتان ٩٤ ـ ٩٥ من سورة الأعراف.

وهذا أبينُ من الشمس، فإنّ المَلِكَ إذا أدّبَ عبده باعتقال، أو سامَه بذنوبٍ من نكال، ثم أعاد له حُسْنَ نظره، وجدّد له العنايةَ، في مستقبله، فإنْ استقام زيغُه، وحسُنَ أدبُه، فالنِعَمُ لديه مشفوعة بمثلها، وما استفاده بالتأديب من حسن الأدبِ سببٌ لوصلها، وإنْ بقي على ضلالِه، وطاوع في المعصية سيّءَ خلالِه، فتجديدُ تلك النعمة أعظمُ الأسبابِ في ازديادِ الغضب عليه، واستجلابِ سُخْط الملك إليه. جعلنا الله ممن يتّبع بما ضرب له الأمثال، وتولاّنا بهدايته في جميع الأحوال.

ثم إن هؤلاء الجناة[1] الذين تصاغ[2] فيهم الأحكام، ويراغم[3]فيهم ما شرعه الإسلام، إنما هم أحَدُ رَجُلَيْن: إما شرّيرٌ ركن من أرباب الوجاهة في الدولة إلى رُكْنٍ شديد، وأوى من عنايته إلى حِصْن حصين، وهذا القسمُ هو ما كثر، فيعلن بشرب الخمر، ويجاهر بفاحشة الزنا، ويفتخر بقتلِ النفس الحرام، ثم لا يخشى من أحد نكيرا، ولا يرهب لحدٍّ إقامة، ولا يخافُ في تفويت النفسِ فما دونها قصاصاً، قد قذف الله في قلوبِ الذين راغموا الله فيهم، أنّه إن تعرّض إلى هذا اللاجىء إلى بابه، والراكنِ إلى حرمته، فإن رتبتـه تخمل، وعزّتَه تنقص، حتى وإن كان الحَكَمُ قيّومَ الشريعة، وحامِلَ الدِيانة، فلا تجابُ لقاضي الجماعةِ ممّن دونه دعوة، ولا تُـخْشى لصاحب الشُّرْطَةِ الكُبْرى ومَنْ فوقه سطوة، وهذه الجريّة المصرّفة في حماية هذا الشرير، إنما هي لمجلس[4] الأحكامِ السلطانية، من قاضٍ وصاحبِ شرطة أو مظالمٍ أو ردٍّ أو غيرهم، حتى إذا سلّط الله على هذا الشرّير مثله، وبعث لإطفاء شُعْلَتِه

(١) - في الأصل: الحناة.
(٢) - في الأصل: تصاع.
(٣) - في الأصل: ويزاعم.
(٤) - في الأصل: بمحلّى.

نظيره[١]، ضمّ[٢] حاميه عن نصره، وتقاعى[٣] عن حمايته، وأسلمه لحتفه، ووقع التغالي في اصطناع قاتِله، ودخل العَوَل في قسمة اصطحابه، وأعمل القياس في كون خاصي الأسد أجرأ منه، وقاتل ربيعة بن مكدّم[٤] أشجع منه، فلولا حكمُ السبقية إلى خطبة ودّه، وخَطَرُ مرارة مصطنع قتيله، بعد الركون لغيره، لما خلص من هذه الأنشوطة إلّا بعد السُهْمَة[٥] المشروعة لأولي التشاحّ في الحقوق، التي يُسْتَشْـرَفُ لها، وتخشى بالتغالب عليها الضغائن، ذاهلين في ذلك كلّه عمّا يعدُّ في مكارمِ مَن أيّده الله بالقوة، التي هي أشدُّ من قوّته، وأمدّه من العزّ بما هو أمكن من عزّتهم، ثم جبله من الإنصاف على ما أثبت له المحمدة إلى يوم الدين، وشهد له بالعدل إلى ما أبقاه غُرّةً في كرم أوصافه إلى لقاء الله الخبير. كما يُحكى[٦] أنّ المأمونَ كان يجلس (ص ٩٢) للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذاتَ يوم من مَجْلسِ نظره فتلقته امرأة في ثياب رثّة فقالت:

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُـهْدى به الرشدُ[٧] ويا إمــامــاً به قد أشْــرَقَ الـبَلَدُ

---

(١) ـ في الأصل: نظره.

(٢) ـ هكذا في الأصل.

(٣) ـ هكذا في الأصل، وقد تكون تحريفاً لكلمة: وتقاعس.

(٤) ـ هو ربيعه بن مكدّم من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، فارس العرب في الجاهلية وكان يضرب به المثل في الشجاعة فيقال «أشجع من ربيعة بن مكدّم» (العقد ٣ / ٨) وقاتِله هو نبيشة بن حبيب من بني خصفة بن قيس بن عجلان، وانظر خبر مقتله في (الأغاني ١٦ / ٥٦، العقد ٣ / ٢٧١) وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد غيره (العقد ١ / ٨٣).

(٥) ـ السُهمة: القرابة، والنصيب (القاموس المحيط: سهم).

(٦) ـ انظر هذه الرواية في: شرح مقامات الحريري للشريشي ٣ / ٢٤ ـ ٢٥، العقد ١ / ٢٠ ـ ٢١، نهاية الأرب ٦ / ٢٧٦، الأحكام السلطانية للماوردي ٨٤ ـ ٨٥.

(٧) ـ في شرح المقامات: يرجى له الرشد، وفي العقد والأحكام: يهدى له.

تشكـــو إليكَ عميدَ المُلْكِ أرْمَلَةٌ عدا عليهـا فمـا تَقْوى له أسَدُ[1]
فابتـــزَّ منهـا ضِياعـاً بعـد مَنْعَتِهـا لمّـا تفـرَّقَ عنهـا الأهـلُ والوَلَدُ[2]

فأطرق المأمونُ يسيراً ثم رَفَعَ رأسَه إليها فقال:

من دونِ ماقـلـتِ عيلَ[3] الـصبـرُ والجَلَدُ
وأقْـرَحَ الـقَلْبَ هذا الحـزنُ والكَمَـدُ[4]
هذا أوانُ صلاةِ الـعَـصْـر فانصـرِفـي
وأحْضِـري الخَصْمَ في اليومِ[5] الذي أعِدُ
الـمجلسُ السبتُ إنْ يُقْضَ الجلوسُ لنـا
أنْـصِـفْـكِ منــه وإلاّ الـمجلسُ الأحَـدُ

فانصـرفَتْ وحَضَـرَتْ في يومِ الأحـد أوَّلَ الناس، فقال لها المأمون: من خَصْمُكِ؟ فقالت: القائمُ على رأسِك العباسُ بنُ أمير المؤمنين. فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل بل لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلِسْها معه وانظر بينهما، فأجلسَها معه ونظر بينهما بحضرةِ المأمون، وجعل كلامُها يعلو فزجرها بعض حجّابه، فقال المأمون: دعْها فإن الحقَّ أنْطَقَها والباطل أخرسه، وأمر بردّ ضياعها عليها.

قال الماوردي[6]: ففِعْلُ المأمون في النظر بينهما حيث كان يشهد منه

---

(١) ـ في شرح المقامات: فلا يترك لها سَبَدُ، وفي العقد: فلم يُترك.

(٢) ـ في شرح المقامات والعقد:

وابتـزّ منّـي ضياعـي بعـد منعـتـهـا ظلمـاً وفُـرِّق منـي الأهـل والـولـد

(٣) ـ في شرح المقامات: زال، وفي العقد: في دون ما قلت زال. .

(٤) ـ في شرح المقامات والعقد: عني وأقرح مني القلب والكبدُ.

(٥) ـ في شرح المقامات: في الوقت.

(٦) ـ هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ، وهو صاحب كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية.

ولم يباشِرْهُ بنفسه ما اقتضته السياسةُ من وجهين: أحدهما أنه حَكَمٌ ربّما توجّه لولده أو ربّما توجّه عليه، وهو لا يجوز أن يحكم لولده، والثاني أنّ الخصم امرأة يجلّ المأمون عن محاورتها وابنه من جلالة القدر بالمكان الذي لا يقدر غيرُه على إلزامه الحقّ، فردّ النظر بمشهده إلى من كفاه محاورة المرأة في استيفاء الدعوى واستيضاح الحجّة وباشر أمير المؤمنين تنفيذ الحكم وإبرام الحق. انتهى[1].

وهذا الذي أورده الماوردي حَسَنٌ في الوجه الأول، وفيه عَلـيٌّ[2] إشكالٍ في الثاني، فإن الله تعالى يقول: **﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وتَشْتكي إلى الله واللهُ يَسْمَعُ تحاوُرَكُما﴾**[3]. فما ســاغ للنبي صلّى الله عليه وسلّم بل ما وجب عليه أن يفعله كيف يجلّ عنه غيرُه ممّن يكونُ عنه خليفة!؟ فانظر ذلك.

وحُكِيَ عن أبي عمرو السبعادي قال: صَلّينا مع المهديّ المغربَ ومعنا العَوْفيّ، يعني أبا عبد الله الحسين بن أبي الحسن بن عطية العوفي[4]، وكان على مظالم المهدي، فلما انصرفَ المهديّ من المغرب جاء العوفي حتى قعد في قبلته، فقام يتنفّل فجذب ثوبَه. فقال: ما شأنُك؟ قال: شيءٌ أوْلى لك من النافِلة. قال: وما ذاك؟ قال: سالِمٌ مولاك. قال وهو قائم على رأسه: أوطأَ قوميَ الخيلَ وغصبهم على ضيعتهم، وقد صحّ ذلك عندي، فتأمر بردّها،

---

(١) ـ انظر هذه الحكاية في: شرح مقامات الحريري للشريشي ٣ / ٢٤ ـ ٢٥، العقد ١ / ٢٠ ـ ٢١، نهاية الأرب ٦ / ٢٧٦، الأحكام السلطانية ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) ـ كذا في الأصل.

(٣) ـ الآية ١ من سورة المجادلة.

(٤) ـ أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن عطية بن سعد بن جنادة العوفي، من أهل الكوفة، ولي ببغداد قضاء الشرقية ثم نقل إلى قضاء عسكر المهدي، توفي ببغداد سنة ٢٢١ هـ (تاريخ بغداد ٨ / ٢٩).

وتبعث من يخرجهم. فقال المهدي: يصبح إن شاء الله. فقال العوفي: لا إلاّ الساعة. فقال: فلان القائد اذهب الساعةَ إلى موضع كذا وكذا فأخرِج من فيها وسلّم الضيعة إلى صاحبها. انتهت[1]. وهذه الحكاية كالتي تقدمتها أو قريب منها.

ومثل ذلك ما يُحْكى[2] عن المنصور بن أبي عامر[3] أنه وقف عليه رجل من العامّة فقال: يا ناصر الحقّ! إنَّ لي مَظْلَمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسِك، وقد دعوتُه إلى الحاكم فاستعصى. وكان لهذا الفتى فضلُ محلٍّ عند المنصور، فقال المنصور: ما كنتُ أظنُّ عبدَ الرحمن بن فطيس[4] في هذه المَنْزِلَةِ من العَجْز والمهانة، وكان صاحبَ المظالم، يا هذا اذكر حاجتك، يعني مظلمته، فقال: كانت بيني وبينه معاملةٌ جارية فقطعها من غير نَصَف. فقال المنصور: «ما أعظم بَلِيَّتَنا بهذه الحاشية» ثم نظر إلى الصِقْلِبيّ، وقد ذهب عقلُه، وقال له: «ادفع الدَّرَقة إلى فلان، وانزِل صاغراً، وساوِ خَصْمَكَ

---

(١) ـ وردت الحكاية في تاريخ بغداد ٨/ ٣٠ ـ ٣١.

(٢) ـ انظر هذه القصة في البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ والنفح ١/ ٤٠٩ مع بعض اختلاف في اللفظ.

(٣) ـ هو أبـو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالمنصور، أصله من الجزيرة الخضراء، ولد سنة ٣٢٧هـ، وكان حاجباً للخليفة الحكم المستنصِر ثم لابنه هشام المؤيّد، استبد بالأمور وقام بعدة غزوات ناجحة وبنى لنفسه مدينة الزاهرة ومات بمدينة سالم سنة ٣٩٢هـ (الحلة السيراء) ١/ ٢٦٨، البيان المغرب ٢/ ٢٥٦، النفح ١/ ٥٧٨ ـ ٥٨٦، ٣/ ٧٧ ـ ٩٤، ٣٩٦ ـ ٤٢٣، المغرب لابن سعيد ١/ ١٩٩).

(٤) ـ القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، أبو المطرف القاضي، قرطبي، فقيه، محدث، تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤هـ مقرونة بولاية صلاة الجمعة والخطبة والوزارة، وصرف عن القضاء والصلاة سنة ٣٩٥هـ وتوفي سنة ٤٠٢هـ (له ترجمة مطولة في كتاب الصلة ١/ ٣٠٩ ـ ٣١٣ وانظر: بغية الملتمس ٣٥٦، تاريخ قضاء الاندلس للنباهي ص ٨٧).

في مقامه، حتى يَرْفَعَكَ الحقُّ أو يَضَعَكَ». ففعل، (ص ٩٣) ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب الشرطة: «خذ بيد هذا الفاسقِ الظالم، وقدِّمْهُ هو وخَصْمَهُ إلى صاحبِ المظالم، لينفذ عليه حكمه في مقامه أغلظَ ما يُوجبُه الحقُّ من سجن أو غيره» ففعل، وعاد الرجل شاكراً فقال له: «قد انتصفتَ أنتَ، وبقيتُ أنا». ثم تناول الفتى بأنواعٍ من المذلّة، وأبعده وأقصاه. انتهت[1]. وهذا من ذلك، والحكايات في هذا المعنى تفوت الحَصْر، وتعوز الإحصاء، وقد وضحت حالة هذا القسم وهو الأكثر.

وأمّا مَنْ لم يركن إلى أحدٍ من هؤلاء الوجهاء، فقد قيّض الله له في قوّامِ الدَّوْلةِ من عدم الجزالة المتأول عليه معنى التثبّت، ومن إهمالِ الحقِّ المكنى عن جريرته باسم الاحتياط، ومن دَرْءِ الحدود بالشبهات، الممسوخ في قالب تبطيلها[2] البتة، ومن استشكالِ طرق ثبوتها للركب على سبيلِ التسامح[3] في صورة رَفْعِها جُـمْلةً، مُعْرِضين أيضاً في ذلك عمّا نُقِلَ عن مالك ـ رحمه الله ـ من الشدة في هذا المعنى. قال البهلول بن عبيدة: كنت عند مالك فأُتي برجل ملبّبٍ، فقالوا له: الأميرُ يقرئك السلام ويقول لك: هذا خَنَق[4] رجلاً فقتله. فقال مالك: اخنقوه حتى يَمُوتَ كما فعل به. فذهبوا به، وركِبَتْ مالكَ صفرةٌ وتشوّف، حتى مرّ به رجلٌ فأخبروه أنهم خنقوه، فرجع إلى وجهه الدم، فقال له ابن كنانة[5] في ذلك، فقال: أظننتم أني نَدِمْت لكنّي خفت أن يبطل حكم من أحكام الله[6]. وقال عبد الجبّار بن عمر: حضرتُ مالكاً وقد أحضره الوالي

---

(١) ـ الحكاية في البيان المغرب ٢/٢٨٩، النفح ١/٤٠٩.

(٢) ـ في الأصل: تسطيلها.

(٣) ـ في الأصل: التنامخ.

(٤) ـ في الأصل: أختق.

(٥) ـ عثمان بن عيسى بن كنانة يكنى أبا عمرو، من فقهاء المدينة، أخذ عن الإمام مالك وكان يجلس على يمينه ولا يفارقه. وغلبه الرأي، قعد في مجلس مالك بعد وفاته، توفي بمكة سنة ١٨٦هـ (ترتيب المدارك ١/٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٦) ـ انظر هذه الحكاية في ترتيب المدارك ١/١٨٣ ـ ١٨٤.

في جماعةٍ من أهل العلم فسألهم عن رَجُلٍ عدا على أخيه حتى إذا أدْرَكَهُ دفعه في بئر وأخذ رداءه، وأَبَوَا الغُلامَيْن حاضران. فقال جماعةٌ من العلماء: الخَيَارُ للأبوين في العفو أو القصاص. فقال مالك: أرى أن تُضْرَبَ عُنُقُه الساعةَ. فقال الأبوان: أيَقْتُلُ ابناً بالأمس ويفجع الآخر اليوم؟ نحن أولياءُ الدم وقد عَفْونا. فقال الوالي: يا أبا عبد الله ليس ثم طالب غيرهم وقد عَفَوْا. فقال مالك: «والله الذي لا إله إلاّ هو لا تكلّمْتُ في العِلْمِ أبداً أوْ تُضْـرَبَ عُنُقُه» وسكت، وكُلِّمَ فلم يتكلّم، فارتجّت المدينة وصاح الناس: إذا سكت مالك فمن يُسأل ومن يجيب. وكثر اللغط: لا أحد بمصرٍ من الأمصار مِثْلُه ولا يقومُ مَقَامَهُ في العلم والفضل. فلما رأى الوالي عزمه على السكوتِ قدّم الغلامَ فضرب عنقه، فلما سقط رأسُه التفت مالك إلى مَنْ حضر وقال: «إنما قَتَلْتُهُ بالحِرابة حين أخذ ثَوْبَ أخيه، ولم أقتله قَوَداً إذ عفا أبواه». فانصرف الناس وقد طابت نفوسُهم حين رأَوْهُ بَرَّ في يمينه، إذ كان لا يعلم أنه يحنث[1]. وقال حفصُ بنُ غياث[2]: كان مالكُ بنُ أَنَسَ يجلِسُ عند الوالي فيعرِضُ عليه أهْلَ السجن فيقول: اقطع هذ [3]، واضرب هذا مائة، وهذا مائتين، واصلب هذا، كأنه أُنزل عليه الكتاب[4]. وقال أشهب[5]: أتى بعضُ الأمراءِ مالكاً يستشيره في شيء، فدخل عليه، وأشار بقتل قوم وقطع قوم، وخرج علينا يتبسّم ويقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا اولِي الأَلْبَابِ﴾[6]. انتهى[7].

---

(١) ـ انظر الحكاية في ترتيب المدارك ١/١٨٣.

(٢) ـ في ترتيب المدارك ١/١٨٤: عياث.

(٣) ـ هكذا في الأصل وفي ترتيب المدارك: اقطع يد هذا.

(٤) ـ انظر هذا الخبر في: ترتيب المدارك ١/١٨٤.

(٥) ـ أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي، اسمه مسكين ولقبه أشهب من فقهاء المذهب المالكي، وصاحب الشافعي بمصر، ولد سنة ١٤٠ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ (ترتيب المدارك ١/٤٤٧ ـ ٤٥٤).

(٦) ـ الآية ١٧٩ /من سورة البقرة.

(٧) ـ انظر هذه الحكاية في: ترتيب المدارك ١/١٨٤.

ما قصدتُ نَقْلَهُ عن مالك في القَصْدِ المناقِضِ للحالِ الواقعةِ من إضاعَةِ الحُكْمِ وتعطيل القِصاص. حتى إذا أيقظ الله القلوبَ وشحذَ العزائم وسدّد النظرَ في الحكم بالبصائر فأمكن من واحد من ألف ممّن وجب عليه الحدُّ وأباح سفك مهجته القصاص، وهذا هو الأقلّ، أو أمكن من اثنين من عشرةٍ ممن استحقَّ التعزيرَ على حسب اجتهادِ الحاكم من بلوغٍ به أو وقوفِه دونه فتُجُووِزَ الحدّ في كليهما وتُغُوليَ في نكالهما من المثلة في الواجب عليه من القصاص، إما بالرِماح وإما بالذبح بعد السياط، ومن إماته النَفْسِ فيمن وجب عليه ما دون ذلك من التعزير بالسوط، وهذا أعظمُ من الأخرى، وإن كان كلاهما عظيماً؛ فقد قال مَعْن[1]: أفتى مالكٌ عند والي المدينةِ بِقَتْلِ رجل، فأمر الوالي بضربِ وسطِه، فتهيأ للقيام، وقال: لا أقعد في مكان مثل فيه بأحد، قال الله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِقَابِ﴾[2]. فقال الوالي: اقعد أبا عبد الله لا نَضْرِبُ وسطه، اضرِبوا عُنُقَه. انتهى[3].

وهذه المعاني التي انجرَّ بنا الكلامُ (ص ٩٤) إليها، وإنْ لم يَكُنْ من جِنْسِ ما تَكَلّمْنا فيه، فهي فيما أعتقِدُهُ اعتقاداً تامّاً من آكد ما تُسْتَدْفَعُ به التهمات، إذا امتثل ما أمر به العلماء، وتوقّي ما نَهوْا عنه، ولرقّت الجادّة، وشوهد الإسرافُ على النفوس، فرُوجِعَتِ التوبةُ، واعتُمِدَت التقوى حسبما سبق.

ولنعطف عنان هذا الكلام إلى ما كنّا بصدده. فإن كان الابتلاءُ يأتي[4]

(١) ـ أبو يحيى معن بن عيسى بن يحيى بن دينار من كبار أصحاب الإمام مالك، وهو الذي قرأ عليه الموطأ للرشيد وابنيه، وكان يتوسد عتبة مالك فلا يلفظ شيئاً إلا كتبه، وهو راوية ثقة، مات بالمدينة سنة ١٩٨هـ (ترتيب المدارك ١/٣٦٧ ـ ٣٦٩).

(٢) ـ آية ٤ من سورة محمد.

(٣) ـ ترتيب المدارك ١/٢١٩.

(٤) ـ في الأصل غير معجمة.

مما يُنْتِجُهُ شَرُّ حاسدٍ أو لَخى[1] كاشِحٍ، فالاستعاذةُ هنا دائمةٌ مشروعة، على حسْبِ ما نَصَّتْ عليه خاتمةُ سُورةِ الفَلق، ولما علم الله من وقوعِ هذه الخَلّة الذميمة التي هي الحسد حرّمها وختم هذه السورةَ الكريمةَ بالاستعاذَةِ من شَرِّ المتّصف بها[2] وورد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاستعاذةُ من شَماتَةِ الأعْداءِ[3] لا سيّما إن لَزَّ الاضطرارُ إلى مداخَلتِهِ، ودعا موجب المداراةِ إلى ملابسته، وفي ذلك يقولُ المتنبّي[4]:

وَمِنْ نَكَـدِ الـدُّنْيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى ... عَدُوّاً له ما مِنْ صَداقَـتِـهِ بُدُّ

وَحَسَدُ[5] هذا العدوِّ الكاشحِ، والحسودِ المُنافِسِ، مِنْ أعظمِ ما يلحقُ من لدنه الابتـلاء، فهو بنفسِهِ من أشدِّ التمْحيص، فكيف بما يسعى فيه من ضرّ! أو يتسبب فيه من شَرّ؟! ولذلك لا ينبغي للعاقلِ أن يحقر من هذا الجنس أحداً كما قال الشاعر:

لا تَحْقِـرَنْ أحـداً عَادَيْتَـه أبـداً ... وكُـنْ على حَذَرٍ ما عِشْتَ من ضَرَرِهْ
فالسقْطُ ليس بمـأمـونٍ لِقلَّتِـهِ ... والسَّهْمُ يَقْتُـلُ مِنْ بُعدٍ على صِغَرِهْ

وأعْدادُ القضايا في هذا الباب كثيرة، وغائلةُ الحَسَدِ على قديمِ الزمان شهيرة، ومداراةُ المنافسةِ صعبةٌ عسيرة. ومما يخفِّفُ الآلامَ عمّن لحقه أثَرُ الحسـادة كونُ الحـاسِدِ من حسده في بلاءٍ مُقيم، وجَهْدٍ عظيم، كما قال

---

(١) ـ في الأصل: لغى، واللَخى كثرة الكلام في باطل، ولاخى به: وشى به (القاموس المحيط).
(٢) ـ الآية ٥ من سورة الفلق.
(٣) ـ صحيح البخاري ٧/٢١٥، صحيح مسلم ٨/٧٦، مسند ابن حنبل ٢/١٧٣، ٢٤٦.
(٤) ـ العُرف الطيّب في ديوان أبي الطيّب ١/٢٠٥.
(٥) ـ في الأصل: وحُسْنُ.

بعضهم: «ما رأيتُ ظالماً أشْبَهَ بمظلومٍ من الحسود»[1]. ونظمه ابن المعتز فقال[2]:

لَجَّ الزَّمانُ فَلَيْسَ يعتب طرفةً[3] ... إنّ الزمانَ على الكريمِ لَئيمُ
لم يَدْرِ ما تَحْتَ التجمّلِ حاسِدٌ ... بالغَيْظِ يَقْعُدُ مرّةً ويقومُ
قل للحسودِ إذا تَنَفَّسَ طعنةً[4] ... يا ظالماً وكأنّه مَظْلُومُ

وقال الآخر: «الحسودُ يأخذُ نصيبَه من غُموم الناس، وينضافُ إلى ذلك غمّه بسرور[5] الناس، فهو أبداً مهموم»[6] ولهذا المعنى قال ابنُ المعتزّ ـ رحمه الله: «يُشْفِيكَ من الحاسدِ أنّه يَغْتَمُّ عِنْدَ سُرورِك»[7]. وفي الوصاة بعدمِ الاغترار بما يبدو من ضحكِ الحاسد[8] إليك، وإقبالِه بالبِشْرِ عليك، يقول أبو علي محمّد بنُ الحسين بن الشبل[9] البغدادي[10]:

---

(1) ـ العقد الفريد ٢/١٤٨، نسبه إلى الحسن بن علي، وفي عيون الأخبار ٢/٩ منسوبة إلى ابن المقفع، وانظر أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٦٠، وربيع الأبرار ٣/٥٢.

(2) ـ ديوان ابن المعتز ٤١١.

(3) ـ في الديوان: فليس يعبث صرفه.

(4) ـ في الديوان: صعدةً.

(5) ـ في الأصل: بدور.

(6) ـ التمثيل والمحاضرة ٤٥١، ربيع الأبرار ٣/٥٠، المخلاة للعاملي ٣٥ منسوبة إلى ارسطاطالس.

(7) ـ زهر الآداب ٣/٨٢٦، التذكرة الحمدونية ٢/١٨٠، أدب الدنيا والدين ٢٦١، التمثيل والمحاضرة ٢٩، ٤٥٢، منسوباً إلى عثمان ـ رضي الله عنه، ربيع الأبرار ٣/٥١ منسوباً إلى لقمان.

(8) ـ في الأصل: الحسد.

(9) ـ في الأصل: السبل.

(10) ـ محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشبل، أبو علي الحكيم البغدادي، شاعر ظريف مطبوع، وكان متكلماً وفيلسوفاً، مولده ومنشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٣هـ أو ٤٧٤هـ. (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٣٣، دمية القصر ١/٣٥٢، فوات =

فلا تَغْتَرِرْ[1] بالبِشْـرِ مِنْ وَجْه حاسِدٍ فَبـرْدُ ابتسام الثَّغْر غطَّى على الحِقْدِ
فإنّ مَشُـوبَ السُّمِّ لا شَكَّ قاتِـلٌ وإنْ هو أَخْفَتْ طَعْمَهُ لَذَّةُ الشُّهْدِ

وقال ابنُ وكيع الصدقي[2]: «الحاسدُ وإن لم تودعْهُ وَتْرا، ولم تَبْغِهِ شَرّاً، يفرحُ بما يَضُرُّكَ، ويَغْتَمُّ بما يَسُرُّك، ولا يرحمُكَ في المصائب، ولا يُعِينُك على النوائب، أرضى ما يكون من الدهر إذا أَسْخَطَك، وأسخط ما يكون عليه إذا أرضاك، لا ينفعُك عنده أن تشركَه في الحال، أو تعودَ عليه بفضلِ المال، ولا يرضى إلاّ بعدم النشب، وربّما لم يقنع إلاّ بالعَطَب، قال: ومما رُوِيَ في ذلك قال الاسكندر لسُقراط: أيُّها الحكيم، ممّن ينبغي للإنسان أن يتحفَّظ؟ قال: من مَكْرِ أعدائه ومن حَسَدِ أصدقائه»[3]. وكان معاوية يقول: «كلُّ إنسانٍ أقْـدِرُ أنْ أُرْضِيَه إلاّ حاسدَ نعمةٍ فإنه لا يُرضيه إلاّ زوالُها»[4]. وكان يقال: «الحاسِدُ[5] عدوٌّ مهين لا يدرك وَتْرَهُ إلاّ بالتمنّي»[6]. (ص ٩٥) وقال ابنُ بسّام[7]:

=الوفيات ٣/٣٤٠، الوافي بالوفيات ١١/٣).

(١) ـ تغرر.

(٢) ـ في الأصل ابن وكيع والصدقي، وهو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد الضبي المعروف بابن وكيع التنيسي شاعر مشهور، أصله من بغداد توفي سنة ٣٩٣هـ (انظر يتيمة الدهر ١/٤٣٤، وفيات الأعيان ٢/١٠٤، الوافي بالوفيات ٣/٤٣).

(٣) ـ الصداقة والصديق لابي حيان ٧٠، ٢٤١ منسوباً إلى ديوجانوس.

(٤) ـ العقد ١/١٤٨، بهجة المجالس ١/٤١٤، محاضرات الأدباء ١/٢٥٣.

(٥) ـ في الأصل: الحسد.

(٦) ـ عيون الأخبار ٢ / ١٠ وصاحب هذا القول هو يحيى بن خالد.

(٧) ـ لم أجد هذه الأبيات فيما جُمع من شعر ابن بسّام (انظر: ابن بسّام حياته وشعره، تحقيق الدكتور مزهر السوداني، مجلة المورد، المجلد ١٥، العدد الثاني، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م ص ١٠٣ ـ ١٤٢).

لا راحـةَ لحسـودٍ من مغـائِظِه ... ولا رضـا أبـداً ما عاشَ من أحَدِ
كأنَّمـا خَلَقَ الله الحَسُـودَ لكي ... يغتـاظَ فهـو رهينُ الغَيْظِ والكَمَـدِ
يرى الحسـودُ عليه نِعْمةً عَظُمَتْ ... زوالَ نِعْـمـةِ مَنْ يرميه بالحَسَـدِ

وقال بعضُ أهلِ العلم: «إذا أردتَ أن تَسْلَمَ من الحاسدِ فغمّ عليه أمورَك»[1]. ودخل بعض المتطببين على رجل مريض، فقال له: ما تشكو؟ قال: ما بي علّة إلّا الحسد للناس. قال: فليس تُعافى إلّا يومَ القيامة لأنَّه يومَ تزولُ فيه نِعَمُ المخلوقين. وقال العتبي: «عجباً للحسود المعذّب نفسَهُ بإحسانِ الله إلى خلقه يرى أنَّ النعمةَ عليهم نقمةٌ عليه والنقمةَ عليهم نِعْمةٌ عليه فهو عند من جهله مظلوم وهو عند من خبره ظالم، والناسُ في راحةٍ وهو في تَعَبٍ من خوفٍ دائم ونَفَسٍ متتابع، فيالها من طبيعةٍ ما أدناها ونفسٍ ما أشقاها». وكان يقال: «الحسودُ مغتاظٌ على مَنْ لا ذَنْبَ له بخيلٌ بما لا يَمْلِكُه»[2]. ولابن أبي طاهر[3]:

وحـاسـدٍ يحسـب في حَطِّهِ ... إيَّايَ ما يدعـو إلـى رَفْـعِـهِ
أصبحتُ بالفَضْـلِ الذي لم أَزَلْ ... أجْـمَـعُ ما فَرَّقَ من جَمْـعِـهِ
بِمَـوْضِـعِ الـطَّرْفَـةِ من عَيْنِـهِ ... ومـوضـعِ الـوَقْـرةِ مِنْ سَمْعِـهِ
ولـيسَ لي ذَنْـبٌ سوى ما رأى ... مِنْ نعـمـةِ الله ومِـنْ صُنْـعِـهِ

وإذا أدرك الحاسدُ بُغْيَتَه مِنْ خُمولِ رُتْبَةٍ مِن حَسَده وزوالِ نعمةِ من فوّق إليه سَهْمَ بَغْيِهِ وسدّده، فقد يستفاد في أثناء ذلك من نشرِ الفضائل واجتناب

(١) ـ العقد الفريد ٢ / ١٥٠ وفيه: فعمّ.

(٢) ـ بهجة المجالس ٢ / ١٩٢، زهر الآداب ٣ / ٨٢٦ والقول فيه منسوب لابن المعتز، وفي التذكرة الحمدونية ٢ / ١٧٨ منسوب للإمام علي.

(٣) ـ هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر البغدادي، مرورّوزي الأصل، أحد البلغاء الشعراء الرواة، توفي ببغداد سنة ٢٨٠ هـ وكان مولده سنة ٢٠٤ هـ. (انظر: معجم الأدباء ٣ / ٨٧، تاريخ بغداد ٤ / ٢١١).

الرذائل ما يُرْغِمُ الحَسُودَ بعد انقضاء زَمَنِ الابتلاء، وعودةِ ما عوّد الله من الآلاء، كما [قال][1] حبيبُ بن أوس[2]:

وإذا أرادَ الله نَشْرَ فضيلةٍ ... يَوْماً[3] أَتاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ
لولا اشتِعالُ النارِ فيما جَاوَرَتْ ... ما كان يُعْرَفُ طِيبُ فَضْلِ[4] العُودِ

انتهى. وكما قال أبو حيّان[5]:

عداتي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ ومِنّةٌ ... فلا أَذْهَبَ الرحمنُ عنّي الأعاديا
هُمُ بحثوا عن زَلّتي فاجْتَنَبْتُها[6] ... وهم نافَسُوني فاكتَسَبْتُ المَعاليا

وكما أنّ غائلةَ الحَسَدِ ابتلاءٌ لمن سَلَّطَ الله الحاسد عليه، وفَوَّقَ أسْهُمَ شرّه إليه، فكذلك هذه الخَلَّةُ الذميمة هي من أعظم الإملاءات لمن[7] اتّسم بصفتها الدنيّة، لرجاءِ من حُسِدَ أن يعظم الله أجْرَه، وتعلّق حقه عن حسده وخلوّ الحاسد من ذلك، وإنما هو كما سَبَقَ في وصفه مغمومٌ بنِعَمِ الله على خلقه، مكروبٌ

---

(١) ـ في الأصل: كما.

(٢) ـ زهر الآداب ١ / ٢٤٧، العقد ٢ / ١٥٢، عيون الأخبار ٢ / ٨، بهجة المجالس ١ / ٤١٦، ومحاضرات الأدباء ١ / ٢٥٤.

(٣) ـ في زهر الآداب والعقد: طويت.

(٤) ـ في زهر الآداب والعقد: عرف.

(٥) ـ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي إمام نحاة الأندلس، ولد بمدينة مطخشارش في الأندلس سنة ٦٥٤ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ، وله مصنفات كثيرة جاوزت الستين (انظر ترجمته في: بغية الوعاة ١ / ٢٨٠ (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٤م) الكتيبة الكامنة ٨١، نفح الطيب ٢ / ٥٣٥). وانظر البيتين في بغية الوعاة ١ / ٢٨٣، الكتيبة الكامنة ٨٥، نفح الطيب ٢ / ٥٣٦، وورد البيتان أيضاً في ديوان أبي حيان ١٣٩، الافادات والإنشادات ١٤٩.

(٦) ـ في الكتيبة الكامنة: فسترتها.

(٧) ـ في الأصل: لم.

بإحسانِ الربِّ إلى عبيده، فهل ينتهي كمن يتعلق بمدح الجود الإلهي، وفيض المنح الربّاني، ولله في كل لحظةٍ على عبيده نِعَمٌ لاتُحصى ومِنَحٌ لا يمكن أن تُسْتَقْصى، فَمَنْ أعظمُ ابتلاءً ممن يكونُ ذلك سبباً في كَرْبه، وموجباً مستقلاً في إثارة غمّه، أعاذنا الله من ذلك، وعافانا من مثلِ هذا الابتلاء، وجعلنا ممّن يُسَرُّ بما يسنّي الله لخلقه من نعمه، ويبتهجُ بما يدفع عنهم من نقمه.

وقد وقفتُ للإمامِ فخرِ الدين الرازي[1] على فَصْلٍ بَيَّـنَ فيه الأصولَ التي يَنْشَأُ عنها؛ فقال في تَفْسيرِ الفاتحة: «اعلم أنَّ المَداخِلَ اللاتي يأتي الشيطانُ من قِبَلِها في الأصلِ ثلاثةٌ: الشهوةُ والغَضَبُ والهوى، فالشهوةُ بهيميّة، والغضبُ سبعيّة، والهوى شيطانيّة، فالشهوةُ آفةٌ لكنّ الغضبَ أعظمُ منه، والغَضَبُ آفةٌ لكنّ الهوى أعظَمُ منه. وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ﴾[2] المرادُ (ص ٩٦) منه آثار الشهوة، وقوله: ﴿والمُنْكَرِ﴾[3] المراد منه آثار الغَضَب، ﴿والبَغْيِ﴾[4] المراد منه آثار الهوى؛ فبالشَّهْوةِ يصيرُ الإنسان ظالماً لنفسه، وبالغضب يصير ظالماً لغيره، وبالهوى يتعدّى ظُلْمُه إلى حَضْرَةِ جلال الله، فلهذا قال: الظُّلْمُ ثلاثة: فَظُلْمٌ لا يُغْفَر، وظُلْمٌ لا يُتْرَك[5]، فالظلمُ الذي لا يُغْفَرُ هو الشِرْكُ بالله سبحانه، والظلمُ الذي لا يُتْرَكُ هو ظلمُ العبادِ بَعْضَهم

---

(١) ـ أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد، يلقب بفخر الدين ويعرف بابن الخطيب، له مؤلفات في علم الكلام والفقه والتفسير والنحو وغيرها، من أشهرها تفسير القرآن، غير أنه لم يكمله، ولد سنة ٥٤٤ هـ بالريّ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ بمدينة هراة (انظر: وفيات الأعيان ٤ / ٢٤٨، الوافي بالوفيات ٤ / ٢٤٨، ذيل الروضتين ٦٨).

(٢) ـ آية ٩٠ من سورة النحل.

(٣) ـ الآية السابقة.

(٤) ـ الآية السابقة.

(٥) ـ يبدو أن هناك جملة ساقطة تقديرها: وظلمٌ عسى الله أن يتركه، وذلك بالاعتماد على التفصيل الوارد لاحقاً.

بعضاً، والظلمُ الذي عسى الله أنْ يتركَه هو ظُلْمُ الإنسانِ نفسه؛ فَمَنْشَأُ الظلم الذي لا يُغْفَرُ هو الهوى، ومَنْشَأُ الظُّلْم الذي لا يُتْرَكُ هو الغَضَب، ومَنْشَأُ الظُّلْم الذي عسى الله أن يتركه هو الشَهْوة. ثم لها نتائجُ؛ فالحِرْصُ والبخلُ نتيجةُ الشَّهوة، والعُجْبُ والكِبْرُ نتيجةُ الغَضَب، والكُفْر[1] والبِدْعَةُ نتيجةُ الهوى. فإذا اجْتَمَعَتْ هذه الستّةُ في بني آدم تولَّد منها سابعٌ، وهو الحَسَدُ، وهو نهايةُ الأخلاقِ الذميمة، كما أن الشيطانَ هو النهايةُ في الأشخاصِ المذمومة، فلهذا السببِ خَتَمَ الله مجامعَ الشُرور الإنسانيةِ بالحسد، وهو قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد﴾[2]، كما خَتَمَ مجامعَ خبائثِ الشيطانِ بالوَسْوَسَةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿الّذِي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاس، مِنَ الجِنَّةِ والنَّاس﴾[3]. فليسَ في بني آدمَ أشرُّ من الحاسد، كما أنّه ليسَ في الشيطانِ أشَرُّ من الوَسْواس، بل قيل: «الحاسِدُ أشَرُّ من إبليس، لأنّ إبليس رُوِيَ أنّه أتى بابَ فرعون وقرع الباب، فقال فرعون: مَنْ هذا؟ فقال إبليس: لو كنتَ إلهاً لما جهلت. فلمّا دخل قال فرعون: أتعرفُ في الأَرْضِ شرّاً منكَ ومنّي؟ فقال: نَعَمْ الحاسدُ وبالحَسَدِ وَقَعْتُ في هذه المحنة. انتهت[4].

فتأمل الحَسَدَ ثَمَرَة ما هو من الأخلاقِ الرديئة، وقانا الله منه.

وقد أبدع ابنُ شَرَف[5] في رسالته المسماة بـ «سرِّ البرّ» في الاستهانةِ بأمْـر الحـاسدِ والإبانةِ عن مجامعِ القبائح التي اشتملت عليها هذه الخَلَّة الذميمة، فقال: «واعْلَمْ أنَّ كلَّ عدوٍّ يحتاجُ مَعَهُ إلى مُجاهَدةٍ واستعدادٍ للمدافعة إلّا مَنْ عاداك مِنْ حَسَد، فإنّه قد كفاك جُلَّ أمْرِه، وتولّى دونَكَ حَرْبَ نفسه،

(١) ـ في الأصل: الكبر.

(٢) ـ الآية ٥ من سورة الفلق.

(٣) ـ الآيتان ٥، ٦ من سورة الناس.

(٤) ـ للرازي كتاب اسمه «تفسير سورة الفاتحة» توجد منه عدة نسخ مخطوطة منها نسخة في الحرم الإبراهيمي في الخليل تحمل الرقم ٣١.

(٥) ـ هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف، أسلفنا التعريف به.

لأنّ الحسودَ مغلولُ اليدِ مشغولٌ بالكَمَد، وهو ككاتِمِ النارِ تَحْتَه، إنْ خَفَّضها أحرقَتْهُ، وإن رفَّعها فَضَحَتْهُ، فصار بذلك جُنْداً على نفسِه وَعَوْناً عليها لعدوّه، فالحَسَدُ من مجامعِ القبائح، لأنّه مؤلَّفٌ عن الغضب والشَهْوةِ والفُضولِ والغدْرِ والعَجْزِ والبُخْلِ، فأمّا الغَضَبُ فإنّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا عن غَضَبٍ على النِعَمِ، إلّا أنّه أسوأُ الغَضَبِ لأنه غَضَبٌ على الخالِقِ في حُكْمِهِ، وغَضَبٌ على المخلوق فيما لم يَجْنِهِ عليه، فهو أسوأُ الغَضَب. وأما الشهوةُ فإنّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا بشهوةٍ في زوالِ النعمة عن المحسود إلّا أنّها مع ذلك أوضعُ الشهوات لأنّها شهوةٌ لا يصل إلى مُشْتَهيها منها شيءٌ، فهذه خساسةٌ بلا أرْش[1]. وأمّا الفُضُولُ فلأنَّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا برغبةٍ وطلبٍ لما لا يَعْني من أمْرِ نفسه متكلّف لضرّ غيره، وإنما غايةُ الفُضول أنّه عَمَلٌ لا يَضُرُّ أحداً، ولا يَنْفَعُ متكلّفه، وهذا يضرّ بالقاصِدِ له، والمقصودِ به، فهو أخسُّ الفضول. وأما الغَدْرُ، فلأنَّ الحَسَدَ إنما يكونُ طائراً عن كامِنٍ، وطارئاً عن آمِنٍ، إلّا أنّه أسوأُ الغَدْر، لأنَّ الغَدْرَ يكونُ لِنَيْلِ فائدةٍ أو شِفاءٍ من تِرَةٍ، وغَدْرُ الحسودِ لا يكونُ إلّا ابتداءً من غَيْرِ علّةٍ توجبه. وأمّا العَجْزُ فإنَّ الحَسَدَ لا يكونُ إلّا من مقصر عن نعمةٍ للحسود، والقُصورُ عَجز، إلّا أنّه هاهنا من ألأمِ العَجْزِ لأنّ العَجْزَ إنما يكونُ عن تعذّرِ الطَلَب لمانعٍ ما، وعجزُ الحَسودِ إنما يكونُ مختصّاً بالعَجْزِ عمّا يعني للشغل بطَلَبِ ما لا يعني، وهذا ألأمُ العجز. واعْلَمْ أن الحسودَ وحيدٌ مع الكَثْرةِ، متوحِّشٌ مع الأُنس، خائفٌ مع البراء، وهو مع الدَعَةِ في هَرْجٍ، ومع النِعْمةِ في فَقْرٍ، ومع الصِحَّة في سَقَمٍ، أما وحدته فلأنَّ الحسودَ مُبْغِضٌ للناس مُبْغَضٌ من الناس، ولا مَحبَّةَ مع البُغْضِ ولا أُلْفة مع فَقْدِ المحبّة ومن لا أُلْفَةَ له فهو وحيدٌ مع الكثرة، وأما خوفُه فلأنه مُرْتابٌ[2] بما يكتمه، خائفٌ من ظهور ما يُسِرُّه، وأما هرجُهُ في الدَّعَةِ فلأنه مشغولٌ عن الاستمتاع بِدَعَتِهِ بوقوعِهِ (ص

(١) ـ من معاني الأَرْش: الخصومة (القاموس المحيط: أرش).

(٢) ـ في الأصل: مرتب.

٩٧) في خزال[١] أهلِ النعمة، وببُغْضِ أهْلِ الفضلِ على فضيلته، وإيثارِه[٢] البغي وشرَّ[٣] السعي. وأما فقرُه في حالِ النّعمة فلأنه لا يستسِيغُ مَضْغَها[٤] ولا يَلذُّ بنعمة، فكأنه قد فقد السَّعَةَ، وفارق النِعْمة، ومن فارق النعمة فهو فقير. وأما سَقَمُه في الصِحّة، فلأنّ قَلْبَهُ حرّان، وصدره ملآن، وَجَعُ الحِقْدِ يَطْرُقُه، وحُمّى الحَسَدِ تُقْلِقُه، ونارُ الأسَفِ تَحْرقُه، فَداؤهُ عُضال، وعَيْشُه أهْوال، وغايتُهُ في سوءِ الحال لا تنال»[٥].

وقد زاد على ما ذكره الفخر[٦] بعضَ زياداتٍ، إلّا أنَّ التقسيمَ الأول عجز منه شرح البخل، فلا أدري أنَقَصَ من النسخةِ من حيثُ نَقَلْتُ أم سَقَطَ للمؤلفِ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان.

وفي رجاءِ الإدالة على العدوّ تخفيضٌ لما لحق مِنْ قِبَلِهِ، وطمأنينةٌ للقلب بما أجرى الله من العادةِ في انعكاسِ أمَلِه.

كما حكى المدائنيّ[٧] قال: كان الوليدُ بنُ يزيد مكرماً لطريحِ بن

---

(١) ـ خزله عن حاجته يخزله: عوّقه، وخزل الشيء: قطعه.
(القاموس المحيط: خزل).

(٢) ـ في الأصل: وأثاره.

(٣) ـ في الأصل: ونمر.

(٤) ـ في الأصل: مطغها.

(٥) ـ هنا ينتهي النص الذي نقله المؤلف عن رسالة سرّ البر لابن شرف القيرواني ولم تصلنا هذه الرسالة.

(٦) ـ الفخر الرازي، وقد سبق ذكره والترجمة له.

(٧) ـ لعل المقصود هنا أبو الحسن علي بن محمد المدائني مؤلف كتاب «الفرج بعد الشدة والضيقة» وهو مما اعتمد عليه أبو علي التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدّة» (انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي ١ / ٥٤) وقد وردت القصة المذكورة في الفرج بعد الشدّة للتنوخي ١ / ٣٥٦ ـ ٣٦٠ مع اختلاف في اللفظ.

اسماعيل الثقفي[1]، وكانت له منه منزلة ومكانة، فكان يُدْني مجلِسَه، وجعله أوَّلَ داخلٍ عليه وآخِرَ خارجٍ عنه، ولم يَكُنْ يَصْدُرُ إلّا عن رأْيِهِ فاستفرغ مَدِيحَهُ كلّه فيه، وعامّة شعره، فحسده ناسٌ من أهل بيت الوليد، وقدِمَ حمّادُ الراوية[2] الشامَ يشكو[3] ذلك إليه، وقالوا له: قد والله ذَهَبَ طريح بالأمير فما لنا منه لَيْلٌ ولا نهار، فقال حمّاد: «ابغوني[4] من يُنْشِدُ الأميرَ ببيتي شِعْرٍ وأُسْقِطُ مَنْزِلَتَه» فطلبوا من الخصيّ الذي يقومُ على رأسِ الوليد، وجعلوا له عَشْـرَةَ آلافِ درهم، أنْ يُنْشِدَهُما الأميرَ في خَلْوة، فإذا سألَ عن قَوْلِ مَنْ ذا؟ قال مِن قَوْلِ طريح. فأجابهم الخصيُّ لذلك وعَلَّمُوه البَيْتَين. فلما كان ذاتَ يومٍ دخل طريح على الوليد، وفَتَحَ البابَ، فأذن للناس فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد فدعا بغَدائه، وتغديًا جميعاً، ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزِله، وترك الوليدَ في مجلسِهِ، وليس معه أحد، فاستَلْقى على فِراشه، فاغتَنَم الخصيُّ خَلْوَتَهُ، فاندفَعَ يُنْشِد[5]:

سِيري رِكـابي إلى مَنْ تَسْعَدِينَ بِهِ ... فقـد أَقَمْتُ بدارِ الهونِ ما صلحا
سيري إلـى سيِّدٍ سَمْـحٍ خلائقُـهُ ... ضَخْمِ الدَّسيعةِ قَرْمٍ يَحْمِلُ المِدَحا

---

(١) ـ هو أبو الصلت طريح بن اسماعيل بن عبيد الثقفي من شعراء الخليفة الأموي الوليد ابن يزيد، وأكثر مدحه في هذا الخليفة، وعاش إلى أيام الخليفة العباسي الهادي وتوفي سنة ١٦٥ هـ. (الاغاني ٤ / ٣٠٢، الفرج بعد الشدّة ١ / ٣٢٧، الشعر والشعراء ٤٢٧، وبعض أخباره في العقد ١ / ٢٢٣، ٦ / ١٢٥).

(٢) ـ هو حمّاد بن أبي ليلى سابور بن المبارك بن عبيد الديلمي يكنى أبا القاسم ويلقب بحمّاد الراوية بسبب كثرة روايته لأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم ولغاتهم وأنسابهم، وكانت وفاته سنة ١٥٥ هـ (الأغاني ٦ / ٦٧، وفيات الأعيان ٢ / ٢٠٦ ـ ٢١٠).

(٣) ـ في الأغاني: فشكوا ذلك إليه.

(٤) ـ في الأصل: أبعدني، وفي الفرج بعد الشدّة: اطلبوا لي.

(٥) ـ البيتان بنصهما في الفرج بعد الشدة ١ / ٣٥٧، الأغاني ٤ / ٣١٣.

فأصغى الوليدُ بِسَمْعِهِ إلى الخصيّ، فأعادها الخصيُّ غَيْرَ مرّة، فقال الوليد: وَيْحَكَ يا غُلام! مِن قَوْلِ مَنْ هذا الشعر؟ قال: مِنْ قَوْلِ طريح. فغضِبَ الوليدُ حتّى امتلأ غضباً، ثم قال: والهفاً على[1] أمٍّ لم تَلِدْني، قد جَعَلْتُهُ أوَّلَ داخلٍ وآخِرَ خارج، ثمّ يزعم أنّ هشاماً[2] يحمل المِدَحَ ولا أحملها. ثم قال: عليّ بالحاجب، فأتاه، فقال: لا أعلم ما أذِنْتَ لطريح ولا أريّنه في بسيطِ الأرْض، فإن حاولك[3] فاحطُمْه بالسيف. فلما كان بالعشي وصُلّيت العصرُ جاءَ طريح للساعةِ التي كان يُؤذَنُ له فيها، فدنا من البابِ ليدخل، فقال له الحاجب: وراءك. فقال: ما لك؟ هل دَخَلَ على وليّ العهد أحد؟ قال: لا، ولكنْ ساعةَ وَلَّيتَ من عنده دعاني وأمَرَني ألاّ آذَنَ لك، وإن حَاولْتَني[4] في الإذن حطمتُك بالسيف. فقال: لك عشرةُ آلافِ درهم، وإذَنْ لي في الدخول عليه. فقال له الحاجب: والله لو أعطَيْتَني خراجَ العراق ما أذِنْتُ لك، وما لك من خيرٍ في الدخول، فارجِعْ. قال: ويحك، هل تعلم من دهاني[5] عنده؟ قال الحاجب: لا والله قد دخلتُ عليه وما عندَه أحد، ولكنّ الله يُحْدِثُ ما يشاء في الليلِ والنهار. قال: فرجع طريحٌ، فوقَفَ بباب الوليد سنة، لا يخلص إليه ولا يقدِرُ على الدخول، وأراد الرجوعَ إلى بلدِه وقومِه، فقال: والله إنّ هذا لعجزٌ مِنْ غيرِ[6] أنْ ألقى وليَّ العَهْدِ، فأعلمَ ما دهاني عنده. ورأى أُناساً كانوا له أعداء قد فرِحوا بما كان من أمرِه، فكانوا يدخُلون على الوليد ويحدّثونه ويَصْدُرُ عن

---

(١) ـ في الأصل: والبقا، وفي الفرج بعد الشدّة: والهف أمٌّ لم تلدني.. والصواب من الأغاني.

(٢) ـ هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١ ـ ١٢٥ هـ) خلف أخاه يزيد بن عبد الملك على خلافة الأمويين سنة ١٠٥ هـ وتوفي بالرصافة سنة ١٢٥ هـ (مروج الذهب ٣ / ٢١٦).

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: جادلك.

(٤) ـ في الفرج بعد الشدة: جادلتني.

(٥) ـ في الأصل: دماني.

(٦) ـ في الفرج بعد الشدة: إن هذا لعجز، أرجع من غير...

رايهم، فلم يَزَلْ يلطفُ للحاجبِ ويمنّيه حتى قال له الحاجب: «أمّا إذْ أطَلْتَ المُقام، فإني أكْرَهُ أن تنصرفَ على حالِكَ هذه، ولكنّ الأميرَ إذا كان يومَ كذا وكذا دخل الحمامَ (وأمَرَ بسريره فأُبْرِزَ، وجلس عليه وأذِنَ للناس فدخلوا، والوليد يَنْظُرُ إلى مَنْ أقبل)[1]. وبعث الحاجبُ إلى طريح، فأقبل وقد تتامَّ الناسُ، فلما رآه الوليدُ (ص ٩٨) من بعيدٍ صَرَفَ وَجْهَهُ استحياءَ أن يَرُدَّه من بينِ الناس، فدنا فَسَلَّمَ، فلم يَرُدَّ عليه، فقال طريح يستعْطِفُهُ:

نامَ الخَلِيُّ من الهُمومِ وباتَ لي[2] ... ليلٌ أُكابِدُهُ وَهمٌّ مضلع[3]
وَسَرَيتُ* لا أَكْرى ولا في لذّةٍ ... أرْقى وأغفلُ ما يفيد** الشجّع[4]

في قصيدة طويلة[5] ليس من غرضنا ما هو مثلها، فأدناه الوليدُ وقرّبه، وضَحِكَ إليه، وعاد له ما كان عليه. انتهت*.

ولقد ذكّرني ردُّ الحاجب طريحاً هذا، وموقِفُه موقفَ ذلك الخِزْيِ الذي نسألُ الله أن يُعيذَنا منه في الدُّنيا والآخرة، أبياتاً لمحمّد بن حازم[6] عَدَّد فيها

---

(١) ـ ما بين القوسين ورد في الفرج بعد الشدة على النحو التالي: ثم أمر بسريره فأبرز، وليس عليه يومئذ حجاب، فإذا كان ذلك اليوم حضرت فدخلت عليه وظفرت بحاجتك ويكون لي أنا عُذْر. فلما كان ذلك اليوم دخل الحمام وأبرز سريره وجلس عليه واذن للناس فدخلوا.

(٢) ـ في الفرج بعد الشدة: وبتُّ في.

(٣) ـ في الفرج بعد الشدة: مضبع.

* ـ في الأغاني: وسهرت.

** ـ في الأغاني: لقيت الهجّع.

(٤) ـ ورد هذا البيت في الفرج بعد الشدة على النحو التالي:

وسهرتُ لا أسِري ولا في لذّةٍ ... أرقي وأعقَدُ ما لقيتُ المفجع

(٥) ـ انظر تتمة القصيدة في الفرج بعد الشدة (١ / ٣٥٩ ـ ٣٦٠) والأغاني ٤ / ٣١٤ ـ ٣١٥.

* ـ وردت هذه القصة في الفرج بعد الشدة ١ / ٣٥٦ ـ ٣٦٠، الأغاني ٤ / ٣١٢ ـ ٣١٥.

(٦) ـ هو أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي، وصفه ابن المعتز بأنه من الشعراء الذين سارت أسماؤهم بخلاف أفعالهم، وسار شعره بالقناعة بينما كان شديد الحرص وشديد =

أنواعاً من البلاء، وأصنافاً من العَذاب، وجعلها أهْوَنَ عليه من عُبُوسةِ الحجّاب. فما الظنُّ منه بمثل ذلك الردّ! فقال(١):

لَقَلْعُ ضِرْسٍ وضِيقُ حَبْسٍ وقَتْلُ نَفْسٍ وَرَدُّ أمْسِ
وبُعدُ دارٍ وحَمْلُ عارٍ وبَيْعُ جارٍ برُبْعِ فِلْسِ
وقَوْدُ قِرْدٍ ونَسْجُ بُرْدٍ وَدَبْغُ جِلْدٍ بغَيْرِ شَمْسِ
وَصَدُّ إلْفٍ وَأَكْلُ كَفٍّ وَضِيقُ خُفٍّ وَسَوْمُ بَخْسِ
وَقَتْلُ غَمٍّ وطُولُ هَمٍّ وَشُرْبُ سُمٍّ وإلْفُ قَلْسٍ(٢)
أهْوَنُ مِنْ وَقْفَةٍ بِبَابٍ يَلْقَاكَ حُجَّابُهُ بِعَبْسِ

وإذا آلَمَ الناسَ الاستشرافُ إلى ضروريّات المعاش، والتطلُّعُ إلى ما به قِوامُ الحياة، أو ما لحق ذلك من المُتْعاتِ بالجاهِ أو غيرِه من مُقْتَنَياتِ الدنيا، وأعْوَزَها ذلك فإنّما سَعِدَ لها للأمانيّ التي قال فيها أبو تمام رحمه الله(٣):

مَنْ كان يُرْعي حُزْنَه(٤) وهُمومَهُ رَوْضَ الأماني لَمْ يَزَلْ مهزُولا

لا سيّما إن اشتدتْ الضرورةُ بما يفتقر إليه من مالٍ أو جاهٍ أو سَكَنٍ أو غيرِ ذلك إن كانت الأَنْفُسُ المستشرفَةُ طامِحَةً من الدنيا إلى ما فوق الكفاية، فهنالك

= الإلحاح بالسؤال كثير الهجاء. ووصفه أيضاً بأنه أجود الشعراء لفظاً وألطفهم معنى، ورد له شعر كثير في بهجة المجالس. سكن بغداد ونشأ بالبصرة زمن العباسيين ولم يمدح إلا المأمون، توفي سنة ٢١٥ هـ. (انظر ترجمته في: طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٠٧ - ٣٠٩، وفيات الأعيان ٣ / ٧٩، الوافي بالوفيات ٢ / ٣١٧، الأغاني ١٤ / ٩٢، المرزباني ٤٢٩، تاريخ بغداد ٢/٢٩٥).

(١) - لم أجد الأبيات في ديوانه المجموع.

(٢) - القَلْس: حبلٌ ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما، ومن معانيها أيضاً غثيان النفس (القاموس المحيط: قلس).

(٣) - ديوان أبي تمام ٤٤٨.

(٤) - في الأصل: عرنه، وفي الديوان: من كان مرعى عزمه.

يتّسع[1] النِطاقُ وتعظُمُ الأشواقُ ويستغرب الاتفاق.

كما يُحكى عن عبدِ الله بن عمر وعبدِ الله بن الزبير وعبدِ الملك بن مروان ومصعب بن الزبير أنّهم كانوا بمكة إمّا بفِناءِ[2] الكَعْبَةِ أو بالمسجدِ الحرام، ثم تحدّثوا فيما تَشَوَّفَتْ[3] إليه نُفُوسُهم، واتفقوا على أن يقولَ كُلُّ واحدٍ منهم ما في نفسه ويدعو به، فقال عبدُ الله بن الزبير إنّه يَرْغَبُ الله في ولايةِ مُلْكِ الحَرَمَيْن، وقال أخوه المصعب إنّه يرغبُ الله في مُلْكِ العِراقَيْن ونكاحِ عائشةَ بنتِ طلحة وسُكَيْنَة بنتِ الحسين، وقال عبدُ الملك بنُ مروان إنّه يرغب الله في الخِلافةِ وأنْ يُؤتى برَأْسِ كلّ من يُنازِعُه، وقال عبدُ الله بنُ عمر إنّه يرغَبُ الله في الجنّةِ، فنال كلُّ واحدٍ ممن طلب عرضاً من الدنيا ما أمّله، والظنُّ اليقينُ المضارِعُ لليقين عند العلماء أن عبدَ الله بن عمر قد نال ما أمَّلَهُ من الآخرة، والله أعلم. وإنما نَقَلْتُ الحكايةَ بالمعنى دونَ اللفظ[4].

وقد يُوجَدُ من يتمنّى فيتّم مناه، وتتّفق هواه، ويكْمُل له مقتضاه، كمثل هذه الحكاية. وقد يتعذّر على آخر مُنْيَتُه، وقد يمكن أن تكون في أمانيه مَنِيَّتُه، وربما يُسْتَدلُّ بذلك على مقدار ما يكون في القلب من الرضا بما قدّر الله وقضى. يحكى[5] أنّه كان لِذِي الأُصْبَعِ[6] العَدْواني[7] أربعُ بنات، وكُنَّ يُخْطَبْنَ إليه فَيَعْرِضُ عليهنّ ذلك فيستحين فلا يزوجهنّ، وكانت أُمُّهُنَّ تقول: لو

(١) ـ في الأصل: ينسغ.
(٢) ـ في الأصل: هنا، والصواب من عيون الأخبار.
(٣) ـ في الأصل: تتشوفت.
(٤) ـ وردت هذه الحكاية في عيون الأخبار ١ / ٢٥٨.
(٥) ـ وردت هذه الحكاية في الكامل للمبرد ٢ / ٦٧٨ مع اختلاف في اللفظ، والأغاني ٣ / ٩٤.
(٦) ـ في الأصل: لأبي الأصبغ.
(٧) ـ هو حرثان من عَدْوان بن عمرو بن قيس بن عيلان شاعر جاهلي سمّي ذا الاصبع لأن حية نهشته في اصبعه فقطعها (الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٥، الأغاني ٣ / ٨٩).

زَوَّجْتَهُنَّ، فلا يفعل، فَخَرَجْنَ ليلاً إلى مُتَحَدَّثٍ لهن، فاستمع إليهنّ وهُنَّ لا يَعْلَمْن، فَقُلْنَ: تعالَيْنَ فَلْتَتَمَنَّيْنَّ(١) ولنصدق، فقالت الكبرى:

أَلا لَيْتَ زَوْجي مِنْ أُنـاسٍ ذَوِي غِنىً ... حديثُ الشباب [طَيِّبُ](٢) الريحِ والعِطْرِ
(ص ٩٩)طَـبيبٌ بأَدْواءِ النِّسـاءِ كَأَنَّـهُ ... خَلِيفَـةُ جارٍ* لا يَنـامُ على هَجْـرِ(٣)

فقلن لها: أنتِ تحبّين رَجُلاً لَيْس مِنْ قَوْمِكِ. فقالت الثانية:

أَلا هَلْ أراهـا مَرَّةً* وضَـجِيعُهـا ... أَشَمُّ كَنَصْـلِ السَّيْفِ عَيْنُ المُهَنَّدِ**
لَصُـوقٌ بأَكْبـادِ النِّسـاءِ وأَصْلُهُ ... إذا ما انتهى مِنْ سرِّ قَوْمي ومَحْتِدي(٤)

فَقُلْنَ لها: أَنْتِ تحبّينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِكِ. فقالت الثالثة***:

أَلا لَيْتَـهُ يَمْـلا الجِفَـان مَرِيئَـةً(٥) ... له جَفْنَةٌ تَشْقى(٦) بها النِيب والجَزْرُ
لَهُ حَكَمَـاتُ الـدَّهْرِ مِنْ غَيْرِ كَبْرَةٍ ... تَشِينُ فلا الفاني ولا الضَّرَعُ الغُمْرُ

فقلن لها: أنت تحبّين رجلاً شريفاً. وقلن للصغرى: تمنّي. فقالت: ما أريد شيئاً. قلن: والله لا تبرحين حتى نَعْلَمَ ما في نَفْسِكِ. قالت: زوجٌ مِنْ عُود

---

(١) ـ في الأصل: فليتمنين.

(٢) ـ سقطت من الأصل.

* ـ في الكامل والأغاني: جان.

(٣) ـ في الكامل للمبرد:

لصـوقٌ بأكـبـاد الـنـسـاء كأنـه ... خليفـةُ جانٍ لا يقـيم على هجْـرِ

* ـ في الأغاني: ليلة.

** ـ في الأغاني: غير مبلّد.

(٤) ـ في الأصل: ومحتد، والبيتان في الكامل من قول الثانية.

وفي الأغاني: أهلي ومحتدي.

*** ـ في المبرد للثانية.

(٥) ـ في المبرد: ألا ليته يُعْطى الجمال بديئةً، وفي الأغاني: لضيفه.

(٦) ـ في الكامل والأغاني: يشقى.

خَيْرٌ مِنْ قُعود. فلما سمع أبوهُنّ قَوْلَهنّ زوّجهنّ أربعتَهنّ. فمكثن بَرْهةً، ثم اجْتَمَعْنَ عنده فقال للكبرى: يا بنية ما مالكم؟ قالت: الإبل. قال: كيف تَجِـدُونهـا؟ قالت: خَيْرَ مال، نأكُلُ لحومها مُزَعاً[1]، ونشرب ألبانَها جُرَعاً، وتَحْمِلُنا وَضَعَفَتَنا مَعَاً. قال: كيف تَجِدِنَّ زَوْجَكِ؟ قالت: خير زوجٍ يُكْرِمُ الحليلة، ويُعْطي الوسيلة. قال: مالٌ عميم وزوج كريم. ثم قال للثانية: ما مالكم؟ قالت: البَقَر. قال: كيف تجدونها؟ قالت: خير مال تألف الفِناء، وتُودِك[2] السقاء، وتملأ[3] الإناء، ونساء مع نساء. قال: كيف تجدين زوجَك؟ قالت: خير زوجٍ يُكْرِمُ أهْلَه ويَنْسَى فَضْلَه. قال: حظيت ورضيت. ثم قال للثالثة: ما مالكم؟ قالت؛ المعزى. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: لا بأسَ بها نولدها فطما ونسلخها لدماً[4]. قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: لا بأس به، ليس بالبخيل الحكر، ولا السخيّ البذر. قال: جِذْوٌ مُغنية[5]. ثم قال للرابعة: ما مالكم؟ قالت: الضأنُ. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: شرّ مال، جُوف لا يَشْبَعْن، وهيم لا يَنْفَعْنَ، وصُمٌّ لا يَسْمَعْنَ، وأَمْرَ مغْويَتِهِنَّ يَتْبَعْنَ. قال: فكيف تجدنّ زوجك؟ قالت: شرّ زوج يُكْرِمْ نَفْسَهُ ويُهينُ[6] عِرْسَه. قال: أَشْبَهَ امرؤٌ بعضَ بَزِّه*. انتهت[7].

فاعتبِرْ هذه الحكاية، وكيف ظهر من تضجّرِ صُغْراهن المفهوم ِ في سياقِ

---

(١) ـ قطعا.

(٢) ـ الوَدَك: الدسم.

(٣) ـ في الأصل: وعلا.

(٤) ـ في الكامل: لو كنّا نولّدها فَطُما ونسلخُها أدماً، لم نَبْغِ بها نَعَما، وفي الأغاني: لابأس بها، نولدها فطماً ونسلخها أدَما.

(٥) ـ في الأصل: جذ ومعنية، وما أثبتناه من الكامل للمبرّد، وفي الأغاني: جدوى مغنية.

(٦) ـ في الأصل: ويهن.

* ـ مثلٌ انظره في: فصل المقال ص ٤٩.

(٧) ـ الحكاية في الكامل للمبرّد ٢ / ٦٧٨، الأغاني ٣ / ٩٤ ـ ٩٦، نثر الدرّ ٤ / ٦٨.

قولها «زوجٌ من عود خير من قعود» ما أوجب لها شَرَّ زوج وشَرَّ مال، ويظهر أيضاً من قِلّةِ رضاها بما قسم لها ما جعلت به زَوْجَها شَرَّ زوج ومالها شَرَّ مال، ولذلك قال لها أبوها «أشْبَهَ امْرؤٌ بَعْضَ بَزِّه».

وإذا كان الابتلاءُ بمثلِ اختلاسِ العِلْق، واغتصابِ المُلْك، ففي السبب بعد التوكل راحةٌ عظيمة، وفي التعلُّق بأولي الأمر فائدةٌ جسيمة، كما حُكِيَ[1] أنَّ رجلاً جوهرياً من تُجّار المشرق قَصَدَ المنصور[2] من مدينةِ عدن بجوهرٍ كثير وأحجارٍ نفيسة، فأخذ المنصورُ من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجرِ الجوهريِّ صُرَّتَه، وكانت قِطعةً يمانية، فأخذ التاجرُ في انصرافِهِ طريقَ الرَّمْلة[3] على شطِّ النهر، فلما توسّطها - وكان اليومُ شديدَ الحرّ، وعرقُهُ يَنْصَبُّ - دَعَتْهُ نَفْسُهُ إلى التبرّد في النهر، فوضع ثيابه وتلكَ الصُرَّةَ على الشطّ، ودخلَ النهر، فمرّت حِدَأة[4] فاختطفت الصُرةَ، تحسبها لحماً، وصعدت بها في الأُفُق، فلما عاينها التاجرُ قامت قيامتُه، وعلم أنه لا يَقْدِرُ على استِرْجاعِ ذلك بحيلة، فأسرّها في نَفْسه، ولحقه من ذلك عِلّةٌ اضطرب فيها، وحضر (ص ١٠٠) الدفعُ إلى التاجر[5]، فَجَلَسَ المنصورُ لذلك بنفسه[6]، واستبان ما بالرجل من الكآبةِ وسُوءِ

(١) - انظر هذه الحكاية في البيان المغرب ٢ / ٢٩١ - ٢٩٢، ونفح الطيب ١ / ٤٠١ مع بعض اختلاف، ووردت ثانية في النفح ١ / ٤١٢ مطابقة للبيان المغرب.

(٢) - المنصور محمد بن أبي عامر حاجب الخليفة الحكم المستنصر وقد سبقت الترجمة له.

(٣) - بالإسبانية La Rambla، وهناك في الأندلس أكثر من رملة: رملة قرطبة (ذكرها صاحب الروض المعطار ص ١٦٠) ولعلها هي المشار إليها في هذه الحكاية، ورملة غرناطة (ورد ذكرها في مذكرات الأمير عبد الله ص ٣٢ ومصادر تاريخية أخرى) وهناك باب من أبواب قصر الحمراء يعرف بباب الرملة ما زالت بعض آثاره ماثلة إلى اليوم، وذكر صاحب الروض المعطار (ص ٦٦) ناحية اسمها أولية السهل وهي قريبة من قرطبة وتعرف بالرملة.

(٤) - في الأصل حداءة، والصواب من البيان المغرب، والحِدَأة: طائر (القاموس المحيط).

(٥) - في البيان المغرب: التجّار. لعلّ المقصود: حان موعد الدفع.

(٦) - في البيان المغرب: «فحضر الرجل لذلك بنفسه».

الحال، وفَقْدِ ما كان عنده من النشاط، وشدة العارضة، فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصّته. [فقال له]* «هلاّ[1] أتَيْتَنا بحدثانِ وقوعِ الأمر فكنّا نستظهرُ على الحيلة! هل هُدِيتَ إلى النـاحيةِ التي أَخَذَ الطائرُ إليها؟» فقال: «مَرَّ بشرب[2] أعلى سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك» - يعني الرملة - فدعا المنصُور شُرْطِيَّهُ الخاصَّ به فقال: «جئني بمشيخة أهل الرملة الساعةَ». فجاء بهم سريعاً. فأمرهم بالبحث عمّن غيّر الإقلالَ[3] منهم سريعاً، وانتقل عن الضِيقةِ دون تدريج. فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا ما نعلمه[4] إلاّ رجلاً من ضُعفائنا، كان يَعْمَلُ هو وأولادُه بأيديهم، ويتناوَبُون السَّنْوَ[5] بأيْديهم[6] عجزاً عن شِراءِ دابّة، فابتاع الآنَ دابة، واكتسى هو وَوَلَدُهُ كُسْوَةً متوسطة». فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجرَ بالغدوّ إلى الباب. وحضر الرجلُ بعينه بين يَدَيْ المنصور، فاستدناه، والتاجرُ حاضِرٌ، وقال له: «سببٌ ضاع منّا وسَقَطَ إليك فما فَعَلْتَ به؟» فقال: «هو ذا يا مولاي» وضرب بيده إلى حجر[7] سراويله وأخرج الصُرَّةَ بعيْنها، فكاد التاجرُ يطيرُ فرحاً. وقال المنصور: صِفْ لي حديثها. قال: «بينا أنا أعملُ في جِناني تحت نخلةٍ إذ سقطتْ أمامي فأخذتُها، وراقني

* - سقطت من الأصل، وأُثْبِتَتْ نقلاً عن البيان المغرب.

(١) - في الأصل: هل لا.

(٢) - هكذا في الأصل ولعلها تصحيف لكلمة: بقرب، وفي البيان المغرب: مُشْرِفاً على...

(٣) - في البيان المغرب: غَيَّرَ حالَ الإقلال.

(٤) - في البيان المغرب: ما نعلم.

(٥) - السانية: الناقة يُسْقى عليها، وسَنَتْ تسنو: سقت الأرض، والقوم يسنون لأنفسهم إذا استقوا (القاموس المحيط) وفي البيان المغرب: السقي، وفي النفح: نقل الزبل، وفي النفح ١ / ٤١٢: ويتناولون السبق.

(٦) - في البيان المغرب والنفح: بأقدامهم.

(٧) - في البيان المغرب: حجزة.

منظرُها، فقلت إن الطائر اختلسها من قَصْرِك لقُرب الجوار، ودعتني فاقتي لأخْذِ عشرة مثاقيل[1] عيوناً كانت معها مصرورة، وقلتُ: أما يكونُ في كَرَم مولانا أن يَسْمَحَ لي بها». فأعْجَبَ المنصورَ ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صُرَّتَكَ وانظُرها واصدُقني عن عَدِّها. ففعل وقال: وحقِّ رأْسِك يا مولاي إن كان ضاعَ منها شيءٌ سِوى الدنانير التي ذكرها وأنا قد وهبتُها له. فقال المنصور: «نحن أوْلى بذلك منك ولا نُنْقِصُ عليك فَرْحَتَك، ولولا جَمْعُهُ بين الإصرار والإقرار[2] لكان ثوابُه موفوراً عليها». ثم أَمَرَ للتاجرِ بعشْرةِ دنانير عوضاً من دنانيره، وإلى الجنّان بعشرة دنانير ثواباً لإفشاء[3] ما وقع بيده [وقال:][4] «ولو بَدَأَنا بالاعترافِ قَبْلَ البَعْثِ[5] لأوْسَعْنـاه جَزاءً»، وأخذ التاجرُ في الثناء على المنصور، وقد عاود نشاطَهُ، وقال: «والله لأبُثَّنَّ في الأقطارِ [عظيم][6] مُلكِك، ولأُشيعَنَّ أنّك تَمْلِكُ طَيْرَ عَمَلِك، كما تَمْلِكُ إنْسَها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارَك». فضحِكَ المنصورُ وقال: «اقصر[7] في قولك يغفر الله لك». فعجب الناسُ من تلطُّف المنصور في حيلته، وتفريجِ كرْبه[8]، رحمه الله. انتهت.

وجلس المأمونُ يوماً للمظالم، فوقَفَ إليه رجلٌ فقال: «يا أميرَ المؤمنين، كنتُ في ناحيةِ البرامكة، فلما أصابَهُم قَدرُ الله، وقُبِضَتْ ضِياعُهم، قُبِضَتْ

---

(١) - في الأصل: مثاقل.

(٢) - في البيان المغرب: والإنكار.

(٣) - في البيان المغرب: لتأنّيه عن إفسادِ.

(٤) - سقطت من الأصل، وأثبتّها اعتماداً على البيان المغرب.

(٥) - في البيان المغرب: البحث.

(٦) - سقطت من الأصل بدليل كون الكلمة التي تليها مضبوطة في الأصل بالجرّ، وأثبتّها اعتماداً على البيان المغرب.

(٧) - في البيان المغرب: أقصد.

(٨) - في البيان المغرب: فعجب الناس من تلطّف المنصور في أمره، وحيلته في تفريج كربته.

ضَيْعَتي فيما قُبِضَ لهم، وقد أضَرَّ ذلك بي، فإنْ رأيتَ أنْ تُلْحِقَني بمن شَمَلهُ عدلُك، وغَمَرَهُ فضلك، وتُحقِّقَ حسنَ ظني بك، وجميلَ أملي فيك، فعلت!»

قال: ومن أنت؟ قال: أنا محمّد بن جميل[1] أحدُ كتّاب الفضلِ بن يحيى. فاستحسَنَ المـأمونُ هيأته وكلامَه، وقال لأحمد بن أبي خالد: «اكتُبْ بردِّ ضَيْعَته، وردّه إلى جملتك، وأحسِن إليه، وذكِّرْني بخبره». فكان يحضر طعامه وشرابَه، فلا يستَمِعُ منه حديثاً إلّا الافتخار بأيّامِ البرامكة، وذِكْرِ مناقِبِهم، وتعظيمِ شأنهم، فغاظه ذلك لأنه كان صنيعةً للفضل بن سهل، فأمر بحَبْسِه، فأقام في الحَبْسِ أربعة أشهر، إلى أن ذكره المأمون، فسأل عنه، فأخْبَرَهُ، فأمره بإحضارِه على حاله تلك، فَحُمِلَ إليه، فقال له: بَلَغَني ما كان من إطرائك البرامكة. قال: أتكلّم بأمانِ أميرِ المؤمنين؟ قال: نعم. فقال: «والله لقد كانوا شِفاءَ (ص ١٠١) سَقامِ دَهْرِهم، وغِياثَ جَدْبِ عَصْرِهِمْ، وما زالوا كهفاً للاجئين، ومَفْزَعاً للخائفين، فإن أمَرَني أميرُ المؤمنين حَدَّثْتُهُ ببعضِ حديثهم، فيعذرني إلى الميلِ إليهم» قال: هاتِ حديثَك. قال: «يا أميرَ المؤمنين! خشونةُ الملبسِ ودَنَسُه، وألمُ الحبسِ وسوءُ أثَرِه، مانِعتي من الانبساطِ بين يَدَيْ أمير المؤمنين». فأمر المأمونُ بنزع ما كان عليه، وأُدْخِلَ الحمام، ونُظِّفَ، وخُلِعَ عليه، وطُيِّب. ثم قال: هات حديثك. قال: «يا أميرَ المؤمنين! كانت لي بهم حُرْمة، وصارت إليّ من فضلهم نِعْمة، فقال لي الفضلُ يوماً: يا محمّد. قلتُ: لبَّيْكَ أيّها الأمير. قال: أشتهي أن تَدْعُوَني إلى منزِلك كما يدعو الصديقُ صديقَه والأخُ أخاه، فتُقْعِدني على فراشِ بيتك، وتُطْعِمني من طبيخِ أهلِك. فقلت: حالي أصْغَرُ، وشأني أحْقَرُ، وداري تَضِيقُ بذلك. فأبى[2] عليَّ وقال: والله لا قَبِلْتُ عُذْرَكَ. قلت: فاسْتَأْجِلْني حَوْلاً أتأهَّبُ فيه لهذه الدعوة. فقال: لا أفعل! يا بَغيض مَنْ يُعطينا أماناً من الموتِ إلى سنة؟ ولكنْ قد أَجَّلْتُكَ شَهْرَيْن. فخرجتُ فأخَذْتُ في إصلاحِ داري وأثاثي وآلتي إلى انقضاءِ شَهْرَيْن. فقال

---

(١) ـ انظر الجهشياري ١٣٤ والتذكرة الحمدونية ٢ / ٢٠٢.

(٢) ـ في الأصل: فأتى، والصواب من قطب السرور.

لي: يا محمّد ما صنعتَ؟ قلت: ما أمرني الأمير. قال: فتأذَنُ في البكور؟ قلت: تفضيلُ مولاي الأمير. قال: فبكَر عليَّ يحيى والفضلُ وجعفرُ في خاصّةِ خَدَمهم. فقال لي الفضل: اعرِضْ عليّ طعامَك! فَعَرَضْتُه، فقال: عجِّلْ بلون كذا، فإنّ الوزيرَ يستطيبُه، يعني أباه، فأحضرتُه، وتتابعَ ما طُبِخَ لهم فأكلوا، وَخَرَجَ الفضلُ إلى صَحْنِ الدار، فقال لي: مَنْ جيرانُك؟ قلتُ: عن يميني فلان التاجر، وفي ظهري رَجُلٌ قد ابتاعَ براحاً، وجمعَ الصُنَّاع، فهو لا يَفْتُرُ ولا يُقَصِّرُ في بنائه. قال: يا محمد أفتعرِفُهُ؟ قلتُ: لا والله. قال: ببنّاءٍ[1] ونجّار[2]. فأُتِيَ بهما، فقال: افتحا هاهنا باباً. فقلت: نَشَدْتُك الله أنْ تؤذيَ جاري بِسَببي. فأبى، ولم أَجْسُرْ أن أُعاوِدَها، ففتح باباً ودعا أباه وأخاه فدخلوا ودَخَلْتُ معهم إلى دارٍ لم يَرَ الناسُ أحْسَنَ منها ولا أبهى، قد بُنِيَتْ بالرُّخام والساج، ومُوِّهَتْ بالذهب واللازَوَرْد، وعُمِلَ في وسطها بُستانٌ قد نُقِلَتْ إليه الأشجارُ المثمرة وصنوفُ الزَّهْر والرياحين، وفي ناحيةٍ منه بِرْكةٌ عظيمةٌ عليها أربعةُ دكاكين من الأُسوس المُضَبَّا[3] بالذّهب مفروشةٌ بالديباج، وإذا غلمانٌ خصيان وفحولٌ مُرْد كالدُرِّ المنثور. وأقبل الفَضْلُ يطوفُ بالدارِ والخزائن، وإذا هي مَشْحونةٌ بكلّ ما يُشاكِلُها من الفرش والأقبية[4] الحسنة، ودعاني فقال: يا محمّد أيُّما أحسنُ هذه الدار أمْ دارُك وفرشك وآلتُك؟ فقلت: يا سيّدي وهل في الجنَّةِ إلّا مثلُ هذه؟! ولا يَجِبُ أنْ يَسْكُنَها أحدُ غيرُك، فملأك الله وعمّرك. فقال: يا محمّد أتحِبُّ أنْ تكونَ لك؟ قلت: والله ما أرى نفسي أهلاً. قال: فإنها والله لك بكلِّ ما فيها من آلةٍ وفرش وعبيد. فَبُهِتُّ لا أجِدُ جواباً. فقال: يا محمّد لا تستكثِرْ هذا مع محلّك عندنا. ثم دعا بالطعامِ فأكَلْنا وبالشرابِ فشَرِبْنا، فعطف يحيى على جعفر فقال: إنّ أبا العباس قد سبقك إلى هذه

---

(١) ـ في قطب السرور: عليّ ببنّاء.

(٢) ـ في الأصل: وتجّار.

(٣) ـ في الأصل المضبّا. وفي لسان العرب ضبأ به الأرضَ ألزقه بها.

(٤) ـ في قطب السرور: والأنية.

المكرُمة، فلا تفوتنّك خاتِمَتُها. قال: وما ذاك؟ قال: إنّ محمداً قد حصل في هذه الدار بما فيها من الحَشَم والغِلْمانِ والخَدَم، ولا مادّةَ له يستعين بها عليهم، فَضَرَرُها عليه أكثرُ من نَفْعِها، وضَيْعَتُكَ الفلانيّة تُقيم أوَدَهُ وتُصْلِحُ حاله. قال: قد أمَرْتُ له بها[1] وحوّزته إيّـاها. ودعا بوثيقتها فدفعها إليَّ فمرّ يحيى وقال: لا أخلاكُما الله من عارفةٍ تسديانِها ويَدٍ عند حُرٍّ تَصْطَنِعانِها، وانصرفوا».

فقال المأمون: «لقد برّزَ القومُ في فَضْلِهِم فلا لَوْمَ عليك في إطرائهم وذِكْـرِ مفـاخِـرِهم. وإفراطُكَ في شُكْرِهِم يدلُّ على جرأتِك[2] ويُرَغِّبُ في اصطناعِك» وأمَرَ له بمائةِ ألفٍ، وأثْبَتَهُ في خاصَّتِهِ، فكان أحْسَنَ (ص ١٠٢) رِجالِهِم حالاً وأعلاهم همّةً[3].

وهذا الذي منّ الله به على هذا الرجُلِ من ثمرةِ الوفاء الذي تكرّرت الإشارةُ في غيرِ موضعٍ من هذا الموضوع أنّه أشرفُ صِفةً وأكرمُ خَلَّةً، ولن يفقد[4] المتصف بها ثَناءً من المخلوق، وكِفاءً من الخالق، وقلّما يوجد إلاّ واللطفُ مصاحِبٌ له في أزماته، مسدِّدٌ له في عزماته.

وانظر إلى ما استفاده في هذه الحكايةِ من مواهبَ جليلة، وعوارفَ جزيلة.

وتمحيصُ الاغتصابِ هو السببُ المُعْقِبُ لهذه الفوائد، والمُؤْذِنُ بالفَرَجِ وإن كانَ من الشدائد. ومن أعظمِهِ مُصاباً، وأشدِّه أَوْصاباً، ما يحدُثُ منه على أولي الأمْر، وأولياءِ المُلْك، وأربابِ البَسْطةِ في العزّ، فإنّهم الذين يُعْتادُ مِنْهُمُ الظُّلم، ويسلم لهم على الكره هذا الحُكْم، فإذا أُدْرِكَ منهم الاغتصاب،

(١) ـ في الأصل: فيها، والصواب من قطب السرور.

(٢) ـ في قطب السرور: يدلّ على صدق حديثك.

(٣) ـ وردت القصة في قطب السرور ص ٦٢ ـ ٦٦.

(٤) ـ في الأصل: يعقد.

وتُجُرِّع من قِبَلِهِمْ هذا الصاب[١]، فهو حُكْمٌ صادِرٌ من عزيزٍ على ذليل، وأمرٌ نافذٌ من قويٍّ على ضعيف، فللنفْسِ في هذا المقامِ خُضوعُ القَهْر والغلبة، وتسليمُ المُذْعِنِ لمن قَدِرَ عليه وغلبه. وإذا انعكس هذا العمل، وأخفق في تمكُّنِ العزّ والأمل، فصار الملِكُ الذي يَغْصِبُ الناسَ أموالَهم مغصوبةً أموالُه، مقهوراً على ما بيده حتى يُسْأَلَ منه عِيالُه، فَلَيْسَتْ فوقَ هذه المصيبةِ مصيبةٌ، والعزُّ والهونُ حظوظٌ، وقد استوفى من قسمة الهون نصيبه، كالواقعِ لبعضِ ملوكِ بني العباس. قال اسحق بن فرّوخ[٢]: وَجَّهني مُفْلح[٣] إلى المعتمِدِ[٤]، وقال لي: قل له: سمعتُ بـ «هزار» جاريةِ أمير المؤمنين، فأعْجَبَتْني، فأحْبَبْتُ أن أمْلِكَهـا، ورأيتُ بَدْراً الجُلَّنـار[٥]، فأحببتُ أن أمْلِكَه، فليوجِّهْ إليَّ أميرُ المؤمنين بهما»[٦] فهالني ما قال. فدخلتُ على المعتمِدِ، فقلت: «حَمَلْتُ إلى أمير المؤمنين ـ جُعِلْتُ فداءه[٧] ـ رسالة، فإن أمّنني أدّيتُها». فقال: قُلْ ما شئت. فأخبـرتُـه، فَغَضِب، وخَـرَّقَ ثيابَـه، وقـال: «أهكذا يَفْعَلُ العبيدُ بالموالي، يَغْصِبونهم على حُرَمِهِمْ وعلى غِلْمانهم؟!» فخرجتُ عَنْهُ، فأمر بردّي، وقد سَكَنَ، وقال: «مِثْلُ أبي صالحٍ لا يُرَدُّ عن طِلْبَتِهِ، وقد أمَرْتُ بِحَمْلِ هَزار إليه». وكان قد اشتراها بمالٍ عظيم، فبعثَها مع كُسْوَتِها وفرشِها وجواريها[٨] وجميعِ مالها، «فأما بدرُ الجُلنار، فقد وَقَفَ على خِدْمَتِنا، وله منّا موضعٌ، فقل له يُسْعِفنا بتركه». فعدتُ إلى مُفْلح، فأخبرتُه، وهو على الخروجِ إلى البَصْرَةِ

(١) ـ الصاب جمع صابة وهي المصيبة، وشجر مرّ (القاموس المحيط: صوب).

(٢) ـ في الديارات للشابشتي ص ١٠٢: اسحق بن مرّوح.

(٣) ـ وزير المعتمد على الله وهو تركي ويكنى أبا صالح (مروج الذهب ٤ / ١٩٩).

(٤) ـ الخليفة العباسي أحمد بن جعفر المتوكل بويع سنة ٢٥٦ هـ لقب المعتمد على الله ومات سنة ٢٧٩ هـ (مروج الذهب ٤ / ١٩٨، تاريخ الخلفاء ٣٦٣، تاريخ بغداد ٤ / ٦٠).

(٥) ـ في الأصل: الحينار، والصواب مما ورد فيما بعد في الحكاية ذاتها.

(٦) ـ في الأصل: بها.

(٧) ـ في الأصل: فداءً.

(٨) ـ في الأصل: وجوارها.

مع المُوفَّق* لحربِ الزنج، فقال: «إذا رَجَعْنا أخذناه منه أَحَبَّ ذلك أو كَرِهَه». فخرج فأصابه سَهْمٌ فقتله. انتهت(1).

وهذا الواقعُ لهؤلاءِ الخلفاءِ العباسيّين من مواليهم الأتراكِ من مغالط الوجودِ وشنائعِ العالَم، وهو مُقْتَضى ما وَعَدَ به الصادقُ المصدوقُ صلّى الله عليه وسلّم، ومُقْتَضى ما دَلَّ عليه الاستقراءُ في نَظَرِ ابنِ خلدون، حسبما حكاه في صَدْرِ تاريخه في الدول إذا بَلَغَتْ عُمْرَها الطبيعيَّ لها(2). فمن أرادَ ذلك فليُراجِعْ كلامَهُ هنالك، فهو مما يعجب منه، وشهد له برهانُ الوجود، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومِنْ بعد.

وكما أنَّ فَوْتَ هذه القُنْيَةِ الجاهيّةِ أو الماليّة أو مجموعِهما ابتلاءٌ لمن كان ذلك في يَدَيْه، فكذلك التلبُّسُ بهما أو بإحداهما لم يكونا في يَدَيْهِ على سبيلِ الزُّهد فيهما، والمطلوبُ من التقلّل منهما، ثم هيأ الله منهما لمن هذه صِفَتُهُ ما يَصْرِفُ عن وجهته، فذلك ابتلاءٌ أيضاً، ولعله أعظمُ من الابتلاءِ بالفَوْت. كما حدّث أبو القاسم أحمدُ بن يوسف(3) معلّمُ الخليفةِ هشام قال: لما انصرفتُ من الحجّ صيّرني وليُّ العهدِ الحكم لِمُقابَلَةِ كُتُبه، وأجرى بذلك رزْقاً، فأتاني ابنُ السليم(4)، وهو يومئذٍ معتزلٌ عن السلطان على غايةٍ من

* ـ أبو أحمد شقيق المعتمد على الله ووالد الخليفة المعتضد ت ٢٧٨ هـ (مروج الذهب ٤ / ٢٢٧).

(١) ـ انظر هذه القصة في: الديارات للشابشتي ص ١٠٢.

(٢) ـ يشير ابن عاصم هنا إلى نظرية ابن خلدون الشهيرة (انظر الفصل الرابع عشر من مقدمة ابن خلدون: في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص ص ١٧٠).

(٣) ـ في الأصل أبو القاسم بن أحمد بن يوسف، والصواب من ترتيب المدارك، وهو أحمد بن محمد بن يوسف المعافري، من أهل قرطبة، ولد سنة ٣١٠ هـ ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢ هـ وعاد إلى الأندلس سنة ٣٤٥ هـ، واستأدبه المستنصر لولي العهد هشام، سقط في الحمام ومات سنة ٣٦٨ هـ، (ابن الفرضي ١ /٤٩).

(٤) ـ هو محمد بن اسحق بن منذر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن السليم القرطبي فقيه=

التقشُّف، فقعد عندي وأقبل يعذِلُني، ويقول لي: يا أبا القاسم! بعد طَلَبِ العِلْمِ وتقييدِ الحديثِ والرحلةِ فيه ركَنْتَ (ص ١٠٣) إلى هؤلاءِ القَوْمِ واسْتَهْوَتْكَ دنياهم! فقلت له: وأيّ شيءٍ وليتُ لهم؟ إنما هي كُتُبُ عِلْمٍ لمثلها كان سعيي أصحّحها بأجرة. فقال: «لا تَقُلْ هذا فقد غَلَّتْكَ حبالُهم ولن تفلتها، ومن هذا يرقّونك إلى غيره، ولا يمكنُك خِلافُهم، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون على عظيمِ المُصاب بك» ثم شدّ[1] يده إلى كُمّه وأخْرَجَ منه حَجَرَيْن، وقال لي: «خذهما فاضرب بهما صَدْرَكَ وَنُحْ على نَفْسِك». فخرج عنّي وتركني أبكي على نفسي. فما مضت الأيامُ حتى صار إلى مَنْزِلَتي، ثم ارتقى منها إلى الشُّورى، ثم إلى المظالمِ، ثمّ إلى قضاءِ الجماعة، فانتهى إلى الغاية، فأردتُ مُعارضَتَهُ؛ فأمرتُ جاراً لي من المختارين بِحَمْلِ حَجَرَيْن أصمّين، وبعثتُ معه غلاماً لي بعدَ صلاةِ العَتَمَةِ، حتى أنْزَلَهُما ببابِ القاضي ابنِ السليم، وأسْنَدَهُما إلى مِصْراعِهِ. فلما قام القاضي لصلاةِ الفجر، وفَتَحَ بابَه، ألفى الحَجَرَيْن مُسْنَدَيْن إليه، فبقي مفكراً، فمضى إلى المسجدِ، مشغولَ البال، إلى أن دخلتُ عليه غدوةً، فما هو إلّا أنْ رآني، اهتدى إلى وَجْهِ القضيّة، فقرّبني وقال لي: أنتَ صاحِبُهُما؟ فقلت له: «هما الحجرانِ اللذان دفعتَ إليّ، رَفَعْتُهما عندي إلى أن كَبُرا، وصَرَفْتُهُما إليك، إذْ كَبُرَتْ حالُك». فبكى وقال: هو حقُّك[2]، والبادىءُ أظْلَمُ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون على عظيمِ مِحْنَتِنا وخُسْران صَفْقَتِنا. انتهت[3].

= ومحدث وعالم في اللغة والنحو، عمل في مقابلة الدواوين في مكتبة الحكم المستنصر، وولي القضاء أيام الحكم، توفي سنة ٣٦٧ هـ.

(ترتيب المدارك ٤ / ٥٤١، جذوة المقتبس للحميدي ص ٤٣، تاريخ العلماء لابن الفرضي ٢ / ٧٧، قضاة قرطبة ص ١٢٠، تاريخ قضاة الأندلس ٧٥ ـ ٧٧).

(١) ـ في الأصل: سدّ.

(٢) ـ في الأصل: هو صك والصواب من ترتيب المدارك.

(٣) ـ انظر الحكاية في ترتيب المدارك ٤ / ٥٤٥.

وقد كان ابنُ السّليم من الزُهْد والتقشّفِ والاقتصادِ والتقلُّل من الدنيا على حالةٍ عظيمة تُنافي مُلابَسَةَ السلطانِ والدخولَ في القضاء، ولكنّه ابتُلِيَ به، وإنْ كان فيه على أكْمَلِ الأحوال من القيامِ بِالحقّ، والحُكْمِ بالعدل. لَطَفَ الله بنا وبأمثالِنا.

خاتمةٌ لهٰذه الصُّورة الثانية

للغالب بالله أيّدهُ الله ـ في هذه التمحيصاتِ العظيمةِ، اللاّحِقَةِ في القُنْيَةِ الجاهيّة، والقُنيَةِ الماليّة، الملموحِ فيها اللُّطْفِ الخَفِيّ من مانِحِهِ، والملحوظِ فيها[1] الصنع الجميل من واهِبِهِ، قضايا متعدّدةٌ، ونوازلُ متكررةٌ، فيها لأولي الألبـابِ مُعْتَبَـر، ومنها لأربابِ الفِكْرة مُدَّكَر، يرد عليه منها أعظمُ ما يطرقُ المتبنّك[2] في النعمة والمتوسّع في العيشة، فلا يكونُ إلاّ كلمْحِ البصر، وإذا بالمُلْكِ قد نُزِع، والأمْر قد سُلِب، والحاجةِ قد لزَّت لأدنى مُتَمَوَّل، والضرورةِ قد دَعَتْ لأقلِّ مُسْتَنْفَقْ، وهوـ متى طرق ذلك ـ بادي الصبر، ظاهرُ السَّكينة، مسلّمٌ لجاري القَدَر، مُقْبِلٌ على الله بالكُلّيةِ، لا يَرْتَجي الفَضْلَ إلاّ منه، ولا يؤمّلُ الخلاصَ إلاّ من لَدُنْهُ. وفي أثناءِ ذلكِ يَسْلَمُ القريبُ والبعيدُ، والوليُّ والنصيرُ، والمولى والصنيعةُ، ويُحالُ بين اليدِ وما ملكت، والنفسِ وَمَنْ أحبّت، ويَحْصُلُ الخوفُ المُذْهِلُ، والكَرْبُ المطفِق[3]، والغمّ المُبْلس، ويتعيّنُ على فرضِ السلامةِ الافتقارُ من المال، والفراقُ من الأحبّة، والانخلاعُ من المُلْك. وفي كلِّ حالةٍ من هذه الحالات، يردُ[4] من الألطافِ الربّانيةِ عجائبُ ليست في حِسابِ المخلوقين، ولا هي من جِنْسِ المعتادِ لأربابِ الابتلاءات، ولا مِنْ صِنْفِ المعهودِ لمن قدر عليهم بأنواعِ التمحيصات.

ولا أعتقِدُ أعظمَ سببٍ في تلك اللطائفِ الخفيّةِ إلاّ البُعْدَ عن الدخولِ

---

(١) ـ في الأصل: فيه.

(٢) ـ تبنّك به: أقام، وفي عزّه: تمكن (القاموس المحيط: بنك).

(٣) ـ طفِقَ الموضعَ: لزمه (القاموس المحيط: طفق). ولعلّها: المُطْبِق.

(٤) ـ في الأصل: برد.

في ذِمّةِ الكُفر، والامتناعَ من الرُكونِ لملكة[1] الشِرْك، فييسّر الله من الأسبابِ الضمينة للذات الشريفة، والكفيلةِ للمهجة الكريمة، بما يمدّ رِواقَ الحفظ، ويلحف جناحَ الأمْن، ويرزق موهبة[2] النجاة، ويعيد[3] طريق السلامة، ويسني عن غرائب الوجود أشياء ليس على وِزانِ المُشاهَدِ في أحوال غيره من الملوك، ولا المسموعِ عنه في أخبارِ مثله من الخلفاء، من عطف قلوبٍ نافرة، وإقبالِ وجوهٍ فاسدة، وانقيادِ (ص ١٠٤) نواصٍ شاردة، وإذعانِ فِرَقٍ عاصية، وملاقاةِ من[4] يعد عليه معرضاً من القسوةِ ليناً ومن الشدةِ رخاءٍ، ومن الإعراضِ قبولاً، ولن يفقد مع ذلك للقَدْرِ ترفيعاً، وللرُتْبةِ تشريفا، وللمرتبةِ تعظيماً. وفي الوَصاةِ بتحمّل النُوَبِ في مثل تقلّب أحواله التي تحفظ عليه فيها الخصوصيّة يقول جمالُ الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن الأخوة الشيباني[5]:

لا تخـضعنَّ لدهـــرٍ	أنْحَتْ عليكَ صُروفُهْ
فالــبــدرُ بَدْرٌ وإن	بَزَّهُ الضِياءَ كُســوفُــهْ

وهذا على الجملة، وأمّا على التفصيل فقد كان التمحيصُ اللاحِقُ له، بثورةِ المعروفِ بابنِ المول[6] من أفظع ما طرقَهُ من هذا الجِنْس مذاقاً، وأشْنَعِها بكل اعتبارٍ مساقا، فَلَطَمَتْ فيه غيرُ ذاتِ سِوار، وادّعت الظُلَمُ المدلهمّةُ محاسَنَةَ

(١) ـ هكذا في الأصل، وربما أراد: لمملكة الشرك.

(٢) ـ في الأصل: مرهبة.

(٣) ـ في الأصل: يعيد (دون واو العطف).

(٤) ـ هكذا في الأصل.

(٥) ـ يعرف أيضاً بالعطّار، سافر إلى خراسان ونيسابور والريّ وطبرستان وأصبهان طلباً للحديث، ونسخ كتباً كثيرة، وله شعر، توفي سنة ٥٤٨ بشيراز (فوات الوفيات ٢ / ٣٠٩).

(٦) ـ هو يوسف بن المول ثار على محمد الأيسر سنة ٨٣٥ هـ بمساعدة خوان الثاني، وقد سلف ذكره.

الأنوار، واستفحل للبكر الحسناء حَصُور[1] أتى عليه الجَبُّ، وطُلِب مَنُّ الرضا من الله، فأنكد مَنْ سَخِطَ عليه الرَبُّ، وأُمِّلت النصرةُ على المسلمين بأنصارٍ من النصارى، ورُجيَتِ المحبّةُ من الناسِ بقَوْد أهلِ ملّتهم أُسارى، وخوطِبَ الطاغية[2] ـ قصمه الله ـ بالتسويدِ والتمويل، و. . . .[3] له بالعبودية في غرض التعظيمِ والتبجيل، واستظهر البرهان على محكم القرآن، بمفتعِل[4] على الانجيل، ومدّ الصليب ذِراعَيْه، فتسابقت إليه تلكَ الشِرْذمةُ بالتقبيل، وأرهب العدوّ من حِبالةِ مكره وكيده، وأرصد خلف حبائله المبثوثة من قوّته وأيْدِه، وموّه على ضَعَفَةِ العقول بإباحةِ اجتلاب الأطعمةِ من بلاده، وعلِقَتْ أطماعُه في استِئْصالِ الوطن، بالتفريقِ بين أهْلِهِ، والتضريبِ بين أجْنادِهِ، وهو يُريهم أنّه لِحُقُوقِهِمْ يرعى، وفي مصالِحِهِمْ يَسْعى، ولتمهيدِ الوَطَنِ وكَّدَ عَزْمَ ابتغائه، وقد أسَرّ لهُم الحَسْوَ في ارتغائِهِ، وعقاربُهُ في أثناء ذلك تَدِبّ، وخولعته[5] لا تغِبّ، وكادَ أمَلُه يَكْمُل، والبلاءُ من تِلقائِه يَشْمُل. لولا أنَّ الله لطيفٌ بعباده، مسبِّبٌ للخَيْرِ فيما يُجْريه من قَدَرِهِ ويُنْفِذُهُ من مُرادِه، يحكُمُ الأمْرَ ويَدبِّرُهُ، ولا شعور للإنسانِ بغايةِ ذلك التدبير، ويَقْضي الحُكْمَ ويُقَدِّرُهُ، ولا عِلْمَ لسِواهُ بمُنْتَهى ما يبرُزُ من ذلك التقدير لمكان مايُيَسِّرُهُ [من][6] الألطاف، وجرز من لباسِ رحمتِه الأعطاف. تحيّز السلطان ـ نصره الله ـ من كورة ريّة[7] إلى معقل حَريز، ووطنٍ عزيز، في عُنْفُوانِ تلك الفِتْنة، وعلى عَقِبِ تَوَقُّدِ لظاها، فيمن لفّ لفّه من أهلِ

(١) ـ الحَصُور: عرق يمتد معترضاً على جنب الدابّة إلى ناحية بطنها. (القاموس المحيط: حصر).

(٢) ـ المقصود هنا خوان الثاني (Juan II) الذي حكم قشتالة من عام ١٤٠٧ إلى ١٤٥٤م وجاء بعد هنري الثالث، وعندما تولى العرش كان طفلاً فرعته أمه الانجليزية كاثرين وخاله فردناند (كوندي ص ٣٠٠، سكوت ٤٩٦).

(٣) ـ كلمة غير واضحة الملامح.

(٤) ـ هكذا في الأصل.

(٥) ـ الخولع: الغلام الكثير الجنايات كالخليع والأحمق (القاموس المحيط: خلع).

(٦) ـ زيادة من المحقق.

(٧) ـ انظر: الروض المعطار ٢٧٩.

البصائر من قُوّاده وفُرْسانه وأجْنادِه، فكان من أوّلِ ما أغلقَ أمَلَهُ بالإدالة[1]، وَثَبَّتَ طَمَعَهُ في الإقَالة، استمساكُ أهلِ بلّش[2] بطاعَتِهِ، وتبرّزُهُم في الثبوتِ على خِدْمَتِهِ، فبرزوا لتلقّيه جَمّاً غفيراً، يَقْدُمُهم فُقهاؤُهم وأهلُ العَقْدِ والحَلِّ من وَطَنِهم، مُبْتَهِلِينَ في الدعاءِ والضراعةِ إلى الله بِجَبْر حاله، مُسْتَظْهِرينَ من الامتعاضِ للواقعِ، والاكتراثِ للحادثِ، بما ضَمِن استئنافَ سعد، واستقبالَ عزّ، وشهد لهم بأصالةِ أحساب، وعراقةِ أنساب، وحريةِ طِباع، واتساعِ خُطواتِ المكرمات رُباع، فاستفتَح الحلولَ بمدينتهم الغرّاء، ذاتِ الزرعِ والضرعِ، بالتبرّكِ بتربةِ وليّ الله تعالى الشيخ العالم الصالح أبي جعفر بن الزيّات[3] - نفع الله به - فزار لَحْدَه المقدّسَ على عادتِهِ في تعظيمِ مدافنِ أولياءِ الله، واستمطارِ صَوْبِ الرحمة بزيارةِ أجداثِهم المطهّرة. فلما قَضى من ذلك وَطَراً استنهضَـهُ الفقهـاءُ والـوزراءُ إلى الحلولِ بِقَصَبَتِهم ذاتِ المَنَعَـةِ الشهيرةِ والمصالحِ العديدة، وقد اختلفوا في القِرى، واستوسَعُوا في العَلُوفَةِ، والتزموا من القيامِ بالخدمة، والثبوتِ على الطاعةِ (ص ١٠٥) والأنَفَةِ من الدخولِ تحت رِبْقَةِ الكفر، والرُكونِ إلى ذمّة الشِرْك، ما كان فاتحةً للفتح، وغُرَّةً في وَجْه نُجْحِ القَصْدِ، وعلامةً على حُسْنِ العاقبة، وأمارةً على الثِقة بيُمْنِ الخاتمة.

ثم كان الانتقـالُ إلى مالَقَة[4] أُمِّ تلك القُرى، وصبحِ مَحْمَدَةِ ذلك السُّرى، غيلِ أهلِ الشرى، ومجمعِ أجناسِ الورى، فكان الحَفْلُ أشْهَرَ، والاستبشارُ أظهر، والاغتباطُ أتمّ، والتلاقِي أعظمَ جمعا، والامتعاضُ أغزر دمعاً، فما شئتَ من مساهمةٍ في القوت، ومراقبةٍ للفرح الموقوت، ومجانَبَةِ

---

(١) - في الأصل: الادابة.

(٢) - بالاسبانية Velez Malaga إلى الشمال الشرقي من مالقة.

(٣) - هو أبـو جعفـر أحمـد بن الحسن بن علي الكلاعي، شيخ مدينة بلّش مالقة بالأندلس وخطيب جامعها، كان يعرف بابن الخطيب وهو متصوف مشهور وله تصانيف كثيرة وله شعر، مولده سنة ٦٤٩ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ (الديباج المذهب ٤٣ - ٤٤، الكتيبة الكامنة ٣٤ - ٣٧، الإحاطة ١ / ٢٨٧ - ٢٩٦).

(٤) - (Malaga) وتقع على الساحل الجنوبي للأندلس جنوبي غربي غرناطة.

للمشنوءِ الممقوت، وابتهالٍ بالدعواتِ الصالحةِ في مظانّ القبولِ والإجابة، ومراجعةٍ لمبادي الاستصراخِ والاستنصارِ بالتلبيةِ والاستجابة. فساغَ الريقُ، وَوَضَحَ لانتهازِ[1] الفرصةِ الطريقُ، وأمر باجتماعِ الكلمةِ التفريقُ، واستجمعت همم أولي البصائر لردّ الكرّة، وأَنِفَتْ مشائخُ أربابِ العزائم من الفِرارِ يومَ الحَرَّة، فاجتمع رأيُ الملأ على إقامةِ العسكرِ بمدينةِ بلّش الواسعةِ الفِناء لهذا القصدْ، الكفيلة بالسعادة لحكم هذا الرصد.

وفي أثناء ذلك تتكيّفُ صنائعُ تبهرُ[2] العقولَ بغرابةِ نوعها، وتتهيّأ عجائب تؤذِنُ النفوس بانقياد السعودِ وطوعِها، فإن لقوْا جمعاً من مخالفيهم فَلُّوه، وإن شعروا بعَقْدٍ من مناوئهم حَلُّوه، وإن ظَفِروا بعزيزٍ منهم أذلُّوه، وللجبين في سبيلِ البلاء المبين تَلُّوه، إلى أن كَبَسُوا الحضرةَ الكَبْسَةَ التي أرْدَتْ عداهم، وتَبَّتْ[3] بها يداهم، وتقاصرها في الغيّ مداهم، وأَقْفَرَ بسببها من الضلالةِ مُنْتَداهم، في يوم قَمْطَريرٍ عبوس، جلّى على أقتالهم كلّ بوس، وجلّلهم من المذلّةِ شرّ لَبُوس.

وقد تناول الطاغيةُ الإِسْلَام بِظُفْر أحْجَنَ، وظَاهَرَ هذه الطائفةَ بجيشٍ أخْشَنَ، فاحتلّوا على بريدٍ من الحضرة يأمرون ويقتلون، وفي غاربِ المَكْر وذروتِهِ يمتِلون، إلى أن حُمَّ اللقاءُ، واشتدّتِ الهَيْجاءُ، في يومٍ كان الفتحُ فيه لأعرق الفئتين نَسَباً في الإِسْلام، وأمكَنِها سَبَباً في البراءة من الكفّار. وقد استلحم القتالَ أعدادُ من رؤوس الفِرقتين شِقَّ الإِبْلِمَة(*)، وتقاسموا الحرب فيه تقاسُمَ النَصَفَةِ والمَعْدَلَةِ، وأبلغت أدنى الطائفتين إلى الحقّ في المعذرة، وفازت

---

(١) ـ في الأصل: لابتهاز.

(٢) ـ في الأصل: تبر.

(٣) ـ في الأصل: وثبت.

* ـ في الأصل: شقّ الأنملة، وهو تصحيف، وفي لسان العرب: المالُ بيننا والأمر بيننا شِقّ الإِبْلِمة، وبعضُهم يقولُ: شقّ الأُبْلُمة، وهي الخَوصة، وذلك لأنها تؤخذ فتُشَقُّ طولاً على السَواء (لسان العرب: بلم).

من نصرِ الكلمةِ بأسنى المَنْقَبَةِ.

ومن ذلك اليوم استحثّوا السلطانَ ـ أيده الله ـ للوصولِ بمن بقي معه من الناسِ، ووجّهوا عنه حظِيّاً من خُلَصائه ليجيزه(١) بما وقف عليه من الجليّة في القضيّة، فتحرّك من مالقة في لُمَّةٍ ليست بالكَثْرةِ من القَعَدَةِ وغيرهم ممن حَبَسَه العُذْرُ من مُبِلٍّ من جرح، وناقِةٍ من سقم، ومتفرّغٍ من شغل، وقد تأذَّنَ الله لغمرته بالانجلاء، ولشدّته بالانقضاء، فانتهى إلى الحضرة ـ أمّنها الله ـ في يومٍ توارى فيه النَحْسان(٢)، وقوبلت فيه إساءةُ النافرةِ بالإحسان، واعتُبِرَ فيه بمضمونِ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾(٣)، ودعي الناسُ الجَفَلَى إلى لِقاءِ السُلْطان، فلبُّوا الداعيَ مُهْطِعين، وبرزوا إلى الفحصِ الأفْيَحِ المسمّى بالقبب جاغر(٤) أجمعين، وطفِقوا يلثُمون أطرافَه، مسلِمين عليه بالخلافة، متوسّمين في قدومِه تمكُّنَ الأمْنِ مما كانوا استشعروه من المخافة، إلى أن دَخَلَ إلى القصبةِ القُدْمى(٥)، فنزل منها في بعض الدور المنسوبةِ إلى مِلْكه، الموسومةِ، بالاختصاصِ عمّا يرجع من الدورِ إلى أمرِ الوطن ومُلْكه، فنفّذ هنالك بالأوامر والنواهي، وأجرى الرسومَ والألقابَ على ما هي، وانتقى من قوّادِه لُمَّةً ألزمهم حصارَ الحمراء، من قبلِ الجنّة المنسوبةِ للعريف(٦) مغادين لها ومُرائحين، إلى أن تأذَّنَ الله في فَتْحِها واستسلامِ أهلها على أمانٍ بُذِلَ لهم بشرط الإفراجِ عن تمثالهم الذي نصبوه سَدَدَ (ص ١٠٦) رَبْعَةٍ، فما توقَّفوا في

(١) ـ هكذا في الأصل ولعلها: ليخبره.

(٢) ـ النحسان: زحل والمريخ، واستعملها المؤلف هنا في معرض التورية.

(٣) ـ الآية ١ من سورة الإنسان.

(٤) ـ ورد ذكر هذا المكان أيضاً في «وثائق عربية غرناطية» باسم قنبجاغر (ص ١٠٣) في مرج غرناطة بالقرب من قرية همدان (Alhendin)، وعقب لويس سيكو دي لوثينا محقق هذه الوثائق أنه لا يعرف الآن هذا الموضع من مرج غرناطة.

(٥) هكذا في الاصل.

(٦) جنة العريف (Generalife) وهي حديقة وفيها قصر، ملحقة بقصر الحمراء وتقع إلى الشمال الشرقي من قصر الحمراء وما زالت آثارها ماثلة ويؤمها السواح.

ذلك، وفتحوا بابَ الحمراء مما يلي دبرها، فَوَلَجها أصحابُ السلطان معلنين بشارة، ملتفين على يُعْسُوبهم حافِدِهِ الأمير أبي الحجاج يوسف بن الأمير أبي العباس أحمدِ بن نصر رحمه الله. وتبادروا إلى حيث انصرفَ ظنُّهم أنّ المعروفَ بابن المول منتهى طِلْبَتهم المفرج لهم عنه كان به، فلم يجدوه، فوقع البَهْت، وتُوُقِّعَتِ الحيلة، وظُنَّتْ بأولئك المُفْرِجين عنه التُهمة، فتقسَّمهُمُ النَكالُ والاعتقال، وطاح عنهم بمَوْجَدَةِ الأمير أبي الحجاج من جزاءِ الخديعة فيه النَّفَرُ غَيْرُ اليسير، وأُغْرِيَ البحثُ بذلك المشنوءِ المُفْتَقَدِ، فأعْوَزَ وجدانُهُ، ونُقِّبَ عنه في الأماكن المغفلة، وعزم على استقراءِ منازلِ الحمراء بالكَبْسِ والتفتيش مكاناً مكاناً، وسُئِل أسئارُ مَنْ تجافَتْ عنه المنيّةُ من دائرتهِ المسلمين له عن مَوْضِعِ استخفائه، ومَظِنَّةِ تطمّره، فكُلُّهم أقسم على عدم عِلْمِهِ به، وعيّنوا الموضعَ الذي كان آخر عَهْدِهِم به، فلم يُلْفَ فيه، ولا فيما قرب منه.

وكانت هذه الساعةُ على أصحابِ السلطان من أعظمِ ما مرّ عليهم، لإشفاقِهم من تأتّي الحيلةِ فيه، وإعمالِها في قراره، واستقبالِ الفتنة به من جزعه، إلى أن جدُّوا في التنقير عنه، ووقفت بهم الاشارةُ من كثيرٍ ممّن اقتفوا أثره في حالِ الحادثة، ظانّاً أنّه ممّن سَلَكَ في تلك الدارِ من نسوةٍ متلفّعات بمُروطهنّ، آتياتٍ إليها في تلكَ الحال، فصدق ظنُّه وأُلفِيَ في مِخْدَعٍ صغير، أو خِزانةٍ مُتَّخذةٍ في عُرْضِ الحائط، مُسْبَلٍ عليها حصيرُ الحائط المعدّ له، بما يوهم أنْ لَيْسِ هناك شيء، إلاّ لمن يعرفُه سابقاً، فقضى نحبه وفرج الله الأزمةَ، وتدارك الأُمَّة، وشفى من الغصّة.

وعلى مثل هذا الثائرِ في صفته يتنزّلُ قولُ الشريفِ الرضيّ(١):

(١) ـ أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد. . . بن علي بن أبي طالب ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ، وهو من أشعر الطالبيين، وكان يتولى نقابة الطالبيين والحكم فيهم أجمعين والنظر في المظالم والحج بالناس، ويمتاز شعره بالرقة والعذوبة، وله ديوان شعر، توفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ وكان يلقب بذي الحسبين. (ترجمته في: يتيمة الدهر ٣ / ١٥٥ ـ ١٧٨، وفيات الأعيان ٤ / ٤١٤، تاريخ بغداد ٢ / ٢٤٦، الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٤، وانظر دراسة الدكتور احسان عباس عنه. بيروت ١٩٥٧م).

هَبُوا أُصُولَكُمُ أصلي على مَضَضٍ ما تَصْنَعُونَ بأخلاقٍ تُنافيني!؟
لا أَمْنَ لي مِنْ عَدُوٍّ لانَ جانِبُهُ خُشُونَةُ الصِلِّ عُقْبى ذلك اللّينِ
فاحْذَرْ شَرارَةَ من أطفأْتَ جَمْرَتَهُ فالثارُ[1] غضٌّ وإنْ يَبْقى إلى حِينٍ*

ثم وقع ثانياً من التمحيص، ما تضيقُ عن استيفائه الطروس، وتعي عن الإشارة إلى لطف الله العبارة، وتعجزُ عن استيفائه البلاغة، وذلك أن حافظَ السلطان ـ أيّده الله ـ الأميرَ أبا الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر ـ رحمه الله ـ كان بينَهُما من المودّة أعظم ما يكون بين خالٍ وحافِدِه، وكانت والدتُه الحرّة فاطمة أختُ الغالبِ بالله من محبّتها له ومحبّته لها وسعي كلّ واحد منهما في مرضاة صاحبه على أفضل ما يكونُ عليه أخَوان، وكانت منزلتُها منه بحيثُ لم يكن أحدٌ يضاهيها فيها، وادّعى الحافظُ مُناوأةَ أربابِ الدولة، ومكابدتهم إيّاه بما أوجب نفورَهُ عن الحضرة، وانتباذه بالسكنى بقرية وادٍ[2] من خارجها وعلى نحو فرسخين منها. وشعر حُسّادُ النِعم وطلّابُ التِراتِ وذؤبان[3] المكر والخلابة[4] بما نشأ بين هذا الأمير، وبين أربابِ الدولة، من التنافر، ووقع بين الجهتين من التبايُن، فسَعَوْا جهدهم في نقلِ النمائم، وانتحالِ الأباطيلِ[5] واختلافِ الألغابِ[6]، والاقترابِ بالسّعاياتِ، فيُصابِحُون أربابَ الدولة بما يمكّن انحرابهم[7]، ويثبت خوفَهم ويوقفهم على أعيانِ قضايا تقع على غَيْرِ وفق السياسة، أو تخالف بوجهٍ من التأويل قويم السيرة، يصعب على قائلها

(١) ـ في الأصل: فالنار.
* ـ الأبيات في ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٤٧.
(٢) ـ لم أجد ذكراً لهذه القرية فيما رجعت إليه من مصادر أندلسية.
(٣) ـ جمع ذئب، وهي في الأصل: ذوبان.
(٤) ـ في الأصل: الخلافة، والخِلابة: الخديعة.
(٥) ـ في الأصل: وانتعال الأباطل.
(٦) ـ في الأصل: الالغتاب. والألْغاب جمع لَغْب وهو الكلام الفاسد. (القاموس المحيط: لغب).
(٧) ـ حَرِبَ: اشتدّ غضبه.

مواجهتهم[1] فيها بالانكار، ومقابلتهم عليها بالاعتراض، فيسندها من انتقادِ هذه الإمارة عليهم إلى أقوى منه ركنا، وأقدم بزعمه ضغناً. (ص ١٠٧) ثم يماسون الإمارَةَ المذكورةَ بأضدادها، من إبطانِهم الغِيلةَ واستسرارِهم بإعمالِ الحيلة فيهـا، وإقـامةِ الدلائلِ على ذلك بما يظهر من انزواءٍ عنها أثمرته أكاذيبُهم، واستشعارِ حَذَرٍ منها أوجبته أباطيلُهم. وقد كان هذا الأميرُ ـ رحمه الله ـ من عزّة النفسِ وطموحِ الهمّةِ وشدّةِ الأنَفة ونذالةِ البطانةِ وعَدَمِ احتمالِ الهضيمةِ بالحال التي يُضْرَبُ فيها المثل. وكان أربابُ الدولةِ بما ألفَوْه من لينِ جانبِ سلطانهم وسَعةِ جوده وفرط حِلمه وشدة تغاضيه وإطباقِ لَحْظِ انتقاده وانبساطِ كفِّ إيثاره، على حالةٍ من لغوِ السيرة وحصولِ الدالّةِ واستحكامِ الوسيلة وإغفالِ المراقبة، يقتضي التضادّ مع ما تميزت به تلك الإمارة ـ قدسها الله ـ وطفقت والدتُها السيّدةُ الحرّة تستطلعُ إلى ما يتأتّى به أَمْنُ الأمير ولدِها من غائلةِ هذه النمائم المتردّدة بين الجهتين، ويتسنّى به قصدُ أخيها من الصَفْو[2] لدولته، وسكونِ التشغيب من حضرته. فيسّر الله ذلك على حسب اختيارِها الأرضى باستقرارِهِ في قُصَيْبَةِ المريّة[3] على رسم القيادةِ هنالك في خَبَرٍ يطولُ شرحُه.

واستمرت الحالُ على ذلك سنين، وسعايةُ أرباب النمائم مُعْمَلَةٌ فيما بين القاطنين بالدولة وبين هذه الإمارة المغربة كانت في شأو البأوِ[4] وفرط

(١) ـ في الأصل: مواجتهم.

(٢) ـ في الأصل: الصغو.

(٣) ـ بالاسبانية (Almeria) وتقع على الساحل الجنوبي للأندلس إلى الجنوب الشرقي من غرناطة، وهي مبنـاء على البحـر الأبيض المتوسط، وكانت أيام المسلمين مركزاً تجارياً هاماً وبها تصنع الأسلحـة والثياب، وفي الـروض المعطار أنها بنيت سنة ٣٤٤هـ في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. (الروض المعطار ٥٣٧).

(٤) ـ البأو: الفخر (القاموس المحيط).

الاعجابِ، وقد جعلها الله من حُجْرِ الرجلِ الموسوم بعليّ بن علاّق، في ظُلُماتِ جهلٍ لا يتخلّلها نورُ معرفة، وفي دَرَكَات شحٍّ لا يستطلع منها إلى درجة مكرمة. وما زالت الصغائرُ تعظم، والنمائمُ تفحش، إلى أن بدت مخائلُ الانتزاء، وتبيّنت رسومُ القطيعة، واستحكمت أسبابُ الوحشة، وتعيّنَتْ دلائلُ الثورة، باستدعاءِ مَجْفُويّ الدولةِ، بالركونِ إلى تلك الجهة، واستنفارِ الممطولي الحقوق من بقايا شِرْذمة الخِلاف. وتُغُولِيَ في المطالب (لانتجها)[1] السياسة، مثل اتخاذ السكّة هنالك، والاستبدادِ بكلّ ما يتّصل بالوطن من بلد أو معقل، والانفرادِ بما فيها من رسمٍ أو جباية، وكلّ ذلك لا يُغْني شيئاً، ولا يثني عن الغاية المتطلّبة قصْداً، فوقعت المجاهرةُ بتوجيه الجيشِ المروي[2] لنظر القائد محمّد بن ابراهيم القبصاني، لمقابلة محمد بن يحيى بن مسلمة قائد مرشانة[3]، وحَشَدَ لذلك أهْلَ النجدةِ من وادي المريّة وشرقيّها[4]، فطال حصاره بها، وضعف عن المقاومة، لولا مددٌ دخل عليه من قبل محمد بن محمد بن سَلَمة، قائدِ وادي آش، المتوجّه لإصراخه باستحثاثٍ من البابِ السلطاني[5].
ثم توجّه إلى أَنْدَرَش[6] من خدّام الإمارة المعروفُ بأحمد القرشي[7] برسم جبايةِ

(١) ـ الكلمة في الأصل غير واضحة.

(٢) ـ ربما نسبة إلى المريّة.

(٣) ـ بالإسبانية Marchena (Maracena) حصن في مقاطعة المرية، ذكره لسان الدين بن الخطيب في مشاهداته (ص ٤٨) وورد في الروض المعطار ص ٥٤٢ (وهناك حصن يحمل الاسم نفسه من حصون اشبيلية).

(٤) ـ في الأصل: وشرفيها.

(٥) ـ في الأصل: السلطان.

(٦) ـ بالاسبانية Andarax شمال غرب المرية (وانظر: مشاهدات لسان الدين ص ٨٨، الروض المعطار ص ٤٢).

(٧) ـ لعله من أحفاد أحمد بن سعد بن محمد بن أحمد القرشي من أهل حصن اندرش (Andarax) من عمل المرية، يكنى أبا جعفر ويعرف بالعكري المتوفى سنة ٧٥٠ أو ٧٥١ هـ (درة الحجال ١ / ١٣٣).

ألقابها[1]، فعند ذلك مخض الضرع عن الزبدة[2]وتبيَّنَ الصبحُ لذي عينين [3]، وتُفُووِضَ في الرأي، وتُشُووِرَ في العمل، فانجلى الأمرُ عن حَرَكَةِ السلطانِ بالجَيْشِ إلى المرية، واستصحابِهِ القُضاةَ والعلماءَ بقصْدِ الإعذارِ في القضيّة، والإبلاغِ في الحُجّة. وانتزى الأميرُ بقصَبة المريّة، داعياً لنفسِهِ، وطالباً للمُلْكِ بجهده، وأمْرُهُ في كلِّ يومٍ يَسْتَفْحِل، والنزاعُ إليه من مثيري الفتنة ومُؤْثري الفُرْقة مُتَرادِفٌ، وأحوالُ أصحابِ السلطان على الآناء تضمحلّ، وآراؤهم على وضوح المتفاوض فيه تختلفُ، وقد كانوا على ثقةٍ من النصرِ بوصولِ المعروفِ بالأَحْسَنِ الشريف، ممدّاً لهم، يجعلون له الحَوْل والقُوَّة، ويرتقبون من لَدُنْهُ الطائلةَ والنُصرة، فما كان بأسرعَ من انعكاسِ المخيلة فيه بوصوله، وتبيَّنَ أن الله وكلهم إلى أنفُسِهِم لثقتهم بغيره.

وتوالت الإقامةُ بظاهر المريّة نحو الشهر، على حالةٍ تتضمّنُ من تناقُضِ حالِ الحـاصـرين[4] على قوّتهم، ووفورِ الجيشِ لديهم، بالتياثِ الحال، واستيلاءِ الكَسَـل، واختلافِ الآراء، وافتراقِ (ص ١٠٨) الأغراض، وحالُ المحصورين على ضعفِهم واشتدادِ الحصار عليهم بنُجْحِ السعيِ الواهِنِ وسعادةِ الرأيِ الفائلِ وظُهورِ الفئةِ القليلةِ واعتزازِ الفِرْقَةِ الذليلة، بما يُقْضى منه العجب، ولا يشكّ بأنه من الربِّ القاهرِ تسليطٌ، ومن العزيزِ القادِرِ انتقام. فكان من أدهى تلكَ المكيِّفات المصنوعِ فيها لـجهةِ المريّة موقعاً على السلطان وجهته إخراج سريّة من المرية تشتمِلُ على زُهاءِ مائةٍ من الفُرْسان، وما ينيف[5] عليها من الرجال سالكين بها سبيلَ التعقيب لسريّة اخرى أقلّ منها كانت قد

(١) ـ كذا في الأصل.

(٢) ـ في مجمع الأمثال (١ / ١٠٣): أبدى الصريح عن الرغوة.

(٣) ـ فصل المقال ٦١.

(٤) ـ في الأصل: الحاضرين.

(٥) ـ في الأصل: يشفّ.

سبقتها بأيام يسيرة للقَطْع على الرة المتسايلة القِطار[1] إلى منزلةِ السلطانْ من حيث كان محاصراً لها من خارجها بما تحتاج إليه المحلّة من الأزودةِ والأقواتِ والعلوفاتِ والأدم والأدهان والمرافق والمصالح ، فعادت ظافرةَ اليدِ فائزةَ القدح بما أطمع هذه الثانيةَ في انتهازِ الفرصة في اليرة* المتسامع تالفها خشية مما وقع في السابق منها ، وصحّت لديهم الأنباءُ ، من عيونهم المذكاة عليها ، فظفِروا بها غنيمةً باردة لم يُرْزأ عليها أحد ، مُرْبية على سابِقتها بوُفور الأعداد وجُموم الأموال ، وجلالةِ الأمتعة ، ونفاسةِ الآلات . وكان من وهن أصحاب السلطانِ وتفريطِهم في امتثالِ قولِ النبي صلّى الله عليه وسلّم : «**لا يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ واحدٍ مَرَّتَيْن**»[2]، بتوجيه كتيبةٍ من الفُرْسان لحمايةِ ميرتهم ما أوجبَ الانحفازَ بالإفراج عن حصارِ البلدِ ، والانحيازَ إلى الحضرة ، وأرى الله في ذلك مقتضى قوله : ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين**﴾[3]

وفي أثناء الطريق لَقِيَتْهُمْ[4] من ثورةِ الحضْرةِ ووادي آش ما أَشْعَرَ بتوالي التمحيص[5]، وترادُفِ الابتلاء ، إلى أن كان القدومُ على الحضرةِ في أخْبارٍ يطولُ شرحُها ويُمَلُّ استقصاؤها ، ثم القدومُ على مالَقَة . فأوّلُ ما شُوهد من جزاءِ العقوبةِ الوفاق خذلانُ الكُثْرِ ممّن روغم فيه الحقُّ وسُوعِدَ فيه الباطِلُ ممّن دُرِيَ عنهم متعدّي الحدودِ بلا شُبْهة ، وأُهدر لهم دماء المسلمين بلا تأويل كلاّ بل تسليط العددِ الجمّ ممّن سُلّط بالجاهِ على البَريّة ، وحُلّ عن عَقورِهِ الساجور[6] اغراءً

---

(١) ـ جمع قطْر وهو الماء .

* ـ بالإسبانية Illora وقد سبق ذكرها .

(٢) ـ صحيح البخاري ٧ / ١٠٣ ، صحيح مسلم ٨ / ٢٢٧ ، مسند ابن حنبل ٢ / ١١٥ ، ٣٧٩ .

(٣) ـ الآية ٢٥ من سورة التوبة .

(٤) ـ في الأصل : لقيتم .

(٥) ـ في الأصل : المحيص .

(٦) ـ الساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب ، والعقور صفة للكلب .

بالخليقة، توالت القوارع وتعدّدتِ النوائبُ، فما[1] تُلْمَحُ للاستمساكِ مخيلة، أو رُجي من العثرةِ إقالة، رَدَفَها من الخُطُوب ما هو أدهى وأمرّ، وتبعها من الكُروب ما هو أشَقُّ وأشَرُّ؛ فكان إذا وَرَدَ البريدُ بخبرٍ يقتضي للإدالة كرّة أو يتضمَّنُ بتوقُّعِ الفَرَجِ مَسَرّةً، أعقبه في الوقتِ ما يَطْمِسَ نُورَهُ ويمحو رَسْمَهُ، كالكائنةِ الواقعةِ بأحوازِ بلغش[2] من خارجِ الحضرةِ بالجَيْشِ المُصْحِرِ منها إلى نواحي الرّة، فأدركه من جيشِ السُلْطان المُرْصِدِ كان بحصن[3] الحمّة[4] من أَخَذَ بِكَظْمِهِ[5]، واستلحَمَ منهم فوارسُ واستُلِبَتْ لهم خيلُ وأسلحة، وورد البِشْـرُ بذلك على الباب السلطانيّ بمالَقَة فلم يكدْ خبرُ الهزيمة يستوعِبُ الاقتصاص حتى وَرَدَ النبأُ اليقينُ بثورة بلّش وانزعاج القائدِ كان بها أحمدِ بن قطبة عن القَصَبةِ، وقيامِهم بدعوةِ مَنْ بالحضرة.

وكتب بخبرِ هذه الهزيمة في غرض التسكين للجهةِ الغربيةِ فكان سبباً مستقلاً في إثارة[6] الفتنةِ بها وموجِباً كافياً لقيام ذَكْوان[7] وما ولاها. وأعدى هذا الداءُ رُنْدةَ وما يجاورُها من الجهاتِ، كما أعْدى أمْرُ بلّش شَرْقيَّ مالَقَة، فصار بها السلطانُ ومَنْ معه كالمحصورين الذين لا يَجِدُون محيصاً. إلى أن عَمَّ ذلك الهَرْجُ وعَظُمَ ذلك الخَطْبُ في انعكاسِ مرئيّات عديدةٍ تبرم في معنى

(١) ـ في الأصل: بها.

(٢) ـ لم أجد لها ذكراً في ما لديّ من المصادر الجغرافيّة، ولعلها بيش (Beas) الواقعة إلى الشمال الغربي من غرناطة، أو لعلها برقلس (Peligros) القريبة منها (الإحاطة ١ / ١٢٩، ١٣١).

(٣) ـ في الأصل: بحض.

(٤) ـ بالاسـبانية Alhama de Granada وتقـع في جنـوب غرب غرناطة، وهناك أكثر من حمة في الأندلس (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٩٢، الروض المعطار ص ٨٠، المرقبة العليا ص ٨٢).

(٥) ـ غير واضحة في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: اثار.

(٧) ـ بالاسبانية Coin وهو حصن يقع غربي مالقة (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٩٥).

التسبُّب في الإدالـةِ والـطَمَع في توقّف الحال، فتنتج نقيضَ (ص ١٠٩) المطلوب، لو تتّبعناها لخرجنا للطُول المملّ، ولله الإحاطةُ عزّ وجهه. فعَنْ غيرِ سبب واضح، (وعذرٍ ما قام، ثارَ)[1] أهلُ مالقة كافّةً مُؤْتَسين بمن سَبَقَهُمْ من أهلِ شرقيّتِهِم وغَرْبِيّتِهِم ناصبين للحربِ مُجْزئين للذمّة على ما سبق منهم في كائنةِ المعروف بابن المَوْل، إسفافاً إلى مطامعَ ينجو منها في غيرِ ضرم، ومطاوعةٍ لنظراتٍ غير صادقة في محسبة الشحم، مَنْ في موضع الورم.

فانزعج السلطانُ عنهم إلى ثغرةِ الرّة[2] ملقياً عليهم بنفْسِه وراكناً إلى حصنهم بجملته، فلقي منهم من بَذْل القِرى والاشتدادِ في الحماية والاستبصارِ في الطاعة واستهانةِ الأنْفُس والأموالِ في المناصرةِ ما ظهر خلافهُ من غيرهم وبرز عَكْسُه مِنْ سواهم. ثم انتقل من ثغرهم إلى قَصْرِ بُنيرة[3] فكانوا أُسْوةَ أهلِ الرّة في عُلى المُلْكِ وإيجابِ الحق وحمايةِ النزيلِ فمازوا بها غرّاءَ في المناقِبِ وظفروا بها قُوَّةً في المآثر، أبقتْ لهم ذِكراً في المتّسمين من الوفاء بأشرفِ الخِلال، فوقع من رضاء السلطانِ الاعتزالُ عن الأمْرِ، والانخلاعُ عن المُلْكِ، وإيثارُهُ قَصْدَ الألفة، واعتمادُه الانكفافَ عن الفتنةِ، وتحرّجُهُ من الاستمرارِ على الفُرقة، وانقيادُهُ إلى حُكْمِ الملاحَظَةِ والرقبةِ والقصرِ عن التصرّف بالاختيارِ في المالِ والمنحة، يشهَدُ استسلامُه للهلاكِ فما دونه وتفويضُه لله في النَفْسِ فما قبلها بأنه قد ذاق طَعْمَ الإيمان حقاً، ووثِقَ بالله ظنّاً ورَضِيَ بقَدَرِ الله حُكْماً وسَلَّم في الواقعِ ابتلاءً، وفَوَّضَ لله فيما أنفذه قضاءً، معترفاً بالتقصير، متنصّلا من الذنوب، مُشْفِقاً من سوء الكَسْب، موقناً بأنْ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله. واستقـرَّ بالـدارِ الكبيرةِ من الحمراءِ مُتَمَسِّكاً بصبابةٍ من مُشْرَطِ شلوبانية[4]

(١) ـ في الأصل: وعذر قام ما ثار.

(٢) ـ (Illora) وسبق ذكرها.

(٣) ـ من حصون مدينة ريّة Malaga ذكره ابن حيّان في المقتبس ٥ / ١٥٣، ١٨١.

(٤) ـ وفي الروض المعطار (ص ٣٤٣) شلوبينية، وهي في الإسبانية (Salobrena) على شاطىء البحر المتوسط بينها وبين مدينة المنكب عشرة أميال وهي تابعة لغرناطة (مشاهدات لسان الدين ص ٨٠، الروض المعطار ٣٤٣، الإحاطة ١ / ١١٢).

ومترايل[1] لقباً شمسياً وفائدة قيادية، وربما مستخلِصاً بِجَرْيِ نَفْعِها الزرعيَّ[2] مَنْ اعْتَلَقَ بحُرْمَتِهِ من مولى وحاشيةٍ وصنيعة وشاكرٍ، به بحلالِ ما تهيّأ للدائِل ما أراد مِنْ استنزالِ أصحابِ السلطانِ من حِصْنِ المتلين[3] الذين كانوا قد اتّخذوه معقلاً، وركنوا إليه مؤئلاً، واستعصَموا به ملجأً، فلم يُغْنِ عنهم من الله شيئاً، ونبذوه ذميماً أقْرَبَ ما خيّلت لهم أنفسُهُمْ أن سيحمدون عاقبةَ تخيُّرِه وتحصينه، وذلك بما كسبت الأيدي، واحتقبت الجوارح. إنّ في ذلك لعبرةً لأولي النهى. ولسانُ حالِ السلطانِ الغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ في هذه المُدّة يُنْشِدُ قولَ أبي بكر الخوارزميّ رحمه الله[4]:

الدهرُ لا يَبْقَى على حالةٍ ... لكنّه يُقْبِلُ أو يُدْبِرُ
فإنْ تَلَقّاكَ بِمَكْروهِهِ ... فاصْبِرْ فإنَّ الدهْرَ لا يَصْبِرُ

ولمّا تمّ ذلك كلُّه للسلطانِ أبي الحجاج وتمّم قَسْمَ الولاياتِ والاقطاعاتِ والفوائدِ والمنافعِ على أربابِ دولته والقائمين بمملكته، وذلك في مدةٍ من نحوِ أربعة أشهر أوّلُها أوانُ حصادِ مبكر الشعير من عام تسعة وأربعين وثمانمائة، وخاتمتها قطاف مبكر الذرة من العام لمذكور، وإذا بالوصيّ أبي الوليد المقيمِ كان بأرْضِ الحرب قد وصل إلى قنبيل[5] فنجم الخلافُ، وتواترتْ إلى جهتِهِ

(١) ـ بالاسبانية Motril ، وتقع شرقي غرناطة قريبة من شلوبانية (مشاهدات لسان الدين ص ٨١).

(٢) ـ في الأصل: الرزعلى.

(٣) ـ كذا في الأصل ولعل المقصود حصن مكلين Moclin شمال غرب غرناطة.

(٤) ـ هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الكاتب ويقال له الطبرخزي لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت ابن جرير الطبري صاحب التاريخ، توفي في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ. (انظر ترجمته في: يتيمة الدهر ٤ / ٢٢٣ ـ ٢٧٦، الوافي بالوفيات ٣ / ١٩١، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٠).

(٥) ـ بالاسبانية Cambil وهو حصن شاهق، وصفه لسان الدين في إحدى رسائله (الإحاطة ٤ / ٥٥٤) وذكره في أعمال الأعلام ص ٢٩٤، ويقع إلى الشمال من غرناطة وإلى الجنوب الشرقي من جيّان (Jaen).

الشُرّاد، وكثُرَ بالحضرةِ الإرجافُ، وساءت من المرتسِم بوزارةِ السلطان أبي الحجاج السيرة، وتطرّق منه لأرباب الجِدَةِ من التجار وغيرهم التعدّي فكان تأخيرُه عن ذلك الوظيفِ بنوعٍ من الإجماع، فأزند خبرة القيام فيه بالحقّ الفقيهُ أبو الحسن العامري، وتقدم عوضاً منه القائد أبو القاسم (ص ١١٠) بنُ يوسف ابن السرّاج، ضرورةً لا اغتباطاً، فحاول الأمورَ، وسدَّدَ الثغورَ، وبثّ العطاء في الجند، وأجْمَلَ مواعِدَ الناسِ، وتوقّفت تلك الحالُ، ونزع عن الفتنةِ الكُثْرُ ممّن اشرأبّ إليها، وعاد الرئيسُ على أدْراجِهِ إلى أعماقِ قشتالة[١] آيساً مما كان قد أشرف عليه من نُجحْ القصد، وعند ذلك تُقُبِّضُ على القائدِ أبي القاسم المذكور وعلى صاحِبِه القائدِ يوسف بن فرج بن كُماشة، وأُودِعا الجبَّ المتَّخذَ بأسطوانِ الرياض من القُصور السلطانية سجناً غثاً ومعتقلاً بدعاً، واسْتُكْثِرَ عليهما من الحَرَسَةِ والأشْراط، واستُصْفِي ما وُجِدَ لهما من خيلٍ وكراعٍ وذخيرةٍ ومتـاع وخُرْثي[٢] وسلاح، وأسرعَ باستنفارِ الجيشِ من ساعته لكبسِ القائد إبراهيم بن عبدِ البرّ بوادي آش، إذ كان الدائلُ[٣] قد ولّاه بهاقائداً، تلطّف لهم في السيرة وأحسنها فيهم، فألقى الله عليه محبّةً منهم تبادروا بها إلى الدفاع عنه عندما أنذروا بوصول[٤] هذا الجيشِ المتوهّم أنه لا يَزَعُه عن القَبْضِ عليه في قَصَبةِ وادي آش وازع[٥]، فلقوْا من الاستماتةِ في حمايتِهِ والذبِّ عنه خلافَ ما ظَنَّ لهم الموسومُ بابن علّاق أنه سيكون من إسلامه في أيْديهم والإفراج عنه لما يريدون منه، فسقط في أيديهم، وعاد الجيش كالمفلولِ عائداً باللائمة على من استنهضه بمنازلةِ هذه المدينة، صفْرَ الحقيبةِ من زادٍ وعَلُوفة، خلْوَ الكيسِ من بيضاءَ أو صفراء تُنْفَقُ في مثل هذا المهمّ. فعزم أصحابُ السلطان

(١) ـ في الأصل: فشتالة.

(٢) ـ الخُرْثي: أثاث البيت أو أردأ المتاع والغنائم (القاموس المحيط).

(٣) ـ في الأصل: المدابل.

(٤) ـ في الأصل: ندروا لوصول.

(٥) ـ في الأصل: وازاع.

أبي الحجاج في الانحفازِ بنفسه إلى معالجة ابنِ عبد البرّ قبلَ استشراءِ دائه[1] واستفحالِ[2] أمره، فاندرج في طيّ أغراضهم من غير إعمال فكرةٍ ولااستعدادٍ بقوة، فأجفل بهم خلفه في السادس والعشرين لرمضان من العام على غير تعبئةٍ ولاأُهْبةٍ مَظَّنةَ هزيمةٍ وطحنةٍ[3] وتَبِعَةٍ[4] لو وجد من يعلم على الحقيقة خبره أو يبذل في سبيل التهوّر نفسه، فقد كان الجندُ عن بكرةِ أبيهم مجمعين على إجرارِ الهزيمةِ عليه إن سمعوا بالليل أقلَّ دعقة[5] أو نفس فيهم أهلُ البلد بأدنى صيحة. ولتمام[6] ثلاث ليال من حصارها انثنى عزمُ ابن علاّق عمّا ابتدأه جملةً، وتراجع اشتدادُهُ المفرطُ ضربُه، فاحتال في مُشارَطَةِ الوزيرِ القائدِ بوادي آش وأهلِ بلده على عَدَمِ المزيد على ما بدا منهم، واستوثَقَ منهم بزَعْمِهِ برسمٍ ضمّنه شهادةَ من استصحبه من فقيهٍ وخطيب، وعاد بخُفَّي حُنَيْن من هذه الوجهة في ثاني يوم عيد الفطر من العام.

ومن ساعتئذٍ توقّفَتْ بالسلطان الغالب بالله الحالُ وتناهتْ في نَفْسِ الأمر الشدّة؛ فقد كان في ذلك الوقتِ يستثقِلُ قُدومَ الرئيسِ أبي الوليد خيفةً من استصحابِهِ إلى المريّة تحت حُكْم الدائل، فأظهرت الأقدارُ الإلهيةُ عكس ما اكتن في ظنّه وضدّ ما كان في ضميره، وقد كان كثيرٌ من حاشيته يُشيرون عليه بالتسبُّب في الخلاص ممّا كان فيه، ولو بالإِذْنِ في استدعاءِ هذا الرئيس، وإلاّ فبغيرِ ذلك مما يتوجَّهُ في هذا المعنى من الحِيَل، ويتأتّى فيه من الأسباب، فكانَ يُجيب بالامتناع من ذلك. وكأنّ أبا عليّ محمد بن عبد الله بن محمد بن

(١) ـ في الأصل: دابه.

(٢) ـ في الأصل: استحفال.

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ في الأصل غير معجمة.

(٥) ـ دعق الطريقَ: وطئه شديداً، ودعق الفرسَ: ركضها، والدعقة أيضاً الدفعة من المطر (القاموس المحيط: دعق).

(٦) ـ في الأصل: والتمام.

صالح البغدادي[1] كان قد عبّر عمّا في نفْسِه، وأجاد[2] فيه خاصّةً بقوله[3]:

ما مِحْنَـةٌ إلّا لهـا غايةٌ وفـي تَنـاهِـيهـا تَقَـضِّـيهـا
فاصْبِـرْ فإنّ السَعْيَ في دَفْعِهـا* قَبْـلَ الـتّـنـاهـي زائـدٌ فيهـا

(ص ١١١) وفي منتصفِ ذي القعدِة من العام المذكور (ما)[4] تهيأ للوزير ابنِ عبد البَرِّ وصولُ الرئيسِ أبي الوليد المذكور مستدعياً له من مستقَرِّه بقَشْتالةَ مجزوماً منه أنّه لن يُنْجيَهُ من الأُنْشُوطَةِ التي حصل فيها هو والقائدان المعتقلانِ بحيثُ ذُكِرَ إلّا هذا الرئيسُ أبو الوليد. ولثلاث[5] ليالٍ من مَقْدَمِه على وادي آش فَرَّ السلطانُ أبو الحجاج من الحمراء قاصداً للمريّة بِمَنْ لفّ لفّه من ناسِه مستصحِباً للأميرين ابنَيْ عمّيه وللقائدين المُعْتَقَلَيْن أبي القاسم بنِ السراج وأبي الحجاج بنِ كماشة، فاستقرَّ بها. وفي تلك الليلةِ بِعَيْنها انحازَ السلطانُ الغالبُ بالله عنه إلى شُلوبانية في خاصّته الأدنين منه، فاستقرّ بها. واستمرّتِ الأحوالُ بين نُجْحٍ والتياث، وتَطَاوَلَت الأيامُ بين مُواتاةٍ وامتناع، ومخائلُ السعادة تَرْجَح، ودلائلُ الإدالةِ تُسْتَوْضَح، إلى أن انعقدتْ بينَهُ وبين حافِدِه المستقِرِّ بالمريّة المجزومِ بكونها على دخن[6]. وفي أثناء ذلك نفذ القدرُ بهلاكِ المعروفِ بالأَحْسَنِ الشريف مظنّةَ هَيْج الفتنة المستبعد خمودُها مع وجودِهِ، وكانت للسلطانِ علامةٌ على اطّرادِ عادةِ الله له في ونمٍ[7] من بغَى عليه ممّن غمرتْهُ

---

(١) ـ فقيه شاعر أصله من بسطام، وتوفي سنة ٥٤٨ هـ (الوافي بالوفيات ٣ / ٣٣٣).

(٢) ـ في الأصل: وأجاب.

(٣) ـ البيتان في الوافي بالوفيات ٣ / ٣٣٣.

* ـ في الوافي: دفنها.

(٤) ـ كذا في الأصل.

(٥) ـ في الأصل: والثلاث.

(٦) ـ الدَخن: الحقد، وهدنةٌ على دَخَن هي الهدنة التي تكون القلوب فيها غير صافية (لسان العرب).

(٧) ـ الونْم: القيد.

سابغة إحسانِه من غيرِ مشاركةٍ منه بقولٍ ولا فعلٍ ولا إشارة، فعدّها من عجائب ما سنّى له اللطفُ الإلهيّ، إذ كان صيتُه قد طَبَّق الآفاق، وانكمش لها صاحبُ المريّةِ لوثوقه بعدم وفائِه مع مصطنعه ولصغْوِه إلى كُتُبِه الواردةِ عليه بمالقة في معنى الدعوةِ الجميلةِ بالتقصّي له عنها مع ما بَعْدَها من الغربيّةِ إلى جبل الفتح(١) سيْفاً وقلماً، يستبدّ بها ويتحكّم في مخفاها طعمة له كمصر لعمرو بن العاصي من معاوية، فزوى فيه لأيّام قلائلَ من مهلك هذا الشريف توجّهت الفاقرة(٢) على صاحبِ المريّة من حيث ظنّ هو وابن علاق أن قد أمِنا منها، وحصلا بمنجاةٍ عنها؛ فقد كان مذهبُ الأرْعَن ابنِ علّاق في الحَجْرِ لصاحبه والغيرة عليه والحيلولة بينه وبين من فيه مُسْكة(٣) من عقلٍ أو خَلَّةٌ من صِدْق، والمَنْع من اصطفائه لسواه أو تشريكِهِ في القيامِ بمُلْكِهِ لغيره، بحيث لم يَتْرُكْ له أحداً من قُدَماءِ خُدّامِ أبيه وحُدَثاءِ من تنخلّهم اصطناعهُ العاطلُ من كسوةٍ تُضْفى أو جوادٍ يمطو أو عارفةٍ تُسْدى أو سابغة، يرعى من ألأم المغارس وأخبث المنابت، معتقِداً أنه إذا خلا له وجهُ مخدومِه فإن رُتْبَتَهُ لديه لا تخمل، ووجاهته لا تنقض.

وكان حرصُ هذا السلطان أبي الحجاج ومستوزره ابن علاق شديداً، وجشعُهما عظيماً على حصول الأمراء في قبضة احتكامهما، ظنّاً منهما أن لا غالب لهما بعد ذلك من الناس، وأنَّ المحذورَ منهما تصيُّرُ الملك لغيره، وتمكّنُ الأمر لسواه، قد حصلت لهما الكفالةُ التامّة، والضمانُ غير المخيّر فيه على الأقدار بأن لا يكون غير ما استشرفا إليه، واشتملت أمنيتُهما عليه، ولله في طيّ الأقضية عجائب يبرزها التدبيرُ الربّاني في قوالبَ من تصرّفاتِ البشر توهم عندهم عكس المراد بها، وتخيل لديهم ضدَّ المحتوم منها. فسبحان الله العظيم. فقد كان فيما ظهر في هاتين القضيتين المظنونِ منهما لابن علاق ومخدومِه أن قد كمل مرغوبُهما، وحصل مطلوبُهما شرطا صحةٍ فيما دهمهما

---

(١) ـ جبل طارق

(٢) ـ في الأصل: الفاخرة.

(٣) ـ المُسْكة: العقل الوافر.

من الحادثة العظمى والأزْمة(1) الكبرى. فالغالب على الظنّ أن القصبة لو كانت معمورةً بخُلَصاءِ السلطان أبي الحجاج لما أقدم على البائس ابن علّاق بما أقدم عليه من الفتك به، وأن الأمراء لو لم يكونوا حاضرين عنده (ص ١١٢) لما وجد المدبر لتلك الفتكة (بمن بيع الاستقاضة منه)(2). فلا إلهَ إلّا الله ما أعْجَبَ صُنْعَ الله، وما أعْظَمَ الاعتبارَ بما يجري به حُكْمُ الله، والله غالب على أمره.

وطرق النعيُ بهذا السلطان المخفر(3) الذمّة، المكفورِ النعمة، المأتيّ عليه من مأمنه، في أواخر جمادى الأولى من عام إحدى وخمسين وثمانمائة. فظلت العقلاء مقتسمةَ الألباب، بين موعظةٍ من لواحق الغِير، وعبرةٍ في تقلّبات الزمن، وكآبةٍ من قوارعِ الدهر، ومساءةٍ من عواقب الغدر. طرق هذا النعيُ الحَضْرَةَ في ذلك التاريخ مع أول قادمٍ به، وقد استفزّه الروع، وتغلغلَ به في الكائنةِ القول، فاستبعد عليه ما نقله، وطلب بالتثبّت فيما احتمله، إذ لم يكن ممّن شاهد الواقعةَ بعينه، وإنما استند فيها لما وعاه بأُذنه. ثم ردفه ثانٍ وثالثٌ. ثم تواتر الخبرُ، فارتفع اللّبْسُ، وحصل بالقضيّةِ القَطْع. وانقسم الناس قِسْمَيْن بين مادحٍ وهاجٍ، وحامدٍ وذامّ، وغالٍ ومقصّر، ومحزونٍ ومستبشر، فقد كان ذلك السلطان أبو(4) الحجاج رحمه الله تصدُرُ عنه نفثاتٌ في باب الوعيد كَثَّرَتْ صِنْفَ الراهبِ منه والشانىء له، كما كان له من أجناس الرعايا الهافّين إلى استبدالِ الدُوَلِ والمنطوين للخاصّة على غائلة الحسد، ومن كَبَحَتْهُمْ تلك الفاقرةُ الحالّة به عن مطمح أمانيهم في الممتازين عنهم بخاصّة جاه أو رئاسة، وصاروا من الغمّ لفقدِهِ والتأسّفِ لموته بحيث يتبيّن حالُهم بأدنى مزاولة لهم. وكان رحمه الله من الاقتدار على إقامة الحجّةِ والإبانةِ عن نفسه فيما ينحو إليه

---

(1) ـ غير معجمة في الأصل.

(2) ـ ما بين القوسين هكذا في الأصل.

(3) ـ في الأصل: المحقر.

(4) ـ في الأصل: أبي.

من قصد أو يريدُ التعبير عنه من عرض بالمنزلة التي استفزّ بها ألبابَ السامعين له، والمباشرين لتصريفه لأول ما قدم عليهم. وكان له سرعةٌ في الفهم، ونفوذٌ فيْ الإدراك، وعجلةٌ في التصوّر، وبُعْدٌ عن الشرّ بظاهره، وإيثارٌ للخير بقوله، إلّا أنّه كان فيما يعتقد منه قد حَصَلَ من مطاوعةِ مستوزِرِه في هذّة عظيمة، تجاوز الله عنّا وعنه. ولا دَرَكَ[1] عَليَّ في ذمّ هذا الوزير بما كان عليه من التقصير، «فذمُّ المقصِّرِ حدٌّ من حدودِ الله»، قاله ابن شرف في حكمه[2].

وعلى عقب ذلك هيّأ الله للغالبِ بالله ـ أيّده الله ـ من اجتماعِ الكلمةِ واتفاقِ الأهواء، وائتلاف المتنافرين لديه ما نسألُ الله أن يُوزِعَنا شُكْرَ النعمة عليه، وأن يَصْرِفَ عنّا الفِتَنَ بقُدْرَتِهِ. ولم ينصرم شهر جمادى الثانية إلّا والأُلفة قد حَصَلَتْ، والفُرْقَةُ قد ارتفعت، والدولةُ الغالبية قد تجدّدت واستقرّ منها كلُّ ذي ولاية في محلّ ولايته، جعلنا الله وإيّاهُمْ ممن وعظ فنفعته الموعظة، وذُكّر فأفـادتـه الإقلاعَ عن ذُنوبه التذكرةُ، وأرشدنا بذلك التمحيص السابق إلى الاستقامة فيما نأتيه ونَذَرُهُ، وإلى الأخْذِ بالتي هي أحسن فيما نرجوه ونَحْذَرُه، لا ربَّ غيرُه، ولا مَرْجُوَّ سواه عزّ وجهه وتَقَدَّسَتْ أسماؤه.

وقد كان من أعجب ما انجلى عنه هذا التمحيصُ الشديد[3]، وأسْفَرَ عن صُبْحِهِ هذا الابتلاءُ العظيم، ما وَهَبَ الله الغالبَ بالله ـ أيّده الله ـ هذا الأمير المنصور أبا[4] عبد الله محمّد عزّ الدولة ابن السلطان أميرِ المسلمين أبي عبد الله محمد الغني بالله، ابن ابن عمّ الغالب بالله نجل[5] أمير المسلمين أبي الحجـاج يوسُف الناصر لدين الله ابن السلطان أمير المسلمين يوسف

(١) ـ الدَرْك والدَرَك: التبعة.

(٢) ـ أبو الفضل جعفر بن شرف، وقد سلفت الترجمة له.

(٣) ـ في الأصل: السديد.

(٤) ـ في الأصل: أبي.

(٥) ـ الكلمة غير واضحة في الأصل ورسمت على شكل كلمة: لحا.

المستغني بالله ابن الخلفاء النصريين(١)، أراه الله فيه قُرَّةَ العَيْن، وحصل بينهُما من المودَّةِ والرحمةِ ما يتكفّل بصلاحِ ذاتِ البَيْن، من إعزازِ نصر ملكه، ورسوخِ تأييد أمره، وشدِّ أزرِ دولته، وتوطيدِ عرشِ خلافته، وتثبيتِ (ص ١١٣) عَقْدِ إمامته، فقد وهبه الله منه أشرفَ وليّ، وأكرمَ نَجْلٍ رضيّ، وأعظمَ عَضُدٍ شديد وساعدٍ قويّ، قد جمع الله له جمالَ الصورة وبهاءَ الطلعة، وحُسْنَ الرّواء، وطلاقةَ الوجه، وحصافةَ العقل، ورجاحةَ العلم، ومتانةَ الدين، وسماحةَ الكفّ، وجـلالةَ القدْر، وشهامةَ القِلْد(٢)، واعتدالَ السيرة، وسدادَ الطريقة، وشرفَ النحيرة(٣)، وخلوصَ المودّة، وزكاءَ المحبة، من أميرٍ قد ارتدى من العَفافِ بأسبغِ رداء، واشتمل من الطهَارةِ بأجملِ لباس، وسَلَكَ من الفضلِ على أوضحِ سبيل، واهتدى من سيرةِ سَلَفِهِ الكريمِ بأقومِ دليل؛ فهو عدةٌ للمَلِكِ نفيسة، وذخيرةٌ للدولةِ شريفة، كفّ الله به عُدْوانَ تلك الفتنةِ المضطرِمَة(٤)، وكَبَحَ غُلَواءَ تلك الثورةِ الجامحة، ومدَّ الله به ظِلالَ الأمْنِ على الجزيرةِ الغريبةِ المنقطعة، وصرف عن التعلّق بالخلافِ آمالَ الفِرْقَةِ المتطلّعةِ إليه راغمة، وهيّأ الله به اجتماعَ الكلمةِ واتفاقَ الأُمّةِ المسلمةِ راضية، إلى ما حَمَلَ عنه من الكَلِّ، وأعان في قصد الجهاد في سبيلِ الله على نوائبِ الحقِّ ما ظفّره الله منه بكفّ كريم وصِهْر شريف، لا يَبْلُغُ البليغُ المشفق(٥) لأطراف الكلام، والخـطيبُ المصقع(٦) الذي يُقَرْطِسُ بذلاقةِ لسانِهِ أغراض البيان، والشاعرُ المفلقُ المستولي في إجادة القريضِ على قصب السبق، وإن بَذَلَ كلٌّ منهم جهدَهُ واستنفَدَ وُسْعَه، شأوَ التقريظِ لشرف ذاته، والتقريرِ لمحامد صفاته، والثناء المستحقّ على مناقبه، والمدحِ المستوجبِ لمكارمه، والإشادةِ بكرم خِيمِه(٧)

---

(١) ـ في الأصل: النصرين.

(٢) ـ أعطيته قِلْد امرىء: فوضته إليه (القاموس المحيط: قلد).

(٣) ـ الناقة التي تنحر (لسان العرب).

(٤) ـ في الأصل: المضطرة.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: المصنع.

(٧) ـ الخِيم: السجيّة والطبيعة (القاموس المحيط: خام).

وشرفِ مركبه، والإبانةِ عن كمالِ حلاه وزكاءِ طباعه، والإعرابِ عن طهارةِ قومِه الكرماء، والإفصاحِ بجلالةِ آبائِه الخلفاء، وتناسقِ الإمامةِ فيهم كالرمح أنبوباً على أنبوب، والوفاءِ بتعديدِ مزاياه التي انْفَرَدَ بخصائِصها الفذّة، على ما يليقُ به من طريقةٍ، ويناسبه من أسلوب. عَقَدَ له الإملاكَ السعيدَ مع عقيلةِ تِلْكِهِ، وواسطةِ سِلْكه، كُبرى بناتِه الحرائرِ الطاهرات السيّدة أمّ الفتح ـ أقرَّ الله فيها عَيْنَه، وقضى من الوفاء[1] والبنينَ فيما بين هذين الزوجيْنِ الكريميْن الشريفيْن دَيْنَه[2]؛ فتأكدّت الأواصرُ، وتشابكت الوشائج.

واستندتِ الدولةُ من هذِهِ الإمارةِ العزيزةِ إلى ركْنٍ شديد، واعتلقتْ مِن مُشايعته والانضواءِ إلى كنفِهِ بسببٍ متين، واستخلَصَهُ الغالبُ بالله ـ أيَّدَهُ الله ـ لنفسه ابناً أرضى، وحُساماً أمضى، وعُدّةً واقية، وذخيرةً صالحةً، باقية، فأوطأ عقبه الأشراف من جيشِهِ المظفّر أُسْدَ غِيل، وقدّمه في صدر كتائبِه المؤيدة بنصرِ الله لَيْثَ عرين، جاسَ لهذا العهدِ ديارَ بني الأصفر بألويته الحُمْر[3]، (فألفاهم كآسيهِمْ)[4] صفرَ الوجوه، وجلّت أوجهُ العرب لفوزها من العزّ في الدنيا والآخرة بما ترجوه، نهد إليها في جيوشٍ متثاقلةِ الوطأة، وجنود الله ممدودة منه بالنصرة تجرّ الشوكَ والمدر، وتعيدُ الكرّةَ على من كفر، وتُرْغِمُ أعداءَ الله في عُقْر الديار، وتلبسهم أثواب المذلّةِ والصَّغار، فأبْعَدَ الغارةَ إلى موسطةِ بلاد الحرب، ووالى إقامةَ الليالي ذوات[5] تباعاً في نكايةِ أحزاب الكفر، وقاد السبْيَ الذي بَعُدَ (ص ١١٤) العهدُ بمثلِه، وتطاولت[6] الأزمنةُ السالفةُ دون المشاهدةِ لبعضِه فكيف بكُلِّهِ، ونفّله الله من الغنائمِ ما لا يُحصيه العَدُّ، ولا يستوفيه

---

(١) ـ في الأصل: الوفا، ولعله قصد: الرفاء.

(٢) ـ في الأصل: دنية.

(٣) ـ في الأصل: الحجر، والصواب ما أثبتنا لما عرف عن اتخاذ بني الأحمر ألوية حمراء (انظر: الكتيبة الكامنة ٢٨٤ من أبيات لابن زمرك في مدح بني الأحمر).

(٤) ـ في الأصل: فأنقاسم كاسهم. وربما كانت: فأسقاهم كأسهم صفر الوجوه.

(٥) ـ هكذا في الأصل.

(٦) ـ في الأصل: ومطاولت.

الحَصْرُ، فصمد(١) إلى جيّان قرارةِ الكفر، وقاعدة الشرك، ومأوى الحيّاتِ من عَبَدَةِ الجبْتِ، فحلل(٢) نواحيها غارة شعواء، ودمدم على بساتينها نَسْفاً وتدميراً، واكتسح ما ألفى بأحوازها من أصنافِ الماشية، واستاقَ ما وجد في جهاتِها من الثاغيةِ والراغية، ولاذ منه الكَفَرَةُ بأسوارِهم، واستعاذوا بجدران(٣) ديارِهم ينظرون على عَيْنِ الحسرة في أموالهم وقد نَفَّلَها الله المسلمين، وفي حدائِقِهم الملتفّة وقد حطمتها أيدي المؤمنين، وعاد يجرُّ الدنيا خَلْفَهُ عزة، ويملأ العيونَ من المسرّةِ قوة.

وكـذلـك ما تهيّأ له في غَزاةِ بيّانة(٤) من قواعدِ الطاغوت الواغلةِ في بحبوحة(٥) التثليث، فقد كانت أيضاً غَزاةً حافلة ومَنْقَبَةً خالدةً سنّى الله فيها من ظهورِ الإسلام وكَبْحِ الإلحاد ما شرح الله به الصدورَ وأقرَّ به العيونَ. ولله الحمد.

ثم كانت في هذه الغَزاةِ التعقيبةُ العجيبةُ إلى حِصْنِ أنْتَقيرة(٦) الملعونة، على ظَنٍّ من أهلها المشائيم أن قد حصلوا بنجاة من معرّة الجيش وسلِموا بافتدائهم بما لحق بيّانة الماردة من مضرّة الفتك؛ فما شعروا إلاّ وأسرابُ الخيل منصبّة لحربهم، وعقبانُ الأبطال منقضّة(٧) عليهم، وإمارته العليّةُ قد أطلّتْ عليهم إطلالَ الأسدِ الحاذر والعُقابِ الكاسِر(٨). فوقع منهم البَهْتُ، وشملهم الخوف، وصار أمرهم عليهم غمّة، ولحقهم الروعُ بغتة، فاحتجبوا في حجرة

---

(١) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: فصعد.

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها تصحيف لكلمة: فملأ.

(٣) ـ في الأصل: جدرات.

(٤) ـ بالاسبانية Baena جنوب شرق قرطبة بينها وبين قبرة (Cabra) عشرة أميال (الادريسي ١٧٤، ٢٠٥، الروض المعطار ١١٩).

(٥) ـ في الأصل: بحبوبة.

(٦) ـ بالاسبانية (Antequera) وتقع شمال مالقة وتبعد عنها ٥٩ كيلو متراً. (مشاهدات لسان الدين ص ٩٤).

(٧) ـ في الأصل: منفضّة.

(٨) ـ في الأصل: الكافر.

أسرابهم المتّخذةِ تحت الأرض، ولاذوا بأنفاقِهم المعتدّةِ لمثل هذه الحال؛ ثم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً، ولا وَقَتْهُمْ مما حذروا سوءاً، فاستُخْرِجوا منها استخراجَ الضِباب المحترشة، واستُخْلِصوا من أربابها المتعددةِ استخلاصَ اليرابيع المُنْجَحرةِ، واستطعم منهم باكورة السعير ما طاح في سبيل الامتناع بنفقه، وقد أخذت النارُ منه مأخذَها، واقتِيد منهم في حَبْل الإسار زهاءُ الخمسين من شِرارها وأخابثها.

ثم كانت الوجهةُ الحميدةُ الأثَر، المثبتةُ في صحف الشَرَفِ، المعدودةُ في الغزوات الفذّة من الغرر، إلى الجهة الشرقيّة من الوطن على الثغر الأعلى من ذوات أُشْكَر[1] المغتبط بذخرته المرتجعة للاسلام، إلى البسيط الوافرِ القطين، المستبحر العمارة، المستكمل السارحة، المتعدّد السائمة، المتطامِن السرح، المتوسّع المراعي، الممتدّ الكروم، المنتشر الزروع، المتمكّن في الأرض المعروفة بالمرقجادة[2] المشهورة بالنسبة[3] بالانضياف إلى نظر الطاغية المدعو في لسان الافرنجة بالقند اشطبل[4] ـ قصمه الله ـ بما ترقّى إليه من الآن في خططهم الديانيّة بميش سنتياغه[5]، إذ هذه الأرضُ مما تدخلُ تحتَ حُكْمِهِ، وترجِعُ سيْفاً وقَلماً إلى نظره في أعدادٍ من أمثالِها متكاثرة، جرت عادتُهم بأنّها مما ينطلِقُ عليها لحظُ مقيمِ هذا الوظيف الدينيّ عندهم ـ قاتلهم الله أنّى يُؤفَكون. وهذا البسيطُ هو المسمّى بالمدينة[6]، فاستُبيحت بيضتُها، واكتُسِحَتْ

---

(١) ـ بالإسبانية (Huescar) وتقع إلى الشمال الشرقي من غرناطة، وإلى الشمال من بسطة (Baza) (انظر: مشاهدات لسان الدين ص ٨٧).

(٢) ـ لعل المقصود هنا «مرج قيجاطة» (Quesada) الواقع غربي اشكر (Huescar) وإلى الشمال الغربي من بسطة (Baza) . (الروض المعطار ٤٨٨).

(٣) ـ هكذا في الأصل.

(٤) ـ بالاسبانية (Condestable) ذكره سيكو دي لوثينا في كتابه عن محمد التاسع ص ٨٠، وغيرها.

(٥) ـ بالإسبانية (Santiago) وتقع إلى الشمال من أشكر، وإلى الشمال الشرقي من جيان، وقد وردت في الأصل (سنتيافه)

(٦) ـ هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن مكينة (Magina) بين جيان (Jaen) وقيجاطة (Quesada)

ماشِيَتَها، واستِيقَ سَبْيُها، وهو المتجاوزُ لشَطْرِ الألف بالأعدادِ الوافرة. وامتلأت الأيدي من غنائمها المتوافرة. (ص ١١٥) وكان ممّا نفل الله فيها صليبُ ديانتهم الخبيثة، الثقيلُ الزنة، اللُجَيْنيُّ الصيغة، المشرّب (بحكم صنعته بمتلوّن)[١] الزجاج البهيّ الحلية، إلى غير ذلك مما سلبه الله الكفرَ، وخوّله الإيمانَ، ورُزىء فيه الشرك، وفاز بشرفه الإسلام.

ولم تَكَدْ الخيلُ تبلغُ الراحةَ ولا الجيادُ يحصل لها الجَمام[٢]، إلاّ وهِمَّتُهُ العاليةُ قد طمحت إلى ناهدٍ[٣] أهمّ، واستشْرَفَتْ من اقتناصِ العزّ إلى ما هو أكملُ وأتمّ. فنهد الجيشُ المنصور، منزاحَ العلل، موفّى الآمال، مستوعب الأغراض، إلى مدينةِ ابن السليم[٤] من الجهةِ الغربية قاصداً في ذلك المقابلَة من الناب البديع[٥] في الغراتين[٦] بين مدينتي شرق بلاد الحرب وغربها. فهنالك نفّله الله المغانِمَ التي جاوزت عشرين ألف رأسٍ من البقر ونحوها من الغنم، مما لم يُسْمَع في هذه الأزمنةِ بمثله، مع ما اكتنفت ذلك من رِعاءِ تلك الأنعام، والإبعاد في أرض العدوّ إلى مواضع لم تطأها الجيوشُ قبله، ولا راعَ أهْلَها الغِرار[٧]، وَهَلُمَّ جرّاً. فقد أذلّ الله الشركَ بعزائمه الماضية، حتى اذّاعنوا في السلم، رغبةً فيه، وحرصاً عليه، والله من ورائهم محيط، وهو على إتعاس[٨]

---

(١) ـ ما بين القوسين جاءت في الأصل (محكم صنعته يمثلون).

(٢) ـ جمّ الفرسُ جَماماً: ترك الضراب فتجمّع ماؤه، وجَمّ جمّاً وجَماماً: تُرِكَ فلم يُرْكَب فعفا من تعبه (القاموس المحيط: جم).

(٣) ـ الناهد: الشيء المرتفع، ولعلها تصحيف لـ «ما هو».

(٤) ـ بالإسبانية (Benzalema) من كورة شذونة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى محمد بن السليم القاضي (البيان المغرب ٢ / ١٣٥).

(٥) ـ لم أجدها في المصادر التي وقفت عليها.

(٦) ـ لم أجدها فيما بين يدي من المصادر.

(٧) ـ الغِرار: حدُّ الرمح والسهم والسيف (القاموس المحيط: غرّ).

(٨) ـ في الأصل: أنفاس.

جَدّهم قدير. وهذه الموهبةُ المُخْتَتَمُ بمِنّتها ذلك التمحيص العظيم، من أعظم المواهب، ومن أجزلِ المكارم. جعله الله من الشاكرين لنعمه، المثنين بها عليه، إنه وليّ ذلك.

تتميم

لا يرجِّحُ النظرُ آكَدَ من هذا المحلّ للاستكثار من حمدِ الله، وأن يكون التلفّظ به هجّيرى[1] الألْسُن، والتفكّر في مدلولِهِ نُصْبَ الأعْيُن. ويتبيّن هذا[2] بأنّ الموضعَ موضعُ إنعامٍ جسيمٍ، وفضل متسوَّغٍ من ذي الفضل العظيم. ومحصولُ هذه الصورةِ إنما هو طروقُ ابتلاء، ثم الإدالةُ منه بمتوالي الآلاء. فعلى أي فرضٍ يقصـر في القضيّة حمـد الله؟ أعَلَى التدارك والإقالةِ من النِّقْمة؟!! أم على الامتنانِ بما أجْزَلَ من الموهبةِ وأتَمَّ من النِعْمة؟! أم على اللطف في كوْنِ التمحيصِ مما جعله الله لعبده في معرض التذكرةِ والموعظة؟! أم على التنبيهِ الذي أعقبه الرفقُ الموجبُ لاعتبارِ الأنْفُسِ اليَقِظة؟! فلو أنّ الأنفاسَ المتردّدةَ، والأوقاتَ المتجدّدة، نطقت بحمدِ الله، بأزكى ما لديه من المحامد، وأقربها إلى مرضاتِه بحسب الشاكرِ الحامِد، لما بلغ من ذلك مِعْشَارَ المِعْشَار، ولما تُنوهي من ذلك إلى حظّ يتبع أو مقدار. كما قال شمسُ الدين أبو المكارم بن عبد السلام بن محمود:

لو كنـتُ ألـفَ عامٍ في سَجـدةٍ لربّـي
شُكـراً لِفَضْـلِ يَومٍ لم أقْضِ بالتمـامِ
الـعـامُ ألـفُ شَهْـرٍ والـشَهْـرُ ألْفُ يَوْمٍ
والـيَوْمُ ألْـفُ حينٍ والـحينُ ألـفُ عامِ

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله ثم الحمدُ لله، فهو المحمودُ بكلّ لسان، وهو المحمودُ بما أوْلى من جود، وأسْبغ من إحسان، وإليه نضرعُ أن يوفّقنا بحمدهِ بتوفيق من تحقّق بمعرفته، واستوعبَ الرُشْدَ بما قدّس من ذاتِه وعظّم من اسمه ونزّه من صفته

تمّ المجلد الأوّل بعون الله
ويليه المجلّد الثاني

(١) ـ الهجّيرى. الدأب والشأن (القاموس المحيط: هجر).

(٢) ـ هكذا في الأصل، ولعلها: ويتبين من هذا.